روائع من أقوال الرسول

صلى الله عليه وسلم

«دراسات لغوية وفكرية وأدبية»

تأليف

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم

دمشق

عبد الرحمن الميداني

روائع من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم

دار القلم

دمشق

روائع
من أقوال الرسول ﷺ
صلى الله عليه وسلم

« دراسات أدبيّة ولغويّة وفكريّة »

تأليف
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

الطبعة السادسة

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة : ٢١٤٦٣ - ص.ب : ٢٨٩٥ - هاتف : ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

روائع

من أقوال الرسول

صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

منقحة ومزيدة إلى نحو الضعف

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وقائد الغرّ المحجّلين، وعلى آله وصحبه وسلَّم، وبعد:

فإنَّ كثيرين من الباحثين وأهل الفكر سرَّتهم وأعجبتهم خطَّتي التي درست بموجبها طائفة من أقوال الرسول ﷺ، بعنوان: (روائع من أقوال الرسول ﷺ - دراسات لغوية وفكرية وأدبية) وطبعتها طبعة أولى في عام (١٣٩١) هجرية، ثم طبعة ثانية في سنة (١٤٠٣ هجرية ١٩٨٣ م) وكانت في حدود عشرة أحاديث انتقيتها من كتب السنة من صحاح الأحاديث أو حسنها. ثم طبعةً ثالثة في عام (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م) أضفت إليها دراسة ثلاثة أحاديث أخرى من أُمَّهات الأحاديث النبويَّة.

ثمَّ طلب مني بعض الإخوة الناصحين وفي مقدمتهم ناشر كتبي الأستاذ (محمد علي دولة) أحسن الله إليه، أن أضيف إليها دراسة طائفة أخرى من الأحاديث، حتى يتكوَّن من جملتها سفْر مناسب ينتفع منه إن شاء الله راغبو تفهُّم أحاديث رسول الله ﷺ وفق الخطَّة التي انتهجتُها في هذه الدراسة.

فانتقيت اثْنَي عشر حديثاً أخرى، وكتبتُ حولها دراسة وفق الخطَّة نفسها، فبلغ مجموع الأحاديث خمسة وعشرين حديثاً.

وإنِّي إذْ أُقدِّمها لقرَّاء العربية من راغبي تفهُّم أحاديث من آتاه الله جوامع الكلم وفصل الخطاب، وجعله أفضل المرسلين، وأعطاه الشفاعة يوم الدين، أسأل

الله عزَّ وجلَّ أن ينفع بها، ويجعلها خالصة لوجهه الكريم، ويكتب لها القبول في السماوات والأرض، إنَّه سميع مجيب.

مكة المكرَّمة في الثالث من شهر رجب من سنة ١٤٠٦ هجرية و ١٣/ ٣/ ١٩٨٦ ميلادية..

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

مقدّمة الطّبعة الأولى

الحمد لله والشكر له، وصلاة الله وسلامه على نبيِّه محمد، الذي اصطفاه برسالته العامة الشاملة خاتمة رسالاته للناس، وحباه من فضله الهدى والحكمة، وآتاه جوامع الكلم وفصل الخطاب، وأدّبه بتربيته فأحسن تأديبه، فكانت أقواله نصوصاً رائعة في البلاغة وفي بيان الدين، وكانت أعماله تبياناً للصراط المستقيم، وكانت أخلاقه أمثلة عليا لكل خلُق كريم، وكانت إقراراته حجة للمؤمنين.

وبعد فهذه مختارات من الأحاديث النبوية الشريفة، اخترتها للدراسة الأدبية واللغوية والفكرية، لطلاب أقسام اللغة العربية الجامعية في المملكة العربية السعودية، أتبعت كلّ حديث منها بخلاصة لما ألقيته على الطلبة من محاضرات في هذه المادة، مما فتح الله به من توضيح لما تضمنه من لغة وأدب وهدي، حسب المقدار الذي يناسب مستوى الطلبة بشكل عام، والله أسأل أن ينفعني بها علماً وعملاً، وأن ينفع بها قارئيها كذلك، وأن يصلح أحوال المسلمين جميعاً، حتى يتخذوا رسولهم صلوات الله عليه قدوة صالحةً، وأسوة حسنة، يترسَّمون خطاه، ويعملون بهداه، إنه كريم مجيب.

مكة المكرمة في جمادى الأولى ١٣٩١ هـ.

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

خطّة الدّراسة

على دارس أي نصٍّ من أقوال الرسول المختارة للدراسة الأدبية واللغوية والفكرية أن ينظر في عدَّة جوانب منه.

الجانب الأول:

دراسة المفردات التي اشتمل عليها النص دراسة لغوية علمية معجميَّة.

وتتحقق هذه الدراسة بالرجوع إلى أمَّهات المعاجم اللغوية، والنظر في مختلف معاني الكلمة واستعمالاتها الحقيقية والمجازية في لغة العرب، ثم التبصُّر بمعنى الحديث بشكل عام، واختيار المعنى اللغويّ الملائم لموضع الكلمة في الحديث.

ولذلك يحسن أن يوضع لهذه الدراسة فقرة بعنوان: (اللغة والمعنى المراد).

ومن الواجب لبيان المعنى المراد النظر فيما قاله شراح الحديث من أهل العلم، إذا كان لهم في ذلك شيء.

وعلى الباحث أيضاً في المعنى المراد من الكلمة في الحديث أن يكون ملماً بمفاهيم الشريعة الإسلامية بوجه عام، وفي أدنى الأحوال ينبغي أن يكون ملماً بالمفاهيم المتعلقة بالموضوع الذي يشتمل عليه الحديث، ومطلعاً على النصوص الإسلامية الأخرى، حتى لا يذهب إلى مفهومٍ خاطىءٍ وهو يحسب أنه يحسن فهماً واستنباطاً.

فربما التزم دارس حديث من الأحاديث النبوية مفهوماً خاطئاً، أخذه من ظاهر النص، ولو أنه رجع إلى نصوص أخرى وإلى مفاهيم الشريعة الإسلامية بوجه عام لتبينَّ له فساد ما ذهب إليه في تفسير المعنى المراد من الكلمة، ولكان له رأي آخر ربما يكون مناقضاً لرأيه الأول.

ومن أجل ذلك كان لزاماً عليه أن يكون على مستوى الباحث العلمي المحقق، فتحرير المعنى المراد من الكلمة في النصّ هو في غاية الأهميَّة لتفهُّم دلالته، ومعرفة مقاصده.

الجانب الثاني:

التبصُّر بمعنى الحديث بشكل عام، وذلك بإدراك المراد منه، وفهم العلاقة الفكرية بين مفرداته وجمله.

ويلحق بدراسة هذا الجانب ما يتعلق بالنص من إعراب نحويّ، قد تختلف فيه الوجوه مع اختلاف المعاني التي يحتمل أن تكون مرادة من النص، ويلحق به أيضاً بعض المسائل الصرفية.

والدراسة النحويَّة والصرفية للأحاديث النبوية تتيح للدارس مجالاً تطبيقياً جيِّداً لمعلوماته في قواعد اللغة العربية، وتهيِّىء له فرصة طيبة لتمكين هذه القواعد في نفسه، حتى تصبح ملكة راسخة لديه.

ولذلك يحسن بيان معاني النص بشكل إجمالي مقترنٍ بعرض الوجوه الإعرابية والمهمات الصرفية، ذات الأثر في مفاهيم النص.

بيد أن تنسيق العمل وتفصيله مما قد يرجِّح للدارس أن يفرد مسائل القواعد العربية بفقرة خاصة، ويفرد بيان مجمل المعنى بفقرة أخرى، وربما يكون الربط بينهما أكثر فائدة، وأقرب لاستبانة المعنى.

الجانب الثالث:

التبصُّر بالأسلوب البياني المختار في الحديث لتحقيق الهدف منه.

فمن المعلوم أن المتكلم الحكيم لا بد أن يكون ذا هدف من كلامه، وللوصول إلى الهدف المقصود من القول أساليب بيانية كثيرة.

ولكل هدف أساليب تناسبه، فما يصلح للحماسة لا يصلح في مجال الإقناع، وما يحلو في الخطابة لا يحسن في مقام التعزية، ولا يصلح في تحديد مواد قانونية وبيان أحكام تشريعية، وما يحسن في الجدل لا يحسن في مقام الاعتذار، وما يلائم بثّ الوجد، قد لا يلائم استجداء الرفد، وما يناسب المديح قد لا يناسب الهجاء، وهكذا يحسّ البليغ الأديب بوجوه التلاؤم أو عدم التلاؤم بين أساليب الكلام وبين الأهداف منه، فيتحرى أفضل الأساليب ملاءمة للهدف الذي يقصده من كلامه، ولا غرو أن بعض الأساليب الملائمة للهدف أكثر ملاءمة وأعظم تأثيراً من بعض.

ولكلّ صنف من أصناف المخاطبين، ولكل حالٍ من أحوالهم الفكرية والنفسية والاجتماعية، أساليب ملائمة، وأساليب غير ملائمة، وعلى المتكلم البليغ أن ينظر في صنف من يريد توجيه كلامه إليه، وفي حالته الفكرية والنفسية والاجتماعية، ويحسن اختيار الأسلوب الكلامي الذي يلائمه ويؤثر فيه، فرداً كان أو جماعة.

فمن أصناف الناس عامة وخاصة، وجاهلون وعلماء، وأغبياء وأذكياء، ودهماء وأمراء، وبداة جفاة ومتحضرون، وأهل حلم وعقل، وأهل خفة وطيش، ومنهم من يُملَك من طريق عاطفته ومنهم من يُملَك من طريق عقله، وهكذا تختلف أصناف الناس اختلافاً كثيراً، ولكل صنف منهم أساليب من القول تلائمه، وتكون أكثر تأثيراً فيه من أساليب أخرى.

ونظير اختلاف أصناف الناس اختلاف أحوالهم الفكرية والنفسية والاجتماعية، فما يلائم الإنسان وهو هادىء الفكر قد لا يلائمه وهو مشوش الفكر مضطربه وما يلائمه وهو في حالة الرضىٰ قد لا يلائمه وهو في حالة الغضب، وما يلائمه وهو فقير ذليل قد لا يلائمه وهو في سعةٍ وعزّ، وما يصلح له من الخطاب وهو وحده قد لا يصلح له وهو بين الناس، وهكذا إلى

سائر اختلاف الأحوال، ولكل حالٍ أساليب من القول مناسبة، وبعضها أكثر مناسبة وتأثيراً من بعض.

وفي هذا المجال الذي تختلف فيه أهداف الكلام، وتختلف فيه أصناف المخاطبين، وتختلف فيه أحوالهم، تتفاوت مراتب البلغاء والبيانيين.

ولدى دراسة أي نصٍّ بياني رفيع لا بد من إمعان النظر في الهدف من القول، وفي وضع المخاطب به، وفي حالته الفكرية والنفسية والاجتماعية، لاستبانة مستواه البياني.

ولتقريب فكرة اختلاف الأساليب البيانية التي يُتَوَخَّى منها تحقيق الهدف، ويُراعى فيها أوضاع المخاطبين وأحوالهم نضرب المثال التالي:

نضع في هذا المثال مطلباً من المطالب التي قد يراد الإعلام بها، بغية تحقيقها ثم ننظر في طائفة من الأساليب الكلامية التي يمكن أن يتوصَّل بها إلى الإعلام المطلوب.

وهنا لا بدَّ أن نرى من الأساليب ما هو ساذج صريح، يتناول الطلب مباشرة، ثم نرى من الأساليب ما يدل على المطلوب دلالة غير مباشرة، ويُعتمد فيها على ذكاء المخاطب وقدرته على إدراك المطلوب، من خلال إشارات القول. ومن المسلَّم به أنه كلما كان المخاطب أكثر ذكاءً، ورغبة بتلبية الطلب، كان إخفاء الإشارة إلى الطلب في أسلوب القول الدَّال عليه لدى مخاطبته أعلى منزلةً من الناحية البيـانية وأكثر بلاغة، هذا في غير النصوص المراد منها تثبيت أحكام بعيدة عن الاحتمال الذي قد يفهم منه غير المراد.

وهنا تتكاثر الأساليب التي تشير في خفاء إلى المطلوب، وبعضُها أرقَى من بعض، أو أعذب وأحلى، أو أبدع أو أكثر تأثيراً.

ولنفرض أن عدداً من الناس كل واحد منهم يريد الحصول على كأس

ماء يروي ظمأه، وهم متفاوتون في قدراتهم البيانية، وحاول كلّ واحد منهم الإعلام بما يريد.

أما الساذج منهم فيأمر أمراً مباشراً بإحضار كأس الماء الذي يريد، بطريقة لا لين فيها ولا تطرية ولا حيلة، وقد يكون هذا الأسلوب هو الأبلغ في مخاطبة بعض الناس، وفي بعض الأوضاع والأحوال، لا سيما في طلب الكبير من الصغير جدًّاً، فالأسلوب البياني الأبلغ حينئذ هو الطلب بالأمر المباشر.

وترتقي من فوق الأمر المباشر الجافّ أساليب الإعلام بالطلب. فيأتي أسلوب الطلب المقترن بما يشعر بتكريم المخاطب، ومن أمثلة ذلك: (من فضلك أعطني كأس ماء).

ثم يأتي أسلوب الشكر على تحقيق المطلوب قبل تحقيقه، ومن أمثلته: (أشكرك على كأس الماء الذي ستقدمه لي).

ثم يأتي أسلوب التلميح والتعريض، ولهذا الأسلوب صور كثيرة، ودرجات بعضها أرقى وأعذب من بعض، ومن أمثلة هذا الأسلوب: (ماؤكم عذب لا يشبع منه الشاربون) أو (الحر شديد يورث الظمأ) أو (طعامكم طيب لذيذ أكثرنا منه فألهب الأكباد) وهكذا من أمثلة المعاريض التي لا تحصر.

ألسنا نلاحظ أن الهدف المطلوب تحقيقه واحد في كل الأساليب السابقة، إلاَّ أن الأساليب البيانية للإعلام بالهدف قد تفاوتت تفاوتاً كثيراً.

ومع تفاوت الأساليب البيانية، وارتقاء بعضها على بعض، نؤكد أنه ربما كان الأدنى منها أصلح مع بعض المخاطبين، أو في أوضاعٍ وأحوال خاصة، من الأساليب التي هي أرقى، وعندئذ يكون الأدنى في أسلوبه البياني أبلغ لتحقيق الهدف.

ومن أجل ذلك لا بد من أن ننظر إلى الأسلوب البيانيّ ومرتبته من جهة، وإلى ما يقتضيه الهدف ووضع المخاطب وحاله من جهة أخرى.

ومن هذا يتبين لنا أن الأساليب البيانية تختلف أنواعها اختلافاً كثيراً، وأن الأهداف وأوضاع المخاطبين وأحوالهم تختلف أيضاً اختلافاً كثيراً، وأن البليغ حقاً هو الذي يحسن الملاءمة بين أسلوبه البياني، وبين الهدف الذي يقصده، ووضع المخاطب الذي يوجه إليه كلامه، وحاله التي هو عليها.

ونظرة في مختلف الأساليب البيانية تجعلنا نمرّ على أسلوب العرض المباشر الجاف، فأسلوب العرض المباشر المغلَّف بما يلطفه ويخفف جفافه، ونمرّ على الأسلوب الساذج البسيط، فما هو قريب منه.

وقد يلطف العرض المباشر التشبيه والمحسنات اللفظية، ودعم الخبر بالمؤكدات والشواهد، ودعم الطلب بالمبررات والترغيب والترهيب.

ثم نمرّ على أساليب العرض غير المباشر، التي يدخل فيها التعريض والتلميح والمجاز والكناية والاستعارة، والقصة وضرب الأمثال، وترك صيغ الطلب إلى صيغ الخبر المراد منها الطلب، إلى غير ذلك من الأساليب البيانية الكثيرة التي لا يُعرض فيها المطلوب بشكل مباشر، وقد يقترن أسلوب العرض غير المباشر بما يؤكد الخبر الذي تضمنه الكلام، أو بما يحرّض على تحقيق المطلوب فيه، كالترغيب والترهيب.

وأصحاب الذوق البياني الرفيع يحسنون استخدام الفنون البلاغية التي يذكرها علماء البلاغة، وفنوناً أخرى بيانية لم يذكروها، مما هو مستعمل عند البلغاء، وفنوناً أخرى يبتكرونها، فالفنون البيانية لا تحصر، والفكر الإنساني مؤهل لأن يبتكر فيها بدائع وروائع جديدة، تهديه إليها خصائص الإبداع الفني، التي وهبها الله للإنسان.

وفي ختام معالجة هذا الجانب أقول: إن على المتبصِّر في الأسلوب البيانيّ المختار لتحقيق الهدف من النص الذي يدرسه أن يمعن النظر في الأمور التالية:

١ ـ الهدف العام من النص.

٢ ـ وضع المخاطب وحالته الفكرية والنفسية والاجتماعية.

٣ ـ المضمون الفكريّ للكلام، فلكل مضمون فكريّ ما يلائمه من أساليب القول.

٤ ـ المناخ النفسي العام الذي أُلقي فيه النص، فالمناخات النفسية كثيرة ولكل منها أسلوب بياني، يلائمه. ومن أمثلة المناخات النفسية: المناخ الخطابي. المناخ الحربي. المناخ العاطفي. مناخ السفر. مناخ الحضر. مناخ الخوف. مناخ الطمع. مناخ القلق. مناخ الهدوء والسكينة. مناخ الغضب. مناخ الرضا. مناخ التربية والتعليم. مناخ الموعظة والإرشاد. مناخ الخصومة والجدل. مناخ الطلب والاستجداء، وهكذا إلى مناخات كثيرة أخرى.

فلدى إلقاء هذه النظرة الشاملة بإمعان وعمق، مع ذوق أدبيّ راق، يستطيع الباحث الأديب أن يعطي الأسلوب البياني المختار لتحقيق الهدف من النص الموضوع تحت الدراسة قيمته البيانية الصحيحة، تقريظاً أو نقداً، ومن دون هذه النظرة الشاملة تكون الدراسة ناقصة قاصرة، لا تعطي صورة صحيحة عن الحقيقة والواقع، ومستوى النص من الناحية البيانية.

الجانب الرابع:

التبصُّر في الوجوه البلاغية التي تضمَّنها نص الحديث.

ودراسة هذا الجانب البلاغي تتيح للدارس مجالاً تطبيقياً جيداً لمعلوماته البلاغية، وتهيِّء له فرصة طيبة لتمكين قواعد علوم المعاني والبيان والبديع في نفسه، حتى تصبح قواعد هذه العلوم بالمران التطبيقي إيجابية مؤثِّرة، تظهر ثمراتها البديعة فيما ينتج عنه من أدب نثريّ أو شعري.

فمن شأن دراسة النصوص البليغة، ذات البيان الرفيع أن تمنح دارسها ببصرٍ وإمعان ملكة الذوق البيانيّ الرفيع، والإحساس بمواطن الجمال الفنِّي،

والقدرة على النقد الصحيح، ثم القدرة على المحاكاة، فالإبداع، وفق الخصائص الإبداعية الفطرية التي لديه.

الجانب الخامس:

الشرح الأدبي والفكري العام لنص الحديث المختار للدراسة الأدبية.

ويراعى في الشرح الأدبي العام بسط أفكار النص، وبيان تسلسلها، وترتيب بعضها على بعض.

ويلاحظ في الشرح أيضاً إبراز مدى تحقيق أسلوبه المختار للهدف المقصود، وكشف الروائع الفكرية، والبيانية، والتربوية، التي اشتمل عليها.

كل ذلك في قالب أدبي رشيق، لا تكلُّف فيه ولا تنطع.

وينبغي العناية بإبراز روائع نص الحديث، قبل الانسياق وراء عواطف الإجلال والإعظام لبلاغة الرسول صلوات الله عليه التي تشتمل عليها أقواله، وليكن الشرح الأدبي للجوانب البيانية التي اشتمل عليها النص هو الحقيقة الناطقة بالثناء العظيم على البيان النبوي الرفيع، والصورة الجميلة المعرِّفة بشخصية الرسول من خلال الأحاديث المنسوبة إليه.

الجانب السادس:

وفي الختام يحسن تخصيص فقرة لتلخيص الأفكار والمبادىء والأحكام التي تستفاد من الحديث، تحت عنوان: (مما يستفاد من الحديث)، وذلك لإبراز الحصيلة الفكرية التي يهدف إليها النص بصفة أساسية أو بصفة عارضة، وليكون هذا التلخيص أدعى لترسيخها في الفكر، وأفضل لاستذكارها عند الحاجة.

هذه هي الخطة العامَّة التي وضعتها بين يدي دراستي الأدبية واللغوية والفكرية للأحاديث النبوية، وقد حاولت التزام الكثير منها في دراسة هذه المجموعة التي اخترتها من صحاح السنة لهذا النوع من الدراسة.

وإذ أقدم للقراء هذه المجموعة اليسيرة التي كنت ألقيتها على طلاب جامعيين في بعض أقسام اللغة العربية الجامعية، فإنني أعتبرها نموذجاً لهذا النوع من الدراسة، وأرجو أن ييسِّر الله لي العمل في مختارات أخرى من السنّة النبوية، حتى تغدو سفراً مشتملاً على ألوان مختلفة من بلاغة رسول الله محمد صلوات الله وسلاماته عليه.

الحديث الأول

عَنْ أَبِي عَمْرٍو جَرِيرِ بْنِ عَبْدِالله البَجَلِّي رَضيَ الله عَنْهُ قَالَ:

كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَجَاءَهُ قَوْمٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [١ ـ النساء: ٤].

والآيَةَ الَّتي في الْحَشْرِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ. إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٨ ـ الحشر: ٥٩].

«تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ

عَجَزَتْ. قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

رواه مسلم في باب الحث على الصدقة

أ ـ ترجمة راوي الحديث (جرير بن عبد الله الْبَجَلِي):

١ ـ هو أبو عمرو جرير بن عبدالله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثَعْلَبَة بن جُشَم بن عُويْف الْبَجَلِيّ، نسبة إلى بَجِيلة قبيلة من اليمن، وهذه النسبة جارية على القياس، لأنَّ قياس النسبة إلى فعيلة فَعَلِيّ بفتح الفاء والعين.

٢ ـ كان إسلامه بعد نزول سورة «المائدة» في السنة التي توفِّي فيها النبيّ ﷺ.

٣ ـ قال جرير: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلاَّ أبتسم.

٤ ـ قال عبد الملك بن عمير: رأيت جرير بن عبدالله وكأنَّ وجهه شِقَّةُ قمر.

٥ ـ قال جرير: بايعت رسول الله ﷺ على السَّمْع والطاعة وأن أنْصح لكلّ مسلم.

٦ ـ بعثه رسول الله ﷺ إلى ذي الْكَلَاع[١]، وهو مَلِكٌ حِمْيرِيٌّ من ملوك اليمن من الأذواء، يدعوه إلى الإسلام.

(١) سُمّي ذا الْكَلَاع، لأنَّهم تكلَّعوا على يديه، أي: تجمَّعوا، فالتكَلُّع هو التحالف والتجمّع، لغة يمانية.

٧ ـ كان كريماً في قومه، فعن أبي هريرة أنَّ جرير بن عبدالله البجليّ جاء إلى النبي ﷺ وهو في بيت، والبيت مملوء بالناس، فلم يجد مجلساً، فرمى إليه رسول الله ﷺ بإزاره أو بردائه، وقال له: «اجلس على هذا» فأخذه وقبَّله، وضمَّه إليه، وقال: أكرمك الله يا رسول الله كما أكرمتني. فقال رسول الله ﷺ: «إذَا أتَاكم كَرِيمُ قومٍ فأكرموه».

٨ ـ قال جرير: قال لي رسول الله ﷺ: «ألَا تُرِيحُنِي من ذِي الخَلَصَة؟»[1]. قلت: يا رسول الله، إنِّي رجُلٌ لا أثبت على الخيل، فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري، فقال: «اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، واجْعَلْهُ هَادياً مَهْدِيّاً».

قال: جرير: فما سقطتُ عن فرسي بعد.

عن حياة الصحابة: جمعاً ممَّا أخرجه الطبراني وابن أبي شيبة

٩ ـ قال له عمر بن الخطاب يوماً: يرحمك الله، نِعْمَ السيِّد كنتَ في الجاهلية، ونِعْمَ السيِّد أنت في الإسلام.

١٠ ـ قال أنس بن مالك: كان جَرِيرٌ معي في سفر، فكان يخدمني فقال: إنِّي رأيتُ الأنصار تصنَعُ برسول الله ﷺ شيئاً فلا أرى أحداً منهم إلَّا خدمته.

أخرجه البغوي والبيهقي وابن عساكر[2]

١١ ـ روى عن النبيّ ﷺ، وعن عمر، وعن معاوية.

١٢ ـ توفي سنة (٥١) للهجرة، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

* * *

(١) ذو الْخَلَصَة: بيت لخثعم في الجاهلية، كان يدعى الكعبة اليمانية، فيه صنم يُدعَى الْخَلَصَة، لِدَوْس، وخَثْعَم، وبَجِيلة، وغيرهم، فأمر الرسول ﷺ بهدمه فَهُدِمَ.

(٢) من حياة الصحابة ج ١ ص ٤٠٤.

ب ـ **اللغة والمعنى المراد:**

١ ـ **في صَدر النهار**: أي في أَوَّله، وصدر كل شيء أوله.

٢ ـ **عُراة**: جمع عارٍ، اسم فاعل من عراه يعروه عرواً إذا أتاه طالباً معروفه، أو من عَرِيَ من ثوبه يَعْرَى عُرياً وعُرْيَة إذا تجرد من اللباس. أو من قولهم رجل عارٍ إذا أخلقت أثوابه.

٣ ـ **مجتابي النِّمار**: المجتاب اسم مفعول من اجتاب بمعنى خرق الشيء من وسطه، يقال جاب الشي جَوْباً، واجتابه اجتياباً إذا خَرَقه. وكل مُجوّف قطعت وسطه فقد جُبْته واجتبته. وفي التنزيل: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوادِ﴾ قال الفراء جابوا، خرقوا الصخر فاتخذوه بيوتاً.

٤ ـ **النِّمار**: جمع مفرده نَمِرَة، وهي بُردَة من صوف يلبسها الأعراب. قال في لسان العرب: كأنها أخذت من لون النَّمِر لما فيها من السواد والبياض، أراد أنه جاءه قوم لابسي أزُرٍ مخططة من صوف، انتهى.

٥ ـ **مُضَر**: قبيلة من قبائل العرب، تُنسب إلى مُضَر بن نزار بن معد بن عدنان، قال ابن سِيده: سُمِّيَ به لأنه كان مولعاً بشرب اللبن الماضر. يقال مَضَر اللبن يمضر مُضُوراً إذا حَمُضَ وابيضَّ.

٦ ـ **فتمعّر**: فتغيَّر لون وجهه شفقة عليهم، يقال في اللغة: غضب فلان فَتَمَعَّر لونه ووجهه، أي تغيَّر وعلَتْه صُفرة، والأصل فيه قلة النضارة وعدم إشراق اللون من قولهم مكان أمعر وهو الجَدْب الذي لا خصب فيه.

٧ ـ **الفاقة**: الفقر والحاجة، وليس له فعل من لفظه، وإنما يقال: افتاق الرجل إذا افتقر فهو مفتاق، ولا يقال فاق.

٨ ـ **تساءلون به**: أي تتساءلون به، إذ كان من عادة العرب أن يسأل بعضهم بعضاً بالله.

٩ ـ **اتقوا**: التقوى جعل النفس في وقاية مما يُخاف.

١٠ ـ **من ديناره ـ من درهمه**: أي من دنانيره ـ من دراهمه، لأن المفرد المضاف إلى معرفة يعمّ، وهكذا البقية.

١١ ـ **الصاع**: مكيال لأهل المدينة يأخذ أربعة أمداد، وهو يذكَّر ويؤنث، قال في لسان العرب: فمن أنَّث قال: ثلاث أصوُع مثل ثلاث أدور ومن ذكَّره قال: «أصواع» أي ثلاثة أصواع.

أما المُدّ: فمختلف فيه فقيل هو رطل وثلث بالعراقي، وبه يقول الشافعي وفقهاء الحجاز، وقيل: هو رطلان، وبه أخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق.

١٢ ـ **الصُّرة**: شيء يجمع فيه الدراهم والدنانير أو غيرهما ويُصَر، وأصل الصَّرِّ الجمع والشدّ.

١٣ ـ **كُومَين**: بفتح الكاف وضمها، والكُومة بالضم الصُّبرَة. والكَوم: هو العظيم من كل شيء، والمكان المرتفع.

١٤ ـ **يتهلَّل**: أي يستنير ويتلألأ، وذلك مما وقع في قلبه من السرور بتبادر الأصحاب إلى مساعدة المُضَريين.

١٥ ـ **كأنه مُذْهَبَة**: أي كأنه فضة مموّهة بالذهب، إذ علت بياض وجهه ﷺ حُمْرَةُ المسرة والابتهاج. يقال في اللغة: أذهبَ الشيء إذهاباً، وذهَّبه تذهيباً، أي موهه وطلاه بالذهب.

١٦ ـ **السنَّة**: هي السيرة والطريقة حسنةً كانت أو قبيحة، والسنة في الاصطلاح الشرعي: ما أُثِر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، ولكن المراد من اللفظ هنا المعنى اللغوي.

١٧ ـ **الوِزر**: الحِمل الثقيل، والإثم، وقد سُمِّيَ الإثم وزراً تشبيهاً له بالحمل الثقيل، وجمعه أوزار.

١٨ ـ **يَنْقُص**: من نَقَص الشيء ينقص نقصاً ونُقصاناً، ويستعمل الفعل

متعدياً أيضاً، فتقول: نَقَصت الشيءَ، أمًّا أنقصته على التعدية بالهمز فلغة مستعملة في هذا الفعل ولكن الأولى أفصح.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

١ ـ إنسانية الرسول:

لم تمرّ إنسانية الرسول الكاملة على مشهد فاقة القوم المضريين مرور أكثر الناس الذين تبلّد حسهُم الإنساني فلا يجدون انفعالاً وجدانياً نحو ذوي الحاجة يدفعهم لمواساتهم، وكف الأذى عنهم، ولكن إنسانيته الكاملة صلوات الله عليه انفعلت لهذا المشهد انفعالاً بالغاً ظهر في تمعُّر وجهه أولاً، ثم في دخوله إلى حجرته لعله يجد عنده ما يواسيهم به ثانياً، ثم باعتبار أمر حاجة هؤلاء من الأمور الهامة التي تستدعي من الرسول أن يخطب بنفسه في أصحابه، يحثهم على مواساتهم بالصدقة في أسلوب مؤثر رائع، دفع المسلمين إلى أن يساهموا بمعوناتهم، حتى ترابى كومان من طعام وثياب بين يدي الرسول صلوات الله عليه، قبل أن ينفض الجمع عقب صلاة الظهر على ما يظهر من الحديث.

ألا فليتخذ القادة هذا الإنسان الكامل أسوة حسنة به يقتدون، وبهديه يسترشدون.

٢ ـ خطبة الرسول في دعوة أصحابه لمواساة المضريين:

وانتظر الرسول صلوات الله عليه حتى دخل وقت صلاة الظهر، وتهيأ المسلمون في جوّ العبادة الروحاني للاستجابة إلى دعوة البذل والعطاء، فقام بهم خطيباً بعد أن استكملوا ألوان عبادتهم، وافتتح خطبته بآيتين من كتاب الله.

الآية الأولى منهما هي الأولى من سورة [النساء: ٤]:

﴿يأيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً واتَّقُوا الله الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾.

اختيار حكيم لتصدير الخطبة به، إنها آية تنادي الناس بوصفهم الإنساني العام، لتنبِّه فيهم إنسانيتهم المشتركة بين أفرادهم، ولتأمرهم بتقوى الله الذي يمدهم بالتربية الدائمة حسّاً ومعنىً، والذي يعظمونه فيما بينهم حتى يقول قائلهم لأخيه أسألك بالله أن تفعل كذا، ولتذكرهم بوحدة أصلهم، وأخوة أفرادهم، وبواجبات الرحم. وفي كل ذلك ما يمهد للدعوة إلى البذل والسخاء لمواساة هؤلاء الفقراء العراة من قبيلة مضر، فهم إخوة في الإنسانية ورحم في النسب.

والآية الثانية منهما هي الثامنة عشرة من سورة [الحشر: ٥٩].
﴿يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُر نَفسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا الله إنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وفي اختيار هذه الآية معنى أخص من الآية السابقة، لأن الأولى تنبِّههم إلى إنسانيتهم العامة، أما هذه فتخاطبهم بوصفهم مؤمنين مندرجين في سلك الذين يدفعهم إيمانهم إلى طاعة الله وابتغاء رضوانه، وينتظرون وعد الله بالتوبة والأجر العظيم يوم القيامة، على ما يقدمونه في الدنيا من عمل صالح، وأعظم بالصدقة التي لا منَّ فيها ولا أذى عملاً صالحاً يستحق المؤمن فيه الأجر الأوفر، فضلاً من الله اقتضاه وعده الكريم. وبعد أن استهل الرسول خطبته بهاتين الآيتين تلطف بدعوة المسلمين إلى الصدقة:

أ ـ بأسلوب الخبر لا بأسلوب الأمر ليكون الرفق بالطلب والتعريض به أدعى إلى صدق البذل.

ب ـ وعلى سبيل التنكير والإبهام لا على سبيل الخطاب والتعيين، ليكون وقع الطلب على نفوسهم هيّناً، وليتنافسوا في البذل ويظهر فضل

السابق منهم إلى الخير، والمندفع منهم بنفسه إلى العطاء.

جـ ـ وعلى مقدار الاستطاعة حتى لا يعتذر منهم معتذر بأنه لا كثير عنده ينفق منه، وحتى لا يخجل منهم مقِلّ بما يقدم من قليل عطاء.

فقال صلوات الله عليه:

«تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ».

واستمر الرسول صلوات الله عليه يعدد متنازلاً إلى أقل ما يُملَك حتى قال: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» وهل في الصدقة أقل من نصف تمرة ينتفع به؟

إنه لإيجـاز رائع، أرشد وحثّ وبلغ الغاية، فتسابق المسلمون إلى تلبية دعوة الرسول هذه، فكان أسبقهم رجل من الأنصار جاء بصرة كبيرة عجزت كفه عن متابعة حملها، وكأني به قد احتملها بكلتا يديه بعد أن عجزت كفه عن الاستمرار في حملها، فسنَّ بسبقه إلى فعل الخير سنة حسنة شجع بها القوم أن يُسرعوا إلى حمل ما تجود أنفسهم به، فتتابع الناس كل يحمل على مقداره، حتى بلغ ما اجتمع بين يدي الرسول كومين من طعام وثياب.

عند ذلك امتلأ قلب الرسول صلوات الله عليه ابتهاجاً بما رأى، وطفق وجهه يتهلل سروراً وبشراً، حتى بدا كأنه فضة مذهبة.

ولم ينس الرسول صلوات الله عليه أن يذكر فضل أول القوم مبادرة إلى تقديم صدقته، وينوِّه بشأنه، وينتهز المناسبة لإعلان مبدأ هامّ من مبادىء الإسلام وأصل عظيم من أصوله، فقال:

«مَنْ سَنَّ في الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بها بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِم شَيءٌ، وَمَنْ سَنَّ في الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ».

وإنما كان لصاحب السنة الحسنة أجرها وأجر من عمل بها من بعده ـ

مع أنه ليس للإنسان إلّا ما سعى ـ لأنَّ لسبقه إلى فعل الخير تأثيراً في اقتداء الآخرين به. ويتحقق له مثل أجرهم إذا قصد أن يكون لهم قدوة، وعند ذلك يكون اقتداؤهم به من آثار كسبه، أو أن كسبه قد ساهم فيه، وبذلك يكون للعاملين أجورهم الخاصة، ويكون لمن سنَّ السنة أجر السبق إلى فعل الخير، الذي جعل منه قدوة حسنة لهم فيه.

وفي مقابل السنة الحسنة يكون على صاحب السنة السيئة وزر سيئته ومثل وزر من عمل بها من بعده مقتدياً به أو متأثراً به، وذلك لأنه قد جعل من نفسه بسنته السيئة قدوة سيئة لهم، بسبب مجاهرته في فعل السيئة وتهوينها عليهم، فكان لبدئه نوع تأثير فيما اقترفوه من إثم، فحمل بذلك وزراً مثل أوزارهم، دون أن يخفف من أوزارهم شيئاً لأنهم مسؤولون عن السيئات التي اكتسبوها بإراداتهم الحرة، ولكن مسؤولية القدوة السيئة كانت أكبر، ومن أجل ذلك استحق أن يحمل الوزر على مقدار مسؤوليته، والآثار التي ترتبت على سبقه إلى فعل السيئة.

* * *

د ـ مما يستفاد من الحديث: (أو ما يؤخذ من الحديث :

١ ـ مشروعية طلب المستحق الصدقة لنفسه إذا حملنا كلمة (عراة) على معنى طالبي المعروف.

٢ ـ مشروعية جباية الصدقة لمستحقيها في المساجد أخذاً من عمل الرسول صلوات الله عليه، ويمكن أن يقاس عليها ما يشبهها من أمور الخير.

٣ ـ الهدي النبوي في الخطبة للحث على الصدقة، وفي الأسلوب الذي اتبعه الرسول، وفي جعل ذلك عقب الصلاة وانتهاء العبادات المحدد لها أوقات خاصة.

٤ ـ أن للإنسان جزاء عمله وآثار عمله من خير أو شر، وأن من آثار عمل الإنسان عمل من اقتدى به إذا عمل هو العمل ليكون فيه قدوة حسنة أو

سيئة، أو تهاون في المجاهرة بفعل السيئة فسهَّل على الآخرين ارتكابها، ومُمَارستها.

٥ ـ التشجيع على بذل الصدقة مهما قلَّت أخذاً من قوله ﷺ: «ولو بِشِقّ تَمْرَةٍ».

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

نستطيع بالتأمل أن نستخلص وجوهاً بلاغية متعددة من هذا الحديث، منها ما يلي:

١ ـ براعة الاستهلال في انتقاء الآيتين المناسبتين لموضوع الخطبة الذي يقصد إليه الرسول صلوات الله عليه.

٢ ـ إيراد الخبر مورد الإنشاء، ليكون أوقع في نفوس السامعين، وليفسح أمامهم ميدان التنافس الذَّاتي، وذلك في قوله ﷺ: «تصدَّق رجل من ديناره..» أي ليتصدق رجل.

٣ ـ استعمال المُنَكَّر الغائب في مقام الخطاب، إذ قال: «رجلٌ» تلطفاً بحال السامعين، وتكريماً لهم عن مواجهتهم في مثل هذا الموضوع بالخطاب، وإشعاراً بأنهم أذكياء كرماء تكفيهم معاريض الأقوال وليسوا بحاجة إلى أمر مباشر أو خطاب مباشر، وهذا هو شأنه ﷺ في كثير من المواقف.

٤ ـ إيجاز القول إلى أدنى الحدود التي لا تُخل بالعرض، الأمر الذي دعا إلى حذف حرف العطف أو إيراد الفقرات على سبيل البدل كما سيأتي في وجوه الإعراب، إذ قال: من ديناره من درهمه.

٥ ـ ومن بلاغة الرسول ﷺ أنه انتهز مناسبة سبق الأنصاري إلى تقديم

صرته، فأعلن مبدأ هاماً من مبادىء الإسلام وأصلاً عظيماً من أصوله، إذ كان تعليقه على الحادثة بقوله: «من سَنَّ في الإسلام سنَّة حسنة.. إلى آخره».

* * *

ثانياً: من الإعراب

١ ـ عن أبي عمرو: متعلق بمحذوف تقديره أروي أو أذكر أو نحوهما.

٢ ـ جرير بن: كل منهما عطف بيان أو بدل.

٣ ـ رضي الله عنه: جملة دعائية معترضة.

٤ ـ كنا وما بعدها حتى آخر الحديث: في محل نصب على أنه مقول القول.

٥ ـ مجتابي النمار: «مجتابي» منصوب على الحالية، صاحبها «قوم عراة» وعاملها (جاء) وكذلك (متقلدي) حال ثانية.

والإضافة في (مجتابي النمار) وفي (متقلدي السيوف) من باب الإضافة اللفظية التي لا تفيد المضاف إليه تعريفاً ولا تخصيصاً، لذلك صحَّ مجيء المضاف فيها حالاً.

٦ ـ عامتهم من مضر: جملة من مبتدأ وخبر في محل رفع صفة لقوم.

٧ ـ لما رأى بهم: (ما) مصدرية، وهي وما بعدها في تأويل مصدر في محلّ جر باللام. أو اسم موصول في محل جر باللام والجملة بعده صلته والعائد محذوف تقديره لما رآه بهم.

٨ ـ والآيةَ التي في الحشر: والآية منصوبة عطفاً على محل (يا أيها الناس.. إلى آخر الآية) باعتبارها مقول القول.

٩ ـ تصدَّق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه..

يمكن إعراب من درهمه من ثوبه إلى آخرها على أنها معطوفات على

من ديناره بحرف عطف محذوف تقديره (أو) ولهذا نظائر.

ويمكن إعرابها على أنها من باب بدل الإضراب، ويضعِّف هذا الإعراب أنه لا يقصد الإضراب عن الأول، بل كلها مقصودة، فالعطف فيها أبلغ، ويقوي العطف أيضاً أن بدل الإضراب لا يكون في كلام البلغاء.

الحديث الثاني

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ الله ﷺ، فَخَطَبَ النَّاسَ فقَالَ:

«لاَ وَالله مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إلاَّ مَا يُخْرِجُ الله لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الْدُّنْيا».

فَقَالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ الله أَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِ؟ فَصَمَتَ رَسُولُ الله ﷺ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: (كَيْفَ قُلْتَ؟) قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَيَأْتِي الْخَيْرُ بالشَّرِ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ:

«إنَّ الْخَيْرَ لاَ يَأْتِي إلاَّ بِخَيْرٍ أَوَ خَيْرٌ هُوَ؟ إنَّ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطاً أَوْ يُلِمُّ إلاَّ آكِلَةَ الْخَضِرِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ، ثَلَطَتْ أَوْ بَالَتْ ثُمَّ اجْتَرَّتْ فَعَادَتْ فَأَكَلَتْ، فَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ».

رواه مسلم في باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا وما يبسط منها

أ ـ ترجمة (أَبي سعيد الخدري) راوي الحديث:

١ ـ هو أبو سعيد سَعْد بن مالك بن سِنان الخزرجي الأنصاري الْخُدْري، نسبة إلى «خُدْرة» وبَنُو خُدْرة بَطْنٌ من الأنصار.

٢ ـ كان من صغار الصحابة، ثمَّ من علمائهم، ومعلِّميهم، فإذا أتاه طالبـو الفقه في الدين قال لهم: مرحباً بوصيَّة رسول الله ﷺ.

وكان إذا أتاه الأحداث لطلب العلم قال: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، أمرنا رسول الله أن نوسِّع لهم في المجلس، ونفقِّههم الحديث، فإنَّهم خُلُوفُنَا (أي: أولادنا الذين يخلفوننا من بعدنا) والمحدِّثون بعدنا.

وكان يقول للحديث السّنّ من المستمعين إليه:

«إذا أنت لم تفهم الشيء استفهمنيه، فإنَّكَ أنْ تقوم وقد فهمته أحبّ إليَّ من أن تقوم ولم تَفْهمه».

وإنَّما كان يحتفي بطلاب العلم عملاً بوصية الرسول ﷺ، فقد روى ابن ماجه عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«يَأْتيكُمْ رجالٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ يَتَعَلَّمُونَ، فَإذَا جَاءُوكُمْ فاسْتَوصُوا بِهِمْ خَيْراً».

وروى الترمذي عنه عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه: «إنَّ النَّاسَ لَكُمْ

تَبَعٌ، وَإِنَّ رِجَالاً يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدين، وَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْراً».

٣ ـ كان ممَّن شهد بيعة الشجرة.

٤ ـ بايع النبي ﷺ على أن لا تأخذه في الله لومةُ لائم.

٥ ـ أبوه «مالك بن سنان» هو الذي مصَّ جرح النبي ﷺ يوم أحد، ثم ازدرد الدّم الذي مصّه، فقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ مَنْ خَالَطَ دَمِي دَمَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ مَالِكِ بْنِ سِنان».

٦ ـ أخرج ابن جرير عن أبي سعيد الخدري أنَّه قال: أَعْوَزْنَا إِعْوَازاً شديداً، فأمرني أهلِي أن آتي النبيَّ ﷺ فأسأله شيئاً، فأقبلتُ فكان أوَّل ما سمعتُ النبي ﷺ يقول:

«من اسْتَغْنَىٰ أَغْنَاهُ الله، وَمَنِ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ الله، وَمَنْ سَأَلَنَا لَمْ نَدَّخِرْ عَنْهُ شيئاً وَجَدْنَاهُ».

قال أبو سعيد: فلم أسأله شيئاً ورجعت، فمالَتْ علينا الدنيا.

وجاء في رواية أخرى: فما زال الله يرزقنا حتى ما أعلم أحداً من الأنصار أهل بيت أكثر أموالاً منَّا.

٧ ـ كان هو وطائفة من علماء الصحابة يفتون في المدينة، ويحدِّثون عن الرسول ﷺ، من لدُن توفِّي عثمان، إلى أن توفّوا.

وكان من الذين صارت إليهم الفتوى (وهم: ابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله).

وروي أنه لم يكن أحدٌ من أحداث الصحابة أفقه من أبي سعيد الخدري.

٨ ـ روى كثيراً من الأحاديث، وروى عنه جماعة من الصحابة.

٩ ـ وُلد قبل الهجرة بـ (١٢) سنة، وعاش (٨٦) سنة، وتوفّي في أوّل سنة (٧٤) هجرية.

* * *

ب ـ اللغة والمعنى المراد:

١ ـ الخير ضدُّ الشرِّ وجمعه خيور.

٢ ـ **حَبَطاً**: الحَبَط أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها. هكذا قال الجوهري.

فالحبَط انتفاخ البطن من التخمة، وفعله حَبِط بكسر الباء يحْبَط حَبَطاً فهو حَبِط.

٣ ـ **يُلِمّ**: أي يقارب، يقال أَلَمَّ أن يفعل كذا، أي قارب أن يفعله. فمعنى يقتل حبطاً أو يُلِم: يقتل من التخمة أو يقارب أن يقتل.

٤ ـ **الخَضِر**: ذكر الأزهري أن الربيع ينبت أحرار العشب التي تستطيبها الماشية فتكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك، وينبت أيضاً الخَضِر وهو ليس من أحرار البقول التي تكثر منها الماشية، قال: وأكثر ما رأيت العرب يجعلون الخضر ما كان أخْضَر من الحَلِيّ الذي لم يصفَرّ، والماشية ترتع منه شيئاً فشيئاً ولا تستكثر منه فلا تَحبَط بطونها عنه. (الحَلِيّ: اسم نوع خاص من النبات كما ذكر الأزهري أيضاً).

٥ ـ **ثَلَطت**: أي سلَحت سلحاً رقيقاً، قال ابن الأثير: وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة.

٦ ـ **اجترت**: أي جعلت تمضغ ما تخرجه من بطنها، وكلّ ذي كرش يَجْتَرّ، قال الجوهري: الجِرّة بالكسر ما يخرجه البعير للاجترار، وقال ابن سِيدَة: الجِرَّة ما يَفيض به البعير من كرشه فيأكله ثانية.

جـ ـ الشرح العام:

وعد وتخوّف:

من القرية الصغيرة التي رماها القدر في باطن الصحراء بعيداً عن منابع الثروة والحضارة وثمرات الأرض وخيراتها، يُطِل الرسول العظيم على المستقبل فيشاهد مفاتيح الأرض تنتثر على أمته من بعده، فتتفجر لهم خيرات الحياة الدنيا، وتفيض بين أيديهم مالاً وثمراً وعزاً، فيتخوف عليهم أن تفتنهم بزينتها، ويطغيهم منها مال وسلطان، فيتنافسوا فيها كما تنافس فيها من كان قبلهم من الأمم، فيجمعوها تفاخراً وتكاثراً، وينفقوها ترفاً وإسرافاً، ويكسبوها بالظلم والحرام، ويمنعوها عن ذوي الحقوق فيها، ويقتتلوا من أجلها اقتتالاً طويلاً عريضاً.

من أجل كل هذه المخاوف يقف صلوات الله عليه في أصحابه خطيباً فيعلن عليهم بأقوى صيغة كلام مؤكد مَبْلَغَ تخوفه على أمته مما سيخرجه الله لهم من زهرة الحياة الدنيا، من سلطان وجاه ومال ولذات، طاوياً ضمن هذا التخوف الوعد الحق بمستقبل فيه سلطان باذخ ومال كثير، فيقول: «لا والله ما أخشى عليكم أيها الناس إلَّا ما يُخرج الله لكم من زهرة الدنيا».

نفي وقسم ثم قصر بالنفي والاستثناء، إنها لمؤكدات كثيرة تظهر مبلغ تخوف الرسول واهتمامه.

إنه صلوات الله عليه لا يخشى على أمته من بعده أن يكفروا بعد إيمان، لأن الإيمان الحقّ متى خالطت بشاشته القلوب استمكن منها ولم يغادر، ولا يخاف عليهم من الفقر فإنَّهم لا شكّ قادمون على فتح أبواب ممالك الأرض، وقابضون على نواصي شعوبها، ولكنه صلوات الله عليه. يخشى عليهم ما يخرج الله لهم من زهرة الدنيا. إنَّه يُسمِّي كل ما في الحياة الدنيا من مال ومتاع وجاه وسلطان ولذة زهرةً، فكما أنَّ الزهرة تفتن بجمال منظرها ولطف رائحتها، لكنَّها سريعة الذبول والفناء، كذلك مباهج الحياة الدنيا

وأموالها ومتاعها ولذاتها، ومن أجل ذلك استحقت أن يستعار لها لفظ الزهرة.

وقد اقتبس الرسول هـذه الاستعارة من القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى في سورة [طه: ٢٠]:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)﴾.

سؤال الصحابي:

فقال رجل: يا رسول الله أيأتي الخير بالشر؟.

استفهام يطلب فيه هذا الرجل من أصحاب الرسول حلَّ إشكال قام في نفسه. تفصيله أن الرسول صلوات الله عليه يتخوف على أمته ممَّا سيخرجه الله لهم من زهرة الدنيا، ولا يكون تخوفه البالغ إلَّا من أمرٍ فيه شرّ، أو يمكن أن ينجم عن شرّ.

هذا: مع أنهم يُسَمُّون مختلف ما في الأرض من مالٍ ومتاع وثمر خيراً، وقد شاعت هذه التسمية شيوعاً جعلها بمثابة الوضع اللغوي لها، حتى استعمل الخير في القرآن بهذا المعنى أكثر من مرة، ثم إن الإنسان بما فطر عليه من حاجة عيش، وضرورة حياة، ورغبة تكاثر، يحب هذا الخير حباً شديداً، وفيه يقول الله تعالى في سورة [العاديات: ١٠٠].

﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لشديد (٨)﴾

أي: لحب المال.

فإذا كان خيراً فهل يمكن للخير أن يكون وسيلة للشرِّ أو أن ينجم عنه شرّ، حتى يتخوف الرسول على أمته منه كل هذا التخوف؟ حقاً إنه لإشكال دقيق، يتطلب حلاً فلسفياً محكماً ضمن أصول الإسلام ونظرته العامة إلى الخير والشر.

سمع الرسول ﷺ سؤال الرجل من أصحابه، فصَمَت صَمْتَ المتأمل

في فحواه، المتبصر بنقطة الإشكال الفلسفية التي قامت في نفسه، وانتظر فترة قبل إجابته، ليهيىء أذهان الصحابة جميعاً لما سيقدِّم لهم من حقيقة شاملة في فلسفة الخير والشر، طبق أصول الإسلام التي يتلقاها من الوحي.

وبعد فترة من الصمت استعاد الرسول ﷺ من السائل كيفية سؤاله ليربط له الإجابة بالسؤال ربطاً مباشراً، وليسمع جميع أصحاب الرسول الحاضرين صيغة سؤال الرجل، قبل أن يشرع في بيان جوابه، وحلِّ إشكاله، وهذا من أساليب التعليم والتربية العالية.

قال الرسول ﷺ: «كيف قلت؟».

قال الرجل: قلت: يا رسول الله أيأتي الخير بالشر؟!.

فلسفة الخير والشر في الإسلام:

فقال له الرسول ﷺ: «إن الخير لا يأتي إلاَّ بخير»، وأخذ يكررها ثلاث مرات كما جاء في رواية أخرى، ثم قال على طريقة الاستفهام الإنكاري: «أو خير هو؟».

وتتضمن هذه الإجابة نظرة الإسلام الشاملة إلى الخير والشر، وتتلخص هذه النظرة بأن القسمة الحقيقية في فلسفة الخير والشر ثلاثية لا ثنائية، كما يسبق إلى الوهم.

فهناك خير محض، وهناك شرّ محض، وهناك أمور لا توصف لذاتها بأنها خير أو بأنها شر، إنما هي وسائل صالحة لأن تستعمل في الخير، ولأن تستعمل في الشر.

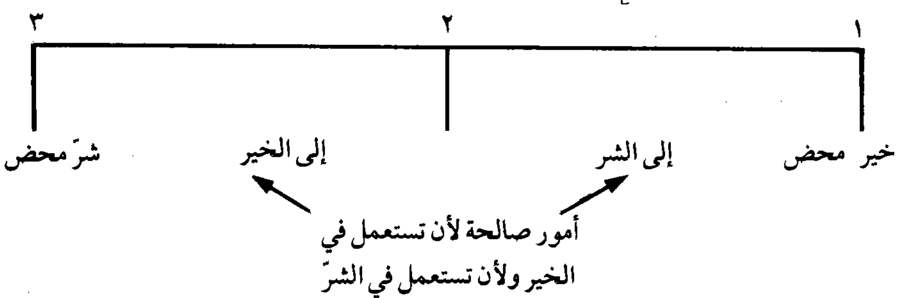

١ أمَّا ما هو خير محض: فلا يمكن أن يأتي إلاَّ بخير، ولا يمكن أن ينجم عنه إلاَّ خير، ونستطيع أن نمثل لذلك بمعرفة الله وعظيم صفاته، فإن هذه المعرفة لذاتها خير محض لا يمكن أن ينجم عنه إلاَّ خير.

٢ وأمَّا ما هو شرّ محض: فلا يمكن أن يأتي إلاَّ بشر، ولا يمكن أن ينجم عنه إلاَّ شر، ونستطيع أن نمثل له بالظلم وجحود الحق، فكل منهما شرّ لا يمكن أن ينجم عنه إلاَّ شرّ.

٣ وأمَّا الأمور التي لا توصف لذاتها بخير أو شرّ وهي صالحة بحسب الاستعمال لكل منهما: فجميع ما خلق الله في الوجود من وسائل سلَّط يدَ عباده عليها ليبتليَهم فيها، هل يستعملونها في الخير أم يستعملونها في الشر؟ وفي هذا التقسيم النبوي قمة الفلسفة الحقّة.

وبناءً عليها فإن الرسول ينفي أن يكون المال وسائر ما يخرج الله للناس من زهرة الحياة الدنيا من قسم الخير المحض، كما أنه ليس من قسم الشر المحض، وإنما يصنفه مع أفراد القسم الثالث، قسم الوسائل الصالحة، لأن تستعمل في الخير ولأن تستعمل في الشر.

ولما كان في النفوس شهوات كثيرة، وغرائز يمكن أن يطغيها المال الكثير والجاه العريض، والسلطان الشامخ، فيؤدي بها إلى الشر وذلك بسبب ما تجلبه من معصية الله تعالى، ومخالفة أمره ونهيه، والغفلة عن مراقبته، كان حقاً أن يتخوف الرسول على أمته من زهرة الحياة الدنيا كل ذلك التخوُّف.

مثلان لاستعمال المال وسيلة خير واستعماله وسيلة شر:

وبعد أن قرر الرسول هذه الحقيقة في حكمة الإسلام الرائعة ضرب للقسم الثالث الذي هو محل شبهة السائل مثلاً واضحاً قريباً من بيئة العرب فقال: «إن كلّ ما يُنبت الربيع يَقتُلُ حَبَطاً أو يُلِمّ».

ونوضح هذا المثل النبوي، ونبسطه فيما يلي:

ما تقولون فيما ينبته الربيع من عشب مختلف الأنواع؟ ألستم تُسمُّونه في مقاييسكم خيراً؟ انظروا إليه، كم من ماشية استطابت طائفة منه، فاستكثرت حتى انتفخت بطونها، واعتقلت أمعاؤها، فهلكت به، أو أشرفت على الهلاك.

فكيف نجم عمَّا ينبت الربيع الذي تُسمُّونه خيراً الهلاك أو ما يقاربه؟ ولو أنه خير محض لم يأت إلَّا بخير.

إذن: ليس هو من قسم الخير المحض، وإنما هو من قسم الوسائل التي إذا أُسِيء استعمالها أضرَّت وجلبت شرَّاً، وإذا أحسِن استعمالها نفعت وجلبت خيراً.

ومثل زهرة الحياة الدنيا للناس كمثل الربيع للماشية، فإذا استَحْلَى الإنسان زهرة الحياة الدنيا، فغفل عن واجبه فيها فجمعها بغير ما أحلّ الله وأذن، أو أمسكها عن ذوي الحقوق، ولم يؤدّ ما فرض الله فيها، أو أنفقها في غير ما أذن الله، كانت سبباً في هلاكه وشقائه، ونجم عنها شرّ كبير له. وما ذلك لأنها بذاتها شرّ، وإنما الشر هو استعمال الإنسان لها في سُبُل الشر التي حرمها الله.

إذا تأملنا في حال هذا الإنسان أفلسنا نرى مَثَله كمثل الماشية التي استكثرت من أحرار البقول لمَّا استطابتها واستحلتها، فانتفخت بطونها فماتت حبطاً أو كادت. وفي صورة هذا المثل نشهد أشباح الطمع والشره والرغبة بالاستكثار في الجمع والمنع. وكذلك الذين يجمعون الأموال بغير حق، ويمسكونها عن المستحق.

أمَّا من يأخذ من الدنيا باعتدال وطيب نفس كما أذن الله، ثم يشكر الله على نعمه وينتفع مما أخذ منها بمقدار حاجته دونما شره، ولا طمع ولا إسراف ولا إثم، ثم ينفق منه على ذوي الحقوق، ويؤدي ما فرض الله فيه، فإن المال يكون معونة له على الخير، ونعم المعونة هو.

وإن مثل هذا الإنسان كمثل الماشية آكلة الخَضِر، التي لا يستولي عليها الشره والطمع فلا تستكثر فوق طاقتها، وإنما تأخذ من خَضِر العُشب ملء خاصرتيها فإذا أحسَّت الامتلاء قنعت ووقفت عن الرتع، واستقبلت الشمس تستدفىء بها هنيئة راضية، وأخذت تفرغ مما جمعت في بطنها بعد أن هضمته هضماً رفيقاً، ثم أخذت تخرج من كرشها ما لم يتم هضمه فتجتره لتحسن هضمه، حتى إذا فرغت بطونها وأحست الحاجة عادت فأكلت من خضر ما يُنبت الربيع. وفي صورة هذا المثل الثاني نلمح طيوف القناعة والرفق في السعي وحسن التصرف في الجمع، مع حسن التصرف في الإنفاق.

استخلاص الغرض من التمثيل:

وأخيراً رتب الرسول ﷺ على كل من المثلين النتيجة المقصودة في الإرشاد والتربية، فقال:

«فمن يأخذ مالاً بحقه يبارك له فيه، ومن يأخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع» وفي رواية «ويكون شهيداً عليه يوم القيامة».

وحق المال أن يجلبه الإنسان مما أذن الله وكما أذن، وأن ينفقه فيما أحلّ الله وعلى ما أحلّ، وأن يؤدي منه واجب النفقة، وحق الصدقة، فإذا فعل ذلك كان المال له معونة وبركة، ووسيلة خير.

أمَّا إن أخذ المال بغير حقه فمثله كمثل المريض المصاب بداء البطنة الذي يأكل ولا يشبع، فإنه لا محالة هالك، ويكون مالُه الذي جمعه شهيداً عليه يوم القيامة، فيعاقب على جمعه، وعلى منعه، وعلى معصية الله فيه، وبذلك يكون له وسيلة شر.

وإرادة الإنسان الحرة المبتلاة في هذه الحياة الدنيا بالخير والشر هي المسؤولة عن كل ذلك.

* * *

د ـ مما يستفاد من الحديث:

١ ـ التحذير من زيادة الطمع في الأموال وسائر متع الحياة الدنيا، لما فيها من الفتنة المؤدية إلى هلاك الفرد وفساد الأمة.

٢ ـ جواز سؤال الخطيب وهو في خطبته عن بعض المشكلات المتعلقة في موضوع الخطبة، لأن الرسول ﷺ في الحديث أقر السائل ولم ينكر عليه، واهتم بإجابته.

٣ ـ سعة صدر الرسول صلوات الله عليه وأناته وحكمته في الإجابة، وفي ذلك تعليم لنا وإرشاد. حتى نعرف كيف نسلك سبيل الدعوة إلى الله.

٤ ـ من الأدب النبوي استعادة سؤال السائل متى طال الفصل بين السؤال والجواب، لتكون الإجابة مقارنة للسؤال، وبخاصة إذا كان السائل واحداً من جماعة، وذلك ليستوعب الجميع صورة السؤال وينتبهوا إلى الجواب، وهذا من أصول التربية التي وصل إليها المربون حديثاً.

٥ ـ من الأدب النبوي ضرب الأمثال المحسوسة لتقريب الحقائق إلى المبلَّغين وهذا أيضاً من أصول التربية الحديثة وقواعدها.

٦ ـ بيان الفلسفة الإسلامية المبنية على أن القسمة ثلاثية:

أ ـ خير.

ب ـ وشر.

جـ ـ ووسائل تصلح لأن تستعمل في الخير أو في الشر.

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

نستطيع بالتأمل أن نستخرج من هذا الحديث وجوهاً بلاغية متعددة، منها ما يلي:

١ ـ «لا والله ما أخشى عليكم أيها الناس إلاَّ ما..»:

فيه تأكيد خشية الرسول على المسلمين مما سيخرجه الله لهم من زهرة الدنيا بمؤكدات ثلاثة.

أ ـ بتكرير النفي (لا) و(ما).
ب ـ بالقسم (والله).
جـ ـ بصيغة الحصر (ما أخشى عليكم أيها الناس إلاَّ ما..).

وقد أورد كلّ هذه المؤكدات اهتماماً بالموضوع الذي يتخوف منه الرسول في المستقبل على أمته، ولأن زينة الحياة الدنيا ذات سلطان على الأنفس، الأمر الذي يجعلها تفتتن بها فتعميها عن الحق، ولذلك نُزّل المخاطبون في موضوعها منزلة المنكرين، فكان من البلاغة إيراد كل هذه المؤكدات لهم.

٢ ـ «من زهرة الدنيا»:

في هذا الاستعمال استعارة أصلية إذ استعير لفظ الزهرة لمختلف أنواع

المال، والأصل فيها تشبيه الأموال بالزهرة بجامع المظاهر الخلابة، وسرعة الفناء والزوال.

والغرض تخفيف زيادة الولوع بها والتعلق بأسبابها، عن طريق تصوير حقيقتها بصورة الزهرة التي هي أقصر ما ينبت الربيع عمراً، وأسرعه ذبولاً وفناءً.

وفيه أيضاً مجاز بالحذف إذ الأصل من زهرة الحياة الدنيا، فحذف الموصوف للعلم به، وأقيمت الصفة مقامه طلباً للإيجاز، وقد شاع هذا الحذف حتى صار لفظ الدنيا بمثابة العَلَمِ الذي يدلُّ بتبادر اللفظ على هذه الحياة الأولى، وأصل الدنيا مؤنث أَدنى ووزنها فُعْلَى.

٣ - «إن الخير لا يأتي إلَّا بخير»:

فيه التأكيد بمؤكدات ثلاث:

أ - **الجملة الاسمية**، إذ عُدل للإخبار بها عن الإخبار بالجملة الفعلية.
ب - إنَّ، وهي من حروف التأكيد.
جـ - الحصر بالنفي والاستثناء.

٤ - «أو خير هو؟»:

فيه استفهام إنكاري، والأصل في الاستفهام أن يستعمل لطلب الفهم، واستعماله في النفي والإنكار ضرب من ضروب المجاز، وطريقه الاستعارة التبعية لجريانها في الحرف، والغرض منه تخفيف صورة النفي والإنكار على السامع بجعله في صيغة الاستفهام لا في صيغة النفي الصريحة، وقرينته هنا أن المستفهم وهو الرسول ﷺ ليس من شأنه أن يجهل الحقيقة التي يسأل عنها، فلما كان لا يعلم أن المال في ذاته خير محض تبين أنه ليس في الواقع خيراً محضاً، وأنه ساق الاستفهام لإرشاد المخاطب إلى الحق، وهو أن المال وسيلة تصلح لأن تستعمل في الخير أو في الشر.

٥ ـ وقد ضرب الرسول ﷺ في الحديث مثلين حسيَّين لتقريب الحقيقة إلى فهم السائل وتأكيدها له بعد أن نفي له أن يكون المال بذاته خيراً محضاً.

وخلاصة المثل الأول: تشبيه آخذ المال بغير حقه بالدابة التي تسرف في أكل أحرار البقول وتمسك ما في بطنها، لتوضيح صورة هلاكه المرتقب كهلاك الدابة بالتخمة إذا أسرفت في أكلها.

وخلاصة المثل الثاني: تشبيه آخذ المال بحقّه بآكلة الخضر التي لا تسرف في أكلها، ولا تمسك ما في بطنها، لبيان صورة سلامته منه، والاستعانة به على الخير، كسلامة آكلة الخضر واستعانتها بما أكلت.

٦ ـ «فمن يأخذ مالاً بحقه. . إلى آخر الحديث»:

فيه من البديع نشر على غير وجه الترتيب، وذلك أن الترتيب في المثلين جاء بتقديم الدابة المسرفة على آكلة الخضر في الترتيب اللفظي، وهذا يتضمن تقديم آخذ المال بغير حقه على آخذه بحقه، وفي النتيجة التي رتبها على المثلين قدَّم آخذ المال بحقه على آخذه بغير حقه، والغرض من ذلك:

أما في الترتيب الأول فهو البدء بالتحذير من سوء عاقبة المسرفين.
وأما في عكسه في الترتيب الأخير فهو بيان فضل آخذي المال بحقه.
فكان لكل ترتيب منهما مزية في البلاغة لمطابقة كل منهما لمقتضى الحال فيه.

* * *

ثانياً: من الإعراب

١ ـ لا والله ما أخشى عليكم:

(لا) حرف نفي (والله) الواو واو القسم ولفظ الجلالة مجرور بواو القسم، والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره، أقسم والله، أو

والله أقسم على تقديره متقدماً أو متأخراً، أو متعلق بخبر محذوف لمبتدأ محذوف تقديره قسمي، وجملة القسم هذه معترضة لا محلَّ لها من الإعراب.

(ما) حرف نفي مؤكد لـ (لا).

ويمكن اعتبار (لا) حرف نفي داخل على منفي محذوف يفسره المنفي بعد القسم، وتكون جملة (ما أخشى) مؤكدة لها، وجملة القسم اعتراضية بين المؤكد والمؤكَّد.

٢ ـ **كيف قلت؟**: (كيف) اسم استفهام مبني على الفتح في محلّ نصب على الحال، والتقدير: علىٰ أيَّة حال قول قلت.

* * *

الحديث الثالث

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إلَّا جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَإِيماناً بي وَتَصْدِيقاً بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الجَنَّة، أَوْ أُرْجِعَهُ إلى مَسْكَنِهِ الَّذي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ الله إلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ، مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو في سَبِيلِ الله أَبداً، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلَا يَجِدُوْنَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ».

رواه مسلم

أ ـ ترجمة (أبي هريرة) راوي الحديث:

١ ـ كنيته التي اشتهر بها «أبو هريرة» حتى كانت الاسم الذي غلب عليه. وقد كنَّاهُ بها والده وهو صغير، حينما رأى ولعه بهرَّةٍ بريَّة صغيرة كان يحملها ويداعبها وهو يرعى الغنم.

وكان يناديه بها رسول الله ﷺ.

٢ ـ اختُلِف في اسمه على وجوه كثيرة، وأصحّ ما قيل فيه «عبد الرحمن ـ أو ـ عبدالله بن صخر الدَّوْسِي اليماني».

وكان اسمه قبل أن يسلم «عبد شمس» فلمَّا أسلم سمَّاه الرسول ﷺ: «عبد الرحمن».

وهو من قبيلة «دَوْس» المتفرِّعة من (الأَزْد) وكان لدَوْس أصنام ثلاثة تعبُدها وتعظِّمها، وهي: «ذو الْخَلَصَة» صنمها المفضل. ثم «ذو الكفَّيْن» و «ذو الشَّرىٰ» لكنَّ أبا هريرة لم يكن يحفل بأصنام قومه.

٣ ـ وكان «الطُّفَيْلُ بن عَمْرو» سيِّدُ «دَوْسٍ» وشاعرها، قد قدِم مكَّةَ معتمراً، فلقي رسول الله محمَّداً ﷺ فآمن به، وأسلم، وعاد إلى قومه «دَوْس» يبشِّر بهذا الدين الجديد، فلم يُسلِمْ معه أوَّلاً إلاَّ أبوه، وزوجته، ثم «أبو هريرة عبد شمس بن صخر» فكان «أبو هريرة» رابع قومه «دَوْسٍ» إسلاماً. قيل: وكان عمره يومئذٍ ثلاثاً وعشرين سنة، وكان ذلك مع أواخر العهد المكِّي

للرسول ﷺ. وظلَّ أبو هريرة في قبيلته بعد إسلامه لم يرحل إلى الرسول ﷺ مع شوقه وتلهُّفه إلى الهجرة إليه حتى السنة السابعة للهجرة.

٤ ـ ثمَّ هاجر مع كثيرٍ ممَّن أسلم من قومه الدَّوْسِيين إلى المدينة، يقودهم «الطُّفَيْلُ بنُ عَمْرٍو». وقدم على رسول الله ﷺ في المدينة لمبايعته على الإسلام مع مسلمي قومه، في السنة السابعة للهجرة، وكان الرسول حينئذ في غزوة خيبر ومعه جيش المسلمين، فصحَّ عند الوفد «الدَّوْسي» العزم على أن يلحقوا برسول الله ﷺ إلى خيبر، فساروا إليه، وحينما وصلوا إليه كان في حصار آخر حصنٍ من حصونِ خيبر.

فبايع الدَّوْسِيون رسول الله ﷺ على الإسلام، وكان «أَبو هريرة» أَوَّل المبايعين.

فقال له الرسول ﷺ: منْ أَنت؟

قال: أنا عبد شمس بنُ صخْر الدَّوْسي أبو هريرة.

فقال له: أَنت أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدَّوسي.

فقال أبو هريرة: نعم، أنا عبد الرحمن بن صخر.

٥ ـ صحب «أبو هريرة» رسول الله ﷺ، فكان أكثر أصحابه ملازمةً له، إذْ كان يلازمه عامَّة نهاره وجزءاً من ليله، حتى كانت يده مع يده يدور حيث دار، وقد كان يلازمه على شِبَعِ بطنه. وكان جريئاً على أن يسأل الرسول عن أشياء لا يسألُه عنها غيره.

٥ ـ اسْتَعْصَتْ أمّ أبي هريرة عليه فلم تُسلم، وكان بارًّا بها، فسأل رسول الله ﷺ أن يدعوَ لها، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أبي هريرة». فعاد إلى أمّه فوجدها قد أسلمت، وشهدت: أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمَّداً رسول الله.

٦ ـ وقالَ «أَبو هريرة»: يا رسول الله، ادعُ الله أن يُحَبِّبَني وأُمِّي إلى عباده المؤمنين، ويُحبِّبَهم إلينا.

فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هذا وأُمَّه إلى عبادِك المؤمنين، وحَبِّبْ إليهم المؤمنين».

فاستجاب الله دعاء رسوله فيهما.

٧ ـ كان «أَبو هريرة» حَرِيصاً على العلم، ولذلك كان كثير المسألة لرسول الله ﷺ، لا يخطر على باله أمرٌ إلاَّ سأل الرسول عنه.

٨ ـ دعا «أَبو هريرة» ربَّه بين يدي الرسول ﷺ، فقال: «اللَّهُمَّ إنِّي أسأَلُكَ عِلْماً لَا يُنْسَىٰ» فأَمَّنَ الرسول على دعائه، فكان دعاءً من الرسول له. وحدَّث عن نفسه فقال: قلت: يا رسول الله، أسمع منك أشياء فلا أحفظها. قال: «ابسُط رداءك» فبسطته، فحثىٰ بكفَّيْهِ فيه، فحدَّث حديثاً كثيراً، فما نسيت شيئاً حدثني به.

٩ ـ سَكَنَ الصُّفَّةَ في مسجد الرسول ﷺ، وهي ناحية مُظَلَّلة في بعض جوانب مسجد الرسول، كان يسكنها ويبيت فيها أضياف الإِسلام، ويأوي إليها فقراء المسلمين، ومساكينهم، ومن لا منزل له يسكنه، وأصل الصفة في اللُّغة هي الظلَّة.

١٠ ـ اعتمر مع الرسول ﷺ، وشهد (ذات الرقاع) و(مؤته) و(فتح مكَّة) و(حنيناً) و(تبوك) وحجَّ مع أبي بكر، وحجَّ مع النبيّ في حجَّة وداعه.

١١ ـ في أواخر السنة الثامنة للهجرة، أرسله الرسول ﷺ إلى البحرين، مع العلاء بن الحضرمي، لدعوة أهل البحرين إلى الإِسلام، وكان ملكهم «المنذر بن ساوى».

فقال «أَبو هريرة» للرسول: إنَّه يَعزُّ عليَّ فراقُك يا رسول الله، ولكِنِّي أُطِيعكَ فيما أحببت.

وقال له الرسول عند وداعه: «أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه».

وأسلم (المنذر بن ساوى) وأسلم بإسلامه الكثير من قومه.

وبعث رسول الله ﷺ (أبان بن سعيد بن العاص) والياً على البحرين، ومعه أمر الرسول بعودة العلاء بن الحضرمي وأبي هريرة إلى المدينة.

وعاد (أبو هريرة) إلى حيث كان، مع أهل الصفّة عريفاً عليهم، بعد نحو ستّة أشهر من العام التاسع للهجرة.

١٢ ـ أرسله (أبو بكر) في خلافته إلى البحرين مع العلاء بن الحضرمي، ليعلّم الناس ويفقّههم بدين الله.

١٣ ـ ثم ولّاه (عمر بن الخطاب) في خلافته على البحرين، ثم عزله، ثمّ دعاه ليولّيه فاعتذر، واتخذ المدينة مقرّ إقامته المفضّل، كلّما سافر عاد إليها.

١٤ ـ أجمع أهل الحديث على أنّه أكثر الصحابة حديثاً عن رسول الله، وأحفظهم، روي عنه ما يزيد على (٥٣٠٠) حديث.

١٥ ـ أرسل إليه (مروانُ بنُ الحكم)، وطَلَب منه أن يحدِّثه بحديث رسول الله ﷺ، فجعل يحدِّثه، وكان قد أجلس كاتبه خلف السرير ليكتب ما يُحدّث به، حتّى إذا كان في رأس الحول أرسل إليه فسأله، وأمر كاتبه أن ينظر فيما كتب عنه سابقاً، فما غيَّر حرفاً عن حرف.

١٦ ـ توفي سنة (٥٧) أو (٥٩) للهجرة، وكان عمره (٧٨) سنة، رضي الله عنه.

* * *

ب ـ اللُّغة والمعنى المراد:

١ ـ «تضمَّن الله»: أي تكفَّل الله، يقال: فلان ضامن وضمين، ككافل وكفيل، وضَمِنَ الشيء وضَمِن به ضماناً أي كفل به.

٢ ـ «لمن خرج في سبيله»: أي لمن خرج مجاهداً مقاتلاً في سبيل الله، وسبيل الله في القتال: هي الطريق التي يتبع فيها أوامر الله ونواهيه،

والتي تؤدي إلى إعلاء كلمة الله في الأرض، والتي توصل السالك فيها إلى رضوان الله وثوابه الجزيل.

والجهاد: هو بذل غاية الجُهْد، والمبالغة في استفراغ ما في الوسع والطاقة في مقاومـة العدو أو أية قوة أخرى معارضة، وهو مصدر جاهَدَ يجاهد مجاهدة وجهاداً، وصيغة فاعل تدلُّ على المشاركة، تقول جاهدت العدوّ إذا قاتلته.

٣ ـ «لا يُخرجُه إلَّا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي»: أي لا يخرجه داعي الخروج إلى القتال إلَّا لأجل الجهاد في سبيلي، والإيمان بي، والتصديق برسلي.

وهذا الكلام من قوله: (لا يخرجه) إلى قوله (أو غنيمة) حديث قدسي منسوب إلى الله، وهو على تقدير كلام قبله يفصل ما بين كلام الرسول وكلام الله، وقد حذف إيجازاً في القول، وتقديره: قال عزّ وجلّ: من خرج مقاتلاً لا يخرجه داعي الخروج إلَّا جهاداً في سبيلي، أو نحو ذلك، وقد فُهم هذا من قوله ﷺ: تضمَّن الله لمن خرج في سبيله، أي قال في ضمانه: من خرج مقاتلاً لا يخرجه إلى آخر ما أورده الرسول من قول الله في الحديث القدسي.

٤ ـ «فهو علَيَّ ضامِنٌ أن أدخله الجنة»:

أي فهو ذو ضمان على الله أن يدخله الجنة.. إلى آخره.

قال في لسان العرب: قال الأزهري: وهذا مذهب الخليل وسيبويه، لقوله تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ انتهى.

أي ما في الآية يشبه ما في الحديث من كون المجاهد صاحب ضمان على الله فهو كالمهاجر الذي وقع أجره على الله.

أو ضامِن بمعنى مضمون، وقد أورِد اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول، أي فهو مضمون، وضمانه على الله.

أو فهو ضامن لنفسه بشيء محقَّق حسب وعد الله، وما ضمنه لنفسه فعلى الله تحقيقه، وقد جاء إيراد الكلام على مثل هذا الأسلوب لأن الوعد الحق بهذا الجزاء العظيم قد كان من قِبَل الله تعالى، فإن احتاجت القضية إلى ضامن فإنه لا يوجد ضامن من دون الله للمؤمن إلاّ نفس المؤمن بالله الواثق بوعده، ولكنه إذا ضمن لنفسه ذلك فهو غير قادر بذاته على الوفاء، لذلك فلا بدّ أن يكون ضامناً على الله لنفسه أن يحقّق الله له ذلك الجزاء الموعود به، فهو نوع من التفويض الإلّهي للمؤمن بأن يضمن لنفسه عن الله بهذا الأجر، وهذا المعنى دقيق جداً ولكنه في رأيي سديد يعطي التعبير ما يستحقه من دقة، وسموّ وروعة.

والضمان على الله شبيه بأن تقول: أقرضني مئة درهم على فلان إذا كان مَن تَعْنيه قد فوضك بأن تقترض على ذمته.

٥ - «ما من كَلْم يُكْلَم»:

أي ما من جَرْح يُجرَح، والكَلْم بفتح الكاف وسكون اللام الجراحة في الجسم.

٦ - «يَشُقّ على المسلمين»:

بضم الشين، أي يثقل عليهم وتصيبهم منه شدة، تقول: شقَّ عَلَيَّ الأمر يشق شقاً ومشقَّة، إذا ثقل عليك وأصابتك منه شدَّة.

٧ - «ما قعدت خلاف سرية»:

أي ما قعدت بعدَ سرية دون أن أخرج غازياً معها.

والسريَّة: جماعة مختارة منتقاة من الجيش لا يتجاوز أقصاها أربعمائة مقاتل، وجمعها السَّرايا سميت بذلك لأنها تسري ليلاً في خُفية لئلا يعلم بها العدو، أو لأن أفرادها يكونون في العادة خياراً من العسكر ينتقون انتقاءً، أخذاً من السَّرِيّ وهو الشريف النفِيس.

والسَّرية في اصطلاح علماء السيرة النبوية هي الغزاة التي لا يكون فيها الرسول ﷺ، أمَّا التي يكون فيها فتسمى غزوة.

٨ ـ «لا أجدُ سعةً فأحملهم»:

أي لا أجد لهم عُدَّةً كافية للقتال من سلاح أو خيل، فأتمكن من حملهم كلهم على الخروج إلى قتال العدو.

* * *

ج ـ الشرح العام:

إن ذروة السنام في الإسلام إنما هو الجهاد في سبيل الله، فيه يكون نشر الدين، وردُّ المعتدين، وعزة الموحدين، وإرهاب عدو الله، وعدوّ المسلمين، وآخرين من دونهم من المفسدين.

وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلاَّ ذلُّوا، وما تركوا الإعداد له إلاَّ هانوا وضعفوا، وما أخلدوا إلى الأرض ورغبوا في الحياة الدنيا عن الآخرة إلاَّ ضيعوا دنياهم، وخسروا أنفسهم، ومكَّنوا عدوهم منهم، وما أخلوا بشروطه إلاَّ غُلِبوا وإن كثروا، وما اغتروا بأنفسهم واعتمدوا على قوتهم وطمعوا بمتاع الحياة الدنيا إلاَّ خذلوا.

والجهاد هو بذل غاية الجهد في مقاومة قوة أخرى معارضة، تقول: جاهدت العدوّ إذا قاتلته فبذلت كل وسعك، وبلغت غاية طاقتك، وهذه القوة المعارضة قد تكون من داخل نفس الإنسان وقد تكون خارجة عنها.

ولنسمّ جهاد القوة المعارضة الداخلة في نفس الإنسان: جهادَ النفس.

ولنسمّ جهاد القوة المعارضة الخارجة عن نفسه: جهادَ العدو.

ولكل من جهاد النفس وجهاد العدو أشكال ومراتب، ولا يتم جهاد العدو على الوجه المثمر ما لم يسبقه ويرافقه جهاد النفس:

جهاد النفس:

وجهاد النفس يكون بمقاومة جهلها وانحرافاتها الفكرية والاعتقادية بالعلم والمعرفة الحقة، وبمقاومة شهواتها الجامحة وأخلاقها الجانحة بوسائل التربية الفُضلى والسلوك الأقوم.

الأمثلة:

١ ـ كمقاومة الطمع فيها بالقناعة، وتحويل أطماعها إلى ما عند الله من أجر عظيم لأهل طاعته.

٢ ـ وكمقاومة الحسد فيها بالرضى عن قسمة الله، والاعتقاد بأن العطاء والمنع بيده، وأنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، وأن كلًّا من عطائه ومنعه لا بد أن يكون لحكمة يعلمها، وقد يكون كل منهما خيراً للإنسان متى رافقه طاعة الله ورضوانه.

٣ ـ وكمقاومة الشهوات المُلِحَّة بالصبر، وإطماع النفس بما عند الله من أجر، وتغذيتها بما أحلّ الله، والكفِّ عمَّا حرّم.

٤ ـ وكمقاومة الجبن والشح فيها بوسائل الإقناع والترغيب التي تُغذِّيها بأن الآجال والأرزاق محتومة، وتفتح أمامها أبواب الأمل والرجاء بما أعدَّ لباذلي أرواحهم وأموالهم في سبيله من أجر عظيم وثواب جزيل، وباستثارة كوامن الإيمان في القلب حتى تندفع النفس إلى مرضاة الله مشحونة العاطفة بقوة الإيمان، ومهدية السبيل بنور الإسلام. وهكذا.

وقد كان الصدر الأول من المسلمين يُسمُّون جهاد النفس الجهاد الأكبر، فإذا قفلوا من غزوة قالوا: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

جهاد العدوّ:

أما جهاد العدو فله وسائل شتَّى، تبدأ بوسائل الدعوة المختلفة التي

تتدرج من الأخف إلى الخفيف، فإلى الشديد فالأشد، حتى تنتهي بالقتال لتكون كلمة الله هي العليا.

ووسائل الدعوة هي كل ما يمكن أن يوصل فكرة الحق وتطبيقاته إلى عقول المعارضين ونفوسهم وأعمالهم، فمنها ما يلي:

١ ـ الدعوة الحكيمة، وتكون:

أ ـ باللسان: ويقتدي المجاهد في ذلك بجهاد الدعوة الذي قام به الرسول صلوات الله عليه، والنخبة الممتازة من صحابته، وتابعيهم بإحسان.

وتتضمن الدعوة الحكيمة باللسان الإقناع بالحديث الخاص، والإقناع بالخطابة العامة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في [سورة النحل: ١٦]:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. . . . (١٢٥)﴾.

ويمكن أن يكون المراد من الحكمة وسائل الإقناع بالعلم والحجج المنطقية البرهانية، وأن يكون المراد من الموعظة الحسنة وسائل التـأثير الخطابي بالترغيب والترهيب.

ب ـ بالكتابة نثراً وشعراً: ويكون ذلك بالمؤلفات والمقالات وسائر وسائل النشر المكتوبة، التي تدخل إلى النفوس من طريق الإقناع الفكري، والتأثير الوجداني.

٢ ـ بالأسوة الحسنة: وتكون بأن يجعل الإنسان من نفسه قدوة حسنة محببة يقتدي بها الآخرون، اعتقاداً وقولاً وعملاً وخلقاً.

٣ ـ بالتربية والتعليم: ويكون البدء بهذه الوسيلة منذ المراحل الأولى للطفولة، لأنها حينئذٍ تكون أنفذ إلى أعماق النفس، وأكثر تأثيراً، وأبقى مع الزمن.

٤ ـ ببذل عرض الحياة الدنيا لتأليف القلوب على الخير والهدى: ويكون ذلك ببذل المال والجاه وأنواع المعونات والصلات المادية والمعنوية والمساعدات والعطاءات، وما أكثر ما كان الرسول صلوات الله عليه يبذل من ذلك لتأليف القلوب إضافة إلى كون حب العطاء خلقاً أصيلاً فيه، قال اللَّهُ تعالى في [سورة التوبة: ٩]:

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)﴾.

٥ ـ بقوة السلطان: ويكون ذلك بتسخير قوة السلطان المعنوية ثم المادية لهداية الناس إلى الخير، وإلزامهم به، وله وجوه تطبيقية كثيرة جداً.

٦ ـ بإعداد القوة التي تربو على قوة العدوّ من مالٍ وسلاحٍ ورجالٍ وخبرات، وغير ذلك، قال تعالى في [سورة الأنفال: ٨]:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ... (٦٠)﴾.

٧ ـ بالقتال لإعلاء كلمة الله: وتكون هذه الوسيلة في آخر الأمر إذا لم تُجْد كل الوسائل الأخرى من دونه، وأصبح المسلمون تحت الخطر بالنسبة إلى عدوهم.

وإذ ألجأت الضرورة إلى سلوك سبيل القتال فإن القتال يستدعي الجود بالنفس، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

ومن أجل ذلك كان له حظ الشهادة في سبيل الله، وكان للمقاتل في سبيل الله من الضمان الإلّهي أن يُدخِلَه الله الجنة، وأن ينال ما لا يوصف من أجر عنده.

ولكن له ركناً أساسياً لا بد منه، وهو أن يكون جهاده في سبيل الله، ويعني هذا الركن العام في دلالته، ما يشمل تحديد الباعث له على الخروج إلى القتال، والمطلب الذي يسعى إلى تحقيقه في الدنيا، والغاية القصوىٰ التي يرجوها عند الله.

وذلك لأن الضمان الذي ضمنه الله للمقاتل إنما هو لمن خرج في سبيله لا يخرجه أي دافع دنيوي، وإنما يخرجه ما يلي:

أ ـ **باعث أسمى في نفسه يحركه إلى الخروج**، ألا وهو باعث الإيمان بالله والتصديق برسله وهو ما أشار إليه الحديث في الفقرات القدسية منه، وذلك في قوله: «إيماناً بي وتصديقاً برسلي».

ب ـ **ومطلب يسعىٰ إلىٰ تحقيقه في الدنيا** إذ يقذف بنفسه إلى معترك الموت بإذن الله وطاعته فَيَقْتُلُ أو يُقتَلُ: ألا وهو نشر دين الله وإعلاء كلمته، ويدل عليه من الحديث قوله: «إلَّا جهاداً في سبيلي» أي في سبيل نشر ديني وإعلاء كلمتي، كما جاء التصريح به في حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل فقيل له: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمَغْنَم، والرجل يقاتل لِيُذكر، والرجل يقاتل لِيُرى مكانه، والرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حَميَّة ويقاتل غضباً، فمَن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

جـ ـ **وغاية قصوى يرجوها عند الله**، ألا وهي نيل رضوانه، وبلوغ جنته وما أعدَّ الله من عظيم أجر للمجاهدين المقاتلين في سبيله، ويدلُّ عليها من الحديث أيضاً قوله: «إلَّا جهاداً في سبيلي» أي في سبيل بلوغ رضواني، وما أعددت من أجر لباذلي أنفسهم في طاعتي.

الشروط التي يجب توافرها أثناء القتال:

وهناك شروط لا بد من توافرها أثناء القتال في سبيل الله، فبعد تحديد الغاية من القتال، وإعداد العدّة له، والتصميم على مباشرته، ابتغاء نشر الدين، ودفعاً لعدوان المعتدِين، يجب على المقاتلين في سبيل الله أن يتقيدوا بالمنهج التطبيقي الذي شرعه الله في القتال، ويلتزموا جميع الشروط التي أمرَ الله بها فيه، وينتهوا عمَّا نهى الله عنه ونستطيع أن نجمل الشروط التي يجب توافرها فيما يلي اقتباساً من الآيات القرآنية في القتال:

الشرط	الدليل
١ ـ وحدة الغاية	١) الآية: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ التوبة (٤١) والآية: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الأنفال(٣٩) والحديث «لَا يُخْرِجُهُ إلَّا جِهَاداً في سَبِيلي وَإيمَاناً بي وَتَصْدِيقاً بِرُسُلِي».
٢ ـ وحدة صف المقاتلين وتماسك جماعتهم	٢) الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ الصف (٤)
٣ ـ الاعتماد على الله في تحقيق النصر. وعدم الاغترار بالنفس	٣) الآية: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال (١٠) والآية: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ التوبة (٢٥)

الشرط	الدليل
٤ ـ شدة البأس في القتال .	٤) الآية : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ **الأنفال (٥٧)**
٥ ـ الثبات والمصابرة ٦ ـ عدم تولية الأدبار ٧ ـ الإكثار من ذكر الله	٥) و٦) و٧) الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ **الأنفال (٤٥)** والآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ **الأنفال (١٥ ـ ١٦)**
٨ ـ الطاعة ٩ ـ عدم التنازع في الأمر	٨) و٩) الآية : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ **الأنفال (٤٦)** والآية : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ

الدليل	الشرط
وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ آل عمران (١٥٢)	

الروح المعنوية العالية في جيش المسلمين:

ومتىٰ تلمَّس المقاتلون في أنفسهم هذا الباعث علىٰ القتال، وحدَّدوا لأنفسهم سبيل العمل إذ يباشرون جهادهم لإعلاء كلمة الله، واستحضروا في قلوبهم أنهم يبتغون من جهادهم نيل رضوان الله وثوابه، وقاموا بشروط القتال كما أمرهم الله، كانوا كتلة من القوة والبأس رهيبة، لأن من استجمع كل ذلك نُزع الجبن من قلبه، فلم يخش الموت، فأقبل على القتال شديد البأس، ثابت القدم، متلهفاً إلى بلوغ إحدى الحسنيين:

١ ـ النصر وإعلاء كلمة الله.

٢ ـ الشهادة عنده وبلوغ رضوانه.

كما أنه يجد معونة الله مصاحبة له مهما كَرَّ أو فرَّ، ويعلم أن وعد الله بالنصر للصادقين معه المخلصين له لا بد محقق، لأنه فيما يقوم به إنما يقاتل عدوَّ الله وعدوَّ المسلمين وهو يعتقد أنه يقاتل بإذن الله وأمره، مؤيداً بعون الله وقهره، موعوداً بأجر الله ونصره.

ولذلك ترتفع قوة المقاتلين في سبيل الله بحسب ما في قلوبهم من إيمان وصبر وصدق مع الله حتى يكون الواحد منهم كفؤاً للعشرة من العدو في الحد الأعلى ولاثنين من العدو في الحدِّ الأَدنىٰ، ويدل علىٰ ذلك قوله تعالى في سورة [الأنفال: ٨].

﴿يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُنْ مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُوْنَ (٦٥) أَلْئَٰنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُم وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَينِ وَإِنْ يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾.

هذه قوة المؤمن الصابر بخلاف الذي يقاتل حمية وعصبية، أو يقاتل من أجل الوصول إلى مال أو مجد دنيوي، أو يقاتل في سبيل حزب أو زعيم، أو غير ذلك من أمور الدنيا، فإنه إن يخرج إلى القتال فما أسرع ما يَدبُّ الذعر إلى قلبه، ويصيبه الخوف والهلع، إذ يقول لنفسه ما قيمة المال إذا فقدت حياتي، ولماذا أموت ليكون غيري زعيماً أو ذا مجد، وأي مجد أمسك به إذا أصبحت في الغابرين.

ثم إنه في الغالب متىٰ وجد لنفسه منفذاً للفرار من المعركة أخذ سبيله إليه، إلَّا أن يغلب على ظنه أنه بقوته منتصر، وأن عدوه ضعيف أو جبان، أو أن يقوم في نفسه أنه أصبح ملزماً بالقتال وإلَّا قُتِل، فهو يحاول أن يقاتل ليدفع عن نفسه الموت بما استطاع.

ومن أجل ذلك نلاحظ أن الجيوش تعاني أكبر ما تعاني مما يسمَّى عند العسكريين بفقد الروح المعنوية.

أما جيوش الإسلام الصادقة مع الله المقاتلة لإعلاء كلمته، وابتغاء تحقيق رضوانه، واستحقاق جنته، فإنها قلَّما تصاب بفقد الروح المعنوية، حتَّى ولو لم يتحقق لها الظفر المادي على العدو، لأن كل مقاتل فيها يعتقد

أنه قد ظفر بما يقاتل من أجله وهو بلوغ رضوان الله وتحقيق الأجر عنده، وأنه يقاتل لغاية هو يرجوها ويطلبها ولم يفرض عليه القتال لمصلحة غيره.

أما النصر المادي فيعتقد أنه بيد الله يؤتيه من يشاء لحكمة يعلمها، وحكمة الله غير متهمة في قلوب المؤمنين.

ما جاء من الضمان الإلّهي لمن خرج في سبيل الله:

يقول الله سبحانه في الحديث القدسي:

﴿مَنْ خَرَجَ لَا يُخْرِجُهُ إلَّا جِهَادَاً فِي سَبيلي وَإيماناً بِي وَتَصْدِيقاً بِرُسُلي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أُرْجِعَهُ إلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيْمَةٍ﴾.

أي من خرج إلى قتال أعداء الله مستجمعاً هذه الشروط فقد حقَّ له وعد من الله صادق، فليضمنه على الله لنفسه، والوعد: هو أن يدخله الله الجنة إذا قتل في سبيل الله، أو يرجعه إلى مسكنه نائلاً من الأجر العظيم ما لا يُقدَّر إذا سلم، وقد يصيب مع الأجر العظيم غنيمة من العدو يأكلها حلالاً طيباً ما لم يأخذها بمعصية أو غلول.

و(أو) في (أو غنيمة) بمعنى الواو، ويظهر لي أنها استعملت في هذا المقام بدل الواو لأن المعطوف عليه وهو الأجر أمر محقق، أما الغنيمة فقد تحصل وقد لا تحصل والله أعلم.

ما جاء من الترغيب بالجهاد في سبيل الله على لسان الرسول:

ولقد رغب الرسول صلوات الله عليه بالقتال في سبيل الله إذ أوضح في الحديث صورة صك الشهادة التي يحملها يوم القيامة كل مجاهد أصابه في سبيل الله جرح ما صغيراً كان أو كبيراً، إذ يأتي وجرحه ينزف دماً، لونه لون دم وريحه ريح مسك، وإنها لأعظم شهادة مرئية يأتي بها المجاهد في موقف الحساب، يشهدها أهل المحشر ويتنسمون ريحها، ويكرمون صاحبها، ويشهدها الملائكة فيأخذون بيد صاحبها إلى مقام التكريم، وتكون له وثيقة

مباركة يجتاز بها إلى ما أعدَّ الله من أجر للمجاهدين في سبيله، فقال الرسول مُقْسماً:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ الله إلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ».

تقديم الرسول المصلحة العامة على رغبته الخاصة:

وإذا كان للقتال في سبيل الله كل هذا الأجر العظيم، فلماذا لا يخرج الرسول بنفسه مع كل سريَّة تقاتل في سبيل الله؟

سؤال طرحه الرسول على نفسه ولم يصرح به ولكنه أعطى الإجابة عليه، بكلام يُعلن شدَّة ولعه بأن يكون مع كل سرية تغزو في سبيل الله، وشدة ولعه بأن يغزو في سبيل الله فَيُقتَل، ثم يغزو فيُقتَل، ثم يغزو فيُقتَل، مرات ومرات، حتى ينال ثواب الغزاة المجاهدين المقاتلين في سبيل الله، ويكون من الشهداء عنده، إلَّا أنه يرجِّح مصلحة المسلمين العامة على رغبته الخاصة، ويعطي في ذلك سُنَّةً للقادة من بعده، لأنه لو خرج مع كل سرية لشقَّ ذلك على المسلمين، فإما أن يتحملوا ما لا يطيقون فيخرجوا معه دون أن يكون لديهم العدة الكافية لمقابلة العدو، فيعرضوا أنفسهم للهلاك، وإما أن تتقطع قلوبهم حزناً إذا تخلفوا عنه وتركوه يخرج للقتال مع السرايا، فقال الرسول مقسماً:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ الله أَبَدَاً وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ الله فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ».

* * *

د ـ مما يستفاد من الحديث:

١ ـ الضمان بالجنة لمن يقتل في سبيل الله.

٢ ـ الأجر العظيم الذي يفوق التقدير الإنساني للمجاهد في سبيل الله.

٣ ـ أن الجرح الذي يجرح في سبيل الله يأتي يوم القيامة مثل هيئته يوم جرح إلَّا أن ريحه كريح المسك يعبق طيباً.

٤ ـ للقائد العام أن يتخلف عن الجيش المقاتل إذا كان تخلفه لمصلحة عامة للمسلمين أكبر من خروجه إلى القتال.

٥ ـ مشروعية إرسال السرايا وجواز تخلف قسم من المسلمين عن القتال وذلك ضمن التخطيط العام الذي تقتضيه المصلحة السياسية العليا للمسلمين.

٦ ـ كون الرسول يودّ أن ينال منزلة الشهداء في سبيل الله، فيغزو فيقتل، ثم يغزو فيقتل، ثم يغزو فيقتل، وهذه المحبة لا تتعارض مع ما وعده الله به من العصمة من الناس، لأن العصمة التي حفظه الله بها من الناس لمصلحة الرسالة التي يحملها، والأمة التي يقودها ويسوسها، أما محبته الشهادة في سبيل الله فلينال هو أجر الشهداء، وليبين للمسلمين أنه وهو الرسول الكريم ذو المنزلة العظمى التي لا يبلغ شأوها أحد، يودّ لو يقتل في سبيل الله، ليضيف إلى منزلته العظمىٰ درجة الشهداء، وليبين لهم أنه أسبق منهم إلى بذل روحه في سبيل الله، وأنه لا يبخل بنفسه، ولا يجبن عن قتال. وقد كان صلوات الله عليه في الغزوات أشجع الناس.

* * *

البَلاغة وَالإعـرابْ

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

في الحديث الذي نحن في صدد شرحه وجوه بلاغية متعددة، منها ما يلي:

١ ـ الإيجاز بالحذف في ثلاثة مواضع:

أ ـ في قوله: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه»:
(أي قال: من خرج خروجاً للقتال) لا يخرجه. أو نحو ذلك.

ب ـ في قوله: «لا يخرجه إلاَّ جهاداً»:
أي لا يخرجه (داعي الخروج) إلاَّ جهاداً. أو نحو ذلك.

جـ ـ في قوله: «لولا أن يشُق على المسلمين ما قعدت»:
أي لولا أن يَشُقَّ على المسلمين (خروجي مع كل سرية للقتال) ما قعدت. أو نحو ذلك.

٢ ـ القصر: في قوله ﷺ: ما من كَلْم يُكْلَم في سبيل الله إلاَّ جاء يوم القيامة. وهو من باب قصر الموصوف على الصفة.

٣ ـ التشبيه: في قوله: كهيئته يوم كُلِم، وفيه تشبيه صورة الجرح إذ يجيء يوم القيامة بصورته يوم جُرح، وقد أشار قوله ﷺ: (لونُه لونُ دم) إلى جانب من وجه الشبه. أمَّا قوله: (وريحه مسك) فهو استدراك لبيان الفرق بين

حالته عند الجرح في الدنيا وحالته إذ يجيء يوم القيامة.

٤ ـ تأكيد الخبر بالقسم في مواضع:

أ ـ والذي نفس محمد بيده ما من كلم. . .

ب ـ والذي نفس محمد بيده لولا أن يشُقّ. . .

جـ ـ والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو. .

وقد جاء بالقسم فيها لبيان شدة رغبته ﷺ بالجهاد والشهادة في سبيل الله، ولتأكيد الحث على الجهاد في سبيل الله، ولم يورد القسم لأن فضل الجهاد مشكوك به عند المخاطبين، حتى يحتاج إلى تأكيد، ولكن لأن جُبْن النفوس يبطئها عن الخروج إلى القتال، فاحتاجت إلى المبالغة في تأكيد فضله بالقسم ليخفِّف عوامل الجبن في الأنفس، ولهذا نزلوا منزلة الشاكين أو المنكرين في حاجتهم إلى القسم، وقد يلاحظ فيه أيضاً معالجة نفوس المنافقين.

* * *

ثانياً: من الإعراب

١ ـ «تضمَّنَ الله لِمَنْ خرج في سبيله»:

فعل ماض وفاعله. لمن خرج: اسم موصول مجرور باللام وهو متعلق بتضمَّن. وجملة خرج في سبيله صلة الموصول. أما المضمون به فمحذوف يفسره ما يأتي، تقديره أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه إلى آخره. .

٢ ـ «لا يُخرجُه إلاَّ جهاداً في سبيلي وإيماناً بي»:

جملة لا يخرجه وما بعدها جزء من مقول فعل القول المحذوف وتقديره: قال الله: مَنْ خرج خروج قتال لا يخرجه إلاَّ جهاداً في سبيلي. . إلى آخره.

وفاعل يخرجه ضمير يعود على الخروج الذي قدرناه في الكلام المحذوف للإيجاز. إلَّا جهاداً: إلَّا أداة حصر. جهاداً: مفعول لأجله، فهو من الاستثناء المفرغ، وقد فُرِّغَ هنا إلى المفعول لأجله، في سبيلي: متعلق بـ (جهاداً) أي معمول له، أو متعلق بمحذوف صفة، أي جهاداً كائناً في سبيلي.

وإيماناً بي: (إيماناً) معطوف على (جهاداً) والمجرور (بي) معمول لـ (إيماناً) ومثلها (وتصديقاً برسلي).

٣ ـ «فهو عَلَيّ ضامن أن أدخلَه الجنة»:

الفاء واقعة في جواب الشرط الذي سبق أن قدرناه قبل (لا يخرجه) هو وفعل الشرط المحذوفان للإيجاز.

هو: مبتدأ. ضامِن: خبر. عَلَيّ: جار ومجرور متعلق بضامن. أن أدخِلَه الجنة: المصدر المسبوك من أن الناصبة وما بعدها في محل نصب مفعول به لضامن، أو في محل جر بحرف جرّ محذوف تقديره بأن أدخله، وهو معمول لضامن.

٤ ـ «نائلاً ما نال من أجرٍ»:

نائلاً: حال من الضمير في أرجعه. ما: اسم موصول في محلّ نصب مفعولاً به لنائلاً، أو مصدرية، والمصدر المسبوك منها ومن (نال) مفعول مطلق لنائلاً، والتقدير: نائلاً نواله. من أجرٍ: معمول لنال.

٥ ـ «والذي نفس محمد بيده»:

الواو: للقسم. الذي: اسم موصول في محل جرّ بواو القسم، وهو متعلق بفعل القسم المحذوف. نفس: مبتدأ. محمد: مضاف إليه. بيده: متعلق بخبر محذوف. والجملة صلة الموصول.

٦ ـ **«ما من كَلْم يُكَلم في سبيل الله إلَّا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِم»**:

ما: نافية. من: حرف جر زائد جيء به لتأكيد استغراق الجنس. كَلْمٍ: مجرور لفظاً مرفوع تقديراً على أنه مبتدأ. يُكْلَم: مضارع مرفوع وهو مبني للمجهول، ونائب فاعله ضمير يعود على كَلْم.

في سبيل الله: معمول ليُكْلم. وجملة (يكلم في سبيل الله) صفة لكلْم.

إلَّا: أداة حصر. وجملة جاء يوم القيامة كهيئته: في محل رفع خبر لكَلْم، وفاعل جاء ضمير يعود عليه. و(يوم القيامة): ظرف لجاء. (كهيئته) متعلق بمحذوف حال من فاعل جاء، أو الكاف اسم في محل نصب حال. (يوم كلم) ظرف زمان منصوب على الظرفية، وهو متعلق بمحذوف صفة للهيئة، أي كهيئته الكائنة يوم كلم. ولا يصح تعليقه بجاء لأنه ليس (يوم كُلِمَ) ظرفاً لمجيئه يوم القيامة.

كُلِم: ماض مبني للمجهول، ونائب فاعله ضمير يعود على الكَلْم في (ما من كَلْم).

٧ ـ **«لولا أن يَشُقَّ على المسلمين ما قعدت خلاف سريَّةٍ»**:

لولا: حرف امتناع لوجود، وهي تدخل على جملتين: الأولى اسمية والثانية فعلية، وتدخل عليهما لربط الثانية بوجود الأولى، ولمَّا كان الذي بعدها هنا (أن يَشُق) وهو فعل لزم أن نقدر مبتدأ محذوفاً، وهو مضاف للمصدر المسبوك من أن والفعل، والتقدير: لولا مخافة أن يَشُق على المسلمين. وفاعل يَشُق محذوف لدلالة ما بعده عليه، ويمكن تقديره كما يلي: لولا أن يَشُق على المسلمين خروجي مع كل سرية ما قعدت خِلافَ سرية، وهذا من الأمثلة التي لا نجد لها تخريجاً إلَّا على أن الفاعل فيها محذوف، مع أن علماء النحو لا يجيزون حذف الفاعل لأنه ركن الإسناد الأول، كما أن علماء البلاغة لم يوردوا مثالاً لحذف المسند إليه إذا كان فاعلاً.

وخبر المبتدأ الواقع بعد لولا محذوف وجوباً تقديره: موجودة، أي لولا مخافة المشقة موجودة. على المسلمين: معمول ليشق. ما قعدت خلاف سرية: خِلافَ: ظرف زمان بمعنى بعد، منصوب على الظرفية، وهو معمول لقعدت، والجملة واقعة جواب لولا.

٨ ـ «ولكن لا أجد سعةً فأحملَهم»:

لكن: حرف استدراك. أحملَ: مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء.

٩ ـ «ويَشُق عليهم أن يتخلفوا عني»:

أن يتخلفوا: المصدر المسبوك من أن والفعل في محل رفع فاعل يشق.

١٠ ـ «فأقتَلَ»: منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء لوقوعها بعد التمنِّي (وَدِدْتُ).

* * *

الحديث الرابع

عَنْ أَبي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«مَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ الله بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىٰ إِنَّما هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ الله وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

رواه البخاري ومسلم

أ ـ ترجمة (أَبي موسَىٰ الأشعري) راوي الحديث:

١ ـ هو أَبو موسى عبدالله بن قيس الأشعري، نسبة إلى أشْعَر، وهي قبيلة من قبائل العرب.

قال الجوهري: والأشْعَر هو أبو قبيلة من اليمن، وهو أشعر بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطَان.

٢ ـ صحابي جليل أسلم قبل الهجرة، قدم مكة في المرحلة المكية قبل هجرة الرسول ﷺ فأسلم، فبعثه النَّبِيُّ مع المهاجرين إلى الحبشة، فذهب إلى بلاده، ولمَّا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة خرج من بلاده مع جماعة من قومه ومعه إخوان له هو أصغرهم وكانوا قرابة (٥٢) قاصدين المدينة، فألقتهم السفينة بأرض الحبشة، فوجد فيها المسلمين المهاجرين إليها، فبقي معهم، ثُمَّ قَدِم معهم إلى النبي ﷺ وفيهم جعفر بن أبي طالب، وكان الرسول ﷺ في فتح خيبر فلحقوا به.

انظر التوفيق الذي ذكره ابن حجر في الفتح (٧/ ١٣٠)

٣ ـ كان صاحب صوت جميل، حسن الترتيل لكتاب الله، ذا عناية به، وبتحبيره، وتحسين الصوت به، حتَّى كان جمعٌ من أصحاب الرسول ﷺ يجلسون إليه ويستمعون القرآن منه.

وكان عمر بن الخطاب إذا رآه قال له: (شَوِّقْنا إلى رَبِّنا يَا أَبَا مُوسى) فيجلس أبو موسى فيتلو القرآن، ويجلس عمر خاشعاً إلى جنبه، ويجلس معهما جمع من المسلمين.

وقام أبو موسى يوماً يتهجَّد في المسجد النبوي، ويتلو القرآن في صلاته بصوته الجميل، فجلس الرسول ﷺ على باب حجرته، واستمع إليه وأنْصَت، ثمَّ لمَّا أصبح قال لأبي موسى:

«لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ إِلَىٰ قِرَاءتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آل داود».

وقال الرسول ﷺ لأصحابه:

«إنَّ عَبْدَالله بْنَ قَيْسٍ أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آل دَاودَ».

٤ ـ استعمله النبيّ ﷺ على زبيد وعدن، وحين بعثه مع معاذ بن جبل إلى اليمن أَمَرهما أن يُعلِّمَا الناس القرآن، وقال لهما:

«تَسَانَدَا، وتَطَاوَعَا، وَبَشِّرَا، وَلَا تُنَفِّرَا».

٥ ـ ولَّاه عمر على البصرة، فكان يدعو لعمر في خطبته، وقال لأهل البصرة: إنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعثني إليكم أعلِّمكم كتاب ربكم عزَّ وجل، وسنَّة نبيِّكم ﷺ، وأنظف لكم طرقكم، فكان يطوف في مسجد البصرة، فيقعد في حِلَق الناس فيُعلِّمهم القرآن ويفقههم في الدين.

واستعمله عمر أيضاً على الكوفة، وولي الكوفة زمن عثمان.

وكان أبو موسى رجل إدارة وحكمة وسياسة، وشهد له عمر أمام أنس بالكياسة، أي بالعقل، وأوصاه أن لا يخبر أبا موسى بذلك.

٦ ـ أخرج الحاكم عن ابن عبَّاس، أنَّ النبيَّ ﷺ استعمل أبا موسى على سريَّة البحر، فبينما هي تجري بهم في البحر في الليل، إذْ ناداهم منادٍ من فوقهم: ألا أخبركُمْ بقضاءٍ قضاه الله على نفسه؟. إنَّه من يعطش لله في

يومٍ صائف، فإنَّ حَقَّاً على الله أن يُسقيه يوم العطش الأكبر.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

٧ ـ نزل وهو أمير بأصبهان، فعرض على أهلها الإسلام، فأبَوْا، فعرض عليهم الجزية، فصالحوه على ذلك، فباتُوا علِى صُلْح، حتى إذا أصبحوا أصبحوا على غَدْر، فبادرهم القتال، فلم يكن أسرع من أن أظهره الله عليهم.

٨ ـ قال الشعبي: خذوا العلم عن ستة، وذكر فيهم أبا موسى الأشعري.

وقال ابن المديني: قضاة الأُمَّة أربعة: عمر، وعلي، وأبو موسى، وزيد بن ثابت.

٩ ـ كان كثير الحياء من ربِّه ستّيراً لعورته، فكان إذا اغتسل في البيت المظلم لا يقيم صُلْبه حتى يأخذ ثوبه حياء من ربِّه.

١٠ ـ سأله عمر: يا أبا موسى، أيسرُّك أنَّ عملك الذي كان مع رسول الله ﷺ خلَص لك، وأنَّك خرجت من عملك (أي: في الإمارة) كفافاً، خيره بشرّه، وشرّه بخيره.

قال أبو موسى: لا يا أمير المؤمنين، والله قدمتُ البصرة، وإنَّ الجفاء فيهم لفاشٍ (أي: الجهل وقلة العلم) فعلَّمتهم القرآن والسنة، وغزوت بهم في سبيل الله، وإنِّي لأرجو بذلك فضله.

١١ ـ توفي رضي الله عنه سنة (٤٢) للهجرة، وقيل سنة (٤٤) وقيل غير ذلك، عن عمر بلغ (٦٢) سنة.

جمعاً من كتاب (حياة الصحابة) و (مشكاة المصابيح).

* * *

ب ـ اللغة والمعنى المراد:

١ ـ «من الهُدَى والعلم»:

الهُدَى: هو الرشاد، والدلالة إلى طريق الحق والخير والسعادة، وهو ضدّ الضلالة، والهُدَى يذكَّر ويؤنث.

ولمَّا كان مما جاء به الرسول صلوات الله عليه بيانُ الصراط المستقيم المؤدي إلى رضوان الله، وسعادة الإنسان في الدنيا دار الابتلاء والآخرة دار الجزاء كان جديراً بأن يطلق عليه أنه الهُدَى.

العلم: هو الفهم المطابق للواقع، ويدخل فيه حقائق الأخبار التاريخية، والحقائق الغيبية، والحقائق العقلية، والحقائق العملية التي تكسب المتحلي بها سعادة الدارين، ومَنْ تأمل فيما جاء به الرسول مما وصل إلينا بطريق يقيني صادق تبين له أنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢ ـ «كمثل غيث»:

مَثَل ومِثْل: كلمة تسوية، يقال: هذا مِثْله ومَثَله، كما يقال: شِبْهُهُ وَشَبَهُهُ.

ودخول الكاف على مثل زائدة للتأكيد ولتزيين اللفظ، فالمراد من (كمثل) كالمراد من (مِثْل).

وتأتي كلمة (مثل) بمعنى الصفة لغة، وعلى هذا فلا لزوم لاعتبار الكاف في (كمثل) زائدة للتأكيد.

غيث: الغيث المطر. وغاثَ الغَيْثُ الأرض إذا أصابها. ويقال: غاثَ الله البلاد يَغيثها غيثاً إذا أنزل بها الغيث.

٣ ـ «طائفة طيبة»:

الطائفة من الشيء جزء منه أو قطعة منه، يقال طائفة من الأرض،

وطائفة من الليل، وطائفة من الناس.

أما الطائفة من الناس فتطلق على الرجل الواحد فما فوق، وقيل: أقل الطائفة رجلان. قال تعالى في [سورة الحجرات: ٤٩]:

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما... (٩)﴾.

طيبة: الطيب خلاف الخبيث، ويقال أرض طيبة إذا كانت تصلح للنبات، وامرأة طيبة إذا كانت حصاناً عفيفة، وبلدة طيبة أي: آمنة كثيرة الخير، وتربة طيبة أي: طاهرة، وهكذا. وكلها ترجع إلى معاني الجودة والكمال ونفي الخبث.

٤ ـ «**فأنبتت الكلأ والعشب**»:

الكلأ: عند العرب ما تنبته الأرض من مرعى الدواب.

العُشْب: هو الرطب من البقول البرية ينبت في الربيع، واحدته عُشْبَة، وجمع العُشْب أعشاب.

٥ ـ «**وكان منها أجادب**»:

الأجادب من الأرض: قال ابن الأثير: (الأجادب صِلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً).

قال ابن منظور في لسان العرب: (وقد يكون جمع أجْدُب الذي هو جمع جَدْب. مثل كَلْبٍ وأكْلُب وأكالب) فهو على هذا جمع الجمع.

٦ ـ «**إنَّما هي قيعان**»:

القيعان: جمع قاعٍ. والمراد من القيعان في الحديث أنواع من الأرض لا تمسك الماء، ولا تنبت الكلأ، وهذه تكون عادة في أرض صلبة قاسية مستوية، أو أرض رملية غير صالحة للنبات، أو صخور قاسية ملساء.

٧ ـ «**فذلك مثل من فَقُه في دين الله**»:

فذلك: الإشارة إلى مختلف أصناف الأرض التي وردت في التشبيه.

فَقُه: بضم القاف أي صار الفقه له سجية وخلقاً لازماً، والفِقه الذي هو مصدر فقُه هو الفهم الدقيق العميق. أما فَقِه بكسر القاف فمعناها فَهِم.

٨ ـ «وَمَثَل مَنْ لم يرفعْ بذلك رأساً»:

هذا التعبير كناية عن أنه ظلَّ معرضاً، فلم يستجب لما جاء به الرسول صلوات الله عليه من هدىً وعلم، ولم يُصغِ إليه سمعاً، لأنَّ من عُرِض عليه أمرٌ فلم يكترث به، لم يرفع رأسه لاستماعه، فضلاً عن أن يهتمّ بالعمل به.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

١ ـ مقدمة:

تضمن هذا الحديث من كلام الرسول صلوات الله عليه بياناً لمعْظَم أحوال الناس وأقسامهم بالنسبة إلى ما بعث الله به رسوله من الهدى إلى الصراط المستقيم، والعلم بأصول الدين وأحكام الشريعة التي اصطفاها الله، وختم بها رسالاته للناس. وذلك في صورة تشبيهية بالغة الروعة، أبرزت أصنافاً ثلاثة من الناس، وأصنافاً ثلاثة من الأرض، هذه بالنسبة إلى الغيث الذي ينزله الله من السماء إلى الأرض، وتلك بالنسبة إلى العلم والهدى اللَّذين أنزلهما الله من السماء وبعث بهما نبيَّه محمداً ليبلغهما للناس.

٢ ـ مثل ما بعث الله به نبيَّه كمثل الغيث:

ما أشبه الهديَ الإسلامي، والعلمَ الربَّاني بالغيث تجود به السماء.

أ ـ فهما أمران فيهما حياة الناس المعنوية حياةً سعيدة باذخة المجد عزيزة الجانب، والغيث فيه حياة الأرض ونضارتها ورونقها.

ب ـ وهما أمران منزَّلان على رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ من السماء، أي من جهة السمُوّ المعنوي، والسمُوّ المادي أيضاً بالنسبة إلى الأرض، والغيث ينزل من السماء، أي من جهة السموّ المادي بالنسبة إلى

الأرض، ومن جهة السموّ المعنوي أيضاً، لأنه إنما ينزل بمشيئة الله، وعلى وفق مراده.

جـ ـ وهما أمران نقيان طاهران من كل باطل أو فساد، والغيث نقي طاهر من كل رجس.

د ـ وهما أمران يُقدِّمهما الرسول إلى الناس جميعاً على سواء ليتعلموا ويهتدوا، والغيث إذ ينزل في بلد فإنه يشمل رقعة أرضها، فيصيب مختلف أصنافها على سواء دون أن يفرِّق بين حجر صلد، ورمال غير متماسكة، وتربة خصيبة.

فما بعث الله به نبيَّه محمداً من الهدى والعلم مُشبَّه، والغيث مشبَّه به، والأمور الأربعة التي ذكرناها هي وجوه الشبه، ولكن هذه الوجوه لم يُصرَّح بها في الحديث، لأنها مما يمكن استنباطه بالتأمل فكان حذفها أبلغ من ذكرها.

إنه تشبيه بين مُنَزَّلَيْن من السماء، أحدُهما هُدى وعلم، والآخر ماءٌ طهور.

وفي الحديث تشبيه آخر إذ يشبه الرسول الناس بالأرض، هؤلاء أنزل الهدى والعلم لحياتهم وخيرهم، وهذه ينزل الماء لحياتها وخيرها، والناس بالنسبة إلى الهدى والعلم أصناف كما أن الأرض بالنسبة إلى ماء السماء أصناف.

٣ ـ طائفة طيبة من الأرض يشبهها طائفة طيبة من الناس:

ففي الأرض طائفة طيبة، حسنة التربة، منخفضة الجانب، متعطشة للغيث، مستعدة للحياة، خيِّرة مِعطاء، غنية بالخصب والنماء، يصيبها الغيث فتقبله امتصاصاً ورشفاً، وتحتويه في كل ذرَّة منها، حتى إذا بلَّ جفافها، وخالط ذرَّاتها، وأروى ظمأها، وسقى بزورها، تفتقت عن خيراتها بزروع شتَّى، وثمرات مختلفات، واهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، فأقبل كل منتجع للخير فأخذ منها شبعاً ومدخرات، واستنبط منها ريّاً إذا شاء.

وهذه الطائفة الطيبة من الأرض متفاوتة في مقادير جودتها وخصوبتها وعطائها، فمن خيِّرة غنيَّة كثيرة العطاء إلى رقيقة فقيرة قليلة الخصوبة.

وعلى مثل هذه الطائفة الطيبة من الأرض نجد في الناس أمام غيث الهدى والعلم قسماً طيباً، حسن الفطرة، ليِّن العريكة، موطأ الأكناف، متعطشاً للمعرفة، مستعداً لخير الحياة، يُعرضُ عليه الهدى والعلم اللذين بعث الله بهما رسوله محمداً صلوات الله عليه، فيقبله بلهفة وشوق قبول الظامىء إليه، حتى إذا خالط منه عقلاً واعياً، وقلباً مطمئناً، ونفساً هينة لينة، تدفقت منه الأعمال الصالحة، وتفجرت منه ينابيع الحكمة، تسقي الواردين، وتمنح القاصدين، وتعطي فضلها للبعداء الجاهلين. وأفراد هذا القسم الطيب من الناس متفاوتون كذلك في مقادير ما عندهم من استعداد للهداية والعلم والنفع والعطاء، ففيهم نخبة ممتازة كالخيرة الجلَّة من أصحاب رسول الله، وهم السابقون الأولون، ثم تتنازل المراتب حتى تصل إلى أدناها ممن عنده إيمان قليل صحيح مقبول عند الله، وقليل من خير ونفع للناس.

أفلسنا نرى تشابهاً كبيراً بين هذه الطائفة الطيبة من الأرض، وهذا القسم الطيب من الناس، في كثير من وجوه الشبه، أمام متشابهين آخرين، هما الغيث، وما جاء به الرسول من الهدى والعلم؟

٤ ـ طائفة أجادب من الأرض يشبهها قسم من الناس:

وفي الأرض طائفة لا خصب فيها، ولا خير عندها، ولكنها مطمئنة الجانب، يصيبها الغيث من السماء فتحفظه في منخفضاتها، وفي تجاويفها، ولا تستكبر عن تلقيه وحفظه، مع أنها لا ترتشفه ولا يخالط منها تربة صالحة، لذلك فهي لا تعطي ثمراً، ولا تنبت نباتاً حسناً، ولكنها تحفظ ما ينزل عليها من الغيث، فيأتي الناس فيجدون ما عندها من ماء، فيأخذونه، فينتفعون به، يسقون ويزرعون، ويَرِدون ويوردون، وهذه الطائفة من الأرض متفاوتة في مقادير ما تحفظ من ماء، على مقدار ما عندها من استعداد للاستيعاب، فمنها

ما يحوي البحيرات الضخمة ومنها ما يحوي الجرعات الخفيفة، ومنها ما هو بين ذلك.

وفي الناس أمام غيث الهدى والعلم طائفة أجادب كذلك لا تقبل في ذاتها الخير والهداية، فلا تُنبتُ عملاً صالحاً، ولا تمنح خيراً، ولا ثمراً، ولكنها تستوعب ما يلقى إليها من علم ومعرفة استيعابَ الحفظِ المجرد، لا استيعاب الحفظ مع العمل والتطبيق، فيأتي إليها طلّاب الهداية والمعرفة، فيجدون ما عندها من ذلك، فيتعلمونه ويعملون به وينتفعون وينفعون، ويستفيدون ويُفيدون.

وهذا القسم من الناس هم الذين يستمعون إلى الهـداية والعلم، ويتعلمون ما يسمعونه فيحفظونه كلَّه أو بعضـه، ولكنهم لا يعملون بما يعلمون، ولا يُطبِّقون ولا ينتفعون.

فيأتي إليهم طالب المعرفة والهداية، فيجد ما عندهم من علم فيأخذه عنهم فينتفع به، ويهدي به الناس.

أما هم فعن الخير لأنفسهم بعيدون، وللعمل الصالح مجافون، وهم العلماء الذين لا يعملون بما يعلمون.

وقد أنزل الله في علماء اليهود الذين لا يعملون بعلمهم قوله في [سورة الجمعة: ٦٢]:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ واللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥)﴾.

وأفراد هذا القسم من الناس متفاوتون في مقادير ما عندهم من استعداد للاستيعاب والمعرفة، فمنهم من يستوعب علماً جمّاً، ومنهم دون ذلك، وتتنازل المراتب حتى مرتبة الذي لا يعلم إلّا المسائل اليسيرة.

أفلسنا نرى تشابهاً كبيراً بين هذه الطائفة الأجادب من الأرض، وبين

هذا القسم من الناس الذي يحمل العلم ولا يعمل به، ولا ينتفع به؟

٥ ـ طائفة قيعان من الأرض يشبهها قسم من الناس لا خير فيه:

وفي الأرض قيعان، صخور قاسية ملساء، وأرض مستوية صلدة، ورؤوس جبال مستكبرة، ورمال قاسية مبعثرة، ينزل عليها الغيث من السماء، فيصيبها كما يصيب غيرها من الأرض، ولكنها لا تمتص ماءً، ولا تمسكه، ولا تحفظه، ولا تنبت كلأ ولا عشباً، فهي لا تنتفع من الماء بنفسها، ولا تمسكه لمن ينتفع به.

وعلى مثل هذه القيعان من الأرض نجد قيعان أخرى من الناس، يقرع أسماعها هَدْيُ الإسلام وعلومه، وتصدم عيونها أنواره، وتنزل عليها غيوثه، ولكنها لا تعبأ بهديٍ منه ولا معرفة، ولا ترفع بشيء من ذلك رؤوسها، قسوةً في قلوبها، وكِبْراً في أنوفها، وجفاءً في طباعها، فهي لا تقبل من الحق الذي جاء به عملاً ولا علماً، يحجبها عن الخير شيء في نفوسها، مثل الشيء الذي نجده في صخرة صماء من الأرض، وإن افتخرت على التراب الطيب بقساوتها، أو ارتفاع مكانها، فما هذا بفخر يذكر، ولا بمجد يؤثر، وإنما الفخر كل الفخر لأرض طيبة تنبت الجنات، وتعطي الثمرات، وتفيض بالخيرات والبركات، وإن انخفض مكانها ولان جانبها.

أو يحجبها عن الخير مثل الشيء الذي نجده في أرض صلبة مستوية ينسفح عنها الماء، أو في رمل صلب الذرات لا تماسك فيه.

هذا القسم من الناس هو قسم الكفرة الجهلة الذين يستكبرون عن العلم والعمل معاً، وتقسو قلوبهم، وتتحجَّر عقولهم، فهم لا خير عندهم لأنفسهم، ولا خير عندهم لغيرهم.

* * *

د ـ مما يستفاد من الحديث:

١ ـ الناس أقسام ثلاثة: س٣/ اذكر أقسام الناس الثلاثة؟

أ ـ متعلمون عاملون نفَّاعون، مثلهم كمثل الأرض الطيبة.

ب ـ متعلمون غير عاملين، فيهم نفع لغيرهم دون أنفسهم، مثلهم كالأجادب من الأرض.

جـ ـ لا عاملون ولا يتقبلون العلم والمعرفة. فهم لا خير فيهم لأنفسهم ولا لغيرهم، ومثلهم كمثل القيعان من الأرض.

٢ ـ بلاغة الرسول صلوات الله عليه في تقريب الحقائق العلمية بالأمثلة والتشبيهات الحسية، لأن ذلك أدعى إلى تثبيت الحقيقة في نفوس السامعين، وأكثر تأثيراً في توجيهها للخير.

٣ ـ ما جاء به الرسول من هدى وعلم يتضمن حياة الناس كما أن الغيث فيه حياة الأرض.

* * *

٤ ـ الإسلام كالغيث ماء طهور نقي وهو ينقي الهواء والبيئة وفيه الحياة

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

في الحديث وجوه بلاغية متعددة، منها ما يلي:

١- (التشبيه) في خمسة مواضع:

الأول: تشبيه الهدى والعلم بالغيث، وفي هذا تشبيه معقولٍ وهو الهدى والعلم بمحسوس وهو الغيث.

وقد ذكر في هذا التشبيه المشبَّه والمشبَّه به وأداة التشبيه وذلك في قوله: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث» وهو من باب التشبيه (المرسل) لذكر أداة التشبيه فيه و(المجمل) لعدم ذكر وجه الشبه.

الثاني: تشبيه الناس بالأرض.

وفيه تشبيه مُحَسٍّ بِمُحَسّ، وذلك في قوله: «أصاب أرضاً» وقد ذكر فيه المشبه به وأداة التشبيه ولكنه لم يذكر المشبه ولا وجه الشبه.

وهذا من باب التشبيه (المرسل) لذكر أداة التشبيه و(المجمل) لعدم ذكر وجه الشبه.

الثالث: تشبيه القسم الطيب من الناس بالطائفة الطيبة من الأرض، وذلك أخذاً من قوله: «فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ

والعُشب الكثير» مع قوله بعد ذلك: «فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلَّم».

وهذا من باب التشبيه (المرسل) لذكر أداة التشبيه فيه، و(المجمل) لعدم ذكر وجه الشبه، ولا يخرجه عن كونه مجملاً ذكر أوصاف للمشبه والمشبه به فيها إيماء إلى وجه الشبه، لأنها لم تسق مساق بيان وجه الشبه كما نص على ذلك علماء البيان.

الرابع: تشبيه الفريق من الناس الذي لا يعمل بما يعلم بالأجادب من الأرض.

وهو تشبيه لم يذكر فيه المشبه للعلم به من ذكر الفريقين الأول والثالث ولا أداة التشبيه ولا وجه الشبه، فهو من باب التشبيه (المؤكد) لعدم ذكر الأداة، و(المجمل) لعدم ذكر وجه الشبه، ويسمى هذا التشبيه (البليغ).

الخامس: تشبيه المعرض المستكبر من الناس الذي لا يعمل ولا يقبل معرفة الهداية والحقائق بالقيعان من الأرض، وذلك أخذاً من قوله: «وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان» مع قوله بعد ذلك: «ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلت به».

وهو من باب التشبيه (المرسل) لذكر أداة التشبيه، و(المجمل) لعدم ذكر وجه الشبه، ولا يؤثر فيه ذكر أوصاف للمشبه والمشبه به فيها إيماء إلى وجه الشبه، كما سبق بيان ذلك.

٢ـ (التنكير) في قوله: (أرضاً) والغرض منه التنويع:

٣ـ (القَصْر) في قوله: «إنما هي قيعان» وهو من باب قصر الموصوف على الصفة، أي: ما هي إلَّا قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، وقد أتى الرسول بالقصر في هذا القسم دون القسمين السابقين، إبرازاً لواقع حال المشبَّه وهم الجهلاء المعرضون الكافرون، أي ليسوا إلا مثل القيعان المقصورة على

صفتها الثابتة، وهي أنها لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، كذلك فهم مقصورون على صفة ثابتة لهم مماثلة لصفة القيعان، وهذه الصفة فيهم هي أنهم لا خير فيهم لأنفسهم ولا لغيرهم.

٤ ـ (**الكناية**) في قوله: «ومثَلُ مَنْ لم يرفعْ بذلك رأساً» ففيه كما سبق كناية عن عدم استجابة هذا المعرض، لما جاء به الرسول من الهدى والعلم، وعدم الإصغاء إليه بالكلية، فهو لم يرفع رأسه به.

* * *

ثانياً: من الإعراب

١ ـ من الهدى والعلم:

(من) جارة بيانية، و(الهدى) مجرورة بها بكسرة مقدرة منع من ظهورها التعذر. وهو متعلق بمحذوف حال من الضمير في (به) أي: مثل ما بعثني الله به كائناً من الهدى والعلم.

٢ ـ كمثل غيث:

جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لـ (مثل) الأولى. والمعنىٰ: مثل صفةِ غَيْثٍ.

أو تعرب الكاف زائدة و(مثل) هو الخبر والضمة مقدرة منع من ظهورها اشتغال الآخر بحركة الكسرة التي جلبتها الكاف. أو الكاف اسم وقع خبراً أو زائداً للتأكيد و(مثل) بعده مضاف إليه.

٣ ـ قبلت الماء: الجملة في محل رفع صفة لـ (طائفة).

٤ ـ أمسكت الماء: الجملة صفة لـ (أجادب).

٥ ـ إنما هي قيعان: (إنما) أداة حصر. (هي) مبتدأ (قيعان) خبر.

٦ ـ لا تمسك ماء: الجملة صفة لـ (قيعان).

* * *

الحديث الخامس

عَنْ أَبِي مُوْسَىٰ الأَشْعَرِيِّ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ: لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ».

رواه البخاري ومسلم

أ ـ ترجمة راوي الحديث (أبي موسى الأشعري):

سبقت في الحديث الرابع.

* * *

ب ـ اللغة والمعنى المراد:

١ ـ **القرآن**: اسم لكتاب الله المعجز الذي أنزله الله على نبيِّه محمد صلوات الله عليه، ووصل إلينا بالتواتر.

وأصل كلمة قرآن مصدر قرأ بمعنى تلا، وبمعنى جمع. تقول: قرأت السورة قرأً وقراءةً وقرآناً إذا تلوتها، وتقول: قرأت الماء في الحوض قرآناً إذا جمعته فيه.

وكتاب الله القرآن على المعنى الأول أفضل مقروء متلو، وعلى المعنى الثاني هو أفضل وأعظم وأحكم ما جمع من كلام.

٢ ـ **الأُتْرُجَّة**: واحدة الأترج، ويقال فيها: تُرُنْجَة، وترنج، وهو ما يسمى في بلاد الشام (الكَبَّاد)، فاكهة من الحمضيات ذات رائحة طيبة، وقشرة الكبير منه يبلغ سمكها نحو عقدة الأنملة، ويصنع من قشره أجود أنواع المرَبَّى، ولبُّه شديد الحموضة كثير الفائدة.

وذكر لي بعض الطلبة اليمنيين أنَّ في اليمن عندهم فاكهة تسمى الأترج

طعمها حلو ورائحتها طيبة. وهذه لا نعرفها فقد تكون هي المعنيّة. والله أعلم.

٣ ـ **التمرة**: واحدة التمر، وهو اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء، فإذا أريد به الأنواع جُمع على تمور وتُمْران، وجمع التمرة تمرات بالتحريك.

٤ ـ **المنافق**: اسم فاعل من نافق ينافق منافقة ونفاقاً، والنفاق هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهو بهذا المعنى اسم إسلامي لم تعرفه العرب قبل الإسلام، ولكنه مأخوذ من نافقاء اليربوع (= دُوَيبة فوق الجُرَذِ) وذلك لأن اليربوع يتخذ لنفسه في الأرض نَفَقَين أو أكثر، يجعل في الأرض بينهما حجاباً رقيقاً، ويجعل على أحدهما ستراً من التراب. والعرب تسمي أحد النفقين النافقاء. وتسمي الآخر القاصعاء، فإذا لوحِق اليربوع من القاصعاء ضرب الحجاب الرقيق بين النفقين برأسه فخرج من النافقاء، وإذا لوحِق من النافقاء ضرب الحجاب الرقيق إلى القاصعاء وفرَّ منها.

وقد شُبِّه ما يفعله من يُظهِر الإسلام ويبطن الكفر بذلك، لأنه إذا لوحِق من قبَل المؤمنين بكفره فرَّ وأظهر نفسه في صف المسلمين، وإذا لوحِق من قبَل الكافرين فرَّ وأظهر أنه منهم، ويصوّر القرآن حقيقة المنافقين بقول الله تعالى في سورة [البقرة: ٢]:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤)﴾.

٥ ـ **الرَّيْحانة**: هي الطاقة الواحدة من الريحان، والريحان يُطلق على كل نبت طيب الرِّيح من أنواع المشموم.

٦ ـ **الحنظلة**: واحدة الحنظل، وهو ثمر معروف شديد المرارة لشجر يسمَّى العلقم.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

مقدمة:

بدأ الإسلام بالدعوة إلى القراءة فكان أول ما بُدىء به من الوحي قوله تعالى لنبيِّه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم. علَّم الإسان ما لم يعلم﴾.

وذلك لأن القراءة أهمّ وسيلة لاكتساب المعارف والعلوم، وأعظم وسيلة لتثبيتها ونشرها وتخليدها للأجيال، كما أنها من أهم الوسائل ذات الأثر في الفكر والعمل، لأن القارىء حينما يقرأ النص بعيداً عن صاحبه الذي كتبه أو أملاه يقرأه وهو متجرد من أكثر العوامل التي تغذي في الإنسان حُبّ المعارضة، فتسري إليه الحقيقة البينة، دون أن يجد صعوبة في الاقتناع بها.

ولما كانت رسالة الإسلام تعتمد على أسس العلم، وتستند إلى الحقيقة النيِّرة، وتساير كل معرفة صحيحة، وتمجد كل نظر سديد، كان من البَدَهيّ فيها أن تحثّ على التعلُّم والنظر، وتتبع الحقائق واكتساب المعارف، ولما كان القرآن أعظم كتاب يهدي للتي هي أقوم علماً وخلقاً وسلوكاً وتربية كان أفضل مقروء وأعظم متلو.

لذلك نجد الرسول صلوات الله عليه يحث على قراءة القرآن وتدبره في أحاديث شتَّى، وفي هذا الحديث يبين الرسول فضل قارىء القرآن على غيره، في صورة تشبيهات بأمور مُحَسَّة، ويقسم فيها المسلمين إلى أربعة أقسام، يُشَبِّه كل قسم منها بثمرة من ثمرات الأشجار مناسبة له، مأخوذة من واقع البيئة العربية.

فالمسلمون قسمان: مسلمون صادقون بإسلامهم وهم المؤمنون، ومسلمون كاذبون بإسلامهم وهم المنافقون، وكل من هذين القسمين المؤمنين والمنافقين إمَّا قارىء للقرآن أو غير قارىء له، فالأقسام إذن أربعة، وقد أورد الرسول لكل من هذه الأقسام الأربعة تشبيهاً مناسباً له.

مثل المؤمن القارىء للقرآن:

فالمؤمن الذي يقرأ القرآن مثله كمثل الأترجة، بجامع طيب الباطن وطيب الظاهر في كلٍّ منهما، وذلك لأنه يحوي في باطنه جوهرة الإيمان التي لا تقدر بثمن فهو طيب الباطن، وهو ينفح بـقراءته للقرآن عطر المعرفة، وشَذَا التلاوة، فهو طيب الظاهر، كما أن الأترجة طيبة الباطن إذا شُقَّ عن باطنها وطُعِمَ لبُّها، وطيبة الظاهر، لأن قشرتها تنفح بعطر زكي.

أما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن فقد حوى طيب الباطن فقط، وذلك بفضل جوهرة الإيمان التي يحويها في قلبه، أما في الظاهر فقد خسر بعدم قراءته القرآن نفحات زكيات كان من الممكن أن تتضوَّع منه لو كان قارئاً، فمثله كمثل التمرة.

والمنافق الذي يقرأ القرآن خلا باطنه من جوهرة الإيمان، فهو سيء الباطن، لكنه بقراءته القرآن ينفح عطراً زكياً، فمثله كمثل الريحانة طيبة الرائحة مرة الطعم.

ورابع الأقسام المنافق الذي لا يقرأ القرآن، وهذا قد خلا باطنه من الخير. كما خلا ظاهره منه، فهو كالحنظلة ليس في ظاهرها رائحة جيدة وطعمها في باطنها مرّ علقم.

* * *

د ـ مما يستفاد من الحديث:

١ ـ فضل قارىء القرآن على غيره.

٢ ـ الحث على قراءة القرآن، لما للقراءة من أثر في الفكر والنفس والعمل.

٣ ـ قراءة القرآن وحدها من غير استكمال شرط الإيمان لا تضفي حلاوة على مرارة قلب المنافق بسبب نفاقه وإن زينت ظاهره بأريجها.

٤ ـ الأسلوب التربوي النبوي في تقريب الحقائق الفكرية بأمثلة مُحَسَّة مستقاة من بيئة المخاطبين، وقد سبق صلوات الله عليه في تطبيق هذا المبدأ التربوي علماء التربية بثلاثة عشر قرناً، كما هو شأنه في كل المبادىء والأصول التربوية المثلى، كيف لا؟ وقد تخرج من مدرسته عظماء الدنيا، وقادة التاريخ الأمثلون، فنشروا الحق والعدل والهدى والعلم في الأمم والشعوب.

* * *

البَلاغة وَالإعراب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

في هذا الحديث وجوه بلاغية متعددة منها ما يلي:

التشبيه في أربعة مواضع:

الأول: تشبيه المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة، ووجه الشبه جمع كل منهما لطيب الباطن وطيب الظاهر.

فالأترجة طيبة الظاهر لأن ريحها طيب منعش، وطيبة الباطن لأن طعمها طيب، والحموضة فيها لا تنافي طيب طعمها، لأن الطيبات مختلفات الطعوم، فمنها حامض، ومنها حلو، ومنها مالح، ومنها غير ذلك.

والمؤمن الذي يقرأ القرآن كذلك، فهو طيب الباطن، لأن قلبه ممتلىء باليقين والخير، وطيب الظاهر لأن للقرآن الذي يتلوه بلسانه نفحات عطرات، وآثاراً عظيمة أخرى في نفس التالي للقرآن، وفي نفوس من يستمع إليه، وهو تشبيه (مرسل) لذكر أداة التشبيه فيه، و(مجمل) لعدم ذكر وجه الشبه، وأما قوله: «ريحها طيب وطعمها طيب» فهو صفة للمشبه به، تتضمن إيماء إلى وجه الشبه ولكنها ليست هي وجه الشبه.

وبقية التشبيهات في الحديث مماثلة للتشبيه الأول منها.

ثانياً: من الإعراب

١ ـ **الذي يقرأ القرآن**: موصول وصلته، وهو مجرور صفة لـلمؤمن.

٢ ـ **مثل الأترجَّة**: (مثلُ): خبر لـ(مثل) الأولى. (الأترجة) مضاف إليه.

٣ ـ **ريحها طيب**: جملة من مبتدأ وخبر في محل نصب حال من الأترجة. وبقية ما في الحديث منه ما هو بيِّن واضح، ومنه ما يقاس على ما ذكرناه.

الحديث السادس

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِك، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمَاً نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ الله، قَالَ: «اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا» فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ الله، ثُمَّ قال:

«مَا مِنْكُنَّ مِن امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ ثَلاثَةً مِنَ الْوَلَدِ إلاَّ كَانُوا لَهَا حِجاباً مِنَ النَّارِ».

فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَيْنِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَاثْنَيْنِ».

رواه البخاري ومسلم

أ ـ ترجمة راوي الحديث (أبي سعيد الخدري):

سبقت في شرح الحديث الثاني.

* * *

ب ـ اللغة والمعنى المراد:

١ ـ «ذهب الرجال بحديثك»:

فعل (ذهب) فعل (لازم) وعُدّي هنا بواسطة الباء، أورد ابن هشام من معاني الباء الجارة التعدية، قال وتُسَمَّىٰ باء النقل أيضاً، وهي المعاقبة للهمزة في تصيير الفاعل مفعولاً. وأكثر ما تُعدّي الفعل القاصر، تقول في ذهب زيد: ذهبت بزيد، وأذهبته، ومنه ﴿ذهب الله بنورهم﴾ اهـ.

وأصل معنى الذهاب السير والمرور، ولكن المراد هنا أن الرجال استأثروا بحديث الرسول صلوات الله عليه فلم يبق للنساء وقت خاص بهنَّ، يتعلمن فيه ما يخصهنَّ ويتصل بشؤونهن من أمور الدين.

والإضافة في: (بحديثك) تفيد العموم، أي ذهب الرجال بكل أنواع حديثك أو بكل أوقات حديثك، وذلك لأن إضافة النكرة إلى المعرفة من الصيغ التي تفيد العموم ما لم توجد قرينة صارفة عن إرادة العموم.

٢ ـ «اجتمعن يوم كذا وكذا»:

(كذا) هنا: كلمة مركبة من كلمتين بحسب الأصل، هما كاف التشبيه وذا التي هي من أسماء الإشارة، وتستعمل كلمة واحدة كما هنا غير ملاحظ فيها معنى الكلمتين الأصليتين، وإنما يجاء بها للكناية عن أمر ما، إذا لم يقصد المتكلم تحديد ذلك الأمر، بل قصد أن يشير إليه إشارة عامة، أو كان يجهل تحديده.

فإما أن يكون الراوي هنا لا يعرف الأيام التي حدَّدها الرسول لاجتماع النساء حتى يأتيهن ويعلمهنَّ، وإما أن يكون رأى ذكر ذلك غير مهم في

الموضوع فكنّى عنه بقوله: «كذا وكذا».

٣ ـ «ما منكنَّ من امرأة تقدّم ثلاثة من الولد»:

امرأة، ومَرأة، ومَرَة: مؤنث امْرِىء، ومَرْىء، وهذه المفردات لا جمع لها من لفظها، إلَّا أنه جاء نادراً من مَرْءٍ مرؤون، ومنه قول رؤبة بن العجاج لطائفة رآهم: أين يريد المرؤون.

الوَلَد: والوُلد والوِلد: بفتحتين وبضم فسكون، وبكسر فسكون، يطلق على الواحد والكثير، والذكر والأنثى.

والمراد من قوله ﷺ: «تُقدِّم ثلاثة من الولد» أنهم يموتون قبلها، فتتقبل قضاء الله وقدره راضية غير متسخطة فكأنها قدمتهم بنفسها إلى الله، محتسبة أجر مصيبتها فيهم عنده، أو على معنى تقدم صبرها على موت ثلاثة من الولد، والصبر من الأعمال التي يستحق فاعلها الأجر عند الله بحسب وعده الكريم.

٤ ـ **«فقالت امرأة: واثنين؟»**: على الاستفهام، أي أو تَقديم اثنين من الولد كذلك، وقد دلَّ على المحاذيف قول الرسول: **«تقدِّم ثلاثة من الولد إلَّا كانوا لها حجاباً من النار»** وبقي جرّ اثنين لملاحظة المضاف المحذوف، وللدلالة عليه.

٥ ـ **«فقال رسول الله ﷺ: «واثنين»** على الإثبات، أي وتقديم اثنين من الوَلَد كذلك.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

الجرأة الأدبية عند المسلمات في عصر الصحابة:

هذا حديث من الأحاديث النبوية الكثيرة التي تصور لنا جرأة النساء

المسلمات في عصر الرسول صلوات الله عليه، وذلك في سعيهنَّ لنيل حقهنَّ من المعرفة بأمور الدين.

فهذه امرأة منهن تأتي إلى رسول الله بجرأة أدبية طيبة، مع رباطَة جَأش، فتقول له: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك. وذلك لأن الرجال كانوا يحتلون مكان المقدمة من مجالس الرسول، فتوجَّه إليهم أكثر كلماته وعظاته وبياناته، ولئن كان الإسلام في دعوته وأحكامه وتكاليفه ومواعظه يتناول الرجال والنساء على السواء. فإن بعض مسائله وأحكامه خاص بالرجال، وبعضها خاص بالنساء، أما الرجال فينالون حظهم من التعرُّف على ما يخصهم، إذ ليس بينهم وبين الرسول حجاب، ولديهم من الجرأة ما يسألون عن كل أمر من أمور دينهم، فهم يسألون الرسول عن ذلك أينما حلُّوا وأينما ارتحلوا، لكن النساء لا يستطعن دائماً أن يسأَلْنَ عمَّا يخصهنَّ من أمور الدين، ويحلُلْنَ به مشكلاتهنَّ، لعدم مشروعية المجتمع المختلط اختلاطاً تاماً في آداب الإسلام الاجتماعية، ولئن كُنَّ يحضرْنَ مجالس الرسول منعزلات عن الرجال فإنهنَّ ربما يستحين أمام الرجال أن يسألْنَ عنها.

لذلك فإن تعليمهن ما يخصهنّ، وحل مشكلاتهنَّ لا بد فيه من تخصيص مجالس لهنَّ تُعالج فيها أمورهـنّ، وتوجَّه لهن فيها الأحكام والمواعظ بحسب خصائصهنَّ النفسية والفكرية والخلقية والاجتماعية، وبحسب مسؤوليتهنَّ في الحياة داخل أسرتهن وخارجها، ولكل هذه الأمور أتبعت هذه المرأة من الصحابيات كلامها للرسول بقولها: (فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تعلمنا مما علَّمك الله).

هـذا هو الحلّ الوحيد الذي يتم فيه تعليم النساء، وإخراجهن من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، حتى يؤدين رسالتهنَّ في الحياة على أحسن وجه وأفضله، ويحملْنَ مسؤوليتهن كما يجب أن يحملنها، مع المحافظة على عفافهنَّ وأخلاقهن، وعدم قذفهنَّ إلى مجتمع مختلط تسرع إليه مفاسد المجتمعات المختلطة، وتشب فيه نيران الشهوات العارمة، التي تنتشر معها

المعاصي والآثام ومفاسد كثيرة أخرى.

لأن العلم الصحيح هو الوسيلة الأولى التي لا بد منها لإصلاح كل مجتمع، رجالِه ونسائِه كبارِه وصغاره.

ومن أجل ذلك حمل الإسلام لواء العلم والمعرفة، في أصوله وفروعه، وأحكامه وآدابه، كما حمل لواء الدعوة إليهما، بين مختلف طبقات البشر في كل أمرٍ من أمور الكون والحياة والنفس، الظاهر منها والباطن.

تعليم المرأة:

وقد حرص الإسلام على تعليم المرأة ما تكون به عنصر صلاح وإصلاح، في مجتمع إسلامي متطور إلى الكمال، متقدم إلى القوة والمجد، آمن مطمئن سعيد، فأذن باشتراكها في المجامع الإسلامية العامة الكبرى منها والصغرى، فرغّب بأن تحضر صلاة الجماعة، وتشهد خطبة الجمعة، وخطبة العيد، وأمرها بالحج والعمرة، وحثها على حضور مجالس العلم، وخاطب الله في القرآن النساء بمثل ما خاطب به الرجال، وأدمجهنّ في عموم خطاب الرجال في كثير من الأحوال، حرصاً على تعليمهن وتثقيفهن، وتعريفهنّ بأمور دينهنّ، ونظرة إلى واقع الحياة تبدي لنا أهمية صلاح المرأة علماً وخلقاً وسلوكاً داخل الأسرة، ثم في المجتمع الكبير، فبمقدار صلاح المرأة في الأسرة يكون غالباً صلاح النشىء والذرية فيها، وبمقدار فسادها يكون غالباً فسادهم، يضاف إلى ذلك ما لها من تأثير بالغ على الرجل زوجاً كان أو أباً أو أخاً، وأهمية صلاح المرأة لصلاح الأسرة أكثر من أهمية صلاح الرجل لصلاحها، وذلك لأن المرأة تستطيع أن تكون ذات أثر فعّال مرشد أو مفسد في تكوين أخلاق الأطفال الصغار وطبائعهم وعاداتهم، أكثر من الرجل بكثير، لعدة أسباب: منها ما وهبها الله من عاطفة متدفقة، ولين في الطبع، وقابلية للاندماج والمشاركة في أمور الصغار على مقدار طبائعهم ونفوسهم، مما له أثر كبير في اكتساب حُبّهم وإحراز ثقتهم، حتى يتخذوها قدوة لهم في

أقوالها، وأعمالها، وأخلاقها، وسائر تصرفاتها، ومنها واقع ملازمتها لأطفالها في أكثر أوقات نشأتهم، وهم ما يزالون بعدُ فطرة نقية، وعجينة لينة، قابلة للتكيُّف، فما يطبع فيها من خير جَفَّتْ عليه، وما يطبع فيها من سوء كذلك، ثم يعسر بعد ذلك التغيير والتبديل، متى صلُب عود الطفل، واقتبس شيئاً بالتقليد أو بالعادة، ومن شبَّ على شيءٍ شابَ عليه.

ولما كان للمرأة كل هذا الأثر في تربية الطفولة داخل أسرتها أو خارجها، كان لا بدَّ من العناية بتكوينها تكويناً راقياً، والعمل على جعلها قدوة صالحة وأسوة حسنة، وذلك لا يتم إلَّا بتعليمها ما تكون به المربية الفاضلة، وتربيتها تربية إسلامية حسنة، والاستفادة مما وهبها الله من عاطفة رقيقة لملء قلبها ونفسها بالإيمان والخير، حتى تغذيَ به جيلها الذي تنشئه وتربيه.

ولذلك كثيراً ما نلاحظ أولاداً فاضلين مهذبين، ثم نبحث عن سرّ ذلك فنعلم أن لهم أمَّاً مربيةً فاضلة، تقية مهذبة، وإن لم يكن أبوهم على مثل ذلك، ونلاحظ أولاداً فاسدين منحرفين، ثم نبحث عن سرٍّ ذلك فنعلم أن لهم أمَّاً منحرفة فاسدة، وقد يكون لهم آباء صالحون فاضلون. فلا عجب بعد كل هذه الموجبات لإصلاح المرأة علماً وعملاً وخلقاً حتى تكون مربية فاضلة داخل أسرتها وخارجها ضمن المجتمع النسائي الكبير أن نجد الرسول صلوات الله عليه يأمر النساء أن يجتمعْنَ أياماً محدَّدة اجتماعات خاصة بهنَّ ويأتيهن ويعلمهنَّ. فقال رسول الله صلوات الله عليه، «اجتمعْن يوم كذا وكذا».

ولما كانت النساء المسلمات في الصدر الإسلامي الأول متلهفات لمعرفة أمور دينهنَّ، وتبين حُلولِ مشكلاتهنَّ الخاصة فقد تبادرْنَ للاجتماع إلى مجالس الرسول الخاصة بهنَّ، فاجتمعْنَ، فأتاهن النبي ﷺ في المواعيد المحدَّدة فعلمهن مما علَّمه الله، فبيَّن لهن ما بيَّن، وسألنه عن مسائل تتعلق بخصائصهنَّ، وأجابهنَّ صلوات الله عليه.

ولما كان في صحابيات الأنصار جريئات في السؤال عما يتعلق بأحوال النساء وخصائصهنَّ أثنى عليهن الرسول ﷺ في إحدى المرات إذ دعا لهنَّ بالرحمة فقال: «رحم الله نساء الأنصار لا يمنعهنَّ حياؤهنَّ أن يسألن عن أمور دينهنَّ».

توجيه خاص من الرسول صلوات الله عليه إلى النساء:

فكان مما خصهنَّ به من توجيه قضية لها في واقع حياة المرأة أثر كبير، ألا وهي ما تتعرض إليه من الحزن الشديد على ما تفقده وتقدمه بين يديها من أولادها.

إنها قضية الموت، قضية القضاء والقدر التي لا تستطيع قوة مهما بلغت أن تتدخل فيها أو تغيِّر من واقعها شيئاً، وهي ابتلاء محزن شديد الوقع على النفوس كلها، لكنه على نفس الأم أشد وقعاً، وأكثر إيلاماً.

ومعلوم في حكمة الشريعة وفلسفة الدين أن الابتلاء بالمصائب يحمل في داخله نعمة تكفير السيئات، ورفع الدرجات، وزيادة الحسنات، ولما كانت المصيبة بالموت من أكبر المصائب في الدنيا كان الأجر بالصبر عليها والرضاء بقضاء الله فيها من أعظم الأجر، وبخاصة من تكون مصيبتها به أكبر، ألا وهي الأم، فكيف بهذه المصيبة إذا تكررت في حياة الإنسان مرتين أو أكثر. إن الأجر بذلك ينمو وينمو حتى يكون حجاباً لصاحبه من النار، أي مكفراً لخطيئاته وسيئاته التي يستحق عليها شيئاً من عذاب النار دون الخلود فيها، لأن حصول الأجر على المصائب مشروط بأن يكون المصاب مسلماً مؤمناً راضياً بقضاء الله غير متسخط عليه فيما يجري به مراده.

ولذلك خصَّهنَّ الرسول بخطابه فقال لهنَّ:

«ما منكن من امرأة تقدم ثلاثة من الولد إلَّا كانوا لها حجاباً من النار».

وهنا طمعت امرأة من الحاضرات مجلس الرسول الخاص بالنساء، فقالت على سبيل الاستفهام: (واثنين؟) ولعلها كانت ممن قدّم بين يديه إلى

الآخرة ولديْن، فقال رسول الله ﷺ: «واثنين» على سبيل الإيجاب.

وقوله ﷺ «تُقَدِّم» دون أن يقول يموت لها أو يؤخذ منها أو نحو ذلك، يشير إلى معنى التسليم لله والرضا بقضائه، وعدم التسخط عليه، لأن من يقدّم الشيء إنما يقدمه بحسب العادة عن رضا وتسليم، بخلاف من ينزع منه الشيء نزعاً، أو يغصب منه غصباً، أو يُسرق منه سرقة، فإن ذلك يغضبه ويسخطه حتى يكون منه ما لا يكون ممن يقدّم الشيء بنفسه.

ولما كان الموت أخذاً لا تقديماً كان الرضا والتسليم به بمثابة التقديم، ولا يمنع من ذلك ما يقع في القلب من الحزن الشديد، وما يظهر في العين من البكاء، لأنها عاطفة لا يمكن دفعها، وتأثر لا يملك الإنسان ردَّه، ولا يعارض الرضا والتسليم بما يجري به القضاء والقدر. فحينما توفي للرسول صلوات الله عليه ابنه إبراهيم قال: «إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ولا نقول إلاَّ ما يرضي ربنا: إنا لله وإنا إليه راجعون» فلم يكن حزن قلبه وبكاء عينه معارضاً لتسليمه ورضاه بقضاء الله وقدره.

* * *

د ـ مما يستفاد من الحديث:

١ ـ الجرأة الأدبية عند المسلمات في الصدر الأول.

٢ ـ رغبة الصحابيات بالعلم وسعيهن إلى معرفة أمور دينهنَّ.

٣ ـ اهتمام الإسلام بتعليم المرأة حتى تكون عضواً صالحاً في المجتمع الإسلامي، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتحسن القيام بمسؤوليتها في الحياة من عمل وخلق وتربية فاضلة لمن تشرف على تربيتهم.

٤ ـ مشروعية تخصيص العالم الموثوق مجالس لتعليم النساء وموعظتهنَّ، تكون بعيدة عن الخلوة المحرمة، وبعيدة عن أسباب الفتنة.

٥ ـ عِظَم أجر التي تصاب بموت وَلَدَيْن لها فأكثر، إلى حدّ أن يكون

ذلك مكفراً لها جميع سيئاتها حتى يكون حجاباً لها من النار.

٦ ـ حكمة الرسول صلوات الله عليه في اختيار الموضوعات التي تناسب النساء في المجالس التي عقدها لهنَّ.

٧ ـ بلاغة الرسول وإيجازه في المقام الذي يناسبه الإيجاز، وإطنابه في المقام الذي يناسبه الإطناب.

٨ ـ قول الرسول «واثنين» جواباً لسؤال المرأة بعد أن نصَّ في كلامه السابق على أن يكون التقديم لثلاثة من الولد، يحتمل أن يكون مأذوناً بذلك سابقاً، أو أن يكون نزل عليه الوحي بذلك ما بين سؤال المرأة وإجابتها، أو أن يكون العدد لا مفهوم له، وإنما راعى الرسول حالة خاصة عند بعض النساء الحاضرات فنصَّ عليها، ولما سئل عما دونها أجاب بالإيجاب، وربما لو سئل عن ولد واحد لأجاب بالإيجاب أيضاً، والله أعلم.

* * *

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان،

١ ـ القصر: في قوله ﷺ: «ما منكنَّ من امرأة تقدم ثلاثة من الولد إلَّا كانوا لها حجاباً من النار». . وهو من باب قصر الموصوف على الصفة، لأنه في معنى كل مسلمة تقدم ثلاثة من الولد هي محجوبة بهم من النار، أي ليس لها من الصفات يوم القيامة في موضوع النجاة وعدمها إلَّا الحجب من النار. وهو قصر إضافي لا حقيقي كما هو ظاهر.

٢ ـ الإيجاز: في قول المرأة (واثنين) وفي قول الرسول «واثنين» لما عرفنا من المحاذيف التي لا يتم المعنى بدونها، وهو إيجاز بليغ لدلالة الكلام السابق عليه.

٣ ـ التشبيه البليغ والمجاز المرسل: وذلك في قوله ﷺ: «إلا كانوا لها حجاباً من النار» أي كالحجاب من النار، وذلك لأن مصيبتها فيهم تكفِّر عن سيئاتها، ومتى كُفِّرت عنها سيئاتها دخلت الجنة فحجبت من النار.

أما المجاز المرسل: فهو بإطلاق أن يكون الأولاد الذين تقدمهم حجاباً لها من النار، والمراد مصيبتها بموتهم، أي إلَّا كانت مصيبتها بموتهم مكفرة لسيئاتها فهي كالحجاب لها من النار، فهو من إطلاق السبب وإرادة المسبَّب إذ موتهم سبب مصيبتها بهم، كما أن فيه مجازاً بالحذف لأن سبب مصيبتها إنما

هو موتهم فحذف المسبَّبُ وأقيم السبب مقامه، ثم حذف السبب وأقيم محلُّه مقامه.

* * *

ثانياً: من الإعراب

١ ـ (فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه):

(**لنا**) جار ومجرور متعلق بـ (**اجعل**)، أو بمحذوف حال من (**يوماً**) لأن الكلام في الأصل، فاجعل من نفسك يوماً (**لنا**)، فـ (**لنا**) على هذا صفة لـ (يوماً) والصفة إذا قدمت على موصوفها صارت حالاً.

(**من نفسك**) جار ومجرور متعلق بـ (**اجعل**) والكاف في محل جر مضاف إليه.

(**يوماً**) مفعول به لـ (**اجعل**) ولا يصح أن يكون ظرفاً هنا لأن المعنى على أنه مفعول به.

وجملة (**نأتيك فيه**) في محل نصب صفة لـ (**يوماً**).

٢ ـ «اجتمعْن يومَ كذا وكذا»:

(**يوم**) منصوب على الظرفية متعلق بـ (**اجتمع**) ويوم مضاف و (**كذا**) مضاف إليه لأنها هنا كلمة واحدة كما سبق، وهي مبنية على السكون في محل جرّ بالإضافة.

٣ ـ «ما منكنَّ من امرأة تقدم ثلاثةً من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار»:

(**ما**) حرف نفي. (**منكن**) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من (**امرأة**) لأنه في الأصل صفة فلما قدّم على الموصوف صار حالاً.

(**مِنْ**) حرف جر زائد جيء به لتوكيد العموم.

(امرأة) مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها حرف الجرِّ الزائد.

وجملة **(تقدم ثلاثة من الولد)** في محل جرّ أو رفع صفة لـ **(امرأة)** إتباعاً للفظ امرأة أو مَحلِّه.

(إلا) حرف استثناء جاء هنا للحصر، فهو من باب الاستثناء المفرغ.

(كانوا) فعل ماض ناقص والضمير في محل رفع اسمه.

(لها) جار ومجرور متعلق بـ **(حجاباً)**.

(حجاباً) خبر كان منصوب بفتح ظاهر. و**(من النار)** متعلق بـ **(حجاباً)**، وجملة **(كانوا لها حجاباً من النار)** في محل رفع خبر المبتدأ.

٤ ـ فقالت امرأة: واثنين؟:

(اثنين) مجرور لأنه مضاف إليه، إذ أصل الكلام: **(أو تقديم اثنين من الولد كذلك)** على حذف مضاف هو مبتدأ، وحذف الخبر وهو **كذلك**. والكلام في الأصل مصدَّر باستفهام محذوف أيضاً. أو على تقدير: **(أو من تقدم اثنين كذلك)** فيكون لفظ **(اثنين)** مفعولاً به لفعل محذوف.

ومثل ذلك فقال رسول الله: «**واثنين**» إلاَّ أنها بغير استفهام.

* * *

الحديث السابع

عَنْ أَبِي بِشْرٍ قَبِيصَةَ بنِ الْمُخَارِقِ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ أَسْأَلُ فِيهَا، فَقَال:

«أَقِمْ حَتّي تَأْتِيَنا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا» ثُمَّ قال:

«يَا قَبِيصَةُ إِنَّ المسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لأَحَدِ ثَلاَثةٍ:

● رَجُل تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكَ.

● وَرَجُل أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِواماً مِنْ عَيْشٍ، أَوْ قَالَ: سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ.

● وَرَجُل أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ لَقَدْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِواماً مِنْ عَيْشٍ، أَو قَالَ: سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ.

● فَمَا سِوَاهُنَّ مِنْ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتاً».

رواه مسلم

أ ـ ترجمة راوي الحديث (قبيصة بن المخارق):

١ ـ هو أبو بشر قَبِيصة بن المُخَارق بن عبدالله الهلالي البصري.

٢ ـ صحابي وَفَدَ إلى النبي ﷺ من البَصْرة، وروى عنه، قال قبيصة: أتيت النبي ﷺ، فقال: «ما جاء بك؟» قلت: كبر سني، ورقّ عظمي، فأتيتك لتعلمني ما ينفعني الله به.

* * *

ب ـ اللغة والمعنى المراد:

١ ـ **تحمَّلت حمالةً**: الحَمالة بفتح الحاء ما يتحمَّله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة، كأن يقع قتال أو خصام بين فريقين فيصلح إنسان ذات بينهم على مال فيتحمله، ويلتزمه على نفسه، والتحمّل هو أن يحمل الحَمالة عنهم على نفسه، ويسأل الناس فيها.

وتقول لغة: حَمَلْتُ به حمالةً إذا كفلت به.

٢ ـ **أسأل فيها**: يقال لغة سألتُه سؤالاً ومسألةً بمعنىً استعطيته إياه، واشتهرت المسئلة بمعنى استجداء المال، ومن ذلك يسمَّى الفقير سائلاً، وجمعه سؤَّال. وأصل السؤال طلب الشيء فالسؤال عن العلم طلب بيانه، والسؤال عن الحادثة طلب الإخبار عنها، وسؤال المال طلب إعطائه وهكذا.

و (في) من قول قبيصة: (أسأل فيها):

إمَّا ظرفية، أي أسأل رسول الله المال في شأن إعطائي مقدار الحمالة التي تحمَّلتها، والظرفية هنا مجازية.

وإما سببية، وهي التي تأتي للتعليل، أي أسأل رسول الله المال بسبب الحمالة التي تحملتها.

وكل من الظرفية والسببية من معاني (في) كما هو معلوم عند النحاة.

٣ ـ أقم حتى تأتينا الصدقة: أي حتى تأتينا الزكاة، لأن من تحمَّل الحمالة يدخل في عموم الغارمين المنصوص على أنهم من مستحقي الزكاة في القرآن الكريم.

وأصل الصدقة ما يُعطى للفقراء ابتغاء وجه الله، وتطلق على الزكاة المفروضة، كما تطلق على صدقة التطوُّع.

٤ ـ حتى يُصِيبها ثم يُمسك:

يُصيبها: أي يجدها ويحصل عليها، يقال أصاب الشيء إذا وجده وحصل عليه.

يُمسك: أي يسكت عن المسألة، تقول: أمسكت عن الكلام إذا سَكتّ.

٥ ـ أصابته جائحة اجتاحت ماله: الجائحة: المصيبة العظيمة التي تحلُّ في مال الإنسان فتستأصله كلَّه، يقال: أصابتهم سنة شديدة اجتاحت أموالهم، وجاحَتْها.

٦ ـ قِوَاماً من عيش، أو قال: سِداداً من عيش:

قِوَاماً: بكسر القاف ويجوز فتحها، هو ما يقوم به أمر الإنسان من مالٍ ونحوه، وقوله: من عيش بيان للمراد من القوام هنا.

سِداداً: بكسر السين ويجوز فتحها ولكن الكسر أفصح، هو ما تُسَدُّ به حاجة المعوز، وقوله: أو قال: سداداً من عيش شكّ من الراوي.

٧ ـ من ذوي الحِجَا: أي من أصحاب العقل، فالحجا: العقل والفطنة وجمعه أحجاء.

٨ ـ السُّحْتُ: بضم السين، هو الحرام الذي لا يحل كسبه من المال، سُمِّيَ بذلك لأنه يَسحتُ البركة، أي يذهبها، وأصل السُّحْت مصْدر سَحَت إذا قشَرَ الشيء قليلاً قليلاً حتى استأصلَه، والسُّحْت أيضاً العذاب.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

مقدمة:

خلق الله الناس وجعل في مناكب الأرض وخباياها أقواتهم وأرزاقهم وسائر أسباب رفاهيتهم ورغد عيشهم، ومنحهم القدرة على السعي والعمل، وربط بها تحصيل ما بث لهم في مناكب الأرض وخباياها، وقال لهم بمنطق الفطرة وبلسان الشريعة: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ فالعمل هو الوسيلة الفطرية المنطقية لاكتساب الرزق وتحصيل أسباب العيش.

وقد جعل الفاطر الحكيم طاقة الفرد على الكسب والاستثمار في الحالات الطبيعية العادية أكثر من حاجته الخاصة به، فهو يستطيع بطاقته أن يكتسب ويستثمر أكثر من حاجات عيشه ورفاهيته التي لا إسراف فيها ولا تبذير، وذلك ليدخر لنفسه بعض ما يزيد عن حاجته في أوقات كسبه وسعيه، وليؤدي بقسم آخر واجبه نحو المجتمع الإنساني الذي يشاركه في العيش والرزق والرفاهية على هذه الأرض، وليقوم بوظيفته الجماعية بوصفه واحداً من هؤلاء الشركاء، فيقدم قسماً مما يزيد عن حاجته من كسبه لمستحقي ذلك بحسب فلسفة العيش الأقوم للإنسانية على هذه الأرض، وطبق نظام التكافل الجماعي الذي شرعه الله لعباده.

وذلك لأن الإنسان لا بدّ له من أن يمرَّ في مرحلة الطفولة وهي فترة يعجز فيها عن الكسب فلا بد له من كافل يسعى ليقدِّم له رزقه، ويمرّ في أواخر عمره بمرحلة الشيخوخة التي تقعده عن العمل فلا بد له من كافل يسعى ليقدم له رزقه وحاجاته، كما أنه قد يتعرض في أيام شبابه إلى العجز عن العمل فلا بدَّ له من كفالة.

والجماعة بحاجة إلى تقاسم الأعمال في الحياة، ومنها ما يؤدي فيه الفرد خدمة ضرورية للدين أو الدنيا، للأسرة الصغيرة أو المجتمع الكبير، فكان على المتخصصين بالكسب واستثمار الأرزاق أن يقدِّموا للمتفرغين للقيام بالخدمات الأخرى التي لا بد منها ما يحتاجون إليه ضمن نظام التكافل والتعاون في الحياة.

وهنا تبدو فلسفة العيش في نظام الإسلام بأروع ما يمكن أن تبدو فيه فلسفة ما في الدنيا، فالقادرون على العمل مأمورون بالسعي لاكتساب رزقهم من الطرق التي شرع الله وأذِن، وطرق اكتساب الرزق كثيرة، منها ما هو استثمار واستنتاج، ومنها ما هو تصنيع وتحويل، ومنها ما هو خدمة خاصة أو عامة، وقد أذن الله باكتساب الرزق عن أية طريق من هذه الطرق، ما لم يكن في العمل الذي يباشره مكتسب الرزق عدوان على حق غيره، أو إضرار بالفرد أو بالمجتمع، أو بسياسة الدولة الإسلامية، أو مخالفة لأصل من أصول الدين أو حكم من أحكامه مما يمسّ العقيدة أو العبادة أو الخلق أو نظام الجماعة، أو خدمة في شيء من ذلك أو معاونة عليه.

والمتفرغون عن العمل لمصلحة غيرهم، أو لمصلحة تقاسم المسؤولية داخل الأسرة مكفيون في نظام الإسلام بالنفقة الواجبة التي فرضها الله على طائفة من القادرين، فالمرأة متفرغة بحسب الأصل لحمل المسؤولية الداخلية في الأسرة، لذلك فإن نفقتها على ولي أمرها واجبة في نظام الإسلام.

وأمَّا العاجزون عن العمل فإن كان في أسرتهم أغنياء بكسبهم أو بما عندهم من مال ممن قرر الله في دينه قيام نظام التكافل بينهم، فإن نفقتهم

تجب على هؤلاء الأغنياء من أسرتهم، وإن لم يكن في أسرتهم أغنياء بكسبهم أو بما يملكون وجب على المجتمع كله أن يكفلهم، ومن أجل حلّ مشكلة هذا القسم شرع الله نظام الصدقة المفروضة وغير المفروضة.

ثم إذا تأملنا في تفصيل هذه الخطوط العريضة التي أوردناها وجدنا أن الإسلام قد حلَّ مشكلة الحاجة في المجتمع الإنساني بأبسط حل وأحكمه، فهو عملي تطبيقي يناسب مختلف المجتمعات الإنسانية دون تعقيد ولا عدوان، ولا تحاسد ولا تحاقد، ووجدنا أنه لا مجال فيه للمسألة واستجداء المال إلاَّ لطالب حقه من الزكاة المفروضة وهم من نصّ عليهم هذا الحديث الذي نعالج شرحه ونبين معانيه.

سؤال قبيصة المال من أجل الحمالة التي تحملها:

يقول هذا الصحابي عن نفسه: إنه قد تحمَّل حمالة فأتى رسولَ الله يسأل فيها، أي التزم في سبيل إصلاحه بين فريقين مختصمين من قومه أن يدفع من ماله ما يحُلّ به عقدة خلافهما، فهو بهذا يدخل في قسم الغارمين الذين يستحقون ما غرموه من أموال الصدقة، أخذاً من قوله تعالى في [سورة التوبة: ٩]:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ والْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ والْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً من اللَّهِ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾.

ولمَّا سأل رسولَ اللَّهِ فيها قال له الرسول صلوات الله عليه: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمرَ لك بها» أي بمقدار الحَمالة التي تحملتها، ودلَّ قول الرسول هذا على أن من تحمَّل حمالةً يدخل في ضمن المستحقين الذين تُدفع لهم الصدقة، أي الزكاة، وإذا فتشنا عنه ضمن الأصناف الثمانية المذكورين في الآية وجدناه من صنف الغارمين.

ومن عظيم حكمة الرسول صلوات الله عليه أنه لم يدع هذه الحادثة

تمرّ دون أن يعطي فيها بياناً شاملاً يُحَدِّدُ فيه أصناف الناس الذين تحل لهم المسألة، وهي استجداءُ أموالِ الصدقة، ردعاً للذين تحدثهم نفوسهم باستجداء الصدقات طمعاً واستكثاراً بدون أن يكون لهم حق شرعي بها في نظام الإسلام، لأن أخذ أموال الصدقات دون استحقاق شرعي عدوان على المستحقين وظلم لا يأذن الله به، ومكسب حرام يَسحَت آكله حتى يستأصله ويهلكه.

أصناف الناس الذين تحل لهم المسألة:

أما أصناف الناس الذين تحلّ لهم المسألة فثلاثة بيَّنها الرسول صلوات الله عليه في هذا الحديث بياناً تاماً، وهي كما يلي:

الصنف الأول: «رَجلٌ تحمَّل حمالةً فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك» فالغارم له أن يسأل حتى ينال مقدار الالتزام الذي التزمه في حمالته، فإذا ناله وجب عليه أن يمسك عن المسألة وليس له حق في أن يأخذ ما زاد عليه.

الصنف الثاني: «ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش، أو قال، سِداداً من عيش».

ويدخل هذا الصنف ضمن الفقراء والمساكين الذين نصت عليهم الآية، فهو في الأصل رجل غني بماله، ولكن أصابته مصيبة اجتاحت ماله، فأمسى فقيراً ذا حاجة، فحلت له المسألة، ولكن الشارع هنا لا يأذن لهذا الرجل بأن يستمر في المسألة حتى يُعوّض مقدار ما اجتيح من أمواله أو يزيد عليها، وإنما يأذن له بأن يسأل حتى ينال من أموال الصدقات ما يكون فيه الكفاية بالمعروف دون زيادة ولا استكثار، وإن كان أقلَّ مما اجتيح من ماله بكثير، لأنه ليس المفروض أن الصدقات ستعيده إلى ما كان عليه من غنى، ولكن المفروض أن تُسَدّ بها حاجة عيشه وعيش أسرته، وهو ما أشار إليه الرسول بقوله: «حتى يُصيب قِواماً من عيش» أو قوله: «حتى يُصيب سداداً من عيش».

الصنف الثالث: «ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابته فاقة، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش».

ويدخل هذا الصنف أيضاً ضمن الفقراء أو المساكين الذين نصت عليهم الآية، والفرق بين هذا الصنف والصنف الثاني أن الفقر الذي أصاب هذا الصنف بَعْد سابق غنى فقر مستور ترافقه بحسب العادة شبهة الاحتيال والكذب، لذلك احتاج إلى شهادة ثلاثة من ذوي الحجا من قومه العارفين به، يشهدون له بأنه قد أصابته فاقة، بخلاف الصنف الثاني فإن الجوائح في العادة ظاهرة لا تخفى، ويبعد أن يكون معها احتيال أو كذب، ومتى كان مدعيها محتالاً أو كاذباً فلا بد أن ينكشف حاله بسرعة وينقطع به حبل الكذب، لذلك لم يُلزمه الرسول بأن يكون معه شهادة من ذوي الحجا من قومه، وكذلك الصنف الأول فإن من يتحمل الحمالة لا بد أن يكون ذا وجاهة في قومه وصاحب شهرة، وما تحمَّله من حمالة يكون في العادة أمراً مشتهراً لا حاجة فيه إلى شهادة.

وحكم من أصابته فاقة كحكم من أصابته جائحة ليس له أن يسأل زيادة على ما يصيب به قواماً من عيش له ولأسرته.

وأنهى رسول الله ﷺ كلامه في بيان الأصناف الثلاثة بوعيد من يتجاوز حدود الله فيما أحلَّ من المسألة، فقال: «فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصةُ سحت يأكلها صاحبها سحتاً» فكل ما يُنال عن طريق مسألة غير مشروعة مالُ سحت ومكسب حرام، ولم يكتف الرسول بقوله: «سحتٌ» بل أكَّد ذلك بقوله: «يأكلها صاحبها سحتاً» إشارة إلى ما في كلمة السحت من معنى الاستئصال والعذاب.

أما بقية الأصناف الثمانية المذكورين في آية: ﴿إنما الصدقات للفقراء...﴾ فهم إمَّا داخلون في واحد ممن تحل لهم المسألة بموجب هذا الحديث، وإما غير مستحقين بذاتهم أن يأخذوا من الصدقات وإنما أذن الله

للحاكم المسلم بأن يعطيهم منها رعاية لمصلحة المسلمين العامة، لا أن يسألوا هم من أموال الصدقة بوصفهم مستحقين.

وذلك لأن العاملين على جباية الصدقات موظفون يأخذون أجورهم على أعمالهم، وللحاكم أن يدفع لهم هذه الأجور من أموال الزكاة، وأمَّا المؤلفة قلوبهم فليسوا أصحاب حق أساسي في أموال الزكاة لتأليف قلوبهم على الإسلام حتى يطالبوا بها، وإنما أذن الله للحاكم المسلم إذا رأى في إعطائهم مصلحة للمسلمين أن يعطيهم من أموال الزكاة، وأما المجاهدون في سبيل الله فهم إما فقراء أو موظفون أو متبرعون، فإن كانوا فقراء سألوا باسم الفقر، وإن كانوا موظفين بالأجر فعطاؤهم مثل عطاء العاملين عليها، وإن كانوا أغنياء متبرعين فللحاكم أن يعطيهم دون سؤال منهم، وأمَّا ابن السبيل فهو منقطع فقير أو أصابته جائحة والله أعلم.

* * *

د ـ ما يستفاد من الحديث:

١ ـ تحريم استجداء أموال الصدقات إلاَّ لأحد أصناف ثلاثة وهم:

أ ـ الغارمون، وهم يأخذون مقدار ما التزموه فقط ثم يمسكون عن المسألة.

ب ـ المصابون بالجوائح، وهؤلاء يأخذون من الصدقات ما يسدون به عيشهم وعيش أسرتهم.

جـ ـ المصابون بالفاقة، وهؤلاء عليهم أن يقدموا شهادة ثلاثة من عقلاء قومهم بأنهم قد أصابتهم فاقة، ثم لهم أن يأخذوا من الصدقات ما يسدُّون به حاجة عيشهم وعيش أسرتهم.

٢ ـ الأموال التي يأخذها السائلون بدون حق أموال سُحت، يأكلونها حراماً فيه الهلكة والعذاب.

٣ ـ الأسلوب النبوي الرفيع في تَصيُّد المناسبات لتبليغ أحكام الله وشرائعه.

٤ ـ بلاغة الرسول صلوات الله عليه في استيعاب الأقسام بأسلوب موجز رفيع، في فقرات محكمة دقيقة التعبير كأنَّها موادّ قانونية اجتهدت طائفة من ذوي الاختصاص القانوني في صياغتها وإحكام سبكها، مع مزج الأسلوب التربوي ضمن البيان القانوني، إذ أثار المخاوف من عقوبة كسب المال الحرام في آخر كلامه بقوله: «يأكلها صاحبها سحتاً».

* * *

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

في الحديث وجوه بلاغية متعددة منها ما يلي:

١ ـ القصر: في قوله ﷺ: «إن المسألة لا تحلّ إلاَّ لأحد ثلاثة».

وهو من باب قصر الصفة على الموصوف، لأن المعنى حلّ المسألة مقصور على أحد ثلاثة.

٢ ـ المجاز المرسل: في موضعين، وهما:

الأول: في إطلاق المسألة وهي عامة، وإرادة نوع منها وهو استجداء المال، وهو من إطلاق العام وإرادة الخاص.

الثاني: في إطلاق المسألة وإرادة المال المأخوذ بها في قوله: «فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصة سحت» لأن قوله: «سحت» هو وصف في المعنى للمال الحرام لا للمسألة، ولذلك أعقبه بقوله يأكلها صاحبها سحتاً، ومعلوم أن الأكل لا يكون للمسألة وإنما هو للمال الذي يؤخذ بسببها.

وهو من إطلاق السبب وإرادة المسبَّب، فالمسألة سبب والمال المستجدى بها مسبَّب عنها.

٣ ـ الاستعارة التبعية في قوله: «يأكلها» لأنها على تشبيه مختلف أنواع الانتفاع بالأكل، إذ الأكل أبلغ صورة من صور الانتفاع بالمال، فشبهت بقية

الأنواع به، ثم استعير الأكل للدلالة على ذلك المعنى، ثم اشتق من الأكل يأكل، واستعمل للدلالة على مختلف أنواع الانتفاع بالمال على سبيل الاستعارة التبعية.

* * *

ثانياً: من الإعراب

١ ـ **قبيصة**: عطف بيان أو بدل من أبي بشر، وهو مجرور بالفتح لأنه ممنوع من الصرف.

٢ ـ **تحمَّلت حَمالةً**: فعل ماض وفاعله، وحَمالةً مفعول به.

٣ ـ **أسأل فيها**: الجملة في محل نصب حال من فاعل أتيت، وضمير **فيها** يعود على الحَمالة.

٤ ـ **فنأمر لك بها**: نأمرَ معطوف بالنصب على (تأتينَا) لأن فعل (تأتي) منصوب بأن مضمرة بعد حتى.

٥ ـ **يا قبيصةُ**: منادى مبني على الضم لأنه مفرد علم، وهو في محل نصب.

٦ ـ **لا تحل إلاَّ لأحد ثلاثة**: الجملة في محل رفع خبر (إن) أمَّا اسمها فـ (المسألة).

٧ ـ **رجلٌ تحمل حمالةً**: بالرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم. وجملة (تحمَّل حَمالة) صفة لرجل في محل رفع.

وبالجرِّ: بدل من ثلاثة، وجملة (تحمل حَمالة) صفة أيضاً ولكن في محلّ جرّ.

ورجل الثانية والثالثة في الحديث على حسب رجل الأولى رفعاً أو جراً لأنهما معطوفتان عليها.

٨ ـ **جملة (اجتاحت ماله)** في محل رفع صفة لـ (جائحة).

٩ ـ (من عيش) متعلق بمحذوف صفة لـ (قواماً) أو متعلق بفعل (يُصيب)، ومثلها ما شابهها في الحديث.

١٠ ـ **فما سواهنّ من المسألة يا قبيصة سحتٌ**: (ما) نكرة موصوفة في محل رفع مبتدأ.

(سواهنّ) سوى صفة لـ (ما) والضمير مضاف إليه (من المسألة) متعلق بمحذوف حال (يا قبيصةُ) جملة ندائية معترضة لا محل لها من الإعراب (سحت) خبر المبتدأ.

١١ ـ **وجملة (يأكلها صاحبها سحتاً)**: في محل رفع خبر ثانٍ، أي فما سواهن من المسألة يأكلها صاحبها سحتاً، وجاء الضمير مؤنثاً رعاية للفظ المسألة. أو بدل من (سحت).

و (سحتاً) منصوب على الحال من الضمير في يأكلها، أي حالة كونها سحتاً، وذلك على تأويل السحت بمشتق، أو صفة لمفعول مطلق محذوف من يأكلها ، والتقدير: يأكلها أكلاً سحتاً على التأويل بمشتق أيضاً.

الحديث الثامن

عَنْ عَمْرِو بْنِ تَغْلِبَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِمالٍ أَوْ سَبْيٍ فقَسَّمَهُ، فَأَعْطَىٰ رِجالاً وَتَرَكَ رِجالاً، فبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللهَ ثُمَّ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:

«أَمَّا بَعْدُ: فَوَاللهِ إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، والَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنِّي إِنَّما أُعْطِي أَقْواماً لِمَا أَرَىٰ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَاماً إِلَىٰ مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ».

قَالَ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ: فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ.

رواه البخاري

أ ـ ترجمة راوي الحديث (عمرو بن تغلب):

ما جاء في ترجمته:

١ ـ هو عمرو بن تغلبَ النَّمَري (من النَّمَر).

٢ ـ صحابي أصله من قرية من قرى البحرين تسمي: (جُوَاثَىٰ).

٣ ـ روَى عن النبي ﷺ، وروى عنه الحسنُ البصري.

* * *

ب ـ اللغة والمعنى المراد:

١ ـ «**أُتي بمال أو سَبْي**»: شكٌّ من الراوي الذي روى عن عمرو هل قال عمرو: (بمال) أو قال: (بسبي).

والسبي هنا هو المسبيُّ من العدو، تقول: سَبىَ العدوّ سَبْياً وسِباءً إذا أسره، فهو سَبْي، والأنثى كذلك سبي بغير هاءٍ، ويقال فيها سُبِيَّة أي مَسْبيَّة، وعلىٰ كل فالمال الذي جاءه ليس من قبيل أموال الزكاة أو الصدقات التي تأتي باسم الفقراء، وإنما هو من قبيل الأموال العامة التي يكون حق التصرف فيها راجعاً إلى الرسول صلوات الله عليه، ثم إلى خلفائه من بعده، حسب المصلحة العامة التي تقضي بها إدارة أموال المسلمين وسياستهم الرشيدة.

٢ ـ «**فبلغه أن الذين ترك عتَبُوا**»: أي الذين ترك عطاءهم عَتَبُوا.

عتَبوا: يقال عتَب عليه بفتح التاء يَعتِب ويعتُب من باب ضرب ونصر عتباً وعِتاباً وَجَدَ عليه في نفسه ولامَهُ، ويكون العتب عادة مع الحب والإجلال فالرجل يعاتب صاحبه وصديقه أو من يُجِلُّه، ولا يعاتب عدوّه أو من يكرهه.

٣ ـ «**فحمد الله وأثنى عليه**»:

الحمد اللفظي هو الثناء باللسان على الصفات والأفعال الحسنة، فقول الراوي ثم أثنى عليه يفهم منه أن الرسول صلوات الله عليه بعد أن أطال عبارات الحمد لله جاء بعبارات الثناء عليه، وإن كان مؤدَّى كل من الحمد والثناء واحداً.

٤ ـ «**أما بعد فوالله**»:

أمَّا: حرف شرط، و(بعد) قائم مقام شرطها، والفاء من (فوالله) واقعة في جواب الشرط، والأصل في هذا الاستعمال وما يشبهه: مهما يكن من شيء بعدما سبق فوالله، و(بعدُ) مبنية على الضم لأنها قُطعت عن الإضافة مع نيَّة المضاف إليه.

٥ ـ «**وأدع الرجل**»: أي أترك الرجل فلا أعطيه، وهذا الفعل يستعمل منه المضارع والأمر ولا يستعمل منه العرب الماضي الذي هو وَدَع ولا المصدر الذي هو الوَدْع إلَّا نادراً، ويكتفون باستعمال ترك تركاً وهذا الفعل مثل فعل يذَرُ وذَرْ فلا يقال فيه أيضاً وذرَ ولا وذْراً، ومن النادر قول الرسول ﷺ «لينتهيَنّ أقوام عن وَدْعِهم الجمعات أو لَيُختَمَنَّ على قلوبهم» أي عن تركهم إياها.

٦ ـ «**لِمَا أرى في قلوبهم من الجزع والهلع**»:

الجزع: بفتحتين الضجر وعدم الصبر وفعله من باب فرِح يفرَح، والجَزوع هو من كان كثير الجزع.

الْهَلَعَ: شدة الجزع عند الشر، وشدَّة الحرص عند الخير، قال الله تعالى في [سورة المعارج: ٧٠]: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إذا مَسَّهُ الشَّرُ جَزُوعاً (٢٠) وإذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١)﴾.

وفعله من باب فرِح، يقال: هَلِع يهلَع هلعاً وهلُوعاً فهو هَلِعٌ وَهَلُوع. أي يعطيهم الرسول لما يرى في قلوبهم من القلق والاضطراب وعدم الصبر، وشدة الحرص، والطمع بتحصيل المال، فهو بذلك يؤلف قلوبهم لتمكين الإيمان فيها، حتى لا يكون ما في طبعها من الجزع والهلع صارفاً لهم عن الخير إذا تُرِكوا فلم يُعْطَوا.

٧ ـ **«وأَكِل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير»**:

أَكِل: بكسر الكاف مضارع وكَلَ بفتح الكاف فهو من باب ضرَب يضرِب، تقول: وكلت أمري إلى فلان أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه.

من الغنى: المراد غنى النفس وهي القناعة. قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس».

والخير: كلمة جامعة لكل أنواع الخير التي يمكن أن تتصف بها القلوب، منها الإيمان والعفة والرضا عن الله والرسول وعدم الحسد وما إلى ذلك.

٨ ـ **«حُمْرَ النَّعَم»**:

حُمْر: بضم الحاء وسكون الميم جمع أحمر، أمَّا حمراء فجمعها حمراوات.

النَّعَم: الإبل، وقد يطلق على الإبل والبقر والغنم، والإبل الحمْر هي أصبر الإبل على الهواجر، والعرب تقول: خير الإبل حُمْرها وصُهْبُها، أي شقرها لأن الصُّهبة هي الشقرة، يقال: بعير أصهب أي أشقر.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

مقدمة:

إن قائد الجماعة ـ أميراً كان أو رئيساً أو ملكاً أو نبيًّاً ـ لا بدَّ أن يعترضه في سياسته للجماعة مشكلات مهما عدل وراعىٰ المصلحة الفضلىٰ، وساس جماعته بحكمة بالغة، وذلك لأن أشد ما في الوجود وأعقده معالجة النفوس الإنسانية.

وهذا الحديث يبيِّن سياسة الرسول الحكيمة في قيادته العظيمة، أمام إحدىٰ المشكلات التي تتعرض إليها القيادات، إنها مشكلة التصرف بما تحت يد القائد من أموال أو مناصب أو إمارات بحسب المصلحة التي تمليها السياسة الحكيمة الرشيدة، بغية تحقيق غاية إسلامية، وهدف عام أمثل للجماعة، بعيد عن الأغراض الخاصة للقائد أو لأقاربه وحاشيته.

مال أو سبي يُؤتىٰ به إلى الرسول فيقسمه:

مال يُؤتى به إلىٰ الرسول صلوات الله عليه، وليس هو من أموال الصدقات حتىٰ يوزع علىٰ الفقراء بالعدل حسب حاجاتهم، وإنما هو من الأموال التي يكون للقائد حق التصرف بها في مصلحة الإسلام وجماعة المسلمين، ونظراً إلىٰ أنَّه لم تتكامل بعدُ لجماعة المسلمين دولة محكمة الإمارات والإدارات حينئذ، وأنها لم تزل في دور نشوئها الأول، فقد كانت سياسة الرسول صلوات الله عليه أن لا يدخر مالاً عاماً، وأن يبادر إلىٰ تقسيمه على المسلمين بحسب المصلحة التي يراها، لأن ذلك أدعىٰ إلىٰ تأليف قلوبهم علىٰ الله، لا علىٰ أموال يرقبون مدخراتها ويطمعون فيها، وأدعىٰ إلىٰ تدريبهم جميعاً على البذل والعطاء كلما حزب جماعة المسلمين أمر، واعتبار جميع ما يملكونه هو الصندوق العام للدولة الإسلامية التي بدأت طلائعها تظهر، وبدأت نبتتها تزهر.

نظر الرسول فرأى أن مصلحة الإسلام وجماعة المسلمين تقضي في

تلك الفترة بأن يعطيَ أقواماً ويترك آخرين، وهذا مما له حق التصرف به حسب المصلحة التي تترجح لديه في سياسته وقيادته كما أذن الله له، فأعطىٰ رجالاً رأىٰ أن المصلحة تقضي بإعطائهم لإصلاح قلوبهم وتأليفها علىٰ الخير والهداية، وترك رجالاً لنفاد ما عنده، وثقة بما في قلوبهم من القناعة والإيمان والرضا عن الله والرسول.

فبلغه أن الذين تركهم فلم يعطهم عتبوا، وهنا تظهر المشكلة، وقد كان من المرتقب أن تظهر، ليس لأن الذين ترك عطاءهم يستشرفون إلى المال طامعين بالاستكثار منه، ومنهم من لو دعي إلى تقديم جميع ما عنده لقدّمه إلىٰ رسول الله ﷺ ابتغاء مرضاة الله، ولكن لتوهم أن العطاء مرتبط بالتفضيل في المحبة، فمن أعطاهم الرسول أحبّ إليه من الذين لم يعطهم، وهم يتنافسون جهدهم في اغتنام مرتبة الصف الأول من محبة الرسول لهم.

وأمام هذه العارضة في طريق سياسة الرسول وقيادته الحكيمة كان لا بد من حسمها بمنتهىٰ الحكمة، وبالدواء الشافي لعوارض المشكلة، والمزيل لأسبابها.

خطبة الرسول في حلِّ مشكلة ما بلغه من عتب:

وقف الرسول في أصحابه خطيباً فحمد الله بعبارات الحمد، وأطال النَّفَس في ذلك، ثم أثنىٰ عليه بعبارات الثناء وأطال النفس في ذلك، ثم قال: «أما بعد» ودخل مباشرة في الموضوع الذي قصده في خطبته، وأوضح في كلامه ما هو الدواء الشافي لما وقع في نفوس الذين ترك عطاءهم من عتب، فقال مقسماً بالله مؤكداً كلامه بأبلغ صور التأكيد: «فوالله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل والذي أدع أحب إليَّ من الذي أعطي ولكني إنما أعطي أقواماً لما أرىٰ في قلوبهم من الجزع والهلع وأكِل أقواماً إلىٰ ما جعل الله في قلوبهم من الغنىٰ والخير» وخص الرسول بكلامه رجلاً ممن ترك فقال: «منهم عمرو بن تغلب» وهو راوي الحديث.

فكانت سياسة الرسول وحكمته في هذا أن أصلح قلوب ذوي الجزع والهلع، بما أعطاهم من مال، وأصلح نفوس ذوي العتب بما منحهم من تكريم، وبما أفصح لهم من حب، وبما كشف لهم من الغاية التي قصد إليها في كلّ من عطائه وتركه.

وفي مناسبات متكررة أكَّدَ الرسول صلوات الله عليه لأصحابه هذه الغاية التي بيَّنها في هذا الحديث، منها قوله: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه مخافة أن يكُبَّه الله في النار».

ويدل علىٰ أن العاتبين كان عتبهم تنافساً علىٰ المرتبة الأولىٰ من محبة الرسول صلوات الله عليه بناء على توهمهم أن العطاء دليل زيادة المحبة لا طمعاً بالمال ولا حسداً، وأن كلام الرسول قد تناول مشكلة نفوسهم من أسبابها فأزالها وأزال عوارضها، قول عمرو بن تغلب: (فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله حُمْرَ النَّعَم)، لأنه لما علم أن تخصيص الرسول في عطائه قد كان لإصلاح قلوب من أعطاهم، وذلك ما تدعو إليه المصلحة الإسلامية العامة، وأن من تركهم أحب إلىٰ رسول الله من الذين أعطاهم، زال كل ما في نفسه من عتب، وأحسّ بأنه قد نال عطاء أكبر بكثير من كل عطاء دنيوي آخر، فهو لا يحب أن يكون له بدل كلمة الرسول هذه حمْرُ النَّعَم كلُّها، ومن كان عنده ذلك كان أكثر الناس غنىً بأكرم مالٍ عند العرب، وبخاصة إذ خصص الرسول اسمه بالذكر فقال: «منهم عمرو بن تغلب» وفي هذا التخصيص ثناءٌ عليه عظيم بما في قلبه من القناعة والإيمان والرضا وسائر صنوف الخير.

* * *

د ـ ما يستفاد من الحديث:

١ ـ لقائد الأمة في نظام الإسلام أن يتصرف في إدارة الأموال العامة ضمن حدود المصلحة الإسلامية وحدود مصلحة المسلمين.

٢ ـ علىٰ رئيس الدولة في نظام الإسلام أن لا يحابي الأحبَّاء أو الأقرباء علىٰ حساب المصلحة الإسلامية العامة، أو مصلحة جماعة المسلمين.

٣ ـ من المصلحة الإسلامية التي تستدعي بذل الأموال في سبيلها ما من شأنه إصلاح قلوب بعض الأفراد، وتأليفها علىٰ الخير، وتمكين الإيمان فيها، وطرد نوازغ الشيطان عنها.

٤ ـ سياسة الرسول الفضلىٰ، وحكمته المثلىٰ، في المبادرة إلىٰ مداواة قلوب أتباعه متىٰ نابها شيء.

٥ ـ جواز الثناء العلني علىٰ طائفة من الناس أو على شخص بعينه لمصلحة دينية، وأثر ذلك في مداواة ما قد يعلق في النفوس من وساوس الشيطان ونزغاته.

٦ ـ ينبغي للقائد أن يكون يقظاً يتحسس ما يتهامس به أتباعه من ورائه، ليبادر إلىٰ تدارك الأمور قبل أن تستفحل، عملاً بالحكمة القائلة: (خذ الأمر بقوابله).

٧ ـ نفاذ نظر الرسول في معرفة خصائص نفوس أتباعه، وتربية كل منهم بما يناسب فطرته وميوله ودوافعه الخاصة به.

* * *

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

في الحديث وجوه بلاغية متعددة منها ما يلي:

١ ـ تأكيد الخبر بعدة مؤكدات في قوله: «فوالله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل» ففي هذه الجملة التأكيد بأربع مؤكدات هي: (القسم والجملة الاسمية وإن واللام المزحلقة) وذلك لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين بعد أن وجد فيهم من عَتَب على رسول الله في قسمته، مع أنهم لا ينكرون حكمته ولا محبته لهم.

٢ ـ القصر: في قوله «إنما أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم» إلى آخر الحديث، وهو من باب قصر الموصوف على الصفة، أي مقصور عطاؤه بعض الناس على غاية إصلاح قلوبهم لما فيها من الجزع والهلع، ومقصور تركه آخرين على غاية الاعتماد على ما في قلوبهم من القناعة والإيمان.

٣ ـ (أل) في الرجل من قوله: «إني لأعطي الرجل وأدع الرجل» للجنس.

* * *

ثانياً: من الإعراب

١ ـ أتي بمالٍ: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على الرسول، والجار متعلق به.

٢ ـ أن الذين ترك عَتَبوا: (الذين) موصول مبني في محل نصب اسم (أن). (ترك) فعل وفاعله ضمير يعود على الرسول، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ترك إعطاءَهم. (عَتَبوا) فعل وفاعل والجملة في محل رفع خبر (أن).

٣ ـ والذي أدع أحبّ إليَّ من الذي أعطي: (الذي) مبتدأ وجملة (أدع) صلة الموصول (أحبّ) أفعل تفضيل وهو خبر. (إليَّ) جار ومجرور هو ياء المتكلم، وهو متعلق بأحبّ، وكذلك من الذي أعطي.

٤ ـ إنما أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع: (إنما) أداة حصر مركبة من «إنَّ» وهي مكفوفة عن العمل و«ما» الزائدة التي كفتها عنه. (أعطي) فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة منع من ظهورها الثقل لاعتلال آخره بالياء (لما أرى) اللام حرف جر (ما) اسم موصول وجملة: (أرى) لا محلَّ لها من الإعراب لأنها صلة الموصول. (في قلوبهم) جار ومجرور متعلق بأرى، والضمير اسم مبني في محل جرّ مضاف إليه. (من الجزع) متعلق بمحذوف حال من (ما) في (لما أرى) ومن هنا بيانية ومثلها قوله: «إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير».

٥ ـ منهم عمرو بن تغلب: (منهم) متعلق بخبر مقدم (عمرو) مبتدأ مؤخر. (ابن) عطف بيان أو بدل أو صفة على التأويل بمشتق (**تغلب**) مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف.

٦ ـ ما أحب أن لي بكلمة رسول الله حُمْرَ النَّعَم: (لي) متعلق بمحذوف خبر أن مقدم (حُمْرَ) اسمها مؤخر منصوب بفتح ظاهر. (بكلمة) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من (حمرَ النعم) وهي حال متقدمة على صاحبها، والباء في (بكلمة) معناها البدل، أي بدل كلمة رسول الله. وجملة (ﷺ) اعتراضية لفظها خبري ومعناها إنشائي للدعاء، أي اللهمَّ صل.

* * *

الحديث التاسع

عَنْ عَبْدِالله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَىٰ الرَّجُلَ فيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ الله وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلىٰ حَالِهِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ الله قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ».

ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. تَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ الله عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُوْنَ. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. [المائدة ٥] من ٧٨ - ٨١

ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا وَالله لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَىٰ يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الحَقِّ أَطْراً، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ قَصْراً، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لِيَلْعَنْكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ».

رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن

أ ـ ترجمة راوي الحديث (عبد الله بن مسعود):

١ ـ هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن مسعود بن غافل، وهو هذلي ويلتقي نسبه مع نسب رسول الله ﷺ في مدركة بن إلياس.

٢ ـ صحابي جليل كان من أوائل من أسلم بمكة، قيل: وكان سادس من دخل في الإسلام.

٣ ـ هاجر الهجرتين وشهد بدراً والمشاهد كلها، وكان صاحب نعل رسول الله، أي كان يحمل له نعله حينما يخلعه.

٤ ـ قال له النبي ﷺ: إنك غلامٌ مُعَلَّم، وآخى الرسول بينه وبين سعد بن معاذ.

٥ ـ قال ابن مسعود: أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة.

٦ ـ توفي بالمدينة قبل عثمان، سنة (٣٢) للهجرة ودفن بالبقيع عن بضع وستين سنة، وستأتي ترجمة موسعة له في الحديث الحادي والعشرين.

* * *

ب ـ اللغة والمعنى المراد:

١ ـ **«إن أولّ ما دخل النقص على بني إسرائيل»:**

النقص: المراد منه النقص في الدين عقيدةً وشريعةً المؤدي إلى النقص في الدنيا والآخرة، أخذاً مما جاء في الحديث من تصوير واقع النقص الذي أصابهم.

على بني إسرائيل: هم ذرية نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. قالوا: وكان اسمه إسرائيل ولقبه يعقوب، والله أعلم.

٢ ـ «أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحلّ لك»:

يلقى: على وزن (يَفْعَل) ماضيه لِقيَ من باب فَرِح يفرَح.

اتق: على وزن (افتع) من اتقى يتقي، وأصل الكلمة اوتقى يوتقي على وزن افتعل يفْتَعِل قلبت الواو التي هي فاء الكلمة تاءً وأدغمت بتاء الافتعال، بدليل قولهم في المصدر وقاية، وأصل التقوى جعل النفس في وقاية من أمر مخوف.

دَع: على وزن (عَلْ) بحذف فاء الكلمة التي هي الواو، لأنها من ودع يَوْدع اودع ثم حذفت تخفيفاً فصارت الكلمة يَدَعُ في المضارع وَدَعْ في الأمر، وقد سبق الكلام على هذا الفعل وأن ماضيه ومصدره متروكان في الاستعمال إلّا ما جاء من ذلك نادراً.

يَحِلّ: بكسر الحاء على وزن (يفعِل) وماضيه حلَّ على وزن (فَعَل) فهو من باب ضرب، وأصل الكلمة (يَحْلِلُ) ومعنى **لا يحل لك**، أي لا يجوز لك، أما حلَّ يحل بضم الحاء فهو من باب نصر، تقول: حلَّ بالمكان يَحُلّ إذا نزل فيه، وتقول: حلَّ العقدة يَحُلُّها إذا فكَّها.

٣ ـ «أن يكون أكيله وشريبه وقعيده»:

على وزن (فعيل) في الثلاث، أي مصاحباً له في الأكل والشرب والقعود، وصيغة فعيل هنا بمعنى مُفاعِل.

٤ ـ «ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»:

هو كناية عن إلقاء التنافر والخلاف والعداوة فيها، جزاءً لهم بضدّ ما قصدوه من تركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن سكوت أهل الحق عن إنكار الباطل إنما يكون محافظة على مودَّات المبطلين، فيجازيهم الله بأن يلقي بينهم العداوة والبغضاء بأسباب أخرى، ولو جهروا بالحق وأقاموه لأثابهم الله بأن يجمع عليهم القلوب فتحبهم وتعظمهم.

٥ ـ «لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم»:

لُعِن: على البناء للمجهول، واللعن هو الطرد من رحمة الله، وإنما استحقوا اللعن بسبب ما انتهوا إليه من الكفر، لذلك جاء بالموصول وصلته إشعاراً بالسبب.

وقوله تعالى: ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ مع إيراد فعل اللعن بالبناء للمجهول يشير إلى أن لعنهم قد كان فيما أنزل الله على داود وعلى عيسى ابن مريم، وهما كتابا الزبور والإنجيل والله أعلم.

٦ ـ «ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون»:

أي ذلك اللعن وما انتهوا إليه من الكفر قد كان بسبب انتشار العصيان والعدوان فيهم، المتسببين عن تركهم فريضة التناهي عن المنكر، فبئست هذه البدايات التي أدت إلى تلك النهايات.

عَصَوا: على وزن (فَعَوا) بحذف لام الكلمة وأصلها (عصاوا) التقى فيها ساكنان، فحذف الأول لأنه من بناء الكلمة، ولم يحذف الثاني، لأنه قد جيء به لغرض، ولو حذف لم يوجد ما يدلُّ عليه، فصارت عَصَوْا، وبقيت الفتحة على الصاد دليلاً على الألف المحذوفة. والعصيان هو مخالفة الأمر.

يعتدون: على وزن (يَفْتَعون) بحذف لام الكلمة وأصلها (يَفْتعِلون) لأن أصلها من اعتدى يعتدي، ولمَّا أضيفت واو الجماعة إلى يعتدي صارت يعتدِيُون، ثم استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الدال قبلها فالتقى ساكنان الياء والواو فحذفت الياء لأنها من بناء الكلمة إلى آخر التعليل الذي سبق في عَصَوا، والاعتداء هو الظلم وتجاوز حدود الحق.

يتناهون: على وزن (يتفاعَوْن) بحذف لام الكلمة وأصلها (يتفاعَلُون) لأن أصل الفعل من تناهى يتناهى، ولما أضيفت واو الجماعة إلى يتناهى صارت (يتناهاون) وضمة الرفع مقدرة على الألف، فالتقى ساكنان فحذفت الألف لأنها من بناء الكلمة كما سبق.

والمعنى: كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر فعلوه.

منكر: المنكر هو كل أمر قبيح ينكره الشرع ويحرمه، وينكره العقل الصحيح والذوق السليم، فكأن هذه الأصول لا تعرفه، لأنها تحرمه وتقبحه، أو تنفر عنه ولا تتلاءم معه.

لبئس: بئس فعل جامد غير متصرف يؤتى به للذم والتقبيح.

٧ - «ترى كثيراً منهم يتولَّوْن الذين كفروا لبئس ما قدَّمَتْ لهم أنفسهم أن سَخِط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون»:

يتوَلَّوْن: على وزن (يتفعَّون) بحذف لام الكلمة، وأصلها (يتولَّاون) التقى ساكنان الألف وواو الجماعة فحذفت الألف لأنها من بناء الكلمة كما سبق. ومعنى (يتولَّون الذين كفروا) يجعلونهم أولياء لهم أي نصراء وأحباء، فيستنصرون بهم على إخوانهم من المؤمنين، ويحبون طريقتهم لمشاكلتهم لهم في ارتكاب الآثام، والانغماس في العصيان والعدوان. وفي هذا عرض للون من ألوان عصيانهم وعدوانهم. أو أن عدوانهم أدى بهم إلى موالاة الكافرين، وبذلك قدَّموا لأنفسهم أعمالاً سيئة فكأنهم قدموا لأنفسهم سخط الله عليهم وخلودهم في العذاب، فبئس ما قدمت لهم أنفسهم.

٨ ـ «ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون»:

وفي هذا بيان لعلة العلل وأصل الداء الذي أوصلهم إلى اتخاذ الكافرين أولياء ألا وهو عدم كمال إيمانهم بالله وبالنبي وبما أنزل إليه من عند الله، ولو كانوا يؤمنون بأركان الإيمان هذه ما اتخذوهم أولياء ولكن تناقص الإيمان في قلوبهم أثمر كثرة الفسَّاق في جماعتهم، فشاكلت أعمالهم أعمال الكافرين فتقاربوا معهم واستحلوا مجالسهم فاستحبوا طريقتهم، فاستنصروا بهم على إخوانهم فخسروا أصل إيمانهم.

٩ ـ «كلاَّ والله لتأمُرُن بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر ولتأخذُنَّ على يد الظالم ولتأطِرنَّه على الحق أطراً ولتقصُرنه على الحقِّ قصراً»:

لـتأمُرُنَّ: على وزن (لتفعُلُنَّ أصلها لتأمرونَنَّ بنونات ثلاث)، الأولى نون الرفع فنون التوكيد الثقيلة، وقد حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال فصارت لتأمُرونّ، فالتقى ساكنان واو الجماعة والنون الساكنة الأولى فحذفت الواو وبقيت الضمة على الراء دليلاً عليها، ومثلها الأفعال التالية: (لتأخذُن ـ لتأطُرُن ـ لتقصُرُنَّ).

أما لتنهَوُنّ: فهي على وزن (لتفعَوُنّ) لأن أصلها (لتنهاوْنَنَّ) حذفت الألف لالتقاء الساكنين فصارت (لتنهوْنَنّ) ثم حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال فصارت (لتَنْهَوْنّ) بسكون الواو والنون الأولى من نوني التوكيد الثقيلة، فحركت الواو بالضمة وأبقيت ولم تحذف لأنها لو حذفت لاشتبه الفعل بالمفرد دون أن يوجد دليل على واو الجماعة فصارت (لتنهوُن) والمراد من الأخذ على يد الظالم منعُه عن الظلم ومحاسبته ومعاقبته عليه بالعدل.

ومعنى لتأطرُنَّه على الحق أطراً: لتعطِفُنَّه ولتثْنُنَّه على الحق، وأصل الأطر هو أن تأخذ بطرفي الشيء فتعطفَهما وتثنيهما إلى بعضهما، ومنه الإطار لأنه يُدَوّر بعطف طرفيه المتباعدين حتى يجتمعا في دائرة. وفعل أطَرَ: من باب ضرب ونصر، تقول أطرَه يأطِره ويأطُره.

ومعنى لتقصُرنَّه على الحق قصراً: لتلزمنَّه طريقته ولتردُّنَّه إليه، تقول: قصرتُ ابني على طاعتي إذا رددتَه إليها وألزمته بها، وهو من باب نصر، تقول: قصَرتُه أقصُره.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

مقدمة:

من أهم الواجبات التي تصان بها الجماعات عن أن ينتشر فيها الفساد، ويستشري فيها الشر، ركنُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنه أول مسؤولية يجب على جماعة المسلمين أن تضطلع بها في نطاقها الداخلي، وهو في هذا النطاق الداخلي شبيه بركن الجهاد في سبيل الله في النطاق الخارج عن حدود جماعتهم.

فالمسلمون إذا كانوا على مستوى إسلامهم كانت عينُ كل فرد في جماعتهم رقيبة على ما يحدث في صفوفهم من خلل، وفي أفرادهم من فساد أو انحراف ومخالفة لأوامر الله ونواهيه، ولسان كل فرد فيهم ناصح أمين حكيم آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر، وهم جميعاً متآزرون متعاونون على رفع المنكر ودفعه، وإزالة الشر وأسبابه، والأخذ على يد الظالم وعقابه، بسلطان الجماعة، طبق أحكام شريعة الله لعباده. ومن أجل ذلك نجد الإسلام يعلن مسؤولية المسلمين الكبرى أمام هذا الركن من الأركان التي تصان بها التطبيقات الإسلامية، ضمن جماعة المسلمين، وينذرهم بالخطر العظيم الذي ينزل فيهم إذا تهاونوا بالقيام به كما أمر الله.

وبسبب تطبيق هذا الركن جعل الله أمة محمد خير أمة أخرجت للناس فقال الله تعالى في سورة [آل عمران: ٣]:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ (١١٠)﴾.

ونظرة شاملة في النصوص الإسلامية تبين لنا أن الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر واجب على كل فرد من أفراد المسلمين ذكراً كان أو أنثى كبيراً أو صغيراً، ولكنَّ كلًّا منهم يتحمل من المسؤولية على مقداره من العلم بالدين ومن القدرة على الحكمة المطلوبة فيه لدى القيام بهذا الواجب، ومن الهبة الربانية التي حباه الله إياها، من سلطان أو بيانٍ في قلم أو لسان، فكل إنسان داخل أسرته، أو في مركز عمله مسؤول عن القيام بهذا الواجب في حدود ما يعلم من شريعة الله.

أمَّا القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصفة عامة فينبغي فيها أن يكون من يضطلع بها متحققاً بشروط لا بد من توافرها في كل من يتسلم توجيهاً عاماً من هذا القبيل، ويمكن تلخيص هذه الشروط بما يلي:

أ ـ أن يتفقه في الدين بنسبة حسنةٍ حتى لا يأمر بمنكر وينهى عن معروف جهلاً منه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً.

ب ـ أن يتأدب بآداب الإسلام ويتدرب على استعمال الحكمة في قيامه بمهمته، عملاً بقول الله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ حتى لا يسيء إلى الإسلام بدعوته أو بطريقته وأسلوبه.

جـ ـ أن يلتزم تطبيق ما يأمر به، ويكف عما ينهى عنه، حتى لا يكون قوله منافياً لعمله، فيكون قدوة سيئة، أو محلاً لتندر الناس به، وحتى لا ينطبق عليه قول الله تعالى لبني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرونَ النَّاسَ بِالبرِّ وتنسَون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقوله تعالى: ﴿لِمَ تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

هذا، ونحن الآن أمام حديث عظيم من كلام الرسول صلوات الله عليه، يبيِّن لنا أهمية هذا الركن الذي يجب على جماعة المسلمين أن يضطلعوا به، ومدى الخطورة التي تهددهم إذا أهملوه أو تخلَّوا عنه، وقد جاء الحديث مقسماً على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: عرض واقع تاريخي لأمة ذات شأن في تاريخ الشرائع السماوية، ألا وهم بنو إسرائيل.

المرحلة الثانية: الاستشهاد بنص قرآني على هذا الواقع التاريخي لهذه الأمة.

المرحلة الثالثة: الانتقال إلى ما يجب على المسلمين أن يفعلوه مستفيدين من العبرة التاريخية التي سلفت في بني إسرائيل، حذَر أن يصيبهم ما أصابهم، وذكرى بأن سُنَّة الله في عباده لا تتغير مهما اختلفت الأمم والعصور.

وفيما يلي تفصيل هذه المراحل أخذاً من الحديث الذي نحن في صدد شرح معانيه وتدبر مراميه.

أول ما دخل النقص على بني إسرائيل:

لقد سبق أن جعل الله بني إسرائيل مفضلين على العالمين أيام حملهم شرائع الله ورسالاته إذ كانت غالبية الشعوب وثنية كافرة بالله وبأنعمه عليها، ثم دخل على أجيالهم المتتابعة النقص في الدين والدنيا، وانتشر فيها الفساد، واستشرى فيهم الشر، حتى أصابتهم لعنة الله والمرسلين وضرب الله عليهم الذلة، فسيئت وجوههم، وشتتوا وقتلوا تقتيلاً.

وللعظة والاعتبار يجب دراسة الأسباب التي أدت بهم إلى هذا المنحدر السحيق بعد ذلك المجد الشامخ الذي كانوا فيه، وهنا يكشف لنا الرسول صلوات الله عليه السبب الأول الذي أطلق شرارة الشر الأولى في جماعتهم، فسرت نارها حتى أتت على كل صلاح وخير ومجد لهم فأكلته، فقال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحلُّ لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده».

وفي هذا يبيِّن الرسول صلوات الله عليه أن مبادىء النقص الذي أصاب بني إسرائيل في أمور دينهم وأمور دنياهم قد كان بتركهم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعدم مقاطعتهم مرتكبي المعاصي، وذلك

أنهم كانوا إذا وجدوا واحداً منهم على إثم ومعصية وعظوه أول الأمر ونصحوه وذكروا له حكم الله، فإذا لم يتعظ ولم يرتدع عن إثمه تهاونوا في أمره، وأغضوا عنه محافظة على مودته، واستمروا على حالهم معه، فلم يهجروه في الله، بل آكلوه وشاربوه وجالسوه، كأنه لم يرتكب حراماً ولم يفعل أثاماً، وهذا بالطبع يؤدي في المجتمعات إلى انتشار المعصية، حتى تكون أمراً مألوفاً معتاداً، ومتى أصبحت أمراً معتاداً لم تجد من ينكرها، بل ربما أصبح الحرجُ من فعلها أمراً معيباً، وجموداً شائناً، ومثاراً للازدراء والسخرية، وبذلك يعم الفساد، وتنتشر ألوان المعاصي، لأنه متى حصل السكوت عن واحدة منها فانتشرت سرت عدواها إلى المعاصي الأخرى، وما تزال تنتشر كما تشتعل النار في الهشيم حتى تفقد الأمة كلَّ مقوماتها الدينية العملية، ثم ينتقل ذلك إلى أصول العقيدة فتقتلعها من جذورها، وتنسفها رياح الشهوات حتى لا تبقي في المجتمع منها شيئاً، فإذا ظهر فيهم ناصح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبين لهم ما وصلوا إليه من واقع سيء ازدروه واحتقروه، ثم إذا ألح عليهم صابراً محتسباً ضاقوا به ذرعاً فاعتدوا عليه بالضرب أو السجن أو القتل، ثم تستحق هذه الأمة بما وصلت إليه من فساد أن يحلَّ عليها سخط الله وعذابه.

ولما كان السكوت عن العصاة بسبب المحافظة على موداتهم، والرّغبة بعدم قطع الصلات معهم فإن الله يعاقب الأمة بالشيء نفسه الذي سكتت عن إنكار المنكر حذر وقوعه، فيلقي في قلوب أفرادها العداوة والبغضاء، وهذا ما كشفه الرسول صلوات الله عليه بقوله: «فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض».

وحينما يشتد الخلاف في الأمة ويستحكم الشقاق في صفوفها، يتلمس كلّ فريق منهم الأنصار من غيرها، فلا يجدون إلاَّ الذين كفروا يوالونهم، ويستنصرون بهم على إخوانهم. لم لا يفعلون ذلك؟! وقد تشاكلوا معهم في الأعمال، وتماثلوا معهم في كثير من العادات والمفاهيم، واستحبُّوا مجالسهم

على مجالس المؤمنين، وأنسوا بمخالطتهم ومداخلتهم، ووجدوا عندهم مرتعاً سهلاً للشهوات المحرمة، بعيدين عن نقد ناقد أو اعتراض معترض. ثم لا تتم لهم النصرة التي يطلبونها من الذين كفروا على إخوانهم إلاَّ بتنازلات كثيرة من مبادئهم ومساومات كثيرة على عقائدهم وكراماتهم، فيقدمونها إلى أوليائهم زاعمين أن الضرورة هي التي أملت ذلك عليهم، ومتى كان منهم ذلك وقع عليهم سخط الله وحلت عليهم لعنته، وسلموا أنفسهم للشياطين تستهويهم وتستحوذ عليهم، ثم أهلكهم الله في الدنيا وسلبهم كل معونة وعز ومنعة، وأعدَّ لهم في الآخرة عذاباً هم فيه خالدون، وهذا ما أوضحته الآيات العظيمة التي استشهد بها الرسول مبينة ما أصاب بني إسرائيل، وهي قوله تعالى في سورة [المائدة: ٥]:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُوْنَ (٧٩) تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُم أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدون (٨٠) وَلَو كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

وفي هذه الآيات نرى سلسلة من السيئات التي تتابعت في بني إسرائيل حتى استحق الذين كفروا منهم اللعن من الله على لسان داود وعيسى ابن مريم. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، فنشأ من ذلك انتشار العصيان فيهم، ثم انتشر فيهم الظلم والعدوان، ولا بد أن يكون مع الظلم والعدوان شقاق وخلاف وعداوات في الأمة، تؤدي بكثير منهم إلى موالاة الذين كفروا، ولهذه الموالاة ذيول تنتهي بسخط الله والخلود في العذاب، ولدى البحث عن السبب الرئيسي الأول الذي يهوّن على الأمة اتخاذ الكافرين أولياء لهم، نجده تناقص الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه حتى يكون منعدماً أو شبيهاً به أو قريباً منه، وما سبب تناقص الإيمان إلى هذا الحد إلاَّ انتشار الفسق والعصيان في الأمة، ووقوف حركة الصيانة لأخلاقها وأعمالها ومبادئها بانعدام

واجب التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم وإلزام المنحرفين بالاستقامة على صراط الله.

استخلاص العبرة:

ولما وصل الرسول في عرض الواقع التاريخي الذي أصاب بني إسرائيل المبلغ الذي أراده واستشهد عليه بالنص القرآني، ووجه المسلمين إلى الاستفادة من العبرة قال:

«كلّا والله لتأمرُن بالمعروف ولتنهوُن عن المنكر ولتأخذنّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربَنّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم».

فحمَّل بذلك المسلمين المسؤولية الجماعية في صيانة المجتمع المسلم من الانحراف، وذلك بالقيام بركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم، وردعه عن ظلمه، وعقابه عليه بموجب أحكام الإسلام، والعمل على عطف كل منحرف، ولفِّه في دائرة الجماعة بمختلف وسائل التربية والتوجيه والإلزام، حتى لا يشذّ عن جماعة المسلمين، وإحاطته بمختلف الوسائل التربوية والإلزامية لقصره على الحق ضمن دائرة الجماعة.

ثم يبيِّن لهم أنَّه لن تكون نتيجتهم بأحسن مما وصل إليه بنو إسرائيل إذا تخلّوا عن مسؤوليتهم هذه وخالفوا أمر الله، وذلك بأن يضرب الله قلوب بعضهم ببعض، فيدخل إلى صفوفهم الخلاف والشقاق، ويصيبهم داء العداوة والبغضاء، ثم تتسلسل فيهم السيئات حتى ينتهي بهم الأمر إلى أن تحلَّ عليهم لعنة الله كما حلَّت على بني إسرائيل.

ومن يتأمل في الواقع الأليم الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية وبخاصة العرب منهم في هذه الفترة من تاريخهم يتخوف عليهم تخوفاً بالغاً من النهاية المخزية التي تنتظرهم ما لم يراجعوا دينهم، فإن عصاً أليمة من عصيّ

التأديب الإلّهي قد أصابتهم في هذا العصر على يد الأمة التي سبق أن حلَّت عليها لعنة الله، وضربها الله بالذلة والمسكنة، وهذه العصا الربَّانية إنذار خطير بالعاقبة الوخيمة التي ستحل فيهم ما داموا على ما هم عليه من تنكر لشرائع الله، وتهاون بمسؤوليتهم التي تصون دينهم وأخلاقهم ومجدهم الذي منحهم الله إياه بسبب كونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

* * *

د ـ مما يستفاد من الحديث:

١ ـ التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر مسؤولية كبرى تقع على جماعة المسلمين صيانةً لأخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم عن الانحراف وتنكب صراط الإسلام في عقائده وشرائعه ومبادئه وأخلاقه وآدابه.

٢ ـ السبب الرئيسي في النقص الذي أصاب بني إسرائيل إنما هو تركهم ركن التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر والتهاون فيه.

٣ ـ ترك هذا الركن يؤدي إلى انتشار المعاصي، وانتشار المعاصي يؤدي إلى انتشار الظلم والعدوان، وهذا بدوره يؤدي إلى داء التباغض والتخالف والشقاق، والأخير أيضاً يؤدي إلى موالاة الكافرين على المؤمنين، ثم تتسلسل الشرور حتى يحل الكفر محلَّ الإيمان، فتستحق الأمة سخط الله وعذابه ولعنته.

٤ ـ سنة الله في عباده لن تتغير فما أصاب بني إسرائيل سيصيب أمة محمد إذا فعلت مثل أفعال بني إسرائيل.

٥ ـ لا تقتصر مسؤولية الأمة على مجرد التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر اللفظي بل لا بد من اتخاذ جميع الوسائل الحكيمة التي من شأنها أن تردع الظالم، وتردَّ المنحرف، وتصون الملتزم بسياج من المراقبة والتوجيه المستمرين حتى لا يخرج عن دائرة الاستقامة.

٦ ـ من وسائل التربية الإسلامية في ردع الآثم عن إثمه هجْرُه في الله

ومقاطعته وعدم مؤاكلته ومشاربته ومجالسته.

٧ ـ روعة الأسلوب التربوي النبوي بعرض التحليل التاريخي، ثم بالاستشهاد عليه، ثم باستخلاص العبرة منه، ثم بتوجيه النصيحة بعد استخلاص العبرة.

* * *

البَلاغة وَالإعـرَابْ

أولاً : من وجوه البلاغة والبيان

في الحديث وجوه بلاغية متعددة منها ما يلي :

١ ـ تأكيد الخبر في مواضع :

أ ـ في قوله ﷺ : «**إنَّ أوَّل ما دخل النقص. . .**» وذلك بالجملة الاسمية وبحرف التأكيد: (إنَّ) والداعي للتأكيد هنا ما يقع في نفوس الناس من الاستهانة بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع أن تركه يؤدي إلى نتائج في غاية السوء والخطورة على الأمة.

ب ـ في قول القائل من بني إسرائيل. «**فإنه لا يحلُّ لك**» والداعي للتأكيد ما عليه حال العاصي من الإصرار على المعصية كأنه منكر للتحريم أو شاك فيه.

جـ ـ في قوله ﷺ: «**كلّا والله لتأمـرُنَّ بالمعـروف. . .**» والتأكيـد جاء بالقسم واللام الواقعة في جوابه ونون التوكيد الثقيلة في الأفعال الستة، والداعي للتأكيد في: (لتأمُرنّ ـ لتنهوُن ـ لتأخُذنّ ـ لتأطرنّه ـ لتقصرنّه) أَن صيغة هذه الأفعال صيغة الخبر، ومعناها الأمر بشدَّة اهتماماً بالموضوع المأمور به فيها، لأن التقصير به يؤدي إلى نتائج خطيرة في الأمة. والداعي للتأكيد في: (أو ليضربَنّ) تأكيد دفع ما قد يتوهم من أن أمة محمد لذاتها هي أكرم على الله من بني إسرائيل فإذا فعلت مثل أفعال بني إسرائيل لم يعاقبها الله بمثل ما

عاقبهم به، ومع دفع هذا التوهم الباطل يثبت عدل الله العام، وتجري سننه في خلقه دونما تخلف ﴿سُنَّة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

٢ ـ الاستعارة التبعية، في قوله: ﴿ضرب الله قلوب بعضهم ببعض﴾.
إذ المعنى أن الله أوقع فيما بينهم الخلاف والشقاق والعداوة فكأن قلوبهم مضروب بعضها ببعض. ونقول في إجراء هذه الاستعارة: شبَّه الرسول الشقاق والعداوة بين قلوب الناس بالتضارب الذي يكون بين فريقين متقاتلين، فاستعير لذلك لفظ الضرب ثم اشتق منه فعل ضرب مراداً به معنى الشقاق والعداوة.

* * *

ثانياً: من الإعراب

١ ـ إنَّ أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل:

(أول) اسم إنَّ منصوب. (ما) مصدرية. (دخل) فعل ماض، والمصدر المسبوك من ما والفعل في محل جرّ مضاف إليه. (على بني) متعلق بدخل. وجملة (أنه كان الرجل... إلى قوله وقعيده) في محل رفع خبر (إن أول).

٢ ـ يا هذا اتق الله ودع ما تصنع:

(هذا) منادى مبنيّ على ضم مقدر على آخره منع من ظهوره انشغال الآخر بحركة البناء الأصلية. (اتق) فعل أمر مبني على حذف حرف العلة. (ما تصنع) ما: مصدرية، تصنع: فعل مضارع مرفوع والمصدر المؤول من الحرف المصدري والفعل في محل نصب مفعول به لـ (دَعْ). أو (ما) اسم موصول مفعول به. وجملة (تصنع) صلته والعائد محذوف، ولكن الإعراب الأول أوجه.

٣ ـ ثم يلقاه من الغد وهو على حاله:

(من الغد) متعلق بيلقى (وهو) الواو حالية. هو: مبتدأ (على حاله)

متعلق بمحذوف خبر. والجملة في محل نصب على أنها حال.

٤ ـ فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض:

(لمَّا) ظرف للزمان الماضي بمعنى (حين) أو بمعنى (إذ) وهي كلمة تقتضي جملتين فعلاهما ماضيان. وهي مبنية على السكون في محل نصب على الظرفية والعامل فيها جوابها وهو هنا (ضرب) وهي مضافة إلى جملة فعلوا ذلك، أي حين فعلهم ذلك.

وقيل: إنَّ (لمَّا) حرف وجود لوجود، أي وجد ضرب الله قلوبَ بعضهم ببعض لوجود فعلهم ذلك. (ذلك) ذا: مفعول به واللام للبعد والكاف للخطاب. (ببعض) متعلق بـ (ضرب).

٥ ـ ذلك بما عصوا:

(ذلك) مبتدأ. (ما) مصدرية. (عصوا) فعل ماض مبني على ضم مقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين وواو الجماعة فاعل. والمصدر المسبوك من (ما) والفعل في محل جرّ بالباء. وهو متعلق بمحذوف خبر المبتدأ.

٦ ـ لبئس ما كانوا يفعلون:

(لبئس) اللام ابتدائية للتأكيد عند ابن مالك وطائفة من النحاة، والمشهور عند النحاة أن هذه اللام ونظائرها واقعة في جواب قسم محذوف وذلك لدخولها على الفعل، واللام الابتدائية إنما تدخل على المبتدأ وتدخل بعد (إنَّ) في ثلاثة أحوال فصلها ابن هشام في المغني. (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذم مبني على الفتح لا محل له من الإعراب. (ما) اسم موصول فاعل بئس. (كانوا) فعل ماض ناقص والضمير اسمه. وجملة (**يفعلون**) خبره، وعائد اسم الموصول محذوف تقديره: يفعلونه.

٧ ـ كلاَّ والله لتأمُرُنَّ بالمعروف:

(كلَّا) حرف ردع وزجر (والله) الواو للقسم (الله) لفظ الجلالة مجرور

بواو القسم، وهو متعلق بفعل محذوف تقديره: أقسم (لتأمُرُنَّ) اللام واقعة في جواب القسم (تأمُرُنَّ) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة كراهية توالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة أيضاً لالتقاء الساكنين، في محل رفع فاعل. ويقاس على ذلك الأفعال المماثلة في الحديث.

٨ ـ ثم ليلعنكم كما لعنهم:

(اللام) لام الأمر الجازمة، ونسميها هنا دعائية لأن فاعل اللعن هو الله عز شأنه، والمضارع بعدها مجزوم بها. والفاعل ضمير يعود على الله، والكاف ضمير في محل نصب مفعول به، والميم علامة الجمع.

(ما) مصدرية. والمصدر المسبوك من (ما) وفعل (لعن) في محل جرّ بالكاف وهو متعلق بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، والتقدير لعناً كائناً مثل لعن الله لبني إسرائيل.

* * *

الحديث العاشر

عَنْ أَبِي زَيْدٍ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله - ﷺ - يَقُولُ:

«يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَالَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

رواه البخاري ومسلم.

أ ـ ترجمة (أسامة بن زيد) راوي الحديث:

١ ـ هو أبو زيد أو أبو محمد أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبيّ.

٢ ـ مولى رسول الله ﷺ، وَحِبُّه وابْنُ حِبّه، لم يعرف غير الإسلام، لأنه ولد بعد البعثة، وعاش في كنَف الرسول.

٣ ـ قال أسامة، كان النبيّ ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويُقعد الحسن بن عليّ على فخذه اليسرى، ثم يضمُّنا، ثم يقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أَرْحَمُهُمَا فَارْحَمْهُمَا» وفي رواية: «اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا».

٤ ـ حمله أبوهُ زيدٌ إلى المدينة مع أمّه أم أيمن بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، إذ بعثه الرسول مع مولاه أبي رافع لإحضار من خَلَّف في مكَّة من أهله. وردَّه الرسول في أُحُد لصغر سنه.

٥ ـ كان الرسول ﷺ إذا لم يَغْزُ يُعطيه سلاحه، أو يعطي سلاحه عليّاً رضي الله عنهما.

٦ ـ لمَّا استشاره الرسول ﷺ في حادثة الإفك، أثنى على أم المؤمنين عائشة خيراً، وقال: يا رسول الله أهلك، وما نعلم منهم إلَّا خيراً، وهذا الكذب والباطل.

٧ ـ أعطاه الرسول ﷺ حلَّته التي كانت من قَبْلُ لذي يَزَن، اشتراها من السوق حكيم بن حزام ولم يكن قد أسلم بعد، فقدَّمها هديَّةً إلى الرسول، فأبى الرسول ﷺ إلاَّ بالثَّمن.

٨ ـ كان يردفه الرسول ﷺ على دابته.

٩ ـ خرج مع سريَّة بعثها الرسول ﷺ إلى حيّ من جهينة يقال له: «الْحُرَقَة». وكان ممن ثبت مع الرسول في حنين.

١٠ ـ كان كثير البرِّ بأمِّه، ما تطلب منه شيئاً يستطيعه إلاَّ أحضره لها.

١١ ـ قال أسامة: لمَّا قُتل أبي (أي: زيـد) أتيت النبيَّ ﷺ، فلمَّا رآني دَمَعَتْ عيناه، فلمَّا كان من الغد أتيته قال: «أُلاَقِي مِنْكَ اليوم مثل ما لاقيتُ منكَ أمس».

١٢ ـ استعمله رسول الله ﷺ على جيش فيه أبو بكر، وعمر، فلم ينفذ حتَّىٰ توفِّي النبيّ، فبعثه أبو بكر إلى حيث بعثه الرسول، إلى الشام، وكان رأي الصحابة عدم بعثه لمواجهة مشكلة الارتداد التي حصلت في العرب بعد وفاة الرسول، لكنَّ أبا بكر أصرَّ على تسيير جيشٍ عقد الرسول لواءه قبل موته، مهما كانت النتائج، وكان في ذلك الخير العظيم، ومشى أبو بكر في وداعه، وأسامة راكب، فقال: يا خليفة رسول الله لتركَبَنَّ أو لأنزلن، فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب. وكان عُمْرُ أسامة يومئذٍ (١٨) سنة، وقيل: (٢٠) سنة.

١٣ ـ أخرج ابن سعد عن عروة أن رسول الله ﷺ أَخَّر الإفاضة من عرفة، من أجل أسامة بن زيد ينتظره، فجاء غلام أَفْطَسُ أسود (هو أسامة) فقال أهل اليمن: إنَّما حبسنا من أجل هذا؟!

١٤ ـ جعل الرسول ﷺ وهو في النزع الأخير يضع يديه عليه ويرفعهما. قال أسامة: فعرفت أنه يدعو لي.

١٥ ـ سكن مدَّة في قرية من قرى دمشق اسمها (الْمِزَّة) ثم انتقل إلى

المدينة، فمات بها سنة (٥٤) وقيل سنة (٥٨) أو (٥٩) وقد بلغ عمره نيّفاً وستين سنة.

جمعاً من حياة الصحابة ومشكاة المصابيح وسيرة ابن هشام

* * *

ب ـ اللغة والمعنى المراد:

١ ـ «فتندلق أقتاب بطنه»:

فتندلق: الاندلاق خروج الشيء بسرعة وتتابع، يقال: اندلق السيل علىٰ القوم أي هجم متدفقاً سريعاً، واندلقت الخيل أي هجمت متتابعة متدافعة سريعة.

أقتاب بطنه: أي أمعاء بطنه، والأقتاب جمع مفرده قِتْب وَقَتَب بكسر القاف وسكون التاء وبفتحهما.

ولفظ البطن مذكر. وحكىٰ أبو عبيدة أن تأنيثه لغة.

٢ ـ «فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى»:

الرحا: مؤنثة اللفظ، وهي الحجر العظيم الذي يطحن به، وألف الرحا تكتب بالياء وتكتب بالألف، لأن أصلها متردد بين الياء والواو.

تقول: رحيت الرحىٰ أي عملتها، وتقول رحوت الرحى أيضاً، وتثنية رحا رحوان ورحيان، وجمعها أرْحٍ وأرحاء.

٣ ـ «يا فلان مالك؟»:

فلان وفلانة: كناية عن الذكر والأنثى من الناس وهما معرفتان فإذا كنيت بهما في غير الناس قلت الفلان والفلانة بالألف واللام.

مالك؟: يعني أي شيء كائن لك حتى صرت من أهل النار؟.

٤ ـ «فيقول بلى»:

بلى: حرف جواب، ولا تأتي إلَّا بعد نفي، وتفيد إبطاله فتجعل المنفي مثبتاً سواء أكان النفي مقترناً باستفهام أو غير مقترن به.

ولا يصح استعمال حرف (نعم) في مواقع (بلى) لأن نعم حرف جواب لتحقيق ما جاء قبلها وتصديقه، موجباً كان أو منفياً، لا لإبطاله بخلاف بل فإنها لإبطاله كما ذكرنا.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

عرفنا في شرح الحديث السابق ما يجب علي من يتصدَّى لمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل عام من تَحَلٍّ بالشروط الأساسية التي يجب توافرها في كل داع إلىٰ الله قائم في الناس على تنفيذ شرائعه بالحكم والسلطان، أو بالأمر والنهي والموعظة، أو بالفتوىٰ والقضاء، وهي:

أولاً: أن يكون عالماً متفقهاً فيما يبثه في الناس من علم أو فتاوىٰ أو أقضية، وعارفاً بحكم الله فيما يأمر به أو ينهى عنه.

ثانياً: أن يستعمل الحكمة فيما يأمر به أو ينهى عنه، ويقتدي في دعوته وتأدية رسالته بالنبي ﷺ، ويعمل بقوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ فيسلك كل الأساليب التربوية الحكيمة التي من شأنها أن تحبب بدين الله والتزام شرائعه.

ثالثاً: أن يتحلىٰ بالفضائل الخلقية، ويقوم في نفسه بتطبيق ما يعظ الناس به، ويجعل من نفسه قدوة حسنة بالتزامه شريعة الله، وبعده عمَّا حرَّم، وسبقه إلى كل فضيلة، وتنافسه في كل عمل مبرور.

وهذا الحديث يعالج هذا الشرط الثالث بأسلوبه البياني الرائع، إذ يكشف لمن يتصدى لمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخلاً بشرط

العمل بالمعروف الذي يأمر الناس به، والبعد عن المنكر الذي ينهاهم عنه صورة واقع العذاب الأليم المخزي الذي يلاقيه يوم القيامة في النار.

إنه بسبب سوء عمله وبسبب مخالفة أفعاله لأقواله يستحق العذاب في النار، فيؤتىٰ به يوم القيامة، تأتي به ملائكة العذاب (فيلقىٰ في النار) قذفاً مهيناً، فيصطدم بما فيها اصطداماً عنيفاً مهشماً للعظام، شاقاً للبطن (فتندلِق أقتاب بطنه) الذي أكل فيه الأموال باسم الدين، وحشاه في الدنيا حشو الجشعين، وتعاظم به تعاظم المترفين، فيطير صوابه، ويتعاظم عذابه، وتتراكب عليه الذلَّة (فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى) فراراً ممَّا يلاقيه من عذاب، ولكن أين المفرّ؟ إنه يفرّ فيجد نفسه يدور فيعود إلىٰ المكان الذي فرَّ منه، ويرى الناس الذين كانوا يشاهدونه في الدنيا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهم منغمسون في معاصيهم غير مكترثين بموعظة ولا تذكير، وقد كان يتعاظم عليهم بفضل العلم وبفضل التقوى التي يرائي الناس بها، فيناله الخزي، فيخفض رأسه ويغمض عينيه، فتكون صورته في كل ذلك كصورة الحمار الدائر في الرحىٰ، بدورانه وذلته وإغماض عينيه، ولكن الناس الذين كانوا يرونه في الدنيا واعظاً مرشداً يعجبون لأمره، فيأتون إليه (فيقولون: يا فلان مالك؟! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر) إذ كنت عالماً بالحلال والحرام، متصدِّياً لمهمة التوجيه العام، والأمر بوجوه الخير والنهي عن وجوه الشر، (فيقول: بلىٰ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه).

إن هذا العذاب هو نتيجة المقت الربَّاني الذي يَحُلّ بالذين يقولون ما لا يفعلون، قال الله تعالىٰ في سورة [الصف: ٦١]:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُوْنَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَالله أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُوْنَ﴾.

أعاذنا اللهِ من ذلك ومن كلّ سوء.

* * *

د ـ مما يستفاد من الحديث:

١ ـ يجب علىٰ الداعي إلىٰ الله أن يكون متحلياً بما يدعو الناس إليه من قول وعمل.

٢ ـ عذاب الذي يخالف أوامر الله ونواهيه ـ وقد جعل من نفسه داعياً إلى الله وقدوة للناس في أقواله وأعماله أو منحه الله ولاية تتصل بإقامة دينه ـ أشدّ من عذاب غيره، لأن مسؤوليته في الدنيا أكبر من مسؤولية غيره، إذ المسؤولية تناسب مقدار المنحة.

٣ ـ الأسلوب النبوي الرائع المتضمن عرض المطلوب في صورة مشهد حيّ يلفت النظر، ويؤثر في النفس، وقد انضمَّ إليه الحوار الذي يحكي الواقع الذي سيكون فكأنه واقع كائن.

٤ ـ التربية بوسيلة الترهيب من العواقب الوخيمة.

البَلاغة وَالإعـرَاب

أوَّلاً: من وجوه البلاغة والبيان

١ ـ التشبيه: في قوله ﷺ: «**فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى**» وهو تشبيه مرسل لذكر أداة التشبيه وهي الكاف ومجمل لعدم ذكر وجه الشبه، أي بجامع الحركة الذليلة المتكررة في كلّ. وكأن في اختيار الحمار للتشبيه دون غيره مما يدور في الأرحاء إمعاناً بتصوير المهانة والمذلة والجهل، كما نجد مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الذين حمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ أولئك تعلَّموا التوراة ولم يعملوا بها، وهذا تعلَّم الدين وتصدَّى للرياسة فيه ولم يعمل به.

٢ ـ ومن بيان الرسول وبلاغته أنه أورد تهديد الذين يأمرون بالبرِّ وينسون أنفسهم بأسلوب القصة المزينة بالحوار، وذلك على سبيل فتح صفحة رهيبة من صفحات المستقبل الآتي يوم القيامة لا محالة.

* * *

ثانياً: من الإعراب

١ ـ «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار»:

(يؤتى) فعل مضارع مبني للمجهول، وهو مرفوع لتجرده عن عوامل النصب والجزم بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر لأنه معتل الآخر بالألف.

(**بالرجل**): مجرور لفظاً بحرف الجر، وهو مرفوع محلاً على أنه نائب فاعل.

(**يوم القيامة**): منصوب على الظرفية متعلق بـ(يؤتى) وهو مضاف والقيامة مضاف إليه.

(**فيلقىٰ**): الفاء حرف عطف يدلُّ على الترتيب والتعقيب، (يلقى) مضارع مبني للمجهول، ونائب فاعله ضمير يعود على الرجل، والفعل معطوف بالفاء على فعل يؤتى.

٢ ـ «يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر»؟:

(يا) حرف نداء (فلانُ) منادى مبني على الضم لأنه مفرد معرفة، وهو في محل نصب بالنداء. (مالك)؟ ما اسم استفهام مبني في محل رفع مبتدأ، لك: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر، والتقدير: أي شيء كائن لك، (ألم تكن؟) حرف استفهام، فحرف نفي وجزم وقلب يقلب المضارع من معنى الحال والاستقبال إلى معنى المضيّ ففعل مضارع ناقص مجزوم بلم واسمه ضمير مستتر تقديره أنت. وجملة (تأمر بالمعروف) في محل نصب خبر تكن.

* * *

الحديث الحادي عشر

عن أَبي مُوسَىٰ الأشعَرِيّ - رضي الله عنه - أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«إنَّ مَثلِي وَمَثَل مَا بَعَثَنِي الله بِهِ كَمَثَل رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَهُ فقَالَ يَا قَوْم، إنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بعَيْنَيَّ، وَإنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فالنَّجاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي واتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، ومَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقّ».

رواه مسلم وروىٰ البخاري قريباً مِنْهُ

أ ـ ترجمة راوي الحديث (أبي موسى الأشعري):

سبقت في شرح الحديث الرابع.

* * *

ب ـ اللغة والمعنىٰ المراد:

١ ـ «إنَّ مَثلي وَمَثلَ ما بَعَثَني الله بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَهُ»:

مَثلي وَمَثلَ: الأصل في الْمَثَلِ قَائمٌ عَلَى تَشبيه شيءٍ بشيْءٍ لوجود عنصر أو عناصر تشابه أو تماثل بينهما. ويقال لغة: «مَثَل ومِثْل» ومَثَل في التشبيه أكثر استعمالاً.

وتأتي كلمة: «المِثْل والْمَثَل» بمعنى «الوصف» ومنه قول الله تعالى في سورة [الرعد: ١٣]:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَرُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَىٰ الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِيْنَ النَّارُ (٣٥)﴾.

أي: وصف الجنَّةِ كذلِكَ.

ويمكن حمل قول الرسول ﷺ في هذا الحديث: «كَمَثَلِ رجل» علىٰ هذا، أي «كوصفِ رجلٍ» ولعلَّ هذا أرجح من أن نقول: إنَّ الكاف زائدة لتزيين اللفظ، وهو التفسير الذي ذكره طائفة من المفسرين وشراح الحديث

في مثل هذا الاستعمال، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿لَيس كمثله شيء﴾ إذْ نقول في تفسيره: ليس كوصفه شيء.

وعلى هذا فالكاف حرف جرّ معناه التشبيه، وليس زائداً.

والرسول ﷺ بقوله في هذا الحديث: «مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل..» يشبّه نفسه ورسالته التي بعثه الله بها إلىٰ قومه، بحال رجل غيور علىٰ قومه حريص عليهم، رأىٰ خطراً عظيماً يداهمهم فأقبل إليهم ينذرهم وينصحهم بأن ينجُوا بأنفسهم ويُنقِذوها من الخطر المداهم.

٢ - «إنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيّ»:

الجيش: جندٌ يسيرون للحرب أو لغيرها. يقال لغة: جَيَّشَ فلانٌ، أي: جمع الجيوش. ويقال: اسْتجاش العاملُ أميره، أي طلب منه جيشاً.

وكلمة (جَيش) أصلُها مصدر (جَاشَ) تقول العرب: جاشَت نفسُ الرجلِ جَيْشاً وَجُيُوشاً وَجَيَشاناً، إذا أصابها الْغَثَيَان، وهاجت لتقذف ما في بطنه.

ويقولون أيضاً: جَاشَتِ الْقِدْرُ، إذا غَلَتْ واتَّجهتْ لِلْفَوَرَان.

فالمادة تدور حول معنىٰ الحركة الداخلية الثائرة المندفعة نحو الخارج، ومن ذلك الأمثلة التالية:

القِدْرُ تَجِيشُ: إذا غَلَت.
الصدرُ يَجِيشُ: إذا هَاجَ ما فيه ولم يقدر صاحبه علىٰ تهدئته.
البحرُ يَجِيشُ: إذا هاج واضطرب وثار.
الهمُّ يَجيشُ في الصدر: إذا غَلَىٰ غيظاً وحَنَقاً.
نفسُ الجبانِ تجيش: إذا اضطرب من شدَّة الخوف وهمّ بالفِرار.

وقس على ذلك.

بِعَيْنَيَّ: جاءت في الحديث بروايتين: إحداهما بالتثنية والأخرىٰ بالإفراد (بِعَيْنِي).

وقد أبان أنَّه رأىٰ الجيش بعينيه، ليدفع توهّم أنه أراد الرؤية العلمية الفكرية، لا الرؤية البصرية، وذلك لأنَّ الرؤية البصريَّة أقوىٰ في إثبات الخبر.

٣ ـ «وَإنّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُريان»:

النذير: أي الْمنْذِر، فهو فَعيلٌ، بمعنَى مُفْعِل (اسم فاعل من الرباعي).

والإنذار هو الإعلام بخطر مخيف قادمٍ ينبغي الحذر منه. تقول العرب: أنذرته إنذاراً. ويُجْمَعُ النذير علىٰ «النُّذُر» وتَنَاذَرَ القومُ: أي أنذر بعضُهم بعضاً ليأخُذَ حِذْره.

الْعُرْيان: هو المتجرِّدُ من ثيابه. **والْعُرْيُ**: هو التجرُّد من الثياب. يقال لغةً: عَرِيَ الرجلُ من ثوبه يَعْرَىٰ عُرْياً وَعُرْيَةً فهو عَارٍ وعُرْيان. ويقالُ للمرأة: عَارٍ، وعَارِيَةٌ، وعُرْيَانة.

وتقول في التعدية: **أَعْريتُهُ أنا وَعَرَّيْتُهُ تَعْرِيَةً فَتَعَرَّى**، إذا جَرّدَتهُ من ثيابه.

وقد كان من عادة العرب أن يجعلوا رجلاً علىٰ مكانٍ عالٍ، مشرف على المسالك التي يمكن أن يأتي منها الأعداء، ليكون لهم عيناً يراقب هذه المسالك، فإذا أقبل غزاة من بعيد، أو قصدهم قاصد بسوء، تجرّد هذا الرجل من ثيابه وتعرَّى، وأخذ يلوّح لهم بها من مكانه وهو متجرِّد عُرْيان، فينذرهم في حركته هذه بالخطر المحقق، وكان ذلك علامة عندهم علىٰ وصول الخطر إلىٰ الدرجة القصوىٰ التي لا تحتمل التهاون، ولا التباطؤ في الاستعداد لدرء الخطر، أو الفرار من وجهه في فرصة مواتية.

وهذا الرجل الذي يقوم بهذه المهمة يسمَّىٰ عند العرب: (رَبيئة) لأنه يَرْبأ لهم، أي: يطَّلع لهم ويرقب لهم وهو على مكان عالٍ مشرف. ويُسمَّىٰ أيضاً: (طَلِيعة) لأنه يطَّلع لهم حتىٰ يعلمهم بالمخاطر فلا يدهمهم عدوّ.

ويُسمَّىٰ أيضاً: «عيناً» لأنَّ العين هي أداة الإبصار والمراقبة في الإنسان.

فالنذير الْعُرْيَان: هو هذا الربيئة إذا رأىٰ خطراً مقبلاً تجرَّد من ثيابه، ولوَّح بها من مكانه المرتفع، فيرىٰ قومُه حركَتَه وعُرْيَه، فيستعدُّون لدرء الخطر بالوسائل التي يرونها أجدىٰ لهم، ومنها الرحيل من مكانهم فراراً من مواجهة العدوّ، إذا لم يكن لديهم القدرة على المواجهة.

وقد شبَّه الرسول ﷺ نفسه في إنذاره لقومه من عذاب الله، وفي دعوته لهم إلى النجاة والسلامة، بالنذير العريان، الذي يقول لقومه: إنِّي رأيت الجيش الغازي لكم بعينيّ، فانْجُوا من الخطر المقبل، قبل أن يداهمكم فيهلككم ويجتاحكم.

وهذا تشبيه منتزع من واقع البيئة العربية، فهو بهذا يكون أكثر تصويراً للفكرة التي يريد بيانها، وأكثر تأثيراً.

٤ ـ «فالنَّجَاءَ»:

وجاء في بعض روايات الحديث: «فالنجاءَ النجاءَ» مكرَّرة.

النَّجاء: هو الخلاص مما يُهلك أو يضرُّ أو يسوءُ، كالنجاة.

تقول العرب: نَجَا يَنْجُو نَجْواً وَنَجَاءً وَنَجاةً. وفي التعدية تقول: أنجيته ونَجّيته.

والمعنىٰ: فاطلُبُوا النجاة. أو انجوا النجاة.

٥ ـ «فأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ من قومِهِ فَأَدْلَجُوا عَلَىٰ مُهْلَتِهِمْ»:

أي: فصدّقه طائفة من قومه وأطاعوه فيما دعاهم إليه من طلب النجاة بالفرار، فساروا من أوَّل الليل سيراً هادئاً، وتركوا مكانهم، لئلا يداهمهم العدو وهم فيه، وهم لا يستطيعون مقاومته.

طائفة: الطائفة هي القطعة أو الجزء من أيّ شيء، والطائفة من الناس البعض منهم، وقد يكون هذا البعض رجلاً أو رجلين، ورُوي عن مجاهد:

أنَّ أقل ما يطلق عليه لفظ (الطائفة) شخص واحد، وقال عطاء: أقلّه اثنان من الناس. ويحدِّد بعضهم الطائفة بما دون الألف، أي فما زاد علىٰ الألف لا يطلق عليه لفظ طائفة، بل هو أكثر من طائفة.

«انظر لسان العرب لابن منظور»

فَأَدْلَجُوا: أي ساروا في الليل، أو من أوَّل الليل.
تقول: **أَدْلَجَ الركب يُدْلج إدْلَاجاً**، إذا سار في الليل، أو من أوَّله.
والدُّلْجَةُ: بضم الدال سَيْر السَّحر.
والدَّلْجَةُ: بفتح الـدال سير اللَّيل كلّه.
أمَّا السير في آخر الليل فيقال فيه: **ادَّلَج يَدَّلجُ**.

«انظر لسان العرب لابن منظور»

«**على مُهْلَتِهِمْ**»: وجاء في رواية للحديث: «على مَهَلِهِمْ» أي: بهدوءٍ وسكينة وتؤدَةٍ ورفْق وطمأنينة وراحة، ودون عجلةٍ من أمرهم، لأنهم يكونون حينئذٍ آمنين، بخلاف ما لو كان العدوّ وراءهم يلاحقهم ويريد الانقضاض عليهم.

«**الْمُهْلَةُ ـ والْمَهَلُ ـ والْمَهْلُ**»: السكينة والتؤدة والرفق وعدم التعجُّل في الأمر.

تقول لغة: **تمهّل** الرجلُ في عمله إذا اتَّأد ولم يعجل.

وتقول في التعدية: أَمْهَلْتُه وَمَهَّلْتُهُ، إذا أنظرتَه ولم تَعْجَلْ عليه. قال الله تعالى لرسوله في سورة [الطارق]:

﴿فَمَهِّلِ الكَافِرِيْنَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ (١٧).

وقال تعالى في سورة [المزمِّل]:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِيْنَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ (١١).

والاسْتِمهالُ: الاستنظار.

٦ ـ «**وَكَذَّبْت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ**»:

أي: وكذَّبته طائفة من قومه ولم يطيعوه فيما دعاهم إليه من طلب النجاة، فلم يغادروا مكانهم الذي هم فيه، حتىٰ دخلوا في الصباح، وصاروا عُرضةً لسطوة الخطر المداهم من قبل الجيش القادم.

تقول لغة: أَصْبَحَ الرجل، أي: دخل في الصباح، كما تقول: أمسى، أي: دخل في المساء.

والصباح أوَّل النهار.

٧ ـ «**فصبَّحَهُم الجيشُ فأهلكهم واجْتَاحَهُم**»:

فصبَّحهم الجيش: أي أتاهم الجيش صباحاً. نقول مثلاً: صَبَّحْنَا الحرَمَ وَمَسَّيْنَاهُ، إذا أتيناه صباحاً ومساءً.

فأهلكهم: أي فقتلهم فصاروا هلكىٰ. تقول لغة: هَلَكَ فلانٌ يَهْلِكُ هُلْكاً وَهَلْكاً وَهَلاكاً إذا مات.

واجتاحهم: أي استأْصلهم فلم يُبْقِ منهم أحداً، أو أخذ أموالهم. **والجائحة**: هي الشدَّة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال، أو تستأصل من نزلت بهم، وجمعها الجوائح.

ولقد ساءَ صباحُ الْمُنْذَرِين الذين لم يعملوا بنُصْح من أنذرهم وهو رحيم بهم حريص عليهم، ولم يستجيبوا لدعوته وهو الناصح الأمين.

٨ ـ «**فذلك مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي واتَّبَعَ ما جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ من الحقِّ**»:

فذلك: المشارُ إليه هو المثلُ الذي ضربه الرسول ﷺ في هذا الحديث.

والممثَّلُ بِهِ حالُ الرسول مع الذين استجابوا له وأطاعوه، ومع الذين لم

يستجيبوا إذْ كذَّبوا ما جاء به من الحق.

قد شبَّه نفسه ﷺ بالنذير الْعُرْيان، وشبَّه من آمن به وأطاع واتبع الهـدى بالطائفة التي أدلجت ونجت من قوم النذير العريان، وشبه من كفر به وعَصَى ولم يتبع الهدى، بالطائفة التي لم تصـدّق إنذار ربيئتها، فبقيت في مكانها، فداهمها العدوّ صباحاً فأهلكها واجتاح أموالها.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

الرسول ﷺ جاء برسالة عظيمة فيها الخير والسعادة للناس أجمعين، في دنياهم وفي آخرتهم.

وهذه الرسالة تحدِّد للناس مسؤوليتهم تجاه ربِّهم، لقد خلقهم الله في أحسن تقويم روحي وفكريّ ونفسيّ وجسدي، ليبلوهم في ظروف هذه الحياة الدنيا أيُّهم أحسن عملاً، فمن كان أحسن عملاً استحقَّ أسمىٰ منازل التكريم في النعيم المقيم. ومن كانوا دون ذلك فلهم من دون رفيع منازل التكريم منازل تشاكل أحوالهم، وعلى مقدار تقصيراتهم.

ومن أبىٰ أيّ درجة من درجات التكريم بكفره، وسوء عمله، وجحوده نعم الله عليه، فليس له مكان في دار النعيم، بل مكانه في دار العذاب، دار اللعنة والطرد من رحمة الله، ومنازلُ هؤلاء في هذه الدار منازل تشاكل أحوالهم وعلى مقدار كفرهم وجحودهم وسوء أعمالهم، وأكثرهم سوءاً وشرّاً، وأبلغهم كيداً لدين الله والمؤمنين به، يجد منزله في الدرك الأسفل من النار، إذ يُردّ إلىٰ أسفل سافلين.

والمطلوب من الناس في هذا الامتحان الكبير، أن يعبدوا الله بطاعته فيما يأمرهم بفعله، وفيما ينهاهم عنه، وأن يقتحموا بهذه الطاعة عقبات نفوسهم وأهوائهم وشهواتهم ورغائبهم الدنيوية، وأن يلاحظوا أنَّ هذه الدار الدنيا هي دار الابتلاء، وأن حياتهم فيها حياةُ ممتَحَنٍ مراقَب ما توافرت لديه

شروط الامتحان (عقل واكتمال شروط المسؤولية).

لمَّا كان الأمر كذلك كان لا بدَّ أن يشتمل بيان الرسول ﷺ على العناصر الرئيسية التالية:

١ ـ كشف حقيقة موقع الإنسان في هذا الوجود، وبيان أنَّه مخلوق لغاية.

٢ ـ بيان أنَّ الغاية من الخلق الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا.

٣ ـ بيان أن المطلوب في هذا الامتحان: أن يعبد خالقه ورازقه ومالك ناصيته وحياته وموته وكلِّ شيءٍ فيه، بالطاعة فيما يأمر به وفيما ينهىٰ عنه.

٤ ـ بيان العناصر التي تتحقق بها العبادة المطلوبة، على اختلاف صورها وأشكالها وماهيّاتها، عقيدةً، أو نيَّةً، أو خُلقاً، أو قولاً، أو عملاً، أو تركاً واجتناباً وكفّاً.

٥ ـ بيان نتيجة الامتحان، وهو الجزاء بالثواب أو بالعقاب، وببيان الجزاء بالثواب تكون الْبُشرى لمن صدَّق وأطاع، وببيان الجزاء بالعقاب يكون الإنذار لمن كفر وعصى.

فمن آمن وأطاع، فله البشرىٰ بالنجاة والسعادة الخالدة، ومن كفر وعصىٰ، فليترقب عذابه علىٰ مقدار كفره وسوء عمله.

إذا أخذنا هذه الفقرة الأخيرة من رسالة الرسول ﷺ (رقم ٥).. وأردنا أن نمثِّل حالة الرسول فيها بمثال مشابه من واقع حالة البيئة العربية التي بُعث الرسول ﷺ في وسطها، ليؤمنوا به ثم ليبلّغوا رسالته للناس أجمعين، وجدنا أنَّ أدَقَّ مثالٍ وأقربه لذلك هو مثال ربيئة القوم، الذي ينظر لقومه وهو على شاهق، فيرىٰ من الأفق البعيد ومن نائي الأرض ما لا يرون، ويأتيه من الأنباء ما لا يأتيهم، وذلك بالنظر إلى موقعه الذي هو فيه. إنَّه رقيب يقظ، وهم في أعمالهم ومشاغلهم اليومية لاهـون، وإلى شؤون أنفسهم ومصالحهم الدائرة منصرفون.

هذا الربيئةُ الرقيبُ الْمُنَبِّأُ بالأنباء التي تُهِمُّ قومه إذا أحسَّ بخطرٍ قادم، كجيش مهاجم! أو سيل مداهم، قام على صخرة مرتفعة مشرفة يراه عليها قومه دون عناء، وجعل يناديهم: إنِّي رأيتُ الجيش بعينيّ، إنِّي أنا النذير العريان، وخلع ثيابه، وأخذ يلوِّح لقومه بها، مؤكِّداً بذلك لهم صدقه فيما ينذرهم به، إذْ لولا تحقق الأمر عنده ما تعرَّىٰ. فهو ينذرهم حتى يأخذوا حذرهم، فينتقلوا من محطِّ رحالهم، ويبتعدوا مُدْلِجين، حتى يصلوا قبل الصباح إلى مكانٍ آمنٍ، تكون به حمايتهم من مداهمة عدوّهم لهم وهم في منزلهم الذي كانوا فيه.

كذلك حال الرسول ﷺ، لكن الذي حصل أنَّ طائفة من قومه صدَّقوه وآمنوا به واتبعوه وأطاعوه، وطائفة أخرىٰ كذَّبوه وكفروا به وعَصَوْه.

أمَّا الذين آمنوا به وأطاعوه فلهم النجاة، كحال الَّذين صدَّقوا ربيئتهم فأخذوا حِذْرهم. وأمَّا الذين كفروا به وعَصَوْه فهلاكهم ينتظرهم، كحال الذين كذَّبوا ربيئتهم فلم يأخذوا حِذْرَهم، ففاجأهم عدوُّهم فأهلكهم واجتاحهم.

* * *

د ـ مما يستفاد من الحديث:

١ ـ حسن استخدام أدب التمثيل في الدعوة اقتداء بالرسول ﷺ في ذلك، ولما في استخدام الأدب من تأثير في المخاطبين.

٢ ـ الاستفادة من بيئة المخاطبين في اقتباس الأمثلة البيانية الأدبية منها.

٣ ـ حرص الرسول ﷺ على قومه، وأنه بمثابة ربيئة قومه المختار من قبلهم، ليكون رقيباً على شَرَفٍ يرقب لهم، ويعلمهم بما يحدث، مما يُهمّهم.

٤ ـ بشارة المؤمنين وإنذار المكذبين.

* * *

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

في هذا الحديث وجوه بلاغية متعدِّدة منها الوجوه التالية:

١ ـ تأكيد الخبر في الجمل التالية:

«إنَّ مَثَلي ومَثَلَ ما بعثني الله به كمثل. . .».

«إنِّي رأيتُ الجيش بعينَيَّ. . .».

«إنِّي أنا النذير الْعُريان. .».

والتأكيد في هذه الجمل قد جاء بالجملة الاسمية وبأداة التأكيد «إنّ» وبتكرار الضمير في «إني أنا».

وقد جاءت كلّ هذه التأكيدات لأنّ حال المخاطبين حال من يستدعي تأكيد الخبر له، ففيهم المنكرون والشاكون ونحوهم.

٢ ـ الإيجاز في موضعين:

أ ـ الإيجاز بالحذف في «فذلك مثل من أطاعني. .» «أي مثلي ومثل من أطاعني. .» لأنَّ المشار إليه كامل المثل، ولأنَّ الممثَّلَ هو الرسول ﷺ وقومه الذين أطاعوا والذين عَصَوْا. والمحذوف هنا جاء مصرّحاً به في صدر الحديث.

ب ـ الإيجاز بالحذف في «فالنجاء» لأنَّ التقدير: فاطلبوا النجاة، أو انْجُوا النجاةَ، كما سبق بيانه.

٣ ـ الحديث كلّه قائم على ما يسمًى عند البلاغيين بتشبيه التمثيل، لأنَّه يشتمل على تشبيه صورة بصورة، فالرسول ﷺ في دعوته لقومه وتحذيره إياهم من عاقبة الكفر، يشبه نفسه وقومه، بحالة الربيئة وأحوال قومه معه على اختلاف شأنهم من مطيع وعاصٍ.

وتشبيه التمثيل هذا يرجع لدى التحليل إلى تشبيهات فردية تتجمَّع في صورة تمثيلية.

٤ ـ اقتباس المثال من بيئة المخاطبين، ليكون الكلام أوضح وأكثر تأثيراً.

٥ ـ تفصيل تطبيق المثل على الممثل له: «فذلك مثل من أطاعني.. إلى آخر الحديث».

* * *

ثانياً: من الإعراب

(مَثَلِي): اسم إنَّ. وهو منصوب منع من ظهور حركة النصب اشتغال الآخر بالكسرة المناسبة لياء المتكلم. و«مثل» مضاف، وياء المتكلم مضاف إليه وهو في محل جرّ.

«وَمَثَل» معطوف على اسم «إنَّ» وهو منصوب.

«ما» اسم موصول بمعنى الذي، وهو مضاف إليه في محل جرّ. وجملة «بعثني الله به» صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

«كمثل» جار ومجرور متعلّق بمحذوف مرفوع هو خبر «إنَّ».

وجملة «أتى قومه» في محلّ جرّ صفة لـ «رجل».

«يا قوم» أداة نداء، ومنادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وقد دلَّ عليها إبقاء الكسرة على الميم، وهذا المنادى منصوب تقديراً.

«وإنِّي أنا» أنا: ضمير جاء مؤكّداً لياء المتكلِّم في «إنِّي» وتـأكيد الضمائر المنصوبة أو المجرورة يأتي بضمائر الرفع. تقول: رأيتكَ أنت، ومررت بكَ أنت، ومنه ما جاء في الدعاء المأثور مناجاةً لله تعالى: «لا أحصي ثناء عليكَ أنت كما أثنيت على نفسك».

«فالنجاء» منصوب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: فانْجُوا النجاءَ، وعُرِّفَ بأل إشارة إلى الكمال، أو إلى بيان النوع، أي: فانجوا النجاءَ الأكمل، أو النجاءَ الذي ترغبون فيه. أو منصوب على أنه مفعول به لفعل محذوف تقديره: فاطلبوا النجاءَ، أي لأنفسكم.

والفاء في «فالنَّجَاء» عاطفة، معناها التفريـع المترتب على البيـان السابق.

* * *

الحديث الثاني عشر

عنِ النُّعْمَان بن بَشير - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنَّه قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَىٰ حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا: كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَىٰ سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا إذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالوا: لو أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فإنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِم نَجَوْا وَنَجَوْا جميعاً».

رواه البخاري

أ ـ ترجمة راوي الحديث (النُّعْمَانُ بن بَشير):

هو أبو عبدالله النُّعمانُ بنُ بَشِير الأنصاري. صحابي هو وأبوه وأمّه. وهو أوَّل مولود وُلد للأنصار من المسلمين بعد الهجرة. وحين توفي رسول الله ﷺ كان عُمْرُ النعمان بن بشير ثماني سنين وسبعة أشهر كما قيل. سكن الكوفة، وكان والياً عليها زمن معاوية. ثمَّ صار والياً على حمص، ولمَّا بويع لعبدالله بن الزبير بالخلافة في مكة دعا له في حمص، فثار عليه أهل حمص انتصاراً للأمويين، وقتلوه سنة أربع وستين للهجرة رضي الله عنه.

* * *

ب ـ اللغة والمعنى المراد:

١ ـ «مَثَلُ القائمِ على حدود الله والواقع فيها»:

القائم على حدود الله: أي المحافظ عليها والملازم لفعل ما تأمر به، وترك ما تنهى عنه.

قال ابن منظور في لسان العرب: وكلّ من ثبت على شيء وتمسّك به فهو قائم عليه.

وأصل كلمة «قائم» اسم فاعل من القيام الذي هو ضدَّ الجلوس. ولكنَّ استعمال مادَّة القيام قد اتَّسع عند العرب اتساعاً مجازيّاً، ثمَّ صارت بعض المعاني المجازية حقيقة عرفية، وبمثابة المعنى الأصلي، ومن هذه المعاني

استعمال القائم على الشيء بمعنى المحافظ والمواظب عليه والملازم له، ومنه ﴿أقيمو الصلاة﴾ أي: حافظوا عليها وواظبوا على أدائها في أوقاتها.

وحدود الله: شرائعه وأحكامه وأوامره ونواهيه. وأصل الحدّ الفاصل بين شيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلاَّ يتعدَّى أحدهما على الآخر، ويجمع على حدود.

وفَصْلُ ما بين كلّ شيْئين هو حدٌّ بينهما. ومنتهى كلّ شيءٍ حدّه.

وسمّيت أحكام الله وشرائعه وأوامره ونواهيه حدود الله لأنها قد فصلت بين ما يجب فعله وما يجب تركه، وما يجوز فعله وتركه، وما يحسُن فعله دون إلزام، وما يحسن تركه دون إلزام. فكان لكلّ منها حدٌّ من لزمه وفق حكم الله فهو قائم عليه، ومن لم يلزمه وفق حكم الله فقد تعدَّى حدَّ الله.

وملازم حدود الله يقال فيه: مقيم لها، ومنه قول الله تعالى في سورة [البقرة: ٢]:

﴿إلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ الله﴾ (٢٢٩).

ويقال فيـه قائم عليها، ومنه ما جاء في الحديث الذي نشرحه: «مثل القائم على حدود الله».

وحين تكون الحدود بداية منطقة حرّم الله الدخول فيها، يأتي التعبير القرآني بصيغة ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾(١) لأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

وحين تكون الحدود نهاية منطقة أوجب الله البقاء فيها وعدم تجاوزها، يأتي التعبير القرآني بصيغة: ﴿تِلْكَ حُدُودَ الله فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾(٢) أو نحو ذلك، أي فلا تتجاوزوها.

---

(١) البقرة آية: ٢٢٩.
(٢) البقرة آية: ٨٨٧.

والواقع فيها: أي الواقع في حدود الله، بفعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر به، ويشمل كلّ العصاة على اختلاف دركاتهم ومنازلهم.

والقائمون على حدود الله والواقعون فيها هم المجتمع المسؤول تجاه الله عزّ وجل، إذ هو ينقسم إلى مطيعين وعصاة.

وقد مثَّل الرسول ﷺ هذا المجتمع الشامل لقسميه المطيعين والعصاة بركّاب سفينة في البحر.

البحرُ في المجتمع هو بحر الحياة وأحداثها وتقلباتها وأهوالها أحياناً، والسفينة هي الهيكل الاجتماعي في الأمة، على اختلاف مؤسساتها الاجتماعية، والنظام الذي تسير عليه.

وركَّاب السفينة هم أصناف المجتمع وطبقاته.

٣ ـ «كَمثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَة»:

أي: كمثل قومٍ أرادوا ركوب سفينة في البحر، فاقترعوا على أمكنتهم فيها، حتى لا يتنازعوا فيما بينهم على الأماكن.

قوم: القوم الجماعة من الرجال والنساء، ثم غلب في استعمال العرب على الرجال دون النساء، ولكن قد يدخل النساء فيه على سبيل التبع، فقومُ كلّ نبيٍّ رجالٌ ونساء.

ومن استعمال القوم في الرجال فقط قولُ الشاعر العربي زهير:

وما أدري وسوف إخَالُ أدري   أقومٌ آل حصْنٍ أمْ نساء

وقول الله تعالى في سورة [الحجرات: ٤٩]:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ (١١)﴾.

اسْتَهَمُوا: أي اقترعوا، ليأخذ بالقرعة كلٌّ منهم سهمه، أي: نصيبه

الذي يخرج له، وفعل «استهم» مأخوذ في الأصل من السهم الذي هو واحد «السهام» وهي القداح التي تجري بها القرعة، أو التي كان يضرب بها في الميسر عند العرب.

على سفينة: السفينة الفلك، وجمعها سَفَائِن وسُفُن وسَفِين. و «السَّفَّانُ» صانع السفُنِ وسائِسها. واسم حِرْفَته «السِّفانة».

وسمّيت هذه المركبة البحرية عند العرب سفينة لأنَّها تَسْفِنُ وجه الماء، أي: تقشره. فأصل السّفْنِ في اللُّغة الْقَشْر، يقال؛ سَفَنَ الشيءَ يَسْفِنُهُ سَفْناً إذا قَشَرَهُ.

٤ ـ «فأصابَ بعضهم أعلاها وبعضهم أَسْفَلها»:

أي: فكان نصيبُ بعضهم في القرعة الطابقَ الأعلى من السفينة، ونصيبُ بعضهم الطابق الأسفل منها.

فأصاب: يقال لغة: أصاب فلانٌ الشيءَ بمعنى أخذه، أو تناوله، أو نالَهُ، أو وجده. أو كان من نصيبه.

أي: فكان الذين استقروا في الطابق الأسفل من السفينة إذا أرادوا أن يأخذوا من ماء البحر لحاجاتهم اضطرُّوا أن يمرُّوا على الذين استقرّوا في الطابق الأعلى منها، وفي مرورهم هذا عليهم بعض الإيذاء لهم.

استقوا: أي جلبوا ماء السقيا لشربهم وحاجاتهم الأخرى باجتهاد وتكلُّف. وأصل الفعل «سقىٰ» ثم زيدت فيه تاء افتعل وهمزة الوصل، فصار «استقىٰ» مثل: كسب واكتسب، وكتب واكتتب. ومن معاني هذه الصيغة من صيغ الفعل الثلاثي المزيد، الاجتهاد والطلب، كما في هذه الأمثلة.

٦ ـ «فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا»:

أي: لو أننا ثقبنا في نصيبنا من أسفل السفينة ثَقباً نأخذ منه الماء، لئلا نصعد إلى أعلاها، ونمرّ على الذين هم فيه فوقنا، فنؤذيهم بمرورنا عليهم،

واستقاء الماء بالدلاء من مواقع نُزُولهم فيها.

والخرق: الثَّقب. وَخَرَقَ: ثَقَبَ.

وكلمة «لو» هنا معناها العرض، وليست شرطية، وفي العرض معنى الرغبة أو التمنِّي وهي في هذه الحالة لا تحتاج جواباً فهي كمثال النُّحاة: «لو تأتيني فتحدِّثني» أو «لو تنزل عندنا فتصيبَ خيراً».

وجاء التعبير في «لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا» بصيغة الماضي، والمقصود عرض رغبتهم فيما يريدون فعله في المستقبل، وأنَّهم يهمّون بالقيام بهذا العمل، أي: لو أننا نخرق في نصيبنا خرقاً لئلا نؤذي من فوقنا.

٧ ـ «فإن يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أرَادُوا هَلَكُوا جميعاً وَإنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَميعاً»:

هلكوا: أي ماتوا. يقال لغة: هَلَكَ يَهْلِكُ هُلْكاً وَهَلْكاً وهَلاَكاً، أي: مات.

ومن مات فهو هالك، وجمعُه هُلَّك، وهُلاَّك، وَهَلْكَى.

نَجَوْا: أي سلموا من الهلاك. يقال: نَجا يَنْجُـو نَجواً وَنَجاءً وَنَجاةً، إذا خَلَصَ وَسَلِمَ من الهلاك، أو ممَّا كان عُرْضَةً له من ضُرٍّ أو أذىٰ.

والضمير في «نَجَوْا» الأولى يعود على الذين منعوا الفساد، فأخذوا على أيدي إخوانهم. والضمير في «نَجَوْا» الثانية يعود على الذين أرادوا خرق السفينة.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

الظاهرة الاجتماعية التي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات البشرية، أن يوجد فيه جانحون عن سواء السبيل، مفسدون في الأرض، كثرت نسبتهم أو قلَّت.

وإذا قصَّر الصالحون بواجبهم في الهداية والإصلاح والتقويم والأخذ على أيدي المفسدين، كثرت نسبة المفسدين في الأرض، وانتشر الشرُّ والظلم والعدوان والطغيان، وامتدَّ الوباء، وصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وبسبب الفساد المنتشر تتزلزل قواعد سلامة المجتمع، وتنعدم فيه عوامل بقائه واستمراره، على ما قضت به سنة الله في خلقه.

عندئذٍ يستحقُّ هذا المجتمع كلمة العذاب والهلاك الشامل. وبعدئذٍ تنزل عقوبة الله الشاملة التي تصيب الفاسدين المفسدين، وتصيب الصالحين في أنفسهم أيضاً، لأنَّهم قصَّروا بواجبهم تجاه مجتمعهم، إذ كان عليهم أن يأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر، فإن لم يستجيبوا قاوموهم وأخذوا على أيديهم إن استطاعوا، فإن لم يستطيعوا استمرُّوا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن اضطهدوهم من أجل دينهم وإقامة أحكام ربِّهم فعليهم أن يهاجروا إذن، إلى حيث يأمنون على أنفسهم وإقامة أحكام دينهم، فإن عجزوا عن الهجرة أيضاً عذرهم الله، فأنجاهم عند نزول الهلاك الشامل، أو شملهم الهلاك إذا وافق ذلك آجالهم، ثم يبعثون على نياتهم وأعمالهم، ويؤجرون أجر شهداء المصائب، فيكونون كالْهَدْمَىٰ والْغَرْقَىٰ.

هذه السنة من سنن الله في المجتمعات البشرية قد دلَّت عليها نصوص من القرآن والسنة، كما دلَّت عليها أحداث التاريخ الإنساني، وقد ذكر القرآن طائفة منها.

فمن النصوص القرآنية التي دلَّت على هذه السنة الربَّانية وتطبيقاتها في التاريخ الإنساني ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة [الفجر: ٨٩]:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَدِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَدِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ

عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾.

جابوا الصخر بالواد: خرقوا الصخر فاتخذوا فيه بيوتاً، أو قطعوه فابتَنوْا به بيوتاً.

أي: فلمَّا طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد صبَّ عليهم ربُّك سوط عذاب، وفق سنته في خلقه.

٢ ـ وقوم لوط لمَّا أجرموا وظلموا وفسقوا وأكثروا الفساد في الأرض أهلكهم الله، قال الله عزَّ وجل بشأنهم في سورة [الأعراف: ٧]:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُجْرِمِيْنَ﴾ (٨٤).

أي: فلم يكن عقابهم الشامل لمجرد كفرهم، بل لفسادهم الشامل وإجرامهم وظلمهم.

إنَّ العقاب الشامل على الكفر غير المقرون بالفساد العامّ أو الظلم والطغيان، كثيراً ما يدَّخره الله ليوم الدين، وقلَّما يعجِّله في الحياة الدنيا، حتى يقترن بالظلم والطغيان والإفساد في الأرض والصدِّ عن سبيل الله.

بهذا قضت حكمته وسنته عزَّ وجل، ليتحقق أنَّ الحياة الدنيا هي دار الابتلاء، وأنَّ الدار الآخرة هي دار الجزاء، لكنَّ انتشار الفساد في الأرض يفضي إلى دمارها، وتعاظم آلام الناس، ويفضي إلى الصدِّ الشامل عن سبيل الله، فالحكمة عندئذٍ تقضي بإنزال العقاب الشامل، لتتوازن في الحياة ظروف الامتحان الأمثل.

٣ ـ وأهل مدين لمَّا طفَّفوا الكيل والميزان، وبخسوا الناس أشياءهم، وتوعَّدوا الصالحين، وصدُّوا عن سبيل الله من آمن، وأكثروا الفساد في الأرض، أهلكهم الله، وبشأنهم قال الله تعالى في سورة [الأعراف: ٧]:

﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَـانَ عَـٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦)﴾.

٤ ـ وبشأن فرعون وملئه قال الله تعالى في سورة [الأعراف: ٧]:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَـٰتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾.

٥ ـ وقال الله تعالى في سورة [الكهف: ١٨]:

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً (٥٩)﴾.

٦ ـ وفي بيان أنَّ الإهلاك العام إنما يكون للقوم الظالمين، وللقوم الفاسقين، قال الله تعالى في سورة [الأنعام: ٦]:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّـٰلِمُونَ (٤٧)﴾.

وقال الله تعالى في سورة [الأحقاف: ٤٦]:

﴿بَلَـٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَـٰسِقُونَ (٣٥)﴾.

ومِن أقوال الرسول ﷺ الدالة على هذه السنة من السنن الربانية في المجتمع البشري ما يلي:

١ ـ عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال:

«إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمّهم الله بعقابٍ منه» حديث صحيح، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

٢ ـ وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ أنَّها سألت النبي ﷺ ـ فقالت: يا رسول الله، أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثُر الخبث» رواه البخاري ومسلم[1].

٣ ـ والحديث الذي نحن بصدد شرحه: «مثل القائم على حدود الله..».

---

(١) انظر كتاب «رياض الصالحين» باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحديث ١٨٩.

٤ ـ وعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ النبي ﷺ قال:

«إنَّ الله تعالى إذا أنزل سَطَواته على أهل نقمته فوافت آجال قومٍ صالحين، فأهلكوا بهلاكهم، ثم يبعثون على نياتهم وأعمالهم»(١).

وحين يقوم دعاة الحق بواجبهم فينهون عن المنكر، ولا يرضون به، فمن سنّة الله أن ينجيهم بوسيلة ما، حين يريد إهلاك القوم الذين حقت عليهم كلمة العذاب الشامل.

ومن وسائل نجاتهم تمكينهم من الهجرة قبل نزول العذاب، ومنها إخراج الذين قضى الله بإهلاكهم إلى مواطن نزول العذاب عليهم، ومنها تخصيص المقصودين بالإهلاك بالقواتل والنوازل.

وفي بيان أمثلة من هذه السنة في أحداث التاريخ البشري، أخبرنا الله تعالى عن أهل قرية من قرى بني إسرائيل كانت حاضرة البحر وهي (أيلة = العقبة) فقال تعالى في سورة [الأعراف: ٧]:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بعذابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾.

وأخبرنا الله عزَّ وجل عن نجاة لوط ومن آمن معه بوسيلة مغادرة قرى قومه التي قضىٰ الله بتدميرها على أهلها، وأن يجعل عاليها سافلها، لكثرة فسقهم وجرائمهم، فقال الله تعالى في سورة [العنكبوت: ٢٩]:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَـٰلِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعَاً وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذه الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه (صحيح).

السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ (٣٥)﴾.

كانت من الغابرين: أي كانت من المُهْلَكين، والغابر يأتي بمعنيين ضدَّين، فيأتي بمعنى الماضي، ويأتي بمعنى الباقي، وفي الفعل تقول العرب: غَبَر الشيءُ يَغْبُر غبُوراً إذا مكث، وإذا ذهب، وَغَبر الشيءُ: أي بقي. وَغَبَرَ الشيءُ إذا مضىٰ.

وامرأة لوط كانت من الغابرين: أي من الباقين في القرية فلم تخرج مع لوط وأهله، فنزل بها الهلاك كما نزل بسائر قومها. وكانت من الغابرين: أي من الماضين الذين أهلكوا فمضوا، ولم تكن من الناجين.

رجزاً من السماء: أي عذاباً من السماء.

هذه السنة من سنن الله في المجتمع البشري قدَّمها الرسول ﷺ في الحديث الذي نشرحه على صورة مثلٍ رائع، تضمّن هذا المثل لوحة أدبية فنيَّة، مليئة بالحركة والحياة، وقد برزت فيها أهم العناصر المقصودة بالبيان، وطويت فيها أرضية اللَّوحة، وعناصر أخرى يتمكن خيال القارىء أو السامع الحصيف من استكمالها بنفسه، دون أن ترسم له في البيان المعروض.

إنَّ الدنيا وأحداثها كبحرٍ لُجّي، في هدوئه، وحلو نسماته، وفي اضطرابه وشدَّة رياحه وهيجانه ومخاطره، وفي احتوائه على كنوز وثروات وأرزاق.

وإنَّ الحياة فيها كالركوب في مراكب البحر، ومعلوم أنَّ الراكب في البحر على خطر الهلاك.

وأيّ مجتمعٍ من المجتمعات الإنسانية ذات العلاقات المشتركة والإدارة الواحدة، يشبه ركّاب سفينة واحدة تقاسموا مواقعها المتفاوتة، كما لو اقترعوا عليها بالقرعة.

وبعض التصرُّفات السيئة من بعض أفراد المجتمع قد لا يشكِّل خطراً على المجتمع في هيئته الاجتماعية، كالمخالفات الفردية التي لا تمسُّ كيان المجتمع، وهذه تشبه تصرُّفات سيئة يمارسها بعض ركَّاب السفينة في البحر، إذا لم يكن لها تأثير على سير السفينة وكيانها ونظام حركتها وتوجيه دفتها، ولا يعرِّضها لخطر الغرق أو الجنوح والاصطدام.

لكنَّ بعض التصرفات السيئة من بعض أفراد المجتمع يشكِّل خطراً جسيماً على المجتمع في هيئته الاجتماعية، إذْ قد تسبب هذه التصرُّفات نزول الهلاك العامّ الشامل. وهي تشبه خرق السفينة من موقع يسمح بتدفق ماء البحر إلى داخلها، الأمر الذي تغرق به السفينة، ويتعرَّض به ركَّابها للهلاك العام.

هذه التصرُّفات السيئة التي يتعدَّى ضررها إلى المجتمع لا يعقل بحالٍ من الأحوال أن تبرَّر بدعوى الحريَّة الشخصية، لأنَّ ضررها يتعدَّى إلى أفراد المجتمع أوَّلاً، ثمَّ إلى الهيئة الاجتماعية أخيراً، ثم يتسبَّب بدمار المجتمع وهلاكه كلّه وفق سنة الله في المجتمعات البشرية.

هنا تبرز مسؤولية الفئة الصالحة في أنفسها، تُجاه حقّ أنفسها، وحقّ الهيئة الاجتماعية عليها.

فإن هي لم تعبأ بفساد المفسدين في المجتمع، ولم تأمر بالمعروف ولم تنه عن المنكر، ولم تقاوم الفساد، ولم تضرب على أيدي المفسدين، ثمَّ تصوَّرت أنَّ مسؤوليتها قاصرة على حدود إصلاح أنفسها، مع أنَّ فساد المفسدين يؤدِّي إلى فساد المجتمع كلّه، واستحقاقه الهلاك العام بموجب سنة الله في خلقه، فإنَّها تستحقُّ عند نزول العذاب والهلاك الشامل أن ينزل بها الهلاك كما نزل بالمفسدين، دون تمييز ولا تخصيص، فالعقوبات المهلكة لمجتمع من المجتمعات تأتي في سنة الله عامَّة شاملة.

أمَّا المفسدون والظالمون فبسبب فسادهم وظلمهم، وأمَّا الصالحون في

أنفسهم فبسبب تقصيرهم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على أيدي المفسدين والظالمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

فالسفينة الاجتماعية واحدة، والإفساد الذي يمسُّ كيان السفينة في ذاتها أو في مسيرتها، قد يؤدِّي إلى غرقها، وهلاك كلّ من فيها، ولو كان فيها أناسٌ صالحون في أنفسهم، قائمون على حدود الله في ذواتهم.

ويُبْرِزُ المثل النبوي في هذا الحديث نقطة مهمة جدًّاً، وهي المعَاذير التي يغالط بها المفسدون عادة، لتبرير ما يقومون به من أعمال تؤدِّي إلى فساد خطير، يشمل ضرره وشرُّه المجتمع كلّه، وقد يدفع به إلى الدمار والهلاك والعذاب الشامل.

وجاء تمثيل هذه المعاذير التبريرية، باعتذار نزلاء الطابق الأسفل من السفينة بأنَّهم يريدون خرق السفينة من مواقعهم لأنهم لا يريدون إيذاء نزلاء الطابق الأعلى منها، فهم حريصون على مصلحة شركائهم في السفينة.

وكذلك المفسدون في الأرض، يقدِّمون لكلّ عمل من أعمال الإفساد التي يقومون بها معاذير تبريرية، توهم أنَّهم يعملون لصالح المجتمع. ولدى تدقيق النظر، وبحث الأمر بحثاً فكريّاً وتطبيقيّاً، يتبيَّن أنَّهم: إمَّا أصحاب أهواء وشهوات خاصة جعلتهم يجنحون عن سواء السبيل. وإمَّا جهلة أغبياء. وإمَّا أتباع مضلَّلون يسيرون في ركب الشياطين الحريصين على هلاكهم وهلاك مجتمعهم كلّه.

وزخرف المذاهب الفكرية الضالة الفلسفية أو الاجتماعية أو السياسية أو النفسية أو الاقتصادية المعادية لدين الله وشريعته لعباده، إنْ هي إلاَّ مقالاتٌ كبرى تشبه في حقيقتها المقالة التبريرية التي جاءت في المثل: «فلو أنَّا خرقنا في نصيبنَا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا».

وبعض الناس يفهمون فهماً خاطئاً قول الله تعالى في سورة [المائدة: ٥]:

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ؛ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾.

إذْ يغفُلُون عن عنصر مُهمّ من عناصر الهداية، ألا وهو عنصر المسؤوليّة الجماعية، أي مسؤولية الأفراد تجاه الجماعة، ومسؤولية فريق من الجماعة تُجاه الفريق الآخر، وهذه المسؤولية هي غير مسؤولية الأفراد تجاه أنفسهم.

فالهداية المطلوبة في قوله تعالى: ﴿إذا اهتديتم﴾ إنَّما تتمّ بطاعة الله في أوامره ونواهيه كلّها، ما يتعلَّق منها بسلوك الفرد في ذات نفسه، وما يتعلَّق منها بواجباته نحو أسرته وهي رعيته الخاصة، وبواجباته نحو مجتمعه الذي هو فرد من أفراده، ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على أيدي الظالمينَ المفسدين، مشاركاً في ذلك الفئة الصالحة في المجتمع.

أمَّا الذين اهتدوا حقّاً على الوجه المطلوب، فأدّوا ما عليهم في خاصَّة أنفسهم، وما عليهم تجاه الناس من واجبات اجتماعية، فإنهم حينئذٍ لا يضرُّهم عند الله من ضلَّ من الناس حتى ولو كانوا أقرباءهم وأهليهم وعشيرتهم.

إنَّ المؤمن مسؤول عن إصلاح نفسه وتقويمها، وطاعة الله في ذات نفسه وفي سلوكه الخاصّ، حتى يكون بذلك قائماً على حدود الله، ومسؤول أيضاً عن رعيته التي يرعاها، كما جاء في الحديث الصحيح: «كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته».

وكما قال الله تعالى في سورة [طه: ٢٠]:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَـٰوةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢)﴾.

ويدخل في ذلك واجب تربية الأبناء والبنات تربية إسلامية.

ومسؤول أيضاً عن مراقبة المجتمع المسلم وصيانته الدائمة بالأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال الله تعالى في سورة [التوبة: ٩]:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾.

ومسؤول أيضاً مع القائمين على حدود الله ضمن المجتمع الإسلامي مسؤولية جماعية تجاه الواقعين في حدود الله، بهدايتهم بمختلف الوسائل حتى كفِّ أيديهم ومنعهم بالقوة من الأعمال التي قد يعمّ بها الفساد وينتشر بها الظلم.

ومسؤول أيضاً مع المجتمع الإسلامي عن أعمال أخرى تجاه المجتمعات الإنسانية غير المسلمة.

أمّا المسؤولية تجاه المجتمع الإسلامي فتتمثل بعدّة أمور منها:

١ ـ إقامة الحكم الإسلامي، وتطبيق العدل وفق منهج الله وشريعته.

٢ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ الأخذ على أيدي المفسدين والظالمين، والضغط عليهم اجتماعياً حتى يسيروا في إطار مسيرة المجتمع الإسلامي السليم.

٤ ـ قمع البغاة الخارجين بالقوة.

٥ ـ إلى واجبات التعليم والتوعية العامّة، وإقامة المؤسسات الحضارية، وبناء القوى الرادعة للغزاة الطامعين، والمرهبة لأعداء الله وأعداء المسلمين، وغير ذلك من واجبات اجتماعية.

وأمّا المسؤولية تجاه المجتمعات غير الإسلامية، فتتمثل بعدّة أمور أيضاً، أهمها:

١ ـ تبليغ دين الله للناس أجمعين.

٢ ـ تقديم المثل الصالح للمجتمع الإسلامي القائم على الحق والعدل والتراحم والأمانة والعفة والصدق والوفاء بالوعد والعهد، إلى غير ذلك من أخلاق إسلامية.

٣ ـ الجهاد في سبيل الله، لتأمين حركة التبليغ، ولإقامة العدل بين الناس، ولإزاحة الطغاة البغاة المتألهين على عباد الله، حتى يتحرَّر الناس من الطغيان، ويملكوا القدرة على التعرُّف على الحقِّ، واختيار الدِّين الذي يرتضونه دون إكراه ولا إجبار.

وقد فهم بعض المسلمين من قوله تعالى: ﴿عليكم أنفسَكم لا يضرُّكم من ضلَّ إذا اهتديتم﴾ في عهد أبي بكر رضي الله عنه فهماً غير سوي، فقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: يا أيُّها الناس، إنكم تقرءون هذه الآيـــة:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنَّ الناس إذا رأوا المنكر ولا يُغَيِّرونه يوشك الله عزَّ وجلَّ أن يعمّهُمْ بعقابه»(١).

نعم فمن اهتدى فأدَّى واجباته الخاصة وواجباته نحـو رعيته التي يرعاها، وواجباته نحو المجتمع الإسلامي، وواجباته نحو تبليغ دين الله للناس، والجهاد في سبيل الله، لم يضرّه بعد ذلك من ضلَّ من الناس.

هذا هو الفهم الحقّ الذي تدلّ عليه جملة النصوص.

أمَّا إذا قصَّر بواجباته الاجتماعية، فأدَّى تقصيره إلى تمكين المفسدين من خرق السفينة الاجتماعية، فإنَّ الغرق سيصيبه مع المفسدين، ويهلك بذلك مع الهالكين.

* * *

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

د ـ ممَّا يستفاد من الحديث:

يستفاد من هذا الحديث البديع أمور كثيرة، منها ما يلي:

١ ـ لا يكفي لإسقاط المسؤولية أن يقوم الصالحون في المجتمع بإصلاح أنفسهم، ويتركوا المفسدين يعيثون في الأرض فساداً، بل لا بدَّ من قيام الصالحين بهداية المفسدين بمختلف الوسائل، حتى وسيلة الأخذ على أيديهم ومنعهم من الفساد.

٢ ـ إذا قصَّر الصالحون في أنفسهم بواجباتهم الاجتماعية، فأدَّى الأمر إلى انتشار الفساد، واستحقاق هذا المجتمع الفاسد إنزال العقاب الشامل، عمَّ هذا العقاب المفسدين والذين هم صالحون في أنفسهم، إلَّا أنَّهم قصَّروا بواجب الإصلاح، وبواجب الأخذ على أيدي المفسدين.

٣ ـ من أدب الدعوة استخدام الأمثال لتقريب الحقائق والإقناع بها، وهو من الأساليب الربَّانية، والأساليب النبوية في الدعوة.

* * *

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

١ ـ الحديث بجملته من قبيل تشبيه التمثيل الحيّ المتحرِّك المطابق لواقع المجتمع الذي فيه الصالحون وفيه المفسدون.

ويستخلص منه إدراك واجب الصالحين في المجتمع تجاه المفسدين إذ يجب عليهم هدايتهم وإرشادهم، فإن لم يستجيبوا فيجب عليهم قمعهم والأخذ على أيديهم، حتى لا تغـرق المركبـة الجماعيـة، فيعمّ الهلاك الفريقين.

٢ ـ وفي الحديث الإيجاز البديع، ففي الصورة المعروضة في المثال عناصر لم تذكر، ويمكن أن يستكملها ذهن القارىء أو السامع بنفسه.

لا بدَّ أن تكون هذه السفينة التي ركب فيها الفريقان قد جرت في البحر، ووصلت إلى مواضع بعيدة عن الشاطىء، ولا بدَّ أن تكون قد مرَّت مدَّة من الزمن وركاب الطابق الأسفل منها يصعدون إلى الطابق الأعلى لاستقاء الماء، ويعانون مشقة الصعود والنزول حاملين الماء والأوعية، ولا بدَّ أن يكونوا مع ذلك قد لاحظوا تعرُّض ركاب الطابق الأعلى منها للأذى، من جراء مرورهم عليهم، وإصابتهم أو إصابة طرقاتهم وحاجاتهم بشيء من مائهم وأوعيتهم.

وباستطاعة من لديهم قدرة على التخيُّل أن يتمّموا هذه اللَّوحة الفنية من

عند أنفسهم، ولو لم يكن في اللفظ ما يدلُّ على المحذوف دلالة واضحة.

إنَّ اللَّوحات الفنية الكلامية يستتبع المذكور فيها ما لم يذكر، وتوحي ظلال المذكور بما هو مطويّ مسكوت عنه.

* * *

ثانياً: من الإعراب

«مثَلُ القائم على حدود الله» مَثَلُ: مبتدأ، وهو مضاف والقائم: مضاف إليه. وعلى حدود الله: معمول للقائم متعلق به. وخبر المبتدأ: كمثل قوم استهموا..

وجملة «استهموا» صفة لـ «قوم».

«أعلاها» مفعول به لـ «أصاب» وكذلك «أسفلها».

«فكان الذين في أسفلها». في أسفلها: شبه جملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول. وجملة «إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم»: خبر «كان» وهي في محلّ نصب.

«من فوقهم»: مَنْ: اسم موصول مجرور. فوقهم: شبه جملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول.

«هلكوا جميعاً»: جواب الشرط في: «فإن يتركوهم وما أرادوا». «نَجَوْا وَنَجَوْا جميعاً»: جواب الشرط في: «وإنْ أخذوا على أيديهم».

* * *

الحديث الثالث عشر

عن النُّعْمان بْنِ بَشِيرٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إنَّ الْحَلاَلَ بيِّنٌ، وإنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فقَدِ اسْتَبْرأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كالرَّاعِي يَرْعَىٰ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيه، أَلاَ وَإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىٰ، أَلاَ وَإنَّ حِمَىٰ اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وإنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ».

رواه البخاري ومسلم

أ ـ ترجمة راوي الحديث (النعمان بن بشير):

سبقت في شرح الحديث الثاني عشر.

* * *

ب ـ اللُّغة والمعنىٰ المراد:

١ ـ «إنّ الْحَلاَلَ بَيّنٌ، وإنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ»:

أي: إنَّ الحلال الخالص من احتمالات وشبهات الحرام ظاهر واضح تدركه العقول السليمة، وتحسّ به القلوب التي ما زالت على فطرتها الصافية النقية، وإنَّ الحرام الخالص من احتمالات وشبهات الحلال ظاهر واضح تدركه العقول السليمة، وتحسُّ به القلوب التي ما زالت على فطرتها الصافية النقية.

الحلال: فعلاً وتركاً هو المباح الذي يجوز فعله ويجوز تركه بلا حرج مطلقاً، فلا مؤاخذة ولا تلويم ولا عتاب على فعله أو تركه.

الحرام: فعلاً أو تركاً هو المحظور الذي لا يجوز فعله، أو لا يجوز تركه، ويترتب على الوقوع في الحرام بفعل ما لا يجوز فعله، أو بترك ما لا يجوز تركه، مع توافر شروط المسؤولية، استحقاق العقاب أو المؤاخذة أو التلويم والتوبيخ الشديدين.

ويعرف الذي لا يجوز تركه باسم «الواجب» أو «الفرض».

ولكنَّ الرسول ﷺ جمع الذي لا يحلُّ فعله والذي لا يحلُّ تركه تحت عنوان «الحرام» ليقابله بالحلال، وهذا من روائع الإيجاز في التعبير، القائم على إدراك حقائق المعاني.

وعلماء أصول الفقه يقولون ببصيرة فلسفية: الأمْرُ بالشيء نهيٌ عن ضدِّه، والنهيُ عن الشيء أمرٌ بضدِّه.

بَيِّن: أي واضحٌ ظاهر. تقول لغة: بَانَ الشيءُ بَيَاناً، إذا ظهر واتَّضح، فهو بَيِّن، وجمعه: أَبْيِنَاء.

٢ ـ «وبينهما أمور مشتبهات»:

أي: وبين الحلال البيِّن والحرام البيِّن أمور مشتبهات، فيها شَبَه من الحلال وَشَبَه من الحرام.

مشتبهات: أي مشكلات، والمشتبهات بين الحلال والحرام هي التي فيها عناصر تشبه الحلال وفيها عناصر تشبه الحرام، ولو في نظر الرائي إليها، وهذه العناصر مختلطة قد يقع الناظر إليها في الالتباس.

ولا يشترط في المشتبهات أن تكون مشتبهة عند كلّ الناس، بل قد تكون غير مشتبهة عند الراسخين في العلم، وعند أهل الاستنباط والبحث.

والمشتبهات من الأمور في اللُّغة: هي المشكلات. وأمور مشتبهة: أي مشكلة يشبه بعضها بعضاً فيصعب تمييزها.

ويقال لغة: شبَّه الرجلُ على الرجل الأمْرَ إذا خلّطه عليه، حتَّى اشتبه بغيره. واشتبه الأمر: إذا اختلط بغيره، فأشبهه من بعض الوجوه، فصعب تمييزه منه.

٣ ـ «لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِنَ الناس»:

أي: لا يعلم هذه المشتبهات كثير من الناس، لعدم قدرتهم على

تمييزها، واستبانة حكمها، هل هي حلال أو حرام.

لكنَّ أهل العلم والبحث والاجتهاد والنظر الحصيف، قد يتوصلون بالنظر إلى علمهن، ومعرفة الحلال منهن والحرام منهنَّ.

٤ ـ «فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»:

أي: فمن اتقى الوقوع في الأمور التي يشتبه فيها، هل يحلُّ الوقوع فيها أو لا يحلٍّ، فقد طلب البراءةَ لدينه بينه وبين ربِّه عَزَّ وجل، ولعرضه بينه وبين الناس، وفعل ما يحقِّق له هذه البراءة.

والأمور التي يشتبه فيها على وجهين:

أ ـ إما أن يكون الاشتباه بين حرمة فعلها أو حلّه. واتقاء الوقوع فيها يكون بعدم فعلها.

ب ـ وإمَّا أن يكون الاشتباه بين حرمة تركها أو حلّه. واتقاء الوقوع فيها يكون بعدم تركها.

اتَّقىٰ: اتقىٰ الإنسانُ الشيءَ: أي جعل بينه وبين الأذىٰ أو الضرّ أو العقاب الذي يأتي من قبل ذلك الشيءِ وقايةً تقيه وتحميه وتحفظه. والتقوىٰ تختلف باختلاف حال الشيء الذي ينبغي اتقاؤه، فقد تكون بفعل المأمور به، وقد تكون باجتناب المنهي عنه، وقد تكون بالابتعاد عن مواطن الخطر، وقد تكون بعدم التخاذل والجبن والتكاسل عن الدفاع، إلىٰ غير ذلك من أمور كثيرة.

الشبهات: الشبهة في الشيء الالتباس فيه. والشبهات: ما في الأمور من صفات تجعلها مختلطة ملتبسة، لا يتبيَّن الحكم فيها واضحاً، أو لا يظهر فيها وجه الحق، أو لا يظهر فيها وجه الخير أو المصلحة.

والشبهات التي يتردَّد النظر فيها بين الحلِّ والحرمة يكون اتقاؤها بمراعاة جانب الحرمة، لأن في مراعاة هذا الجانب السَّلامة من الوقوع في

الإثم. أمَّا اعتماد جانب الحلّ مع احتمال كونه حراماً فهو تورُّط قد يكون الإنسان بسببه قد وقع في الحرام فعلاً.

استبرأ: أي طلب البراءة، أو فعل ما فيه البراءة له. والبراءة تأتي بمعنىٰ السلامة والصحَّة والخلاص من المرض ومن الإثم، أو العيب، أو من المسؤوليات، كمسؤوليَّات العهد والوعد والدَّيْنِ والذَّنب والجريمة ونحو ذلك.

وفي الثُّلاثي غير المزيد يقول أهل الحجاز: بَرَأْتُ من المرض بَرْءاً بالفتح، وغيرهم من العرب يقولون: بَرِئْتُ بُرْءاً بالضمِّ.

وتقول لغةً: بَرَّأْتُه: إذا حكمت له بأنه بريء، أو أعلنت أنَّه بريء، أو أثْبَتَّ أنَّه بريء، أو شهدتَ له بالبراءة.

لدينه: أي لأجل دِينه بينه وبين ربِّه عزَّ وجل، فَسَلِم باتقاء الشبهات من عذاب الله وعقابه، أو من الوقوع فيما حرّم.

وعرضه: أي ولأجل عرضه بينه وبين الناس، فَسَلِم باتقاء الشبهات من الوقوع في النقص والشَّين والعيب، وكلّ ما يعرّض عرضه لألسنة الناس بالذَّم والتعيير والتنقيص.

والعِرْض: هو موضع المدح والذمّ من الإنسان، وما يحصل له بذكره بالجميل مدح، وبذكره بالقبيح ذمّ.

والأصل في العِرْض أن يكون خاصًّاً بذات الإنسان، ولكن قد يمتدّ في مفاهيم الناس حتىٰ يشمل سلفه، وأهله، وذرّيَّته، وعشيرته.

٥ ـ «وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الْحَرَام»:

أي: ومن وقع في الشبهات بفعل ما هو مشتبه هل فعله حلال أو حرام، أو بترك ما هو مشتبه هل تركه حلال أو حرام، وقع في الحرام لا محالة.

والسبب في ذلك أنَّ المتساهل في الشبهات لا يأمن أن يكون بعض ما استباحه بالفعل أو بالترك هو حرام عند الله.

فبعض المشتبهات لا تخلو أن تكون حراماً في واقع الأمر، وأمَّا المشتبهات التي هي حلال في واقع الأمر فإنَّها لا تخلو من شائبة قد تجعلها من المكروهات. وإذا كانت المشتبهات إنما اشتبهت من جراء وجود عناصر هي حرام في واقع الأمر، فإنَّ الواقع فيها واقع في هذه العناصر المحرّمة لا محالة.

وبعض المشتبهات تكون بمثابة المسافة الفاصلة بين الحلال والحرام، فمن وقع فيها اقترب من حدود الحرام، فتعرَّض للكبوات والغفلات وضعف الإرادة، فوقع في حدود الحرام بعد حين، لأنَّ نزوات النفوس وكبوات الضمير وغيبة رقابة الإيمان تسهّل أمام الأهواء والشهوات ارتكاب المعاصي والمخالفات، والوقوع في المحرَّمات، والتعدِّي على حدود الله.

فكان لا بدَّ للإنسان من برزخ يفصل بينه وبين محارم الله، فإنْ كانت حدود الله فرائض عليه أن يفعلها، فالبرزخ الفاصل يكون من المندوبات ونوافل الطاعات، وهي التي يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها، وإنْ كانت حدود الله محظورات عليه أن يجتنبها ولا يفعلها، فالبرزخ الفاصل يكون من المكروهات الشديدة أو الخفيفة، وهي التي يثاب تاركها، ولا يعاقب فاعلها.

٦ ـ «كَالرَّاعِي يَرْعَىٰ حَوْلَ الحمىٰ يُوشكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيه»:

وجاء في بعض روايات هذا الحديث أن النبي ﷺ قال: «سأضرب لكم مثلاً: كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه».

هذا مَثَلٌ لأخفّ أحوال المشتبهات، وهي التي لاصقت حدود الحرام، فسقطت عليها ظلال الحرام، أو سقطت ظلالها على بعض مواقع الحرام، فجعل الناظر إليها يلتبس عليه الأمر بعض الالتباس، هل هي داخلة في حدود

الحرام أولا؟ مع أنَّ الأصل الإباحة وبراءة الذِّمة.

فكيف بحال المشتبهات التي التبس الأمر فيها من جراء تأرجحها بين الحلال والحرام، كأشياء فيها نفعٌ وضرر. ولم يُعْلم هل ضررها أكثر من نفعها أو العكس، ولم تمسّ الضرورة أو الحاجة الشديدة للوقوع فيها؟.

وقصد المثل تشبيه أخفّ المشتبهات بالمراعي المباحة التي تكون حول حدود أرض فيها زرع محميٌّ يحرم علىٰ الراعي أن يرعىٰ فيه، فإذا أقبل الراعي وساق أنعامه التي يصعب عليه بالطبع ضبطها عند الحدود، وسمح لها بأن ترعىٰ حول حمىٰ الأرض المحرَّمة، فإنَّ أنعامه ستغلبه، وسترتع في داخل أرض الحمىٰ، وتقع في الإثم لا محالة.

وشهوات النفوس وأهواؤها وغرائزها كالأنعام التي تغلب إرادة الإنسان، متى لامست حدود الحرام أو اقتربت منها، وبذلك يسقط الإنسان في الحرام لا محالة، عند أوَّل غفلاته، أو كبواته، أو حالات ضعف إرادته، كالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه.

الحمىٰ: المكان أو الزرْع أو الشيء المحميّ الذي حماه صاحبه، أي: منعه ودفع عنه، وحرَّم الدخول إليه أو الرتع فيه، أو الأخذ منه.

تقول لغة: حَمَىٰ فلانٌ الشيءَ حَمْياً وَحِمَايَةً إذا منعه ودفع عنه. وَالْحِمَى: مَا حُمِيَ مِنْ أَيِّ شيء.

يُوشِكُ: أي يُسرع. وأمرٌ وشيك الوقوع: أي سريع الوقوع: ويوشك أن يكون الأمر، ويشوكُ الأمرُ أن يكون: أي يُسرع، فهو سيقع بسرعة. ويأتي اللفظ أيضاً بمعنىٰ يقرُب ويدنو.

ومادَّة الكلمة تدور حول سرعة حصول الشيء واقتراب حصوله.

فمعنىٰ «يوشك أن يرتع فيه» سيرتع فيه بسرعة دون إبطاء، فأنعامه علىٰ حدود الحمىٰ، وهو لا يستطيع ضبطها ولا حجزها عن الوقوع، إذن فهي سترتع في الحمىٰ بسرعة لا محالة.

يرتع: الرتع: الأكل والشرب في رغَدٍ وتَنعُّم. والرتع: الأكلُ بشرهٍ وإسراف. والرتع: الرعي في الخصب.

٧ ـ «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىٰ، أَلَا وَإِنَّ حِمَىٰ الله مَحَارِمُه»:

في هذه الفقرة من الحديث تنبيهٌ مشدَّد اللَّهجة على حقيقة من حقائق الدين، تماثل حقيقة أخرىٰ من واقع الناس.

فالحقيقة من الواقع الإنساني أنَّ لكلِّ ملكٍ من ملوك الناس حمىً من أرضٍ وقصور وحدائق ومزارع وأموالٍ ومعسكرات وقلاع وحصون، هي محميَّةٌ ممنوعة، لا يُسمح باقترابها، ومن اقترب منها نزل به العقاب، وربما نزل به الهلاك.

والحقيقة من حقائق الدين أنَّ لله حِمى، ولكنّ حمى الله محارمه، أي: أوامره ونواهيه التي تحرم مخالفتها.

المحارم: كل ما لا يحلُّ انتهاكه من فعل أو ترك، والمحارم جمع مفرده مَحْرَمَة ومَحْرُمة، بفتح الراء وضمِّها.

٨ ـ «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وهي الْقَلْبُ»:

وفي هذه الفِقْرَة مِنَ الحديث تنبيه مشدَّد على حقيقة من حقائق النفس البشرية ومظاهر سلوكها.

أَلَا وهي ارتباط الظاهر بالباطن في السلوك الإنساني، وأنَّ ضابط السلوك يرجع إلىٰ القلب، فإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله.

والمراد من القلب هنا مركز المعرفة والإيمان والضمير وجذور الأخلاق، إنَّ هذا المركز هو ذو التأثير الفعّال في تحريك الإرادة وتوجيه السلوك.

مُضْغَة: المضغة هي القطعة من اللَّحم بقدر ما يمضغ الإنسان في فيه، وتُجمع علىٰ «مُضَغ».

وأراد الرسول ﷺ بها هنا القلب الذي هو محل الإيمان، وهو عمق كيان الإنسان.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

هذا الحديث من الأحاديث الأصول الجوامع، وفيه كليّات عظيمة، تتصل بأمَّهات سلوكية وأخلاقية أوصىٰ بها الرسول ﷺ، وبأسس في التكوين الإنساني بيّنها.

إنَّه يشتمل علىٰ قاعدة التقسيم الثلاثي للأحكام الدينيَّة والأخلاقية.

القسم الأول: الحلال الصرف الخالص الذي لم تخالطه شبهة من الحرام، وهذا القسم بيّن واضح.

فالعقلي منه: لا يختلف فيه الناس، ولا تتأثم منه النفوس ولا تتحرَّج، وكلّ إنسانٍ يأتيه وهو مرتاح الضمير، مطمئنّ الفؤاد، لا يخشىٰ أن يطّلع عليه الناس وهو مُتلبِّس به.

والشرعي منه: دليله قطعيّ وصريح وواضح لا يختلف في فهمه الفقهاء والمجتهدون، وأشدّه وضوحاً ما هو معلوم من الدين بالضرورة وهو أيضاً لا تتأثم منه النفوس، وكلّ مسلم يأتيه وهو مرتاح الضمير، مطمئنّ الفؤاد، ولا يخشى أن يطلع عليه المسلمون وهو متلبِّس به.

ومجالات الحلال الصرف الخالص في الحياة كثيرة جداً، ولا نكاد نجد حاجة من حاجات النفوس ولا مطلباً من مطالبها، إلاَّ أمامها في الوجود مجال أو أكثر لِتَلْبِيَتِهِ من مجالات الحلال الصرف. والنفوس بفطرتها تعرف غالباً هذه المجالات وتحسّ بها، ويهديها إليها الحسّ الأخلاقي الذي أودعه الخالق العظيم في فِطَر النفوس.

ومن الحلال الصرف البيِّن أن يأكل الإنسان ويشرب من طيبات الزروع والثمار وبهيمة الأنعام، بكسب لم يظلم فيه أحداً، ولم يعتد فيه علىٰ حقّ أحد.

ومن الحلال الصرف الزواج ضمن أحكام الشرع وضوابطه. ومن الحلال الصرف أن يستمتع الإنسان بالنظر إلىٰ جمال الحدائق الغناء، وجمال النجوم في السماء، وجمال الأرض وجبالها، والبحار وعجائبها، وما خلق الله من بهيمة وطير.

وهذا القسم هو ما دلَّ عليه الرسول ﷺ في الحديث: «إنَّ الحلال بيّن».

القسم الثاني: الحرام الصرف الخالص، الذي لم تخالطه شبهات احتمال أن يكون حلالاً. وهذا أيضاً بيّنٌ واضح.

فالعقليّ منه: لا يختلف في تحريمه عقلاء الناس ومفكّروهم، وأصحاب البصيرة الأخلاقية منهم، ولا يفعله الفاعل منهم إلاَّ وفي نفسه من فعله حرجٌ وشعورٌ بالإثم، وكلّ سليم البصيرة يأتيه إذا أتاه وهو يشعر بوخز في الضمير، وقلق في الفؤاد، وخوف من سوء المصير، ومن سوء العقاب بالعدل.

والشرعيّ منه: دليله قطعي وصريح وواضح، ولا يختلف في فهمه الفقهاء والمجتهدون وأشدّه وضوحاً ما هو معلوم من الدين بالضرورة، كالشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرّم الله إلاَّ بالحق، وترك الصلاة والزكاة وسائر أركان الإسلام بدون عذر شرعي، وأكل أموال الناس بالباطل، والتولّي يوم الزحف.

ومجالات الحرام في الحياة متعدِّدة ومتنوِّعة والنفوس بفطرتها تعرفها وتحسّ بها، ويهديها إليها الحسّ الأخلاقي الذي أودعه الله الخالق العظيم في فطرِ النفوس.

ولكن مفردات الحرام قليلة بالنسبة إلىٰ مفردات الحلال المنتشرة في كلِّ مجالات الحياة.

ومن الحرام الصرف الخالص الذي تدرك النفوس الفطرية السليمة أنَّه حرام وهو بيّن لديها، جحودُ الحق وإنكاره بعد معرفة أنه حق، وظلمُ الناس بهضم حقوقهم أو بالعدوان علىٰ أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، والخيانة ونقض العهد والكذب الضَّار المؤدِّي إلىٰ إحقاق باطل وإبطال حقّ.

وهذا القسم هو ما دلَّ عليه قول الرسول ﷺ في الحديث: «وإنّ الحرام بيّن».

القسم الثالث: هو ما بين الحلال الصرف الخالص والحرام الصرف الخالص.

وتدخل هنا أمورٌ مشتبهة الأحكام، لها شَبَهٌ من الحلال، ولها شَبَه من الحرام، وهذه الأمور تختلط علىٰ كثير من الناس، فلا يميّزون أحكامها، ولا يعلمون بأنفسهم وجوه حلالها من وجوه حرامها، أو لا يعلمون ما هو منها حلال وما هو منها حرام، لضعف رؤيتهم أو لاختلاط الأمر عليهم، بسبب من الأسباب.

وهذه المشتبهات التي لا يعلمها كثير من الناس قد يعلمها الراسخون في العلم، وقد وصفها الرسول ﷺ بأنَّها مشتبهات إشارة إلى أنَّ هذا الوسط بين الحلال البيِّن والحرام البيِّن يقع في درجات متفاوتة ومتنوِّعة، فمشتبه من الدرجة الدنيا القريبة من الحلال البيِّن، ومشتبه من الدرجة العليا القريبة من الحرام البيِّن، ومتوسطات متفاوتات النِّسَب بين هاتين الدرجتين.

والشبهة في الأمر هو الالتباس فيه، من جرَّاء اختلاط عناصر مختلفة الأصول اختلاطاً متداخلاً من غير تمييز، ولو في رؤية الناظر فقط دون حقيقة الأمر.

والأَمر المختلط العناصر المتباينة يعطي شبهاً من كلٍّ منها، فتارة يراه

الناظر إليه مشبهاً أحد المتباينين، وأخرى يراه مشبهاً الآخر، فيلتبس عليه الأمر، هل يُلحقه بهذا أو بهذا.

ومن أجل هذا يقال لغة: أمور مشتبهة، أي: مشكلة يشبه بعضها بعضاً.

والمشتبهات أمور مشكوك في حلّ فعلها، أو حرمة فعلها. أو مشكوك في حلِّ تركها أو حرمة تركها لأنها واجبة الفعل.

والاشتباه في الأمور التي يمكن أن تدرك أحكامها بالعقل يرجع إلى عدَّة أسباب:

١ ـ إمَّا لعدم وضوح الرؤية لدى صاحب النظر.

٢ ـ وإمَّا لأنَّ الأمر توجد فيه عناصر تقتضي التحريم، وعناصر أخرىٰ تقتضي الإباحة، وهذه العناصر مختلطة في الأمر اختلاطاً يصعب معه التمييز، أو يصعب ترجيح أحد النوعين على الآخر.

مثل الأمور التي فيها منافع وفيها مضار، أو فيها مصالح وفيها مفاسد، فهل تباح لما فيها من منافع أو مصالح ويُغْضَىٰ النظر عمَّا فيها من مضار أو مفاسد، أو العكس.

أمَّا أهل الاستنباط وأصحاب النظر الثاقب، فيمكن أن يتوصَّلوا إلى ترجيح أحد النوعين على الآخر، ضمن الأسس العامة لأحكام الشرع، فحين تكون المنافع أو المصالح عظيمة، والمضارّ أو المفاسد يسيرة، ولا يوجد بديل فيه مثل هذه المنافع أو المصالح دون مضارّ أو مفاسد، فإنَّ حكم الإباحة هو الذي يترجح. وحين تكون المضارّ أو المفاسد أكبر من المنافع أو المصالح، فإنَّ حكم التحريم هو الذي يترجَّح، وكذلك حين يستوي المتضادَّان، عملاً بقاعدة: دفع المفاسد مقدّم على جلب المصالح.

٣ ـ وإمَّا لأن الأمر يقع على حدود المحرَّمات، والوقوع فيه يجرُّ في أغلب الأحوال إلى الوقوع في المحرَّمات، إذْ يجعل الواقع فيه على ملامسة

ظاهر المحرَّمات، ولا يأمن على نفسه من الوقوع فيها مهما صان نفسه، وراقب حاله. لأنَّ الغفلات وكبوات الإرادة، وغلبة الأهواء والغرائز والشهوات ستجرُّ الإنسان مهما استعصم إلى الوقوع في الحرام المجاور للحلال، ويساعده على ذلك الاشتباه الذي يسيطر على رؤيته، إذ الحلال المجاور للحرام تتساقط عليه عادة ظلال من الحرام، حتى يشتبه على الناظر إليه هل هو من الحرام أولا؟. والحرام المجاور للحلال تتساقط عليه عادة ظلال من الحلال، حتى يشتبه على الناظر إليه هل هو من الحلال أولا؟

وقد نمثِّل لهذا بالاشتباه الذي يحصل عند من يقول: إنَّما البيع مثل الرِّبا.

والحلال المجاور للحرام هو أدنى المشتبهات، إذ هي حلال، لكنَّ الوقوع فيها لا يؤمن معه الانزلاق في الحرام.

وهذا هو الذي ضرب الرسول ﷺ المثل له في الحديث: بالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه.

إذن فما فوق ذلك من المشتبهات ينبغي الاحتراز منها بنسبة أكبر، وينبغي التورُّع عنها بنسبة أعظم، لأنَّ الوقوع فيها نفسها مقرون باحتمال الوقوع في الحرام.

أمَّا الاشتباه في الأمور التي تعرف عن طريق أدلَّة الشرع فيرجع إلى عدَّة أسباب، هي الأسباب المبينة في بحوث أسباب اختلاف الفقهاء، وليس هنا مجال بحثها.

ـ ٢ ـ
منهج الإسلام في أحكامه

أحكام الإسلام تدور حول ما يلي:

١ ـ إما أن يكون العمل مطلوباً فعله إلزاماً، فيكون تركه حراماً.

ويعرف هذا باسم «الواجب» أو «الفرض» نظراً إلى جانب الفعل، وهو أيضاً حرام الترك.

والواجبات متفاوتات في درجات الإلزام بفعلها، فبعضها شديدة الإلزام جدًّاً، وتتنازل الدرجات إلى أدنىٰ المستويات.

فمن الواجبات ما تركه من الكبائر الكبرىٰ، كالصلاة وسائر أركان الإسلام، وكبرِّ الوالدين، وإقامة العدل ممَّن وسِّد إليه الأمر.

ومن الواجبات ما تركه من الصغائر كإطلاق اللِّحية على القول بوجوب ذلك، وهو رأي أكثر الفقهاء، وكغضّ البصر عن المرأة الأجنبية، وكواجب ستر المرأة لمواضع زينتها من جسدها، عملاً بمضمون قول الله تعالى في سورة [الأحزاب: ٣٣]:

﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِيْنَ يُدْنِيْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥٩)﴾.

ومن الواجبات أوساط بين الكبائر الكبرىٰ والصغائر.

وقلّ من الناس من يستطيع تحديد درجة الواجب، ومعرفة مستواه في حكم الشرع. وهذه المعرفة تحتاج بصيرة عظيمة في فهم أسس أحكام الدين، وفي فهم دلالات النصوص الدينية.

والواجبات يترتب على فعلها الثواب وعلى تركها المؤاخذة والعقاب.

٢ ـ وإمَّا أن يكون العمل منهيّاً عنه إلزاماً، فيكون فعله حراماً.

ويعرف هذا باسم «الحرام» أو «المحظور» نظراً إلى جانب الفعل، وهو أيضاً واجب الترك.

والمحرَّمات متفاوتات في درجات الإلزام بتركها، فبعضها شديدة الإلزام جداً، وبعضها دون ذلك.

فمن المحرمات ما فعله من الكبائر الكبرى، كقتل النفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق، وعقوق الوالدين، والظلم والعدوان، وأكل أموال الناس بالباطل، والغيبة والنميمة، والقذف.

ومن المحرَّمات ما فعله من الصغائر، كالنظرة المحرَّمة لامرأة أجنبية، وكمن يتخذ الحيوان هدفاً لسهامه فيقتله لا لينتفع به، أو ليدفع أذاه.

ومن المحرمات أوساط بين الكبائر الكبرى والصغائر. وقلّ من الناس من يستطيع معرفة درجة المحرّم، ومعرفة مستواه في حكم الشرع. وهذه المعرفة تحتاج بصيرة عظيمة في فهم أسس أحكام الدين، وفي فهم دلالات النصوص الدينية.

والمحرَّمات يترتب على تركها الثواب، وعلى فعلها المؤاخذة أو العقاب.

٣ ـ وإمَّا أن يكون العمل متروكاً لاختيار الإنسان، إن شاء فعله وإن شاء تركه، فيكون فعله مباحاً وتركه مباحاً على التساوي.

٤ ـ وإمَّا أن يكون العمل مطلوباً فعله دون إلزام، فلا يكون تركه حراماً، ولكن فعله أحبّ إلى الله من تركه، ويؤجر عليه فاعله إذا فعله طاعة لله تعالى.

والأعمال التي طلب الشارع فعلها دون إلزام متفاوتات في درجات الترغيب بفعلها.

ونجد في اصطلاح الفقهاء لبعض هذه الدرجات العبارات التالية:

(سنة مؤكدة ـ سنة ـ مندوب ـ تركه خلاف الأولى).

ومن أمثلة هذا القسم الصدقات والمبرات، وعمران المساجد، وإقامة المؤسسات الخيرية، وسنن الصلوات، وقيام الليل، والأذكار والأوراد المأثورة، والدعاء لله تعالى، ومعاونة المسلم لأخيه المسلم، والصيام

المسنون كست من شوال، والتاسع والعاشر من شهر المحرم، وتكرير العمرة دون إفراط. وإماطة الأذى عن الطريق، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

٥ ـ وإمّا أن يكون العمل منهيّاً عن فعله دون إلزام، فلا يكون فعله حراماً، ولكن تركه أحبّ إلى الله من فعله، ويؤجر عليه تاركه، إذا تركه طاعة لله تعالى.

والأعمال التي نهى الشارع عن فعلها دون إلزام متفاوتات في درجات الترغيب بتركها.

ونجد في اصطلاح الفقهاء لبعض هذه الدرجات العبارات التالية: (مكروه تحريماً ـ مكروه تنزيهاً ـ خلاف الأولى).

هذه الأحكام التي سبق بيانها تعرف بالأحكام الشرعية الخمسة.

وأحكام الإسلام تنقسم من جهة أخرى إلى نوعين:

النوع الأول:

أحكام تعبدية محضة، وهذه لا تعرف إلَّا عن طريق الشارع، من الكتاب والسنة، وما يستنبط منهما، وما يرجع إليهما، ولا تخلو هذه من حِكَم يظهر كثير منها، وقد يخفى بعضها، وفي رأس هذه الحِكَم امتحانُ إرادات الناس بين محوري الطاعة والمعصية لله ولرسوله. ومع هذه الحكمة العظيمة الشاملة لكلِّ الأحكام توجد في العبادات المحضة حِكَمٌ أخرى تعود على الناس في دنياهم بالنفع والخير.

النوع الثاني:

أحكام مختارة لتحقيق مصالح الناس في دنياهم، ولتحقيق النفع لأفرادهم ومجتمعاتهم، وتنظيم علاقاتهم ومعاملاتهم على أسس الحقِّ والعدل والخير والجمال، وضمان أفضل نسبة ممكنة من السعادة، وتخفيف أكبر قدر ممكن من الآلام في ظروف هذه الحياة الدنيا لمجتمع بشري. والتزامها عبادة لله عزّ وجلّ.

ومنهج الشارع بالنسبة إلى هذا النوع يمكن تلخيصه فيما يلي:

١ ـ الحلال الصرف:

وهو ما فيه نفع محقق أو لذة أو متعة أو مصلحة، ولا ضرر فيه مطلقاً، أو ضرره ضئيل جدّاً، لا يخلو من مثله بديل آخر.

فالشارع يحكم بأنَّه حلال صرف. والعقول السليمة تقضي بأنه حلال صرف يجوز فعله وتركه إذا لم يترتَّب على أيٍّ منهما ضرر أو مفسدة، ولم يكن أيٌّ منهما وسيلة لتحقق ضرر أو مفسدة، وإلَّا فإنَّ الحكم يتغيَّر بحسب النتائج التي تترتب على الفعل أو الترك.

ومثال الحلال الصرف: تناول ما فيه بقاء الحياة من طريق لا ظلم فيها ولا عدوان ولا ضرّ ولا أذى.

٢ ـ الحرام الصرف:

وهو ما في فعله أو تركه ضرر أو مفسدة للفرد أو للجماعة، في دنياهم أو دينهم.

فالشارع يحكم بأنه حرام، والعقول المؤمنة الحصيفة تقضي بأنه حرام.

ثمَّ إذا كان الضرر أو المفسدة من آثار الترك، فالترك هو الحرام.

ومثال الحرام: الظلمُ والعدوان، وأكل أموال الناس بغير حق، والزنا، وتناول المضارّ دون اضطرار، وترك ما به قوام الحياة، والانتحار.

ويجوز ارتكاب بعض المحرمات عند الضرورات، ومنها الإلجاء، وارتكاب أخف المحرمين لدفع أشدهما، حين لا يملك الإنسان إلَّا ارتكاب أحدهما.

٣ ـ أوساط بين الحلال والحرام:

وتوجد بين الحلال الصرف والحرام الصرف أوساط، وفي كلٍّ من هذه

الأوساط عناصر تستدعي حكم الإباحة، وعناصر أخرى تستدعي حكم التحريم.

ويمكن تقسيم هذه الأوساط إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهو وسط الأوساط، وتدخل فيه أعمال منجذبة بين الحلال والحرام بالتساوي، فالحرام يجذبها إليه بمقدار ما يجذبها الحلال.

وقاعدة الشرع هنَا تقضي بإلحاق هذا الوسط بالأعمال التي هي إلى الحرام أقرب، لأنَّ درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ما لم يكن في ذلك حرج على الناس وتعطيل لحاجاتهم، وكثير من الأمور التي هي متمكنة في مطالبهم وعاداتهم.

وسماحة الشريعة تعلن: أنَّ الله لم يجعل على الناس في الدين من حرج.

القسم الثاني: أوساط هي إلى الحلال الصرف أميل، سواء في فعلها أو في تركها.

وهذه الأوساط التي هي إلى الحلال الصرف أميل على وجوه:

أ ـ فإن كانت الحاجة تدعو إلى فعلها أو تركها، فالأصل إلحاقها بالحلال.

ب ـ وإن كانت الحاجة لا تدعو إليها، أو يوجد بديل لها من الحلال الصرف، فالحكم يختلف بالنسبة إليها على درجات بين «خلاف الأولى ـ والمكروه تنزيهاً» وذلك بحسب درجة ميلها إلى الحلال الصرف أو اقترابها من وسط الأوساط.

القسم الثالث: أوساط هي إلى الحرام الصرف أميل، في فعلها أو في تركها.

وهذه الأوساط التي هي إلى الحرام الصرف أميل على وجوه:

أ ـ فإن كانت الضرورة أو الحاجة الماسة جدًّاً لا تدعو إلى الوقوع فيها، فالأصل الحكم عليها بالتحريم، إلحاقاً لها بالحرام الصرف.

ب ـ وإن كانت الحاجة الماسة تدعو إلى الوقوع فيها فرحمة الشارع تغتفر الوقوع فيها منعاً للحرج عن الناس، مع الحكم عليها بالكراهة التنزيهية أو التحريمية، بحسب نسبة الميل إلى الحرام الصرف، وبحسب نسبة الحاجة، وقوَّة إلحاحها.

أمَّا عند الضرورات فللضرورات أحكام خاصة قد تباح ببعضها بعض المحظورات، كأكل الميتة عند الضرورة، دون بغي ولا عدوان.

رسم بياني لأعمال الإنسان المكلَّف

كلّ عمل من أعمال الإنسان المكلف له حكم في الشرع

إما حلال صرف

فعله حلال و تركه حلال

وإما حرام صرف

فعله حرام أو تركه حرام

ويعرف هذا بالواجب أو الفرض

وبين الحلال الصرف والحرام الصرف أوساط

أوساط هي إلى الحلال الصرف أميل فعلاً أو تركاً ٠

وهذه الأوساط التي هي أميل إلى الحلال الصرف :

١ ـ إن كانت الحاجة تدعو إلى فعلها أو تركها ، فالأصل إلحاقها بالحلال ٠

٢ ـ وإن كانت الحاجة لاتدعو إليها ، إذ يوجد بديل لها من الحلال الصرف ٠ فالحكم يختلف بالنسبة إليها على درجات بين خلاف الأولى والمكروه تنزيها ٠

وذلك بحسب درجة ميلها إلى الحلال الصرف ، أو اقترابها من وسط الأوساط ٠

وسط الأوساط

وهي أعمال منجذبة بين الحلال والحرام بالتساوي ٠ فالحرام يجذبها بمقدار ما يجذبها الحلال.

وقاعدة الشرع هنا إلحاق هذا الوسط بالأعمال التي هي إلى الحرام أقرب ٠

فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

مالم يكن في ذلك حرج على الناس ٠ فما جعل الله على الناس في الدين من حرج ٠

أوساط هي إلى الحرام الصرف أميل فعلاً أو تركاً ٠

وهذه الأوساط التي هي أميل إلى الحرام الصرف :

١ ـ إن كانت الضرورة أو الحاجة الشديدة لاتدعو إلى الوقوع فيها ، فالأصل الحكم عليها بالتحريم إلحاقاً لها بالحرام الصرف ٠

٢ ـ وإن كانت الحاجة الشديدة تدعو إلى الوقوع فيها ، فرحمة الشارع تغتفر الوقوع فيها منعاً للحرج عن الناس.

أمّا عند الضرورات فالضرورات قد تبيح المحظورات الصرف.

ـ ٣ ـ

أمَّا الناس فرؤيتهم إلى الحلال الصرف الخالص والحرام الصرف الخالص قد لا يحصل فيها اشتباه، لوضوحهما وظهورهما ظهوراً جليًّا، ولكن قد تشتبه على كثير منهم الرؤية حين ينظرون إلى الأوساط، فتكون أحكامهم عليها أحكاماً خاطئة.

قاعدة السلوك الديني والأخلاقي بالنسبة إلى المشتبهات:

والقاعدة العامة التي أعطاها الرسول ﷺ حين تشتبه على الناس الأمور بين الحلال والحرام، تقضي بترك ما فيه شبهة والعمل بما لا شبهة فيه، لأنَّه هو الأسلم والأبعد عن الوقوع في الحرام.

وهذه القاعدة قد أوصى الرسول ﷺ بها في قوله في الحديث الذي نتفهم معانيه ونتتبّع دلالاته: «فمن اتَّقىٰ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» أي: فعل ما فيه البرء والسلامة من الإثم لدينه، ومن العيب لعرضه.

وفي حديث آخر عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنَّ الرسول ﷺ قال:

«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ»[(١)].

أي: دع ما تَشُكّ فيه إلى ما لا تشُكّ فيه.

وعن عطيَّة بن عروة السعديّ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يَبْلُغُ العبدُ أَنْ يكونَ من المتَّقين حتَّىٰ يَدَعَ مَا لَا بأْسَ بِهِ حَذَراً لِمَا بِهِ بَأْسٌ»[(٢)].

إنَّ الأمر ما دام في نظر الإنسان متموّجاً بين الحلال والحرام غير بيّن الوجه لديه، فإنَّ الأسلم له أن يبتعد عنه، لأنه إذا وقع فيه فقد جازف بنفسه،

---

(١) أخرجه الترمذي وقال عنه: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي وقال عنه: حديث حسن.

وخاطر في أمرٍ يفضي به إلى الوقوع في الحرام لا محالة، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: أن يكون في الأمر عناصر محرَّمة قطعاً فهو يقع فيها مع خليط الحلال، وترك الحلال من أجل المخالط الحرام الذي لا تعرف نسبته، هل هو راجحٌ أو مرجوح أو مساوٍ، هو الواجب للسلامة وبراءة الذِّمة من الإِثم والنقيصة.

الوجه الثاني: أن تكون الشبهة آتية من مجاورة حدود الحرام مجاورة تُلقي ظلال الحرام على المباح، وظلال المباح على الحرام، وحينما يقع الإِنسان في المباح المختلط بظلال الحرام يهون عليه الوقوع في الحرام المختلط بظلال المباح، ثم يتوغَّل في الحرام لا محالة، وكذلك حينما يلامس حدود الحرام وهو عالم بها دون اشتباه، قد يثبت عند هذه الحدود قليلاً، ثمَّ تأتيه الغفلات والكبوات وضعف الإِرادة، فيسرع للوقوع في الحرام، وعندئذ يجتني ثمراته الخبيثات، ثم تُزيّن له فيستحليها ويستمرئها، ثم يرتع فيها رتْعَ العصاة المدمنين، أو الفجار الماجنين، وهذا ما أوضحه الرسول ﷺ في الحديث بقوله:

«ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه».

وقد بلغت التقوى بالسلف الصالح من أصحاب الرسول ﷺ والتابعين، أنَّهم كانوا يتركون كثيراً من الحلال المجاور للحرام، لئلا يقتربوا من حدود الحرام فيقعوا فيه.

فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: تمام التقوى أن يتَّقي العبدُ الله، حتى يتقيه من مثقال ذرَّة، وحتى يترك بعض ما يرىٰ أنَّه حلال، خشية أن يكون حراماً، حجاباً بينه وبين الحرام.

وعن عبد الله بن عمر أنه قال: إنِّي لأحبّ أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها.

وعن الحسن أنه قال: ما زالت التقوى بالمتقين، حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

وعن ميمون بن بهرام أنه قال: لا يسلم الرجل من الحرام حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال.

وعن سفيان بن عيينة أنَّه قال: لا يصيب عبد حقيقة الإيمان، حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه.

وبعد أن وضع الرسول ﷺ قاعدة السلوك الديني والأخلاقي بالنسبة إلى المشتبهات قال:

«ألا وإنَّ لكلّ مَلِك حِمىً، ألاَ وإنَّ حِمىَ الله محارمه».

وفي هذا كشف لخطورة مواقع الحرام، إنَّ مواقع الحرام هي حِمَى الله، واقتحام حِمَى الله أمرٌ خطير وليس بيسير.

إذا كان الناس يخشون حِمَىٰ ملوكهم، ويحذرون اقتحام حدودها، لأنَّ هؤلاء الملوك لديهم القدرة على العقاب والانتقام، فكيف بمن يقتحم حمىٰ مَلكِ الملوك، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، والقادر على كلّ شيء؟!

ألا وإنَّ حمىٰ الله محارمه، وهي دوائر أوامره ونواهيه.

أمَّا الوسيلة الجذرية العميقة لتقويم السلوك وضبط النفس دون حدود حمىٰ الله التي هي محارمه، فهي وسيلة إصلاح أعمق ما في الإنسان، ألا وهو قلبه، إنَّه المضغة الصغيرة في الجسد، التي إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه.

فالعناية كلّها أو جلّها ينبغي أن تتوجَّه لإصلاح القلب، فالقلب نواة الإنسان، وبزرة شجرته كلّها، والعناية بالظاهر دون القلب لا تُغْني، وكم من الناس مَنْ تشغلهم الظواهر ويهملون أمر القلوب.

إنَّ القلب هو محل نظر الرحمن، وهو مركز النيّات، ومنبع الإرادات، ومستقرُّ التقوى.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صُوَرِكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».

وربط الرسول ﷺ أنواع السلوك بالتقوى، وأبان أنَّ التقوى مركزها القلب، فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذُله، ولا يكذبه، ولا يَحْقِره، التقوى ها هنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرَّات) بحسب امرىء من الشرّ أن يَحْقِر أخاه المسلم، كلّ المسلم على المسلم حرام، دَمُه، ومالُه، وعِرْضه».

وقيمة الأعمال عند الله بالنيّات، والنيّات محلُّها القلب، ولذلك حصر الرسول ﷺ الأعمال وقِيَمَها بالنيّات منها، فقال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى».

* * *

د ـ ممَّا يستفاد من الحديث:

يستفاد من هذا الحديث فوائد كثيرة، منها ما يلي:

١ ـ بيان أنَّ الحلال الصرف والحرام الصرف واضحان بيّنان، تدرك العقول السليمة أحكامهما، دون اشتباه بأمرهما.

٢ ـ بيان أنَّ بين الحلال الصرف والحرام الصرف أموراً تشتبه على كثير من الناظرين إليها من الناس، هل هي حلال أو حرام؟

٣ ـ إيضاح قاعدة السلوك الإسلامي بالنسبة إلى المشتبهات، وتقرر هذه القاعدة: أنَّ من اتقى الشبهات بترك ما يشتبه بحرمة فعله، وفعل ما يشتبه بحرمة تركه هو الأسلم دائماً، وهو الذي يبرأ به المسلم لدينه من الإثم، ولعرضه من النقيصة.

٤ ـ بيان أنَّ حمى الله الذي منع الله من الوقوع فيه هي محارمه، أي: أوامره ونواهيه وتكاليفه.

٥ ـ بيان أنَّ من ظواهر السلوك الإنساني أنَّ من اقترب من الحمىٰ الذي فيه ما تشتهي النفوس والأهواء وقع فيه، فالأسلم للمسلم دائماً أن لا يقترب من حدود الحمىٰ.

٦ ـ استخدام التمثيل بواقع مشاهد لتقريب فكرة: «أنَّ من وقع في الشبهات وقع في الحرام» والإقناع بها، إذْ مثَّل الرسول ﷺ ذلك بالراعي الذي يرعى حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه.

٧ ـ بيان أنَّ جذور السلوك الإنساني ترجع إلى القلب، الذي يستقرّ فيه الإيمان، وتتدفق منه العاطفة، وتصدر عنه الإرادة الموجهة للسلوك، فإذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كلّه.

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

في هذا الحديث وجوه بلاغية متعدِّدة منها ما يلي:

١ ـ تأكيد الحكم في عدَّة مواضع، لأنَّ الحقائق التي بيَّنها الرسول ﷺ فيها تستدعي التأكيد، لما فيها من الغرابة المثيرة للتساؤل، والمشعرة بأن حال المخاطب حال من يتطلب تأكيد الحكم له، وهي ما يلي:

الجملة المؤكدة	نوع التأكيد
أ ـ إن الحلال بين	التأكيد بالجملة الاسمية وبحرف التأكيد (إنَّ)
ب ـ وإنَّ الحرام بين	التأكيد بالجملة الاسمية وبحرف التأكيد (إنَّ)
جـ ـ فقد استبرأ لدينه وعرضه	التأكيد بحرف «قد» الدال علىٰ التحقيق
د ـ ألا وإنّ لكل ملك حمى	التأكيد بالجملة الاسمية وبحرف التأكيد (إنَّ)
ألا وإن حمى الله محارمه	وفي التنبيه بحرف (ألا) نلمح أيضاً تأكيداً
ألا وإن في الجسد مضغة	ضمنيّاً في الجمل الثلاث.

٢ ـ تشبيه التمثيل في قول الرسول ﷺ: «كالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه».

إذْ مثّل صلوات الله عليه حال من يقع في الشبهات فيتورَّط بسبب ذلك فيقع في الحرام، لاقترابه من حدود الحرام، بحال الراعي الذي يرعىٰ أنعامه حول الحمىٰ، إنَّه يوشك أن يرتـع في داخل الحمىٰ، وينحلّ هذا التشبيه إلى العناصر المتقابلة التالية:

أ ـ إرادة السالك تشبه حال الراعي.

ب ـ وشهواته وأهواؤه وغرائزه تشبه قطيع أنعام الراعي.

ج ـ والمشتبهات تشبه الأرض الملاصقة لأرض الحمىٰ أو المتداخلة معها.

د ـ والوقوع في الشبهات يشبه حال الراعي حين يرعى قطيعه حول الحمى.

هـ ـ وسقوط الواقع في الشبهات بارتكاب الحرام يشبه رتع قطيع الراعي داخل الحمىٰ.

و ـ ومحارم الله التي هي حماه، تشبه الحمىٰ الذي تحميه الملوك من مواطن سلطانها.

ومع هذا التقابل الجزئي الدقيق بين عناصر الممثِّل وعناصر الممثَّل به، فالصورة التمثيلية كلّها تعطي مشهداً تمثيلياً متكاملاً متداخلاً.

٣ ـ وفي الحديث إيجاز بديع في عدَّة مواطن، منها أنَّ الرسول (ﷺ) ضرب المثل لأدنىٰ أحوال الوقوع في الشبهات، وهو الاقتراب من حدود الحرام، وتَرَكَ ما هو أعلىٰ من ذلك، لأنَّ العاقل يدرك بداهة أنَّ التحذير من الأدنىٰ والأخف يتضمن التحذير من الأعلىٰ والأشدّ.

ومنها الإيجاز بالحذف، فقول الرسول ﷺ: «فمن اتقىٰ الشبهات» يراد منه: فمن اتقى الوقوع في الشبهات. وقول الرسول «إنَّ الحلال بين وإنَّ الحرام بين» يراد منه: إنَّ الحلال الصرف الخالص بين وإنَّ الحرام الصرف الخالص بين بدليل قوله بعد ذلك: «وبينهما أمور مشتبهات».

* * *

ثانياً: من الإعراب

«إنَّ الحلال بين»: الحلال: اسم «إنّ» وهو منصوب. و«بيّن» خبرها وهو مرفوع.

«وبينهما أمور مشتبهات»: بينهما: الظرف مع ما أضيف إليه متعلق بخبر متقدّم محذوف. وأمور: مبتدأ متأخر. ومشتبهات: صفة لأمور.

«فقد استبرأ لدينه وعرضه» الجملة واقعة في جواب اسم الشرط في: «فمن اتقى الشبهات».

«كالراعي يرعىٰ حول الحمى»: كالراعي: خبر مبتدأ محذوف تقديره «هو» ضمير يعود على «من» في جملة: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام». حول: ظرف مكان منصوب على الظرفية متعلق بـ «يرعىٰ». الحمىٰ: مضاف إليه مجرور تقديراً.

«يوشك أن يرتع فيه»: يوشك: من أفعال المقاربة التي ترفع الاسم وتنصب الخبر. واسمها ضمير تقديره: «هو» يعود على الراعي وخبرها جملة «أن يرتع فيه».

«أَلَا وإنّ لكلّ ملكٍ حمَىٰ»: ألا: حرف للتنبيه، يؤتىٰ به للتنبيه على تحقّق ما بعده.

قال ابن هشام في المغني: «ويقول المعربون فيها (أي في ألا): حرف استفتاح، فيبينون مكانها، ويهملون معناها» بعد أن ذكر أنها للتنبيه وتدلُّ على تحقُّق ما بعدها. ثم قال: «وإفادتها التحقيق من جهة تركيبها من «الهمزة» و «لا» وهمزة الاستفهام إذا دخلت علىٰ النفي أفادت التحقيق» اهـ.

لكلّ ملك: خبر إنَّ متقدم. حمىٰ: اسم إن متأخر منصوب بفتحة مقدرة على الآخر منع من ظهورها التعذر.

* * *

الحديث الرابع عشر

عن عبدالله بن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال:

كُنْتُ خَلْفَ النبي ـ ﷺ ـ يوماً فقال لي:

«يَا غُلَامُ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ:

● احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ.

● إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله.

● وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ. رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

* * *

● «تَعَرَّفْ إِلَىٰ الله في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ.

● وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وأنّ ما أَصَابَكَ لَمْ يَكُن لِيُخْطِئَكَ.

● وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ.

● وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ.

● وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً».

رواه الترمذي إلى قوله: «وجَفَّتِ الصحف» وقال: حديث حسن صحيح. وروى الباقي عبد بن حميد في مسنده عن عطاء عن ابن عباس بإسناد ضعيف.

أ ـ ترجمة راوي الحديث (عبد الله بن عباس):

١ ـ هو عبدالله بنُ عباس ابْن عَمِّ الرسول ﷺ.

٢ ـ أُمُّهُ «لُبَابَة» بنتُ الحارث أختُ ميمونة زوج النبي ﷺ.

٣ ـ وُلِدَ قبل الهجرة بثلاث سنين، وتوفّي النبيّ ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: وهو ابنُ خمسَ عشرة سنة. فالظاهر أنَّ هذا الحديث قد كان نحو السنة الأخيرة من حياة الرسول صلوات الله عليه، لأنه قال له في أوَّله: «يا غلام» والغلام هو من طرّ شاربه.

٤ ـ اشتهر في الصدر الأول بأنه بحر الأمَّة وحَبْرُها، لغزارة علمه. وكان أبيض طويلاً مشرباً صفرة، جسيماً وسيماً صبيح الوجه.

٥ ـ صحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ دعا له بقوله: «اللَّهمَّ فَقِّهْهُ في الدين، وعلِّمه التَّأْويل».

٦ ـ قال مسروق: وكنتُ إذَا رأيتُ عبد الله بن عباس قُلتُ: أجملُ النَّاس. فإذا تكلَّم قلتُ: أفصحُ الناس. فإذا تحدَّث قلتُ: أعلمُ الناس.

٧ ـ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرِّبه ويشاوره ويجعله مع كبار الصحابة.

٨ ـ روي له (١٦٦٠) حديثاً، وهو أحد المكثرين من حفظ الحديث عن الرسول.

٩ ـ كُفَّ بصره آخر عمره، وتوفي في الطائف ودفن فيها سنة (٦٨) للهجرة وهو ابن (٧١) سنة.

* * *

ب ـ اللُّغة والمعنى المراد:

١ ـ **الغلام**: من الناس من طرَّ شاربه، ودون ذلك صبيٌّ، فإذا راهق العشرين فهو يافع، فإذا صار شاباً فهو فتى.

٢ ـ **تِجاهَك**: تُجاه بضم التاء وكسرها، تجاهك: أي: تلقاءَك من جهة وجهك. وجهاً لوجه. ويقال لغة: وُجاه بضم الواو وكسرها.

٣ ـ **الرَّخاء**: سَعَةُ العيش. وفعله: (رَخَا) و(رَخُوَ) و(رَخِيَ) والمضارع: (يَرْخُو) و (يَرْخَىٰ) والفاعل منه (راخٍ) و (رَخِيّ).

والعيش الرخيُّ هو العيش الناعم.

ويقال: فلانٌ رخِيُّ البال، إذا كان في نَعْمةٍ وسَعَةِ رزْقٍ وطِيبِ عيش.

٤ ـ **تَعَرَّفْ إلى الله**: قال ابنُ بَرّي: ويأتي تعرَّفَ بمعنى اعترف. وفي اللُّغة: اعترفَ الشيءَ بمعنى عرفه. واعْتَرَفَ القومَ سألهم.

ويقال: تَعرَّف فلانٌ ما عنْد فلانٍ. أي: تَطَلَّبَ ما عنده حتَّى عَرَفه.

فيكون معنى: «تَعَرَّفْ إلى الله في الرَّخاء» اسأل الله متذلِّلاً متضرِّعاً إليه في حالة رخائك وسعة عيشك، ولا تُنْسِكَ النِّعمةُ ربّك، وَذِكْره، وسؤاله دوامها، والمزيد منها، والشكر عليها.

أو: تَكَلَّفْ توجيهَ فكرِك ونفسِك لمعرفة فضل الله عليك في حالة رخائك، وذكرَهُ حامداً، وعبادَتَهُ شاكراً، وسؤالَهُ دواماً ومزيداً.

فإذا فعلت ذلك عَرَفك الله في حال شدَّتك، فاستجاب دعاءك، وأمدَّك بعونه، وتوفيقه، ونصره، وأسرعَ إلى رفع الشدَّة عنك.

٥ ـ الكَرْب: الْحُزْنُ والغَمُّ الذي يأخذ بالنفس، وجَمْعُه (كُروب).

والْفَرَج من الكرب والغمّ الخلاصُ منهما بانفراج المكاره المحيطة، وانكشافِ مسبِّبات الغمّ الضاغط، وخروجُ النفس إلى سعة الراحة والأمن والطمأنينة.

مع وصايا الرسول ﷺ في الحديث:

١ ـ «احْفَظِ الله يَحْفَظْك»:

أصل حِفْظِ الشيءِ يأتي بمعنى صيانتِه وحمايته ممَّا يؤذيه أو يضُرُّه أو يُتْلِفه أو يُهْلِكُه. فإذا كان ممَّا يتعرَّض لشيءٍ من ذلك، ولا يمكن جعله في مكان محفوظ آمن مع إغضاء النظر عنه، فإنَّ حفظه يستلزم مراقبته دائماً، لحمايته من خطر متسلِّل أو مداهم.

ويرادُ من حفظ العبد لربِّه حفْظُ حقوقه عليه، وحفظ حدوده التي اشتملت عليها أوامره ونواهيه، وشرائعه ووصاياه من أن يتعدَّاها أو يقع فيها بالمعصية والمخالفة في فعلٍ أو تركٍ.

ولا يتحقق هذا الحفظ من الإنسان حتَّى يكون مراقباً لله عزَّ وجلّ عند كلّ عمل يعمله، أو نيَّة ينويها، أوْ خاطرٍ يمرُّ به، أو وسواس شيطان ينزغ في نفسه، أو تسويلٍ تسوِّله نفسه له.

وهذه المراقبة لله عزَّ وجل، تجعل العبد يستبصر مع كلِّ حركة أو سكنة أو أيِّ تصرف إراديٍّ من تصرُّفاته، حقُوقَ الله عليه، وحُدودَ أوامره ونواهيه وشرائعه ووصاياه، وثوابه وعقابه، فيخشى الله، ويطمعُ بثوابه، فَيَحْفَظُ إرادته من أن تختار تعدِّيَ حدودِ الله، أو الوقوعَ فيها، ويحفظُ نفسه من الوقوع في المعصية، ويحفظ أهواءَه وشهواتِه وغرائزَه ودوافعه من أن تفترس سعادته المؤجَّلة لِلذَّات ضئيلاتٍ معجَّلة.

فمن حرص على أن يحفظ الله عزَّ وجلَّ على هذا الوجه، طمعاً برضوانه وثوابه، وخوفاً من سخطه وعقابه، ذكرَه وراقَبهُ في سرِّه وعلَنه، وراقب أوامره ونواهيه ووصاياه وحدود شريعته، وأحضر في تصوُّره ثوابه وعقابه، وجنَّته وناره، ونعيمه وعذابه، وراقب من خلال مراقبته نفسه وإرادته ونيَّته وأعماله وخواطره، وشهواته، وأهواءه، ووساوس الشياطين وتسويلاتهم.

وبهذه المراقبة يندفع بيُسْرٍ إلى حفظ حدود الله، من طغيان نفسه، أو عصيانها، ومن جنوح أهوائه وشهواته، ومن تخاذل إرادته، فيحمي نفسه ويصونها من مزالق المعاصي والمخالفات والآثام.

فيكون بذلك من أهل الطاعة والاستقامة.

فالحفظ يتناول أمرين:

الأول: حفظ الشيء من أن يكون عُرضةً للعدوان عليه، كحفظ الغنم من السباع واللصوص بالحظائر والأماكن الآمنة، وبالمراقبة والْحُرَّاس.

الثاني: حفظ القادر على العدوان من أن يعدُوَ على ما يُرادُ حفظه منه. كحفظ السلطان للجند من أن يَعْدُوا على الناس بظلم أو طغيان أو سَلْب أو مَكْسٍ، معتزّين بأسْلحتهم ومكانتهم من السلطان، وقدرتهم على تنفيذ ما يريدون. وكحفظ السباع في أقفاصها من أن تسطُوَ على الناس أو الأنعام فتفترسَ منها ما تفترس.

وقد جاء في القرآن الكريم استعمال الحفظ بكلٍّ منْ هذينِ المعنيين:

● **فمن الأوَّل**: قول الله عزَّ وجلّ في سورة [التوبة: ٩] في وصف المبشَّرين بالجنَّة من المؤمنين:

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُوْنَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٢)﴾.

أي: لَا يَتَعَدَّونَ حدود الله ولا يقعون فيها.

وقولُ الله عزَّ وجل في سورة [المائدة: ٥]:

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ.... (٨٩)﴾.

أي: لا تنتهكوا حُرْمتها، والتزموا حدود الله فيها، واحفظوا الوفاء بها من عدوان أنفسكم عليها بالمخالفة أو النقض دون إذن شرعي.

ومنه حفظ الله لعباده ولكونه. وحفظ الملائكة لخلق الله على وفق أمر الله، حتَّى لا يتعرَّض شيءُ منه لاصطدام أو خلل أو فساد أو تلف أو هلاك لم يأذن به الله، ضمن أحداث الكون وحركاته المتداخلة، وضمن دوائر أعمال ذوي الاختيارات الحرَّة.

فحفظ الله لكلّ شيءٍ في الكون، دلَّ عليه نصوص متعدِّدة، منها قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [سبأ: ٣٤]:

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ... (٢١)﴾.

وحفظ الملائكة لمخلوقات الله ضمن حدود وظائفهم التي أمرهم الله بها، دلَّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأنعام: ٦]:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ويُرْسِلُ عَلَيكُمْ حَفَظَةً (٦١)﴾.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة [الانفطار: ٨٢]:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ (١١)﴾.

وقول الله عزَّ وجل في سورة [الرعد: ١٣]:

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ (١١)﴾.

● **ومِن الثاني**: قول الله عزَّ وجلّ في سورة [النُّور: ٢٤]:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ: يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ: يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ (٣١)﴾.

أي: ليحفظوا فروجهم، وليحفظن فروجُهنَّ من تعدِّي حدود الله أو الوقوع فيها.

ونظيره قول الله عزَّ وجلّ في وصف من أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً في سورة [الأحزاب: ٣٣]:

﴿. . . والْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ والْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً والذَّاكراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥)﴾.

وقوله تعالى في وصف المؤمنين في سورتي [المعارج: ٧٠] و[المؤمنون: ٢٣]:

﴿والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. . . (٢٩)، (٥)﴾.

أمَّا ثواب من حفظ الله على ما سبق بيانه فمع الفوز في جنَّات النعيم، أن يحفظه الله في الدنيا والآخرة. فيمنحه المعونة حتى لا يقع في المعاصي والآثام، ويحفظه من عثراته العابرات بالعفو والغفران، فيُقيلُ عثراته ويكفِّرُ عنه سيّئاته، ويحفظه من العقاب. ويحفظه أيضاً في حياته من عذاب المكاره والمصائب، فإذا قضت حكمته بابتلائه بشيء منها لطف به، وأمدَّه بالرضى والسكينة ومشاعر السعادة القلبية، ثم تكون له هذه المكاره وسائلَ لخير عظيم يناله، ومجد كبير يظفر به، وكلّ ذلك من الحفظ الرَّبَّاني له. ثمَّ يحفظه بعد الموت من عذاب القبر الذي هو عنوان عذاب فترة البرزخ بين الموت والبعث، ثمَّ يحفظه بعد البعث في موقف الحساب، ثم من عذاب النار.

٢ ـ «احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَك»:

أي: تجده مسرعاً في معونتك، وتلبية دعائك، وتحقيق مطالبك من الخير.

فهذا التعبير كناية عن سرعة المعونة، وتلبية الدعاء، وتحقيق الرَّغائب من الخير، لأنَّ من كان قريباً منك وفي مواجهتك، وأنت محبوبٌ لديه، لم

تطلب منه شيئاً إلَّا آتاك إيَّاه، ولم تقع في مأزق حرج إلَّا كان عونَك ونصيرَكَ، ومنقذاً لك.

ورغم أنَّ الله عزَّ وجل مع عباده جميعاً في كلّ أحوالهم، إلَّا أنَّ معيّتَهُ الخاصَّة المصحوبة بالعون والنصر وتلبية المطالب بسرعة، إنَّما تكونُ لأهل القرب المعنوي من الله بالتقوىٰ والبرِّ والإحسان، وهم الحافظون لحدود الله، ولحقوقه عليهم، والذاكرون له كثيراً، الذين تقلُّ غفلاتهم عنه، فيكون الله لهم ذاكراً وحامداً وشاكراً، ومعيناً ومجيباً وناصراً.

٣ ـ «إذَا سألتَ فَاسْأَلِ الله»:

السؤال قسمان:

● سؤال دعاءٍ لتحقيق أمرٍ لا تجلبه في العادة الوسائل الإنسانية، وهذا الدعاء لا يكون إلَّا لله وحده لا شريك له، وهو مظهر من مظاهر الإيمان به، وأثر من آثار هذا الإيمان، فمن دعا غير الله لتحقيق مثل هذا الأمر فهو بالله مشرك.

وعليه فيكون معنى قول الرسول ﷺ: «إذا سألتَ فاسأل الله»: إذا سألت داعياً لأمر ما من أمور دنياك أو آخرتك فاسأل الله وحده، وادعه وحده، ولا تسألْ غيره، ولا تسألْ معه أحداً، لأنَّ سؤال غيره عزَّ وجلَّ شركٌ به، وهذا الشرك ينقض الإيمان.

● وسؤالٌ سببيّ لتحقيق أمرٍ ما بسبب يملك الناس اتخاذه، ضمن نظام الأسباب الكونية ومسبّباتها.

وسؤال غير الله في مثل هذا القسم لا مانع منه عقيدة.

ولكن في الوصيَّة النبويَّة لعبدالله بن عباس توجيه لعفَّة النفس وترفُّعها عن سؤال النَّاس تفضُّلاً بالعطاء في أيِّ أمرٍ من أمور الدنيا، ضمن حدود نظام الأسباب والمسببات، لأنَّ الترفُّعَ عن سؤال الناس أكرمُ للمؤمن، وأفضل له،

وأكثر ثقة بالله وإيماناً بقضائه وقدره، وتعلُّقاً بعونه وتأييده ونصره، وتحقيق المطالب، فهو عزَّ وجلَّ مُسبِّب الأسباب، وخالق كُلِّ شيء، وبيده مقاليدُ (مفاتيح) كلِّ شيء.

غير أنَّ هذا لا يتنافى مع اتخاذ الوسائل والأسباب الإنسانية التي ليس فيها سؤال عطايا الناس ومنحِهم من أموالهم أو من أنفسهم.

وضمن حدود هذا المعنى وجدنا أنَّ النبيَّ - ﷺ - بايع جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً، منهم (أبو بكر الصديق) و (أبو ذرّ) و (ثَوْبَان) رضي الله عنهم، فكان أحدهم يسقُط سوطه أو خِطَامُ ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله إيَّاه، ترفُّعاً عن أن يَرْزَأوا أحداً شيئاً، وعلوَّ همَّةٍ، وثقةً بالله، ولئلَّا يكلِّفوا أحداً شيئاً ربَّما ثقل على نفسه القيام به، فإذا فعله فإنما يفعله استحياءً وقلْبُه غير راغب.

ولا يدخل في هذا سؤال العلم والمعرفة ممَّا ينفع الإنسانَ في دينه، وذلك لأنَّ من حقِّ الجاهل أن يسأل العالم ما عنده من علم نافع في الدين، فإذا سأله سأل حقه، ولم يسأل تفضُّلاً، وإن كان للمعلّم ثوابُ عطاء العلم، وفضلٌ على المتعلم.

وسؤال الله من عناصر عبادته، والله يحبُّ أن يُعبد بالسؤال والدُّعاء، لأنه أثر للإيمان به وفرع عن ذكره.

٤ - «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله»:

الاستعانة كالسؤال قسمان أيضاً:

الأول: الاستعانة لتحقيق أمر لا تجلبُه في العادة الوسائل الإنسانية، التي مكَّن الله الناس من اتخاذها لتحقيق مسبَّباتها، إنَّما يرتبط في العادة بأسبابٍ ووسائل غيبية.

وهذه الاستعانة لا يصحُّ أن تكون إلَّا بالله وحدهُ لا شريك له، فلا

يستعان بجنٍّ ولا ملائكة ولا أرواح لأنَّ ذلك شرك أو طريق إلى الشرك، والاستعانة بالله من عناصر عبادته، والله يحب أن يُعبَد بالاستعانة به، لأنها أثر للإيمان به وفرع عن ذكره.

والاستعانة بالله وحده بالنسبة إلى هذا القسم هي مظهر من مظاهر توحيد الله في ربوبيته وفي إلٰهيته، ومظهر من مظاهر الإيمان بأنه هو الذي بيده كلُّ شيء، وهو على كلّ شيءٍ قدير، فلا شريك له سبحانه في الخلق والتقدير والتسلُّط الغيبيّ على أيّ أمرٍ من الأمور.

والاستعانة بغير الله في هذا القسم شرك به.

وليس من الاستعانة بغير الله في حدود هذا القسم الاستعانة بدعاء أهل الصلاح عسىٰ أن يقبل الله شفاعتهم، فهي في الحقيقة استعانة بالله لأنَّها ترجع إليه.

وليس من الاستعانة بغير الله تسخيرُ قوىً مادِّيَّة خفيَّة، أو طاقات كونية غير مرئية كالمغناطيس وأنواع من الأشعة وغير ذلك، لأنها أشياء قد سخَّرها الله للناس، فظهرت لبعضهم وخفيت عن الآخرين، ومن هذا القبيل استعانة سليمان عليه السلام بالجنِّ وبالذي عنده علم من الكتاب.

الثاني: الاستعانة لتحقيق أمرٍ بسبب كوني من الأسباب التي مكَّن الله الناس من اتخاذها لتحقيق مُسَبَّباتها.

وهذه لا مانع منها شرعاً، ولكنْ في الوصية النبوية لعبدالله بن عباس توجيهٌ لعفة النفس وترفُّعها عن الاستعانة بالناس على سبيل التفضل منهم عليه، والإحسانِ منهم إليه، في أيِّ أمرٍ يملكون المعاونة فيه من أمور الدنيا، ضمن حدود نظام الأسباب والمسبَّبات.

وذلك لأنَّ الترفع عن الاستعانة بالناس على سبيل التفضل منهم على طالب المعونة أكرمُ للمؤمن، وأفضلُ له، وأكثر ثقة بالله، وتوكُّلاً عليه، وإيماناً بقضائه وقدره، ما لم تُلْجئه الضرورة أو الحاجة الماسَّة إلى ذلك.

ولا يدخل في هذا القسم الاستعانةُ المأجورة، إذْ هي من قبيل بيع المعونة ذات القيمة المالية، بشيءٍ ذي قيمة مالية، وهي مبادلة ومعاوضة.

فللمؤمن مهما أراد التَّرفُّع عن الاستعانة بالناس، أن يستأجر إنساناً ما برضاه التام ليقدِّم له معونة في عملٍ يحتاج هو فيه إلى معونته، بل ينبغي له أن يستعين في أموره التي لا يستطيع القيامَ بها بنفسه بآخرين استعانةً مأجورة بأجرٍ مثلها، وقد يجب عليه ذلك، كالأمور الضرورية لحياته، وقد وزَّع الله الخصائص بين الناس، ورفع بعضهم فوق بعض ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرِيًّا.

٥ ـ **«وَاعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمعتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»**.

وبنحو المراد منه ما جاء في الرواية الثانية:

«وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ».

اشتملت هاتان الفقرتان على عنصر من عناصر الإيمان بالقضاء والقدر الخاضع لسلطان الله وحده لا شريك له.

فما من شيءٍ في هذا الكون الكبير يحدث إلَّا بعلم الله، وبإرادته وقدرته، أو إذنه وتمكينه، وقد سبق في علم الله أنَّه سيحدث في الوقت الذي يتحقق حدوثه فيه، وعلى الصفة التي حدث عليها، وما سبق في علم الله قد كُتب في اللَّوح المحفوظ، ثمَّ في صحف ملائكة التنفيذ وكتبهم بأمر الله، ليقوموا بوظائفهم الموكولة إليهم بدقَّة تامَّة على وفق أمره عزَّ وجل، كما قال تعالى بشأنهم في سورة [الأنبياء: ٢١]:

﴿..بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَولِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾.

فالنفع والضرُّ كلُّهما بيد الله عزَّ وجل، لا ينفع أحدٌ بشيءٍ لَمْ يقضه الله ويقدِّرْه، أو لم يأذن به، ولا يضرُّ أحد بشيءٍ لَم يَقْضِه الله ويقدره، أو لم يأذن به.

ومن تطبيقات هذه الكليَّة الكبرى من كلّيّات صفات الله العظمىٰ ذات الآثار في الخلق والتكوين هذه الحقيقة التي علَّمها الرسول ﷺ ابن عمِّه عبدالله بن عباس بمقولته هذه.

● قول الرسول: «واعلم أنَّ الأمَّة» أي: كلّ الأمَّة دون استثناء.

● قول الرسول: «قد كتبه الله لك» و«قد كتبه الله عليك» أي: كتبه في اللوح المحفوظ لنفعك، أو بضرِّك، على وفق علمه وحكمته عزَّ وجلَّ، وعلمه به مطابق لإرادته، أو إذنه بوقوعه والتمكين منه. ثمَّ يَتِمُّ التنفيذ بقوانين قدرته وفق مجاري سُنَنِه سبحانه وتعالى.

● قول الرسول: «واعلم أنَّ ما أخطأك لم يكن ليُصِيبَك» أي: وما لم تَنَلْهُ من خير، وما لم يُصِبْك من شرّ، قد سبق به العلم الرَّبَّاني، وعلْمُ الله لا يتخلّف، فلو اجتمع الخلق كلُّهم على أن ينالَك أو يُصيبَكَ لم يملكوا ذلك، لأنَّهم لا يملكون تغيير علم الله بما تمَّ به قضاؤه وقدره، أو بما لا يأذن بوقوعه من اختيارات عبيده الذين منحهم إراداتٍ حُرَّة.

● قول الرسول: «وَاعلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَم يَكُنْ ليخطِئَكَ» أي: وما نالك من خير، وما أصابك من شرّ، قد سبق به العلم الرَّبَّاني، وعلْمُ الله لا يتخلَّف، فلو اجتمع الخلق كلّهم على أن يمنعوا عنك ما نالك من خير، أو يصرفوا عنك ما أصابك من شرّ لم يملكوا ذلك، لأنهم لا يملكون تغيير عِلْمِ الله بما تمَّ به قضاؤُه وقدره، أو بما أذن بوقوعه وتحقُّقه من إرادات عبيده الذين منحهم إرادات حرَّة.

● قول الرسول: «رفعت الأقلام وجفّت الصحف» في هذا التعبير كناية عن أنَّ المعلوم المكتوب سيقع حتماً على وفق العلم والكتابة، بدون تغيير

فيه ولا تبديل، والمستقبل فيه كالماضي، أما المحو والإثبات في الكتب فلا يكون نظيره في العلم الرَّباني، وعلم الله بما سيكون وبما لا يكون لا يمكن أن يتخلَّف، ولحكمة يمحو الله ما يشاء من الكتب ويثبت. قال الله عزَّ وجلّ في سورة [الرعد: ١٣]:

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ (٣٩)﴾.

فأمّ الكتاب: وهو العلم الربَّاني، وقد يكون اللوح المحفوظ كذلك، لا يتعرَّض للمحو والتغيير.

فمن آمن بمضمون هاتين الفقرتين من كلام الرسول ﷺ لم يسأل غير الله، ولم يستعنْ إلاَّ بالله، ولم يعلِّق قلبه بشيءٍ سوى الله. وعلم أنَّ الله يَبْتَلِيه فيما يُعطيه من نِعَم، وفيما يصيبه من مصائب، وأنَّ الأمر في كلا الحالين مقدَّر مرادٌ لله أو قد أذن الله بحدوثه ومكَّن من إحداثه. فلا يحزن على ما فاته من خير دنيويّ، ولا يفرح بما ناله منه فَرَحَ بطر وكبرٍ واستعلاء وخيلاء، ولا يضجر ولا يتذمَّر، بل يتقبَّل كلَّ مقادير الله برضىً وطمأنينة قلب، ويعلم أنَّ حكمة الله قد اختارت له ما هو خير، لعاجل أمره أو آجله، لدنياه أو آخرته.

وبهذا يتحقق للمؤمن كمال الإيمان، وتتحقَّق له السعادة القلبيَّة بهذا الإيمان.

وترد الشبهة حول آثار إرادات الناس الحرَّة التي مكَّنهم الله من أعمالهم على وفقها، ليمتحنهم ويبلُوَهُمْ أيُّهم أحسنُ عملاً، وحول موقع العلم الربَّاني بالنسبة إليها، وموقع قضائه وقدره.

ولردّ هذه الشبهة وتحديد الأمور أقول:

إنَّ آثار إرادات النَّاس الحرَّة التي مكَّنهم الله من أعمالهم على وفقها مسبوقة بالعلم الرَّبَّانيّ بها، وتحقيقها مقترن بالإذن والتمكين من العمل، ومقترن بتسخير الأشياء وقُوَاها لتحقيق النتائج، وكلّ المسخَّرات خاضعة لسلطان الله وخلقه وقضائه وقدره.

وحين لا يكون لله إذن بتحقيق النتائج، فإنَّه سبحانه يوجد أيَّ صارف أو مانع يختاره، فلا تتحقق النتائج، وإن باشر المخلوق المريد أسبابه كلّها، واستخدم كلّ المسخَّرات التي بين يديه، والله غالب على أمره، وهو عليه يسير.

٦ - «تَعَرَّفْ إلى الله فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة»:

أي: كن ذاكراً لربِّك حالة رخائك، في فكرك ونفسك وقلبك، عابداً، حامداً، شاكراً، سائلاً إيَّاه، متضرِّعاً متذلِّلاً في مسألتك له، ولا تُنْسِك مَسَرَّاتُكَ في النعمة وسعَةُ العيش واجبَكَ تُجاهه.

فإذا فعلت ذلك عرفك الله في حالة شدَّتك، أي: أجاب سؤالك، ولبَّى طلبَكَ ورجاءك، وأسْعَفَك بمعونته وفضله، فكشف عنك الشدَّة، ورفع عنك البؤس والغمّ والهمّ والكرب.

٧ - «واعْلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»:

أي: اعلم أنَّ النصر والصبْرَ مُقْترِنان، فمن طلب النَّصر فإنَّ عليه أن يصبر، ذلك لأنَّ الله مع الصابرين، ومن كان الله معه كان النصر له، وهذا من سُنَن الله في كونه، بشرط اتخاذ الوسائل السببية الماديَّة التي أمر الله باتخاذها وفق سننه.

وقد دلَّ القرآن على هذه الحقيقة، فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأنفال: ٨]:

﴿يَاأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللَّهَ كثيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيْحُكُمْ وَاصْبِروا إنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾.

وقال عزَّ وجلَّ فيها أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ الْقِتَال. إنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ

صَابِرُوْنَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ. وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ. وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾.

٨ ـ «وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ»:

أي: اعلم أنَّ الكَرْبَ والفرَج مقترنان، بالنسبة إلى أهل الإيمان بالله والتوكل عليه، فلا يُوجدُ كربٌ تضيق حلقاته عليهم إلَّا استتبع فرجاً بفضل الله ومعونته.

وهذا من سُنَن الله في كونه للذين آمنوا به وتوكَّلوا عليه، فما اشتَدَّ كرْبٌ عليهم إلَّا جاءهم الفرج بعده من الله مقترناً به، وعند دبيب مقدّمات اليأس من الفرج إلى نفوسهم.

دلَّ على هذه السُّنَّة من سُنَن الله قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [يوسف: ١٢]:

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِيْنَ (١١٠)﴾.

أمَّا الكافرون بالله وبمقاديره فلا فرج لهم من كُروبهم، إلَّا إذا دَعَوُا الله فشاء الله أن ينجيهم ليقيم الحجَّة عليهم بوحدانيته في الربوبية وفي الإلٰهيَّة، وذلك لأنَّ الأصل في الكُروب بالنسبة إليهم أنَّها ألوان من العذاب النفسيّ الذي يصاحبهم بسبب كفرهم.

ولذلك قال النبيّ يعقوب عليه السلام لبَنِيه حين أمرهم أن يتحسَّسوا من يوسف وأخيه في مصر، إذْ ذَهَبُوا لجلب الميرة، كما جاء في سورة [يوسف: ١٢]:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ. إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾.

مِنْ رَوْحِ اللهِ: أي: مِنْ رحمته، وما يُعْطِيه للمكْروبين من راحة وسعَة وتفريج.

ومن سنن الله في الضيق والفرج والعسر واليسر، أنَّه سبحانه يُقَلِّب على عباده النقائض ليمتحنهم، فمرَّة يمتحنهم باليسر، ثم بالعسر، فإذا اشتدَّ عليهم الضيق وقَنِطوا من الفرج، فرَّج الله عنهم، ووسع عليهم، ومنحهم منه يُسْراً بعد عسر، لعلَّهم يستقيمون على طاعته، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [الشورى: ٤٢]:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ، وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨)﴾.

٩ ـ «وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً»:

أي: أنَّ الْيُسر مقارن للعسر.

والْيُسْرُ: السهولة والغنى، وضدُّه الْعُسْر.

فما جاء عُسْرٌ واشتدَّ به الهمُّ والغمُّ إلَّا تَبِعَهُ يُسْر، وهذه السُّنَّةُ من سُنَنِ الله في خلقه قد ذكرها الله لرسوله في سورة [الشرح] فقال له:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرَاً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾.

قال البلاغيُّون: العُسْرُ في هذه السورة جاء مُعرَّفاً في الآيتين، فدلَّ على أنَّه عُسْرٌ واحد، أمَّا اليُسر فجاء مُنكّراً في الآيتين، فدلَّ على أنَّهما يُسران لا يُسْرٌ واحد، فاستنتجوا من ذلك أنه عسْرٌ بين يُسْرين.

وقد جاء في حديث مرسل خرَّجه البزَّار وابن أبي حاتم عن النبي ـ ﷺ ـ قال:

«لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن».

وهذا الحديث يشهد لما استنبطه البلاغيون، أو أنَّ البلاغيين استفادوا فكرتهم منه.

وشرط قدوم اليسر بعد العسر تقوى الله، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [الطلاق: ٦٥]:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الله فَهُوَ حَسْبُهُ. إنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ. قد جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (٣)﴾.

وقال فيها أيضاً:

﴿. . . وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (٤)﴾.

وقال فيها أيضاً:

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ. وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ. لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا. سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (٧)﴾.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

لم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ يدَعُ مناسبة من المناسبات، وَلَا فُرصةً من الْفُرَصِ إلَّا انتهزَها للتعليم، والهداية، والإرشاد، والنُّصْح. حتَّىٰ كانت حياتُه كُلُّها بمثابة تعليمٍ وتبليغٍ لدين الله، ونُصح وإرشادٍ لعباد الله، في أقواله، وأعماله، وأخلاقه، وتقريراته، في خَلَواته وجلواته، في إقامته وسفره، في سلمه وحربه، في يقظته ومنامه، فإذا نام علَّم النَّاس متى وكيف وكم ينامون، ومتىٰ وكيف يصحون.

وكانَ ابن عمه عبدالله بن عباس رديفه على دابَّةٍ ذات يوم، إذْ كان غلاماً طرَّ شاربه، لم يزد عمره على ثلاث عشرة سَنة أو خمس عشرة سنة.

فانتهز الرسول صلوات الله عليه الفرصة المواتية، فألقى عليه درساً تعليميّاً في أمَّهاتٍ كبرى من أُمَّهَات العقيدة الإسلاميَّة، وهما على ظهر الدابَّة السائرة بهما إلىٰ غايتهما في الطريق.

● **المعلِّم**: هو الرسول المجتبىٰ محمد بن عبدالله، خاتم المرسلين، وسيِّد العالمين ﷺ.

● **والتلميذ**: هو عبدالله بن عبَّاس، الذي صار فيما بعد حَبْر الأمَّةِ وعالمها، رضي الله عنه وعن أبيه.

● **والمدرسة**: طريق المسير في الهواء الطلق.

● **والفصل المدرسي**: ظهر الدابَّة.

● **والمادة**: أمَّهاتٌ في العقيدة الإسلامية.

ويبدأ الدرس بنداءِ التحبُّبِ والتكريم وشحذ الهمَّة: «يَا غُلامُ».

وفي قول الرسول ـ ﷺ ـ: «يا غلام» يُعلّمنا جَميعاً أنْ نعلّم كُلّ غلماننا دروس العقيدة الإسلامية، حتَّى يُنَشَّأوا على فهم صحيح لقضايا الإيمان، وعلى تَمَكُّنٍ فكريٍّ وقلبيٍّ من الإيمان بها، والعملِ بمقتضاها، والتَّأثُّرِ في كُلِّ حَرَكاتِ الحياة وسكناتها بحقائقها.

ثمَّ يقول الرسول له: «إنِّي أُعَلِّمكَ كلماتٍ» بتنكير لفظ: «كلمات» إشارة إلى أنَّها كلمات قليلات الكَمِّ لكنَّها عظيمات الشأن جليلات الخطر. وبصيغة التأكيد بالجملة الاسمية، وبلفظ (إنَّ) المؤكدة، مع أنَّ ابن عباس ليس منكراً لمضمون ما سيُلقِي عليه الرسول، ولا شاكاً فيه، وليس في حاله ما يشعر بأدنى شك، حتَّى ينزَّل منزلة الشاكّ فيؤكَّدَ له الخبر، فالتأكيد لا بدَّ أن يكون موجَّهاً لمضمون آخر غير مذكور في اللفظ.

ويمكن أن نتلمَّس ذلكَ من طيوف مثل هذا الاستعمال، مع مضمون الوصايا، فنوجّه التأكيد لمقدّر غير مذكور، مثل قولنا: إنِّي أحبُّك، وأحرص على سعادتك ومجدك، وترفُعِكَ بالهمَّة العليَّة إلى منزلة التكريم والمكانة السَنِيَّة الرفيعة في الدنيا والآخرة، فأُعلِّمك كَلماتٍ نفيسات عظيمات فيها خير جليل.

أو نوجِّه التأكيد إلى عظم شأن هذه الكلمات القليلات، فمن شأن من يستمع إلى وصايا قليلة الكلمات أن لا يهتمَّ بأمرها كثيراً، ويتصوَّر أنَّها كلماتٌ عابرات، فينَزَّلُ مَنْـزِلَةَ الشَّـاك فيؤَكَّدُ لـه الخبر أو بعض أجـزائه ومُتَعَلَّقاته.

وقد اشتملت هذه الكلمات النبويَّةُ على كليَّاتٍ كُبرى وأُمَّهاتٍ عظيماتٍ من أمَّهات العقيدة، ذات الآثار الجليلة في السلوك.

الكليَّة الأولى:

وهي فرع أصلين كبيرين من أصول الدين:

الأصل الأول: هو حقُّ الله على عباده في طاعته بالتزام أوامره ونواهيه، ووصاياه وشرائعه.

الأصل الثاني: هو قانون الجزاء الإلّهي بالفضل أو بالعدل. فحقُّ الله على عباده يتضمَّن وجوب حفظ حدوده التي اشتملت عليها أوامره، ونواهيه، ووصاياه وشرائعه.

وقانون الجزاء الإلّهيّ يتضمَّن قاعدة: «الجزاء من جنس العمل».

هذه الكليَّة الأولى دلَّ عليها قول الرسول ﷺ:

«احفظ الله يحفظك. احفظِ الله تَجِدْهُ تُجاهك».

أي: احفظ حدود الله التي اشتملت عليها أوامره، ونواهيه، ووصاياه، وشرائعه، فلا تتعدَّها، ولا تقَعْ فيها، وحفظها هو مظهر من مظاهر العبودية لله، بطاعته في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، والتزام أحكام شرائعه، وتنفيذ وصاياه.

وهذا الحفظ يرجع إلى الأصل الأوَّل من الأصلين الآنِفَي الذِّكْر.

● فمن حفظ الله هذا الحفظ، حفظه الله في دينه، وفي نفسه وماله

وكلّ ما يحب، وحفظه فيما بعد الموت من عذاب القبر، وحفظه فيما بعد البعث في آخرته من العذاب والعقاب ومن نار جهنم، وجعله من السعداء ضمن القانون العام للجزاء، وشملته قاعدة: «الجزاء من جنس العمل».

● وحفظ حدود الله من تعدِّيها والوقوع فيها في قسمَي الـواجبات والمحرَّمات، لا يتحقَّق في العبد ما لم يكن في حالة مراقبة متجدِّدة لربِّه، مع كلِّ حركة وسكنة من حركات حياته وسكناتها، وفي حالة حضور فكريّ وقلبي ونفسيّ معه، يلاحظ عظمته وجلاله، وحقّه على عباده، ويلاحظ جزاءه في ثوابه وعقابه.

وهذا الحضور مع الله يجعله في مكان القرب منه، والمواجهة له، كأنه يراه، فيكافئه الله على ذلك، فيسرع إلى تلبية طلباته من خيري الدنيا والآخرة، لأنَّه يكون حينئذٍ محلَّ عِنايةِ الله وكِلاَءته، وفي مكان مواجهته القريبة.

كلّ هذه المعاني يمكن أن نستنبطها من لوازم قول الرسول الجامع: «احفظ الله يحفظْك. احفظ الله تجدْهُ تجاهك».

ويلحقُ بهذه الكليَّة ما جاء في وصيَّة الرسول ﷺ - في الرواية الأخرى، وهو قوله:
«تَعرَّفْ إلى الله في الرَّخاء يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة».

ففيه من بيان حقّ الله على عباده وجوبُ التعرُّف إليه في حالة الرَّخاء.

وفيه من بيان آثار قاعدة: أنَّ الجزاء من جنس العمل ما تضمَّنه قوله: «يعرفْكَ في الشدَّة».

الكليَّة الثانية:

وهي فرع كمال الإيمان بوحدانية الرَّب الخالق، الذي له الخلق كلُّه وله الأمرُ كلُّه، وهو المالك لكلِّ شيء، والمصرِّف للأسباب والمسبَّبات،

والذي بيدِهِ وَلَهُ مقاليد (= مفاتيح) السماوات والأرض، وهو العليم الحكيم الخبير، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

● ومن لوازم هذا الإيمان ومظاهره في سلوك المؤمن أن يكرِّم نفسه وينقِّيَ إيمانه، فلا يسألَ غير الله، لأنَّ أحداً غير الله لا يملك بذاته العطاء، إلَّا بقضاء الله وقَدَره، أوْ بإذنِهِ وتمكينِهِ، وبسابق علمه.

وأشدّ أحوال سؤال غير الله قد يوصل إلى الشرك به، نعوذ بالله من الشرك ومن لوازمه.

وأخف أحوال سؤال غير الله النظر العاجل إلى الأسباب، والغفلة عن مسبِّبها، وهذا من انحطاط الهمَّةِ الإيمانيّة في السلوك.

● ومن لوازم هذا الإيمان ومظاهره في سلوك المؤمن، أنْ يكرِّم نفسه ويُنَقِّيَ إيمانه، فلا يستعين بغير الله، على سبيل طلب التفضُّل من المعين له.

وأشدُّ أحوال الاستعانة بغير الله قد يوصل إلى الشرك به، نعوذ بالله من الشرك ومن لوازمه.

وأخف أحوال الاستعانة بغير الله النظر العاجل إلى الأسباب، والغفلة عن مسبِّبها، وهذا أيضاً من انحطاط الهمَّة الإيمانية في السلوك.

أمَّا علوّ الهمَّة فيدعو المؤمن إلى التعلُّق القلبيّ الكامل بالله عزَّ وجلَّ، ومباشرة الأسباب التي جعلها الله ضمن سننه الكونيَّة طاعةً لله، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أمر باتخاذها.

لكنَّ المؤمن الذي ينشد الكمال ويتطلَّع إلى منازل الأبرار والمحسنين، لا يرْزأ الناسَ بسؤالهم أو الاستعانة بهم على سبيل التفضُّل منهم عليه، والإحسان منهم إليه، بل تكون يدُهُ هي اليد العليا، فهو الذي يعطي، وهو الذي يُحْسن.

وهذه الكرامة هي لأهل مرتبة الإحسان، أو أهل مرتبة البرّ، أو درجة كمال مرتبة التقوى.

ودون ذلك درجاتٌ متنازلات عن درجة كمال مرتبة التقوى.

ولهذا أوصى الرسول ـ ﷺ ـ ابن عمّه عبدالله بن عباس بأن يكرِّم نفسه عن سؤال غير الله، وعن الاستعانة بغير الله ليكون من أهل مرتبة الإحسان، أو أهل مرتبة البرّ، فقال له في التعليم:

«إذَا سأَلْتَ فاسْأَلِ الله، وَإذَا استعنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله».

الكليّة الثالثة:

وهي فرع ركن الإيمان بالقضاء والقدر خيرِه وشرِّه من الله عزَّ وجلَّ.

وهذا الفرع هو أنَّ ما يصيب الإنسان في حياته من نفعٍ أو ضرّ، ولو على أيدي أهل الإرادات الحرَّة من العباد، معلوم سابقاً لله عزَّ وجل، وهو بقضائه وقدره، أو إذنه وتمكينه.

فكلُّ كبيرٍ وصغير من ذلك معلوم لله سابقاً، ومقضيّ مقدَّر منه، أو يجري بإذنه وتمكينه، سواءٌ أكان نفعاً واصلاً لهم بنعمة، ومفرحاً لنفوسهم، أو ضُرّاً نازلاً عليهم بمصيبة ومحزناً لهم.

وهذه الحقيقة قد أبانها الرسول ـ ﷺ ـ في تعليمه لابن عباسٍ بقوله:
«واعْلَمْ نَّ الأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوْكَ إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَإنِ اجْتَمَعُوا على أَن يَضُرُّوكَ بشيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ. رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

وبقوله في الرواية الأخرى:
«واعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وأنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ».

وهذه الحقيقة قد أثبتها القرآن في نصوصٍ متعدِّدة:

● فمنها قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الحديد: ٥٧]:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا. إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ واللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾.

أي: ما أصاب من مصيبة أو نعمة في الأرض ولا في أنفسكم إلاَّ هو معلوم سابقاً لله عزَّ وجلَّ، ومسجَّل هذا العلم في كتاب عند الله من قبْل أن يخلُق الله الأنفس التي يسوؤها ما أصاب من مصيبة ويسُرُّها ما أصابَ من نعمة.

وقد دلَّ على المحذوف قول الله عزَّ وجلَّ عقب ذلك: «لكَيْلا تَأْسَوْا على ما فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بما آتاكم» أي: على ما فاتكم بالمصيبة، وبما آتاكم من نعمة.

● ومنها قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [التغابن: ٦٤]:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ. وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)﴾.

● وقول الله عزَّ وجل في سورة [النحل: ١٦]:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُوْنَ (٥٤)﴾.

فإليه تَجْأَرُون: أي: ترفعون أصواتكم بالدعاء، وتتضرَّعون، وتستغيثون. وأَصْلُ الْجُؤَار صوت البقر، جأرتِ البقرة إذا صاحت ورفعت صوتها.

● وردَّ الله أوهام المنافقين الذين قالوا عن الذين قُتلوا من المسلمين في أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتل من قُتِلَ مِنَّا ههُنا في معركة أحد، إذْ كان رأيهم عدمَ الخروج إلى العدوّ من المدينة، فقال عزَّ وجل في سورة [آل عمران: ٣]:

﴿يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا. قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾.

وقد بينت لنا النُّصوص أن مقادير الله عزَّ وَجَلَّ مقرونة بحكمته دائماً[١]:

١ ـ فقد تكون للابتلاء، إذْ يمتحن الله عباده بالنِّعم وبالمصائب، وبسعة الرزق وبتضييقه، وبالصحة والمرض، وبالأمن والخوف. وغير ذلك من الأضداد.

٢ ـ وقد تكون النِّعم والمصائب صوراً من صور الجزاء المعجل.

٣ ـ وقد تكون للتربية التي فيها مصلحة وخير لمن وقعت عليه.

الكليَّة الرابعة:

وهي إحدى سُنَن الله في خلقه، وقد علَّم الرسول صلوات الله عليه وسلم ابنَ عمِّه عبدالله بن عبَّاس فيها أنَّ الصَّبْرَ يأتي بالنَّصر ويجلبه، لأنَّ النَّصر والصبْر مقترنان، هكذا جعل الله في سننه، فقال النبيُّ له:
«واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ».

الكليَّة الخامسة:

وهي أيضاً إحدى سنن الله في خلقه، وقد علَّم الرسول صلوات الله عليه وسلَّم ابن عمِّه عبدالله بن عبَّاسٍ فيها أنَّ الكَرْبَ الذي يبتلي الله به المؤمنين لا بدَّ أن يتبعه الفرج، حتَّى كأنهما مقترنان، وما على المؤمن إلاَّ أن يثق بربه، ويصدُق في الالتجاء إليه، هكذا جعل الله في سننه، فقال النبي ﷺ لابن عمِّه:
«وأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الكَرْب».

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع في كتاب «أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها» للمؤلف.

الكلية السادسة:

وهي أيضاً إحدى سُنَن الله في خلقه، وقد علَّم الرسول ـ ﷺ ـ ابْن عمِّه فيها أنَّ العسر الذي يبتلي الله به عباده لا بدَّ أن يتبعه اليسر، حتَّى كأنَّهما مقترنان، فمن اتعظ واتقى جعل الله له من أمره يُسراً دائماً، ومن أبطره الْيُسْر بعد الْعُسر، ونَسِيَ عظة ربِّه له، أخذه الله بعذاب وقد أعْذَر له. وقد اقتبس الرسول من القرآن كلمته فقال لابن عمِّه عبدالله بن عبَّاس:

«وأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسراً».

* * *

د ـ ممَّا يستفاد من الحديث:

١ ـ من أصول التربية تعليم الغلمان أصول العقيدة، وقواعد السُّنن الرَّبانية، لتستقرَّ في أعماق قلوبهم، مع التلَطُّفِ بهم في التعليم، والتَّحبُّب إليهم.

٢ ـ من قواعد الجزاء المعجَّل والمؤجل أنَّ من حفظ الله حفظه الله، وأسرع في تلبية طلباته وتحقيق رغباته من الخير.

ومن ذكر الله وأطاعه وسأله في حالة الرَّخاء أجابه ولبَّاه في حالة الشدَّة.

٣ ـ من أسس العقيدة الإسلامية أن لا يدعو المؤمن غير الله، وأن لا يستعين في الغيبيّات إلاَّ بالله.

٤ ـ من فضائل سلوك المؤمن أن لا يسأل أحداً غير الله وأن لا يستعين بغير الله، فيما يملك الناس أسبابه، إذا كان على سبيل التفضُّل منهم عليه والإحسان منهم إليه، أما إذا كان على سبيل اتخاذ الوسائل السببية بكرامة وعفة نفس فهو أمْرٌ مأمور به شرعاً.

٥ ـ كلّ ما هو كائن، وكلّ ما سيكون، وكلّ ما لم يكن، وكل ما لا يكون، قد سبق به العلم الرَّبَّاني، ولا سبيل إلى تغييره وتبديله، ولو اجتمعت كلّ الخلائق لتحقيق خلافه، ابتغاء جلب نفع لأحد، أو دفع ضرٍّ عن أحد.

٦ ـ من سُنَن الله الثانية:

- أنَّ النصر يأتي عقب الصبر إذا استُكْمِلَتِ الوسائل السببيَّة الأخرى، واقترن بها صدق التوكل على الله، والاعتماد عليه واللجوء إليه.
- وأنَّ الفرج يأتي عقب الكرب، بالتوكُّل على الله والاعتماد عليه واللجوء إليه.
- وأنَّ اليُسْرَ يأتي عقب العُسْر، بالثقة بالله واللجوء إليه، والتوكُّل عليه.

البَلاغة وَالإعـرَابْ

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

١ ـ نادى الرسول ﷺ ابن عمِّه عبدالله بن عباس بقوله: «يا غلام» ليستثير فيه همّة أوائل الرجولة، لتلقُّفِ المعرفة وحفظها، والعمل بما يلقي عليه من وصايا جليلات.

٢ ـ في قول الرسول له: «إنِّي أعلّمك كلمات» معنى العناية به، وتخصيصه بالوصايا العظيمة النفيسة، التي اشتملت عليها كلماته.

ونكَّرَ لفظ «كلمات» إشارةً إلى أنَّ ألفاظها قليلة، وأنَّ مضمونها عظيم جليل الخطر. وهذان من المعاني التي يدلّ عليها التنكير عند البلاغيين.

وأكَّد له الجملة بمؤكِّدَين:

- بالجملة الاسمية.
- وبحرف «إنَّ» التوكيديَّة الناصبة للاسم والرافعة للخبر.

ونظير ذلك سائر جمل الحديث التي فيها مثلُ هذين المؤكدين.

٣ ـ في قول الرسول: «تَجِدْهُ تُجاهك» كناية عن أنَّه يكون موضع عناية الله، فهو يجيب دعاءه، ويُعْطِيه سُؤْله، لأنَّ من كان محظوظاً بعناية الله كان قريباً منه قُرْباً معنويَّاً، فإذا زاد حظُّه من العناية كان الله في مواجهته، وجعله في رعايته، وأفاض عليه من رحماته، بخلاف ناقص الحظّ بسبب عصيانه

ومخالفاته فإنَّ الله يُعرِض عنه، فإذا زاد في معاصيه أبعده الله، وكلَّما زاد فيها زاد بُعده، حتى يكون مطروداً من رحمة الله، والعياذ بالله من الطرد ومن البعد.

٤ ـ في استعمال كلمة «إذا» الشرطية في جملتي:

- «إذا سألت فاسأل الله».
- وإذا استعنت فاستعن بالله».

دلالة على أنَّه لا بدَّ أن يسأل في حياته أحداً، ولا بدَّ أن يستعين في حياته بأحد، لأنَّ مطالب الإنسان في حياته ستلجئه إلى ذلك دون شكّ، فعليه أن يسأل الله إذا احتاج أن يسأل أحداً، وأن يستعين بالله إذا احتاج أن يستعين بأحد.

ويقول البلاغيون: «إذا» الشرطية تدخل على مُتحقِّق الوقوع أو الظنّ بوقوعه راجح. بخلاف «إنْ» الشرطية فهي تدخل على ما هو مشكوك في وقوعه، أو وقوعه مستحيل أو متعذِّر.

٥ ـ في قول الرسول ﷺ: «رُفِعتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحف» كناية عن أنَّ ما سبق به العلم وكُتِب، أو ما تمَّ به القرار ودُوِّن ومُهِر فلا تغيير فيه ولا تبديل.

وهكذا عِلْمُ الله، وقضاؤه وقدره، بالخلق المباشر أو بالإذن والتمكين في مجرى سُنَنِه وأسبابه، لا تغيير فيهما ولا تبديل.

وحَسُنت هذه الكناية لأن دَوَاوين السلاطين متَّى دُوِّنت فيها الأوامر السلطانية، وتَمَّت فيها كتابتُها، ومُهِرَتْ، وجفَّتْ صُحُفها، ورفعت أقلامها، صارت قَيْدَ التنفيذ، فلا استئناف فيها ولا محو.

ولمَّا كان مضمون قول الرسول ﷺ: «واعلم أنَّ الأمَّة. . . إلى آخره» أمراً غير قابل للمحو، لأنه من علم الله الذي لا يمكن أن يخالفه الواقع، أو

من خصائص الرَّبِّ الواحد الذي لا شريك له، مع ملاحظة أنَّ الله لم يفوِّض أحداً من خلقه بما هو من خصائص ربوبيته، أبانَ الرسول صلوات الله عليه أنَّ هذا الأمر لا تغيير له ولا تبديل، وكنَّىٰ عن ذلك بقوله: «رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وجَفَّتِ الصُّحُف».

٦ ـ استعمل الرسول ﷺ (لام) الجرِّ في قوله: «قد كتبه الله لك» بجانب النفع وما يُسمِّيه الناس خيراً، أي: لنفعك ومصلحتك.

واستعمل حرف الجرِّ (على) في قوله: «قد كتبه الله عليك» بجانب الضرِّ، وما يسمِّيه النَّاس شرَّاً، أي: نازلاً عليك بضُرٍّ أو مصيبة أو بلاء.

وهذا من الاستعمالات البيانية القرآنية.

٧ ـ المعيَّة في: «واعلم أنَّ النصر مع الصبر» و«أنَّ الفرج مع الكرب» و«أنَّ مع العسر يُسراً» تفسَّر بوجوه:

● إمَّا كناية عن أنَّ النصر يأتي بعد الصبر، وأنَّ الفرج يأتي بعد الكرب، وأن اليسر يأتي بعد العُسْر حتماً، وقد بلغت هذه السنَّة الرَّبانية الإلَهيَّة من تحقُّق الوقوع أن يصحَّ فيها ادِّعاء المصاحبة، والكناية بها عنه، فالوقوع عَاقِبٌ مُعَاقبةً يُكَنَّىٰ عنها بأنَّهُ مصاحب.

● وإما استعارة قامت على تشبيه الشيء الذي يأتي عقب الشيء بالآتي معه مصاحباً له، بجامع الالتقاء في كلٍّ، إلَّا أنَّ المصاحبة التقاء كامل الشيئين في الذات والزمن، والمعاقبة التقاء الأواخر بالأوائل فقط.

● وقد يقال: إنَّ القضاء بالنصر مصاحب للصبر، والقضاء بالفرج مصاحب لواقع الكرب، والقضاء باليُسْر مصاحب لواقع العُسْر.

وعلى هذا يكون الاستعمال من قبيل المجاز المرسل، وهو هنا مجاز بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

٨ ـ الأسلوب البياني المختار في هذا الحديث هو أسلوب التعليم

المدرسيّ للغلْمان، ببيان الحقائق في جُمَل قِصار، والتركيز عليها لتحفظ.

ثانياً: من الإعراب

١ ـ «يا غلام» حرف نداء، ومنادى مبنيٌّ على الضمِّ، لأنه نكرةٌ مقصودة.

٢ ـ «إنِّي أعلّمك كلمات» ياء المتكلم اسم (إنَّ) في محلّ نصب وجملة «أُعلِّمك» في محلٍّ رفع خبر «إنَّ» و(كلمات) مفعول به ثان، وكاف الخطاب هي المفعول به الأول.

٣ ـ «يحفظْك» مجزوم على أنَّه جواب الطلب ونظيره «تَجِدْهُ» و«يَعْرِفْك». والطلبُ يجزم الفعل المضارع، لأنه بقوَّة الشرط، فهو كقوله: إنْ تحفظ الله يحفظك. وإن تحفظ الله تجدْه تجاهك.

٤ ـ «إذا» ظرف للمستقبل معمول لجواب الشرط، وهو مضاف وجملة الشرط في محل جر مضاف إليه.

فتأويل: «إذا سألت فاسأَل الله»: اسأل الله حين سؤالك، أي حين وجود سؤال منك.

ولذلك يقول المعربون: «إذا» ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه، منصوب بجوابه.

٥ ـ «لم يضرُّوك إلاَّ بشيء» استثناء مفرَّغ.

الحديث الخامس عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَاناً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ.

فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ!

فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ».

رواه مسلم في كتاب الفضائل

وعند البخاري والترمذي نظيره

وجاء في بعض روايات الحديث كلمة (قَصْراً) بدل (بُنْيَاناً) أي: فهو بنيان عظيم مما يطلق عليه اسم: قصر.

أ ـ ترجمة راوي الحديث (أبي هريرة):

سبقت في الحديث الثالث.

* * *

ب ـ اللُّغة والمعنى المراد:

١ ـ مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنبياءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ:

مَثَل ومِثْل: كلمةُ تَسْوِيَة، يقالُ: هذا مِثْلُهُ، وَمَثَلُه كما يُقَالُ: شِبْهُهُ وشَبَهُه.

ودخولُ الكاف على مثل زائدة للتأكيد، ولتزيين اللَّفظ، فالمراد من (كَمَثل) كالمراد من (مثل).

وتأتي كلمة (مثل) بمعنىٰ الصِّفة لغة، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الرعد: ١٣]:

﴿مَثَلُ الجنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُوْنَ: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُها دَائِمٌ وظِلُّهـا. . (٣٥)﴾.

أي: صفة الجنة، أو وصفها: تجري. . .

وعلى هذا فلا لزوم لاعتبار الكاف في (كمثل) زائدة للتأكيد، إذْ يكون المعنى (كصفة) أو (كوصف) وهو الذي أرى المصير إليه في تفسير ما جاء

في القرآن والحديث من ذلك، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كوصفه شيء.

٢ ـ «فَأَحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ»:

أي: فجعله حسَنَ الْبناء قَوِيّاً مُلاَئِماً لمصالح من بُني لهم، مُتْقناً محكماً، وكلُّ هذه المعاني داخلَةٌ في معنى الإحسان.

وجَعَلَهُ أيْضاً جميلاً، لأنَّ الجمال أحَدُ المقاصد الأساسية في الأبنية بعد إحسانها بالإتقان والإحكام والتقوية والملاءمة للمصالح.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ دين الله للنَّاس، المنزَّلَ على كلّ النبيِّين، والذي أكمله الله بما أنزل على خاتمهم محمد ﷺ، دين يشتمل على صفتين أساسيتين هما:

١ ـ الحسن في مطابقة الحقّ والعدل والكمال وملاءمة مصالح الناس ومعايشهم.

٢ ـ الجمال في كلٍّ عنصر منه، إذْ يزيد في الترغيب فيه أن يكون جميلاً، تميل إليه النفوس السويَّة، والأذواق الجمالية الرفيعة.

والذي دعا إلى هذا الفهم هو أنَّ البنيان الذي أحسنه وأجمله بانيه، قد جيء به مثلاً لِمَا بعث الله به الأنبياء للناس.

أي: مثل إرسال الله لي بالرسالة التي بعثني بها، ومثلُ إرساله الأنبياء الذين جاءوا قبلي، منذ عهد آدم حتى عيسى عليهم السلام، برسالاتهم التي بَعثَهُم الله بها إلى أقوامهم كمثلِ رجلٍ بَنَىٰ بُنياناً فأحسنه وأجمله.

٣ ـ «إلاَّ مَوْضِعَ لبِنَةٍ منْ زاويةٍ منْ زَوَاياه»:

اللَّبنة: هي الواحدة ممَّا يُضرب من الطِّين للبناء.

الزاوية: هي من البيت ركْنُه، وجمعها زوايا.

أي: مَثَلُ مَا جاء به الأنبياء قبلي كمثل البناء الحسن الجميل، الذي بقي لإكماله موضعُ لبنة من زاوية من زواياه، فهو يحتاج لبلوغه درجة كماله وضْعَ هذه اللبنة في الفراغ الذي بقي في البناء.

٤ ـ **«فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ويَعْجَبُونَ لَهُ»:**

أي: فجعل الناس يدورون حول هذا البناء الْحَسَنِ الجميل، ويتعَجَّبُونَ من حسنه في إتقانه وتقويته وإحكامه وملاءمته لمصالح ساكِنِيه، ويتعَجَّبُونَ من تزيينه بالزِّينات الجمالية التي جمَّلته للناظرين.

والتعجُّب من الشيء حالةٌ في النفس تَحْدُثُ من أمر يُشْهد على غير المألوف المعتاد، فتنفعل النفس تُجاهه بإعظامٍ وإكبار، أو احتقار وازدراء لفاعله. أَوْ من خَبَرٍ يَتَضَمَّن وقوع أمرٍ غير مألوف ولا معتاد، فتنفعل النفس تجاهه بإعظـامٍ وإكبار، أو احتقار وازدراء لفاعله، في حالة تصديق الخبر.

أو تواجهه بالجحود أو الإنكار في حالة رفض التصديق به، أو تكذيبه.

فيحمل التعجب معنى الإنكار أو الجحـود أحيانـاً، ويحمل معنى الإعظام والإكبار أحياناً، ويحمل معنى الاحتقار والازدراء أحياناً، والأصل فيه انفعال النفس بالاستغراب تجاه أَمْرٍ غير مألوف.

وما ورد في الحديث هنا يحمل معنى الإعظام والإكبار.

يقال لغة: عَجِب من كذا، إذا انفعل منه بالعجب.

ويقال: أعجبَهُ الأَمْرُ، أي: حَمَلَهُ على العَجَبِ منه.

وقد وردت التعدية في طائفة من الأحاديث باللَّام، كمـا في هذا الحديث: «يَعْجَبُون له» وكما في حديث عمر رضي الله عنه يحكي فيه قصة مجيء جبريل بصورة إنسان يسأل الرسول ﷺ مسائل من أصول الدين، وجاء فيه قول عمر: (فعجبنا له يسأله ويصدِّقه) وفي حديث آخر عن رجلين جاءا

إلى النبي ﷺ، فتحدَّثا، قال الراوي: (فعجبنا لبيانهما)[1] ـ وهو في البخاري ـ وعلَّق الرسول على حديثهما بقوله: «إنَّ من البيان لسحراً».

٥ ـ «ويقولون: هَلَّا وُضِعَتْ هذِهِ اللَّبِنَة»:

أي: يرى المعجبون بالبناء مكان النقص الذي في الزاوية، والذي هو على مقدار اللَّبنة، فتندفع نفوسهم إلى طلب التكميل بإلحاحٍ وتحضيض، فيقولون: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبنة، فسدَّتِ النَّقصَ، وتَمَّ بها البناء.

وكلمة (هلَّا) حرْف تحضيض، وهي مركَّبَةٌ من حرفي: (هل) و(لا) في الأصل، ثم اكتسبت بالتركيب معنى التحضيض.

٦ ـ «فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خاتَم النَّبِيِّين»:

أي: فَأَنَا المشبَّهُ باللَّبِنةِ في الْبِنَاء، أَوْ فَمَا جئت به إتماماً لما جاء به الأنبياء من قبلي هو المشبَّهُ باللَّبِنَةِ في البناء.

وقد بنى الرسول ﷺ على التَّشبيه كأنَّه عَيْنُ المشبَّهِ بـه، وفق الأسلوب القرآني في ذلك[2]، فقال: «فأنا اللَّبنة، وأنا خاتم النبيين».

قول الرسول ﷺ «وَأَنَا خاتِمُ النبيين» بفتح التاء وكسرها، كما جاء في قول الله عزَّ وجل في سورة [الأحزاب: ٣٣]:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)﴾.

ففي خاتم قراءتان: إحداهما بفتح التاء وهي قراءة عاصم، والأخرى بكسر التاء وهي قراءةُ باقي القراء عدا عاصماً.

---

(١) فالظاهر أنَّ التعدية باللام استعمال عربي شائع، لكنَّ المعاجم التي تحت يديّ لم تصرِّح بهذه التعدية، أمَّا النحاة فلهم في التعديات توسُّع بحسب مقتضيات المعاني، وشواهده في القرآن والسنة كثيرة.

(٢) انظر خصائص الأمثال القرآنية، الفقرة الخامسة منه وهي (البناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثَّل له» في كتاب «الأمثال القرآنية» للمؤلف.

أمَّا خاتِمٌ بكسر التاء فهو بمعنى آخرِ الأمر ونهايته، فخاتِم كلِّ شيءٍ وخَاتِمتُهُ: عَاقِبَتُهُ وآخِرهُ.

وأمَّا خاتَم بفتح التاء فهو من الخاتَم الذي يوضع على الطين أو الشمع الذي تُخْتَم به الكتب بعد الانتهاء منها، لإرسالها إلى من كُتبت لَهُمْ، وهو على هذا يُعْطِي معنى انتهاء رسالات الله للناس بمحمَّد ﷺ.

فإذا جمعنا دلالَتي القراءتين كان المراد يتضمَّن أنَّ رسول الله ﷺ هو آخر النبيين جميعاً، وأنَّ بعثته قد كانت خَتْماً وخاتَماً خُتِمت به رسالات الله للناس، فلا رسالة بعد رسالته، وذلك لأنَّ الكتاب أو الرسالة متى حصل الفراغ منها نهائيّاً خُتِمَ عليها، أو طُبِع عليها بختم الطين أو بطابع الطين، كما كان يفعل الملوك بالكتب والرسائل التي يبعثون بها.

أي: فأنا الذي تمَّ بي بناءُ دين الله للناس، وأنَا الذي خُتِمَتْ بي الرسالات الرَّبانية، فلا نبيّ بعدي.

وإذا انتهت النُبُوَّة فقد انتهت الرِّسالة، لأنَّ كلّ رسولٍ نبيّ، فكلَّما أرسلَ الله رسولاً برسالة فلا بُدَّ أَنْ يكونَ قَدْ جعله قبل ذلك نبيّاً، أي: أوحى إليه ونبَّأه، واصطفاهُ بالنبوَّة.

وبختم النبوّات بمحمَّد ﷺ خُتِمَتِ الرسالاتُ لزوماً.

جـ ـ الشرح العامّ:

الربّ الخالق واحدٌ جلَّ وعلا، ودينه للناس واحد، لأنَّ الحقائق الأزلية الأبديَّة واحدة، ومن ضمنها بعض ما يكلَّفُ الناس الإيمان به كالإيمان بالله وصفاته، ولأنَّ المقرَّرات التكوينية المستندة إلى علم الله وحكمته لا تبديل فيها، وهي حقائق وجودية، ومن ضمنها بعض ما يُكلَّفُ الناسُ الإيمان به، كالإيمان باليوم الآخر، والحساب والجزاء فيه، ومسؤولية الإنسان في الحياة الدنيا، وكالإيمان بالملائكة والكتب والأنبياء والمرسلين، وهذه لا تبديل فيها ولا تعديل، فلا تختلف بين رسالة ربَّانية ورسالة ربَّانية أخرى.

وفطرة الناس التي فطرهم الله عليها ذات خصائص هي واحدةٌ في أصولها العامَّة مُنْذ خَلْقِ آدم، حتى آخِرِ جيلٍ من ذرّيته. والغايةُ من خلقهم امتحانُهم في ظروف الحياة الدنيا، لمحاسبتهم ومجازاتهم يوم الدين على تصرُّفاتهم الإرادية، الداخلية والخارجية.

ومقتضيَات الحكمة في امتحانهم متماثلة في أصولها العامَّة، فلا بُدَّ أن تَتَّحِد أصول ما يجري به امتحانهم، بمقتضى علم الله وحكمته.

فامتحان الناس لا بدَّ أن يتناول الأعمال الإرادية الداخلية، كأعمال القلوب الإرادية، وأعمال النفوس الإرادية، التي منها: (الإيمان والتصديق ـ المحبَّة الإرادية ـ الكراهية الإرادية ـ الرضى ـ السخط ـ القناعة ـ الطمع ـ الحسد وكفّ النفس عنه ـ إرادة المعصية ـ إرادة الطاعة ـ الكبر ـ العجب بالنفس ـ الخضوع لله ـ الاعتراف الداخليّ بالحقِّ لأهله ـ إلى سائر ما يملكه الإنسان بإرادته ولو عن طريق التدريب النفسيِّ طويل الأمد من الأعمال الداخلية القلبيَّة والنفسيَّة).

وامتحان الناس بحسب ما فطرهم الله عليه من إرادة حرَّة لا بدَّ أن يتناول الأعمال الإرادية الظاهرة، التي منها كسب المال بالأعمال، ومنها أكل المآكل وشرب المشارب، ومنها ممارسة الشهوات، وتلبية مطالب النفس المختلفة، ومنها الأعمال التعبُّدية، ومنها الأعمال التي تتعلق بالتعامل مع الناس والأحياء والأشياء، وكلّ ما يتعلَّق بأداء الحقوق والوجبات، وتركِ المضارّ والمحرَّمات.

ولمَّا كانت شرائع الله القائمة على أسس الحقِّ والعدل والإحسان هي من مظاهر حكمته التي لا تفارق كلماته التكوينية والتشريعية.

وكانت أسس الحقِّ والعدل والإحسان واحدة.

وكان الناس الذين تطبَّق عليهم يخضعون لفطرة كليَّة واحدة، وظروف معاشية متشابهة.

كان من مقتضى حكمة الله أن لا تختلف في دين الله هذه الشرائع.

ولمّا كانت الغاية من الأحكام التعبدية امتحان الطاعة دون اشتراط فهم الحكمة الخاصة المقصودة من العمل، كان التغيير في بعض الأحكام التعبّدية من رسالة لأخرى أمراً لا يُؤثِّر على وحدة دينِ الله للناس. كما لم يؤثر هذا التغيير والتبديل على وحدة الدين، حين يجريه الله في رسالة الرسولِ الواحد، كالنسخ في بعض الأحكام التشريعية التعبُّدية الذي أجراه الله في الرِّسالة الخاتمة التي أرسل الله بها خاتم رسله محمَّداً ﷺ، فمن حِكَمِ إجرائه إعلام الناس وإقناعهم بأنَّ مثل هذا النسخ كما لم يؤثر على وحدة الدين المنزَّل على محمَّد، فإنَّه لَا يُؤثِّر على وحدة الدين كلّه الذي أنزله الله على رسُلِهِ جميعاً، منذ آدم عليه السلام حتى خاتمة الرسالات الرَّبَانية، والذي قال الله بشأنه: ﴿إنَّ الدين عند الله الإسلام﴾.

فالإسلام هو دين الله للناس جميعاً، وهو الدين الذي أنزله على كلّ الأنبياء والمرسلين، والتغييرات في بعض الأحكام التعبّديّة من رسالةٍ لأخرى مسايرةً لواقع حال التكامل البشري، ليس من شأنها أن تؤثِّر على وحدة الدين الربَّانيّ للناس، فتجعلها أدياناً مختلفة، إذْ شأن هذه التغييرات الجزئية القليلة كشأن التغييرات التي أحدثَها الله في الرسالة الخاتمة، وهي رسالة واحدة بلا شبهة، فرسولها واحد، وقرآنها واحد.

إنَّ التطوُّر البشري من أعداد قليلة ذات علاقات اجتماعيَّة محدودة، وثقافَاتٍ كونيَّة يسيرة، إلى أعداد كثيرة وعلاقات اجتماعية متشابكة جدًّاً، يقتضي أن يكون ما ينزّل للناس أوّلاً من أحكام وشرائع يتناسب وواقعهم من حيثُ الكمّ والكيف وقدراتِ الفهم والتنفيذ، وبه يتمُّ امتحانهم كاملاً.

وكلَّما ارتقوا درجة في سلّم العِلاقات الاجتماعية، وسلّم الحضارة الإنسانية اقتضت الحكمة زيادة ما ينزّل لهم من شرائع تضبط تصرُّفاتهم، وتنظم علاقاتهم على أسس الحق والعدل والخيْر والإحسان، وما ينزّل لهم من أحكام ووصايا وبيانات تناسب التطوُّر الارتقائي الذي بلغوه.

وهكذا دواليك حتى يكمل لهم الدين.

يضاف إلى ما سبق أنَّ صِلاتِ بعضِ الشعوب ببعضٍ في القرون الخوالي كانت صِلاتٍ لا تسمح بأن يكفيَها مبلّغ واحدٌ عن الله، نظراً إلى تباعد مواطنهم واختلاف ألسنتهم ولغاتهم، فاقتضت الحكمة إرسال رُسُلٍ متعدِّدين ولو في وقت واحد، لشعوب مختلفة، وأن يكون الرسول للقوم منهم، ويخاطبهم بلسانهم، لكنَّ الدين الذي يحمله كلّ رسولٍ من هؤلاءِ الرسل لقومه، هو الدين نفسه الذي يحمله سائر الرسل، مع احتمال وجود الفارق اليسير في القضايا التعبُّدية التي يراعي الله فيها واقع حال الأمَّةِ التي يَبعَثُ إليها الرسول منها.

وسار التكامل البشريّ في سُلَّم النُّضْج الاجتماعي والثقافي، واقتضت حكمة الرَّبِّ الخالق عزَّ وجلَّ في تنزيل شرائعه للناس، أن يُنَزِّلها وفق سنَّة التكامل التي تناسب واقع حال التكامل البشري.

فكان الله عزَّ وجلَّ يبعث رسُله اللاحقين بأسس ما بعث به رسُله السابقين نفسها، مضافاً إليها ما اقتضته حكمة تكميل بناء الدين، مع ملاحظة أنَّ التغييرات في بعض الشرائع التعبُّديَّة أمور جانبيَّة لا تؤثِّر مطلقاً في وحدة الدين وتكامله، لأنَّها كما ظهر لنا قد تحدث في الرسالة الواحدة، إذ الغاية الأصلية منها امتحان الطاعة فقط، دون ربط التكليف بمصلحة المكلّف منه، إلَّا حكمة امتحان طاعته لربِّه، فيما يأمره به، وفيما ينهاه عنه، أو حكمة تطوُّر المجتمع البشري بسبب كثرة أعدادهم وعلاقاتهم، وموافقة مصالح الناس فيها فضلٌ من الله عليهم.

ولمَّا بلغت البشرية أوائل مرحلة النضج، وغدت مستعدَّةً بحسب تكوينها الفكري والاجتماعي، لأنْ تُنَزَّل عليها رسالةٌ واحدةٌ يُكمَّلُ بها بناءُ الدين الواحد، الذي هو عند الله عزَّ وجلَّ الإسلامُ لا غير، بَعَثَ الله رَسُولَهُ محمَّداً خَاتم المرسلين، وخاتم النبيين، وأكمل بما أنزل عليه الدين كلَّه،

وهو الدين الذي جاء به الرسُل الأوَّلون، والذي كان اللاحقُ منهم يُنزِّلُ الله عليه منه ما سبق أن أنزله على من جاء قبله، مع إضافة مرحلة من مراحل التكميل التي يقتضيها واقع حال أُمَّته المبعوث رسولاً إليها.

فرسالة الرسول محمد ﷺ هي الرسالة التي حملت آخِر لَبِنَةٍ من لبنات بناء دين الله للناس، فكمل به بناء الدين، وخُتِمت به رسالات الله للناس أجمعين.

وأصبح بناء الدين مستوفياً كلّ عناصره، فلا نقص في أيّ ركنٍ من أركانه، ولا في أيّة زاوية من زواياه، والحمد لله الذي هدانَا إليه، وما كُنَّا لنهتديَ لولا أن هدانا الله.

هذه المفاهيم الثَّرّة ذاتُ الدلالات العظيمة الواسعة، قد دلَّ عليها قول الرسول ﷺ في المثل الموجز الذي ضربه في الحديث:

«مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَاناً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيةٍ مِنْ زَوايَاهُ. فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفونَ بِهِ ويَعْجَبُونَ لَهُ، ويقولون: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِه اللَّبِنَةُ! فأَنَا اللَّبِنَةُ، وأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ».

لقد وصف الرسول هذا البناء بأنَّ بانيه قد أحسنه وأجمله، أي: إنَّ دين الله للناس الذي جاء به الأنبياء متعاقبين متتابعين متكاملين دين مستوفٍ لكلِّ ما يطلب فيه من حُسْنٍ وجمال.

وذلك لأنه يشتمل على الحق، والحقُّ أحسن ما يُقصد في قضايا المفاهيم والعقائد، والمعارف الكبرى.

ويشتمل على العدل، والعدلُ أحسن ما يقضى به بين الناس.

ويشتمل على أكمل الأخلاق والآداب وأنواع السلوك الفردي والاجتماعي، وهي أجمل ما يزدان به سلوك الناس.

ويشتمل على ألوان من العبادات لله عزَّ وجل، هي أحسن ما يشرع

للناس من تكاليف تعبُّديَّةٍ مقرونةٍ باليُسْر ورفع الحرج، مع ما فيها من مصالح للناس في حياتهم وأجسامهم ونفوسهم وقلوبهم وأفكارهم.

وقد بلغ من تواضع الرسول ﷺ أن مثّل نفسه بين الأنبياء في مثل بناء الدين بلبنةٍ، وقصدُه ما جاء به من عناصر مُكَمِّلة، لبناء الدين. ولم يُمَثِّلْ نفسه وما جاء به بتاجِ البناء، أو بالركن الأعظم فيه، أو بقبَّته أو برجه. بل أبان صلوات الله عليه أنَّ الدين الرَّباني للناس كان قد قارب الكمال فيما جاء به الرُّسل السابقون، ولم يبق إلَّا مكانُ لبنةٍ في زاوية من زواياه، ثمَّ قال: «فأنا اللَّبنة، وأنا خاتم النبيين».

وظهرت روعة المثل في إيجازه، وفي وضعه بصورة بناءٍ حسّي، وفي دلالة هذا البناء الممثَّل به على معاني وحدة الدين في الرسالات الرَّبَّانية، وتكاملها في مراحل متدرجة صاعدة، على الأسس والقواعد العامة نفسها، دون تغيير فيها، وعلى أنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام هم بمثابة الإخوة في بناء البيت الواحد.

وهذا المعنى قد جاء مصرّحاً به في حديث آخر من صحاح الأحاديث.

روى البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِعِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ فِي الْأُولَىٰ وَالآخِرَةِ، الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، وأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ، وَدِينُهُمْ واحد، وَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيّ».

أي: ليس بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام نبيّ.

إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّات: أي من ضَرَّات. بنو الْعَلَّاتِ: هم بنو أمَّهاتٍ شَتَّىٰ من رجُلٍ واحد.

عَلَّات: بفتح العين جمعُ عَلَّة. والعَلَّةُ: هي الضَّرَّة للمرأة. قال ابن بريّ: وإنَّما سُمِّيَتْ عَلَّة لأنَّها تُعَلُّ بعدَ صَاحبتها. أي: يستمتع بها الزوج بعد أن استمتع بالزوجة السابقة، مأخوذٌ من الْعَلَل، وهو الشربَةُ الثَّانية، أمَّا الشربةُ

الأولى فهي نَهَل. ولذلك يقولون عن الشرب ثانياً بعد الشرب أولاً: عَلَلٌ بَعْدَ نَهَل.

د ـ ممّا يستفاد من الحديث:

يستفاد من هذا الحديث فوائد كثيرة منها ما يلي:

١ ـ وحدة دين الله للناس الذي أنزله على جميع الأنبياء والمرسلين، إذْ جعل الرسول ﷺ مَثَلَ هذا الدين كمثل البناء الواحد.

٢ ـ شرائع الدين وأحكامه التفصيليَّة لتنظيم حياة الناس لم تنزل دُفعة واحدة، وإنَّما جاءَت متدرِّجة بحسب حاجة الأمم إليها، في تطوُّر علاقاتهم، وتكاثر جماعاتهم، وتكامل ارتقائهم الفكري والحضاري.

فما جاء به كلّ رسول لاحق قد كان تأكيداً للأسس التي سبق بيانها في الرسالات السابقة، وتكميلاً في الأحكام والشرائع والوصايا والأخلاق والآداب. أو تعديلاً لبعض الأحكام والتكاليف التي لها طبيعة الأحكام المرحليَّة، والتكاليف المرحليَّة.

٣ ـ لا يؤثر على وحدة دين الله للناس وجود بعض التغييرات في الأحكام الفرعية التشريعية، لأنَّ مثل هذا التغيير الذي يُسَمَّىٰ نسْخاً في الأحكام يحدث أيضاً بموجب حكمة الله في الرسالة الواحدة، المنزّلة على الرسول الواحد، كما حصل في الرسالة الخاتمة.

٤ ـ الأنبياء إخوة، قد تعاونُوا جميعاً في بناء دين الله للناس، وكانوا جميعاً بمثابة لَبِنَاتٍ في هذا البناء الدِّينيّ الشّامخ، فأتباعهم الصادقون أمَّة واحدة في مواكب متلاحقة، منذ آدم عليه السلام، حتى خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

٥ ـ كلّ من يُمْعِن النظر في دين الله للناس من خلال الرِّسالة الخاتمة لا بدَّ أن يتملَّكه العجب من حسن هذا الدين وكماله، وإعجازه وجماله.

٦ ـ البناء الدينيّ الذي اصطفاه الله للناس، وأنزله على رسله وفق سنَّة التكامل بناء مشتمل على صفتين هما:

أ ـ الحُسْنُ.

ب ـ والجمال.

- فالْحُسْن في إتقانه وتقويته وملاءمته لمصالح الناس.
- والجمال في تزيينه وتحبيبه للنفوس والقلوب.

٧ ـ تواضع الرسول محمد ﷺ، إذْ مثّل نفسه بين الأنبياء بلَبِنَةٍ من لبنات بناء الدين في زاوية من زواياه.

أي: وسائر الأنبياء كذلك هم لَبِنَات في هذا البناء الشامخ، كلٌّ بحسبه.

ولمَّا كان الرسول مثالاً للدين في أقواله وأعماله وتقريراته وأخلاقه حسُن أن يُعَبَّر به عن الدين على سبيل المجاز.

٨ ـ التوجيه الديني لاستخدام ضرب الأمثال في الدعوة إلى الله.

البَلاغة وَالإعـرَاب

أوَّلًا: من وجوه البلاغة والصور البيانية

في هذا الحديث وجوه بلاغية بيانيَّة متعدِّدة، منها ما يلي:

١ ـ الأسلوب المختار في هذا الحديث هو أسلوب ضرب المثل، لمَا في ضرب المثل من الاختصار والإيجاز الكلامي، مع اشتماله على معانٍ غزيرة ثَرَّة.

فالتمثيل بالبنيان يضع المخاطب بكلمة واحدة أمام بنيان شامخ، إذا تأمّل فيه تشعَّبت أمامه تفصيلات المعاني بقدر ما في البنيان من عناصر وأجزاء، من أساسه إلى قواعده وأركانه، إلى أبوابه ونوافذه وجدرانه، إلى سقفه وقبابه وأبراجه، إلى زينته وزخارفه ومقرنصاته ومدلَّياته، إلى فُرُشه وأثاثه، إلى المصالح والمنافع والاستمتاعات التي يقضيها فيه سُكّانه، وهكذا إلى سائر ما فيه.

٢ ـ المثل في هذا الحديث هو من قبيل تشبيه التمثيل، لأنَّه قائم على تشبيه صورة متعدِّدة الأجزاء والعناصر بصورة أخرى متعدِّدة الأجزاء والعناصر.

وهو من تشبيه أمور معنوية بأمور حسيَّة.

٣ ـ في الحديث مجاز مرسل، لأنَّ الرسول ﷺ قال فيه: «مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي» والمراد مثل رسالتي ومثل رسالة الأنبياء من قبلي.

وهذا المجاز:

● إمَّا هو من قبيل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

وإمَّا هو من قبيل تنزيل الرسول منزلة رسالته، لأنَّه يمثِّلها تمثيلاً كاملاً في أقواله وأعماله وأخلاقه وتقريراته وسائر تصرُّفاته.

ونظيره قوله: «فأنا اللَّبنة» أي: فما أضافته رسالتي على الرسالات السابقة هو بمثابة اللَّبنة المذكورة.

وكذلك: «هلَّا وُضعتْ هذه اللَّبنة» أي: هلَّا مُلِىء هذا الفراغ بلبنةٍ ملائمة.

٤ ـ الفاء في «فأَحْسَنَهُ» الدَّالة على الترتيب مع التعقيب، ويندرج في حكمها: «وَأَجْمَلَهُ» بمقتضى العطف، تفيد أنَّ كلَّ عُنْصر من عناصر الدين قد بُنِي بإحسان منذ وضعه في بناء الدين، ولم يخضع لتجارب الخطأ والصواب، حتى بلغ درجة الإحسان.

ثانياً: من الإعراب

١ ـ (مثلي) مبتدأ، وياء المتكلِّم مضاف إليه. (كمثل) خبر، مجرور لفظاً مرفوع محلاً، إذا اعتبرنا الكاف زائدة، أو الجار والمجرور متعلقان بخبر محذوف.

٢ ـ (إلَّا موضع) استثناء من عموم ضمير (فأحسنه) أي: إلَّا موضع هذه اللَّبنة منه لم يكمل بناؤها.

٣ ـ جملة (يطوفون به) مفعول به لـ (جعل).

(هلَّا) حرف تحضيض.

* * *

الحديث السادس عشر

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

● «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

● ومَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

● وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ الله في الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

● والله في عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.

● وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَىٰ الْجَنَّةِ.

● وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ.

● وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

رواه الإمام مسلم

عن مشكاة المصابيح رقم الحديث ٢٠٤

أ ـ ترجمة راوي الحديث (أبو هريرة):

سبقت في الحديث الثالث.

* * *

ب ـ اللُّغةُ والمعنى المراد:

١ ـ «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَب الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَة».

نَفَّسَ: أي: فَرَّج، فالتنفيس التفريج. وأصله من النَّفَس، وهو مثل النسيم، ويطلق النَّفَس على خروج النَّسيم من الصدر ودخوله إليه عن طريق الأنف والفم.

ولمَّا كان حَبْسُ النسيم في الصدر أو حبْسُه عن الصدر يحدث ضيق الاختناق، وهو من الكرب، كان التنفيس تفريجاً لهذا الكرب.

والتنفيس هذا له صورتان:

الأولى: صورة التوسعة على المتنفّس وتوسيع مجال الريح له، حتَّى يأخذ النَّسيم النظيف، فينشرح صدره، ويمتصَّ حاجته من الأكسجين الذي فيه.

الثانية: صورة إخراج النَّسيم من الصدر، بعد أن احترق الأكسجين

الذي فيه، وارتفعت فيه نسبة ثاني أكسيد الكربون، وصار بقاؤه خانقاً ومُحْدِثاً للكرب.

ولذلك جاء التنفيس في الاستعمالات العربية بمعنى التوسعة، وبمعنى التفريج.

● فمن التوسعة قولهم، أَنتَ في نَفَسٍ من أمرك، أي: في سَعَةٍ. وقولهم: اعمل وأنت في نَفَسٍ من أمرك. أي: وأنت في فُسْحةٍ وسَعَةٍ من أمرك قبل الهرم. وقولهم: دارُكَ أنْفَس من داري، أي: أوسع. وهذا الثوب أنفس من هذا، أي: أوسع، أطول أو أعرض. وقولهم: تَنَفَّس النهر، أي: امتدَّ وزاد ماؤه.

وفسَّروا قول الله عزَّ وجل: ﴿والصُّبْحِ إذا تَنَفَّس﴾ بأنّه اتَّسع وتَبَلَّج وامْتَدَّ، وارْتَفَعَ النَّهار.

● ومن التفريج قولهم: «اللَّهُمَّ نَفِّسْ عَنِّي» أي: فرِّج عني، ومنه ما جاء في الحديث النبوي الذي نتفهَّمه.

كُرْبة: الكُرْبَةُ والْكَرْبُ الْحُزْنُ والغَمُّ الذي يأخذ بالنَّفْس وجمع الكَرْب: كُروب.

يقالُ: كرَبَهَ الغمُّ يكْرُبُه فاكْتَرَبَ كَرْباً، أي: اشْتَدَّ عليه، فهو مَكْرُوبٌ وَكَرِيب. ويقال: اكْتَرَبَ لذلك، أي: اغْتَمَّ. والكرائِب الشدائد، واحدها كَرِيبَة.

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أتاه الوحي كُرِبَ له، أي: بسبب الثقل الذي يُحْدِثُه نزولُ الملَكِ عليه، وما يضغط به على صدره.

وأصل الكَرْب التضييق، يُقالُ: قَيْدٌ مكروب، أي: مُضيَّق تقول: كَرَبْتُ القيدَ إذا ضيَّقتَه على المقيَّدِ به.

وقد تضمَّنتْ هذه الجملة الشرطية: «من نفَّس عن مؤمن كُربَةً من كُرَبِ الدنيا نفس الله عنه كُرْبَةً من كُربِ يومِ القيامة» بيان جُزْئِيَّةٍ من جُزئيَّاتِ سنة

الله في الجزاء، وهي: «أنَّ الجزاء من جنس العمل».

فمن نفَّس عن مؤمن كُربةً من كُرب الدنيا أثابه الله على ذلك يوم القيامة في موقف الحساب، فَنَفَّس عنه كُرْبَةً من كُرَب هَوْل ذلك اليوم، وكُرَبُ ذلك اليوم كُرَبٌ عظيمة.

وهذا التنفيس الذي يكون يوم القيامة أمرٌ غير دخول الجنة، وغير الظفر بنعيم عظيم فيها، إنَّه تَنْفِيس من كُرب ذلك اليوم قبل سَوْق أهل الجنة إلى الجنة، وسَوْق أهل النار إلى النار.

وجاء في رواية أخرى عند البخاري عن عبدالله بن عمر أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «ومَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّج الله عَنْهُ بِها كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ الْقِيَامَة».

٢ - «وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عَلَيْهِ في الدُّنْيَا والآخِرَة»:

يَسَّرَ: أي: سهَّل وهوَّن ولَيَّن، ولم يأخذ بأشدّ الأمرين وأصعبهما، واليُسْر ضِدُّ الْعُسر.

مُعْسِر: أي: فقير. تقول لغة: أعْسَرَ الرجل: أي افتقر.

والتيسير على الفقير يكون بعدّة أمور: منها مساعدته في حاجات حياته وحياة أسرته. ومنها انتظاره إذا كان مديناً إلى وقت يَساره، ومنها مسامحته بما عليه من دين كلِّه أو بعضه.

وفي التيسير على المعسر وردت أحاديث نبويَّةٌ متعدِّدة غير هذا الحديث، منها ما يلي:

عن أبي هريرة أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«كانَ رجلٌ يُدَايِنُ الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيتَ مُعْسِراً تَجاوَزْ عَنْهُ، لعلَّ الله أن يتجاوز عنَّا. فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ».

رواه البخاري ومسلم.

عن مشكاة المصابيح رقم ٢٩٠١

وعن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيهُ الله مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ».

رواه مسلم.

وعن أبي قتادةَ أيضاً قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول:

مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَنْجَاهُ الله من كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

رواه مسلم.

وَعَنْ أبي الْيَسَرِ قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يقول:

«مَن أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ الله في ظِلِّهِ».

رواه مسلم

٣ ـ «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ الله فِي الدُّنْيا والآخِرَة».

المرادُ من ستر المسلم سَتْر قبائحه وعُيُوبِه ومعاصيه إذا كان لَا يُجَاهر بها.

إنَّ الله عزَّ وجلَّ يُحبُّ السَّتر، ولا يُحبُّ إشَاعَةَ القبائح والعيوب والمعاصي التي يتستر بها أصحابها ولو كانت من الفواحش وكبائر الإثم، لأنَّ هتْكَ أسرار الناس في فواحشهم من المساهمة في إشاعة الفاحشة بين المؤمنين.

ما لم تكن هذه المعاصي تتعلَّق بحقوق الناس كالسرقة والقتل، أو بأمر يُضرّ بالمسلمين بشكل عامّ، أو بمصالح الدولة الإسلامية، ككبيرة الخيانة مع الأعداء، فإبلاغ مثل ذلك للقضاء أو لرجال الإدارة والحكم حقٌّ على من شهده، ولكن دون تشهير بين الناس.

ومع السَّتر المطلوب في المعاصي الخاصة يجب على المسلم أن يُوَجِّه النصيحة والأمْرَ بالمعروف والنَّهيَ عَنِ المنكر لفاعليها سرًّا لا جهراً، أو

تعريضاً لا تصريحاً، أو بصفة عامَّة لا بتوجيه علني خاص، كما كان يفعل الرسول ﷺ، فيقول: «ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا وكذا».

أمَّا المجاهرة بالنصيحة بتوجيهٍ مقصودٍ يُفْهم منه العصاة المذنبون، فهو أسلوب من أساليب هتك الستر عنهم، وفضحهم بين الناس.

على أنَّ كلَّ بني آدم خطَّاؤون، فمن سَتَرَ أخاه المسلم فيما شهد من خطاياه، كافأه الله بجزاء من جنسِ عمله، فَسَتَره الله، ولم يكشفْ أَخْطاءَهُ ومعاصيَه للناس، في الدنيا والآخرة.

أمَّا مَنْ سَعَىٰ في هتْكِ سِتْرِ إخوانه المسلمين، فإنَّ الله يفضح ما يَسْتُرُه من معاصيه، ويَهْتِكُ عنه أستاره، مهما اسْتَخفىٰ بها، فالجزاءُ أيضاً من جنس العمل.

وإذا كان المطلوب من المسلم أن يَسْتُر أخاه المسلم فلا يفضحه، فالمطلوب من المسلم نفسه أن لا يفضح نفسه، إذا ستره الله، وأن يتوب ويستغفر، عسى الله أن يغفر له.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَىٰ إلَّا المجاهرين، وإنَّ من المجاهرة أنْ يعمل الرجل عَمَلاً بالليل، ثُمَّ يُصْبح وقد سَتَرَه الله، فيقول: يَا فُلانُ، عملتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وكذا، وقَدْ بَاتَ يستُرُهُ رَبُّه، ويُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ الله عَنْهُ».

وفي رواية: «وإنَّ مِنَ الْمَجَانَة» بدل المجاهرة.

الْمَجَانَةُ: هي المجاهرة بالقبائح والفواحش دون مبالات بما يقول الناس من ذمٍّ وتنقيصٍ، ولا تكون الْمَجَانَة إلَّا من المستعلنين بفسوقهم وفجورهم.

تقول لغة: مَجَنَ يَمْجُنُ مُجُوناً وَمَجَانَةً.

٤ ـ «والله فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَان الْعَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ».

في عَوْن العبد: أي: في إعانته. تقول لغة: أعنته إعانة. فالعون اسمُ للمصدر الذي هو الإعانة، لأنَّه لم يرد الفعل ثلاثياً مجرَّداً، فلا يقالُ: (عانَه يَعُونه) وإنَّما يُقالُ: أعانَه يُعِينه إعانَةً.

ويقال لغة: استعنتُهُ واستعنتُ به.

ويردُ (الْعَوْنُ) في اللُّغة بمعنَىٰ الظَّهير المناصر على الأمر، وهو يقال للواحد والاثنين والجمع والمؤنث، فيقال: هو عَوْن، وهم عَوْن، وهما عَوْن، وهي عَوْن، وهُنَّ عَوْن.

والمراد في الحديث هنا المعنى المصدريّ.

والإعانة المطلوبة في الحديث هي الإعانة على تحصيل أمرٍ مأذون به شرعاً، أو تحصيل أمرٍ فيه طاعة لله عزَّ وجل. فهي إمَّا إعانة تدخل في باب التقوىٰ، وإمَّا إعانة تدخل في باب البرِّ. وهذا التقييد مستفاد من قول الله عزَّ وجلّ في سورة [المائدة: ٥]:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ والتَّقْوَىٰ وَلاَ تَعاوَنُوا عَلَىٰ الإِثْمِ والْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا الله. إنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَاب (٢)﴾.

وثوابُ مَنْ يُعِينُ أَخاه المسلم ضِمْن هذا القيد المستفاد من القرآن، أو يُعينُ عَبْداً من عباد الله، أن يكون الله في عونه ما دام في عون أخيه، إذن فمن شغل نفسه في معونة عباد الله وجد الله في عونه دائماً.

وهذه الجزئيّة إحدى جزئيّات سُنَّةِ الله: «الجزاء من جنس العمل».

٥ ـ «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فيه عِلْماً سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقاً إلَىٰ الْجَنَّة»:

سلك طريقاً: أي: مشَىٰ في طريق. يقال لغةً: سَلَكَ المكانَ وَسَلَكَ فِيه سَلْكاً وسُلُوكاً، إذا دخل فيه.

وأصل السَّلْك دخول شَيْء في شيء، كالخيط الذي يدخل في حبَّاتِ الْعِقد.

يلتمس فيه علماً: أي: يطلبُ فيه علماً. وأصل اللَّمْس المسّ باليد، والالتماس التحسُّس المبالَغ فيه للتعرُّف على الشيء، فَحَمَل معنَىٰ الطلب.

والمطلوب من العلم في لسان الشرع هو العلم النافع وفق المفاهيم الدينيَّة الإسلامية.

٦ ـ «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ».

وما اجتمع قوم: كلمة (القوم) تطلق في الغالب على الرجال ومنه قول الشاعر:

وَمَا أَدْرِي وَلَسْتُ إخَالُ أَدْري   أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

ولكن قد تطلق على عموم الرجال والنساء، والمراد هنا ما يشمل الصنفين.

في بيت من بيوت الله: بيوت الله في الأرض هي المساجد، وإضافتها إلى الله على معنى أنَّها مخصَّصة لعبادة الله فيها. أمَّا الملكيَّة فله سبحانه ما في السماوات والأرض.

يتلونَ كتاب الله: أي: القرآن، والتلاوة القراءة، أخذاً من تَلَا الشيءُ الشيءَ إذا تَبِعَهَ، لأنَّ الكلمات المقروءة يتلو بعضها بعضاً، ولأنَّ تلاوة القرآن يجب فيها اتِّباع الرسول ﷺ، واتِّباعُ ما أُثِر وروي عنه فيها، ولأنَّ قارىء القرآن مسؤول عن اتِّباعه في أوامره ونواهيه ووصاياه.

ويتدارسُونه بينهم: التدارس تداول القراءة والسماع، مع المتابعة بالتصويب والتصحيح. أي: يكرِّر آياته وسُوَرَه بعضهم على بعض،

ويتعهَّدون قراءتَها وتلاوتَها وحفظَها، حتَّى يحفظوه فلا يَنْسَوْه.

وهذه الْمُدَارسة من آداب حفظ القرآن وضبطِ تلاوته.

يقال لغة: درسَ الكتاب يدرُسه دَرْساً ودِراسةً، أي: ذَلَّله بكثرة القراءة، حتَّى خفَّ عليه حفظه.

ومنه قولهم: درستُ السورة، أي: حفظتُها.

وتدارسوا القرآن: أي: تشاركوا في دراسته وتعهُّده لحفظه.

وأصل الدرس للشيء معالجتُه مرَّةً بعد مرَّة، لتعفية أثره، أو لترويضه وتذليله وتطويعه.

تقول: درسَتِ الرِّيح آثار الدِّيار، أي: مَحَتْها وعفَتْ عليها، ومعلومٌ أنَّ الريح لا تفعل ذلك بمرَّةٍ واحدة، وإنَّما تفعله بعد أنَّ تمرّ على آثار الدِّيار عدَّة سنين.

وتقول: درَسَ الرجُل النَّاقة يَدْرُسُها دَرْساً، إذا رَاضَها وذلَّلها للرُّكوب.

وتقول: درَسَ الزارع حَصِيد الحنطة أو الشعير أو نحوهما، دِرَاساً، إذا داسَه، وأدار عليه لوحَ الدِّراس، لاستخراج حبّه من سنابِلِه، ولتكسير سُوقِه اليابسة حتَّى تصير تبناً.

إلَّا نزلَتْ عليهمُ السَّكِينة: السكينة: ما تَسْكُنُ به النفوس والقلوب وتطمئنّ، وبذلك يكون الإنسان وقوراً وَدِيعاً، إذْ تعطيه السكينة الوقار والوداعة معاً، فبها ينتهي القلق الذي يُفسد الوقار، ويحصل الأمن النفسيّ الذي يجلب البشر والوداعة.

وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحمة: أي: عَمَّتْهم الرَّحْمةُ، أَوْ أَتَتْهُمُ الرَّحمة. تقول لغة: غَشِيتُ فُلاناً، أي: أتيته.

والغشاء الغطاء المجلِّل. وقالوا: أكمامه تُغَشِّي أنامله، أي: تسترها.

ومادَّة «غَشِي» تدور حول معنى التغطية العامة والستر، سُمِّيت القيامةُ غاشيةً، لأنَّها تجلِّل الخلْق جميعاً فتعمُّهم.

وحفّتهم الملائكة: أي: أحاطت بهم ملائكة الرحمة والإيناس. وكلُّ محيطٍ بشيءٍ مستدير عليه جامع لكلِّ جوانبه، فهو حافٌّ به، وهو حافٌّ حوله، مأخوذ من حافَّةِ الشيء وهي طرفُه، وجمعُها حَفَافي، وحافَّات.

ومنه وصف الله عزَّ وجلَّ الملائكة يوم الدين إذْ سيق الذين كفروا إلى جهنَّم زمراً، وسيق الذين اتقوا ربَّهم إلى الجنة زمراً، بأنَّهم يكونون حَافِّين من حول العرش، قال تعالى في آخر سورة [الزمر: ٣٩]:

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالْحَقِّ، وَقِيلَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾.

فقول الرسول ﷺ في الحديث بشأن الذين يتدارسون القرآن: «وحفَّتهم الملائكة» جاء له مزيد توضيح في حديث رواه البخاريّ عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُق يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْر، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمَاً يَذْكُرُونَ الله تَنَادَوْا هَلُمُّوا إلى حَاجَتِكُمْ فَيَحُفُّونَهُمْ بأَجْنحتِهِمْ إلَى السَّمَاءِ الدُّنيا. . .» من حديث طويل.

وهذا التكريم للذين يتدارسون القرآن ويذكرون الله عزَّ وجل، بأن تَحُفَّهُمُ الملائكة بأجنحتها، بسبب أنَّهم بعملهم الصالح المبارك صاروا محلَّ عناية الرحمٰن وكِلاَءَته، وإمداده لهم برحماته.

والملائكة إذْ تحفُّ بهم تكريماً لهم، تستغفر لهم، وتُصَلِّي عليهم.

وذكرهم الله فيمن عنده: أي: كافَأَهُمُ الله على ذكرهم له في تدارُس كتابه، بأنْ يذكرهم في ملأٍ عظيم من ملائكته، وقد جاء تفصيل لهذا في حديث قدسيّ صحيح.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«يقولُ الله تعالى: أَنَـا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وَأَنَا مَعَهُ إذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نفسي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُـمْ».

وثَمَرَةُ ذكر الله لهم فيمن عنده من ملائكة كرام ذوي مكانةٍ عَلِيَّةٍ أمران:

الأول: تكريمهم وتمجيدهم.

الثاني: إطلاق ألسنتهم بالثناء عليهم والدعاء لهم بالرحمة والغفران.

٧ ـ «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

بطّأ به عملُه: أي: أَخَّرَه عملُه الضعيف الذي يتباطأ به، فجعله من المقصرين في الأعمال الصالحات، عن الساعين المتقدمين إلى الدرجات الرفيعة من التقوى، فإلى درجات البرّ، فإلى درجات الإحسان.

لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُه: أي: لم يُغْنه انتسابه إلى الأبرار والمحسنين، حتَّى يدفع به إلى درجات السابقين، ولو كان نسبه يصِلُهُ بالنَّبيّ ﷺ.

وهذا لأنَّ درجات السبق إنَّما تُكْتسبُ بالأعمـال لا بالأنْسـاب، إذ الأعمالُ هي المكتَسباتُ الإرادية في دار الامتحان، أمَّا الأنساب فهي أمورٌ غير إرادية، ولا اختيار فيها، لذلك لا تكون مستَحِقَّةً للجزاءِ بالثواب أو بالعقاب.

وقد صحَّ أنَّ الرسول ﷺ نادى الأقربين من عشيرته فقال لهم تعميماً وتخصيصاً:

«اعْمَلُوا لأَنْفُسِكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ من الله شَيْئاً».

وهذا لا يتعارض مع ما ثبت من مكافأة السابقين بإلحاق أزواجهم وذرّيّاتهم وآبائهم بهم في منازلهم، لما في ذلك من إسعادٍ لنفوسهم، كما

سيأتي تفصيله في الشرح العامّ إن شاء الله.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

الجزاء من جنس العمل: قاعدة من كبريات قواعد قانون الجـزاء الرَّبَّاني، الذي يعتمد على مبدأي العدل والفضل.

أمَّا السيئة فبمثلها، وأمَّا الحسنة فيضاعف الله الجزاء عليها، إلى عشرة أضعاف في الحدِّ الأدنى، ثمَّ إلى سبعمائة ضعف في المقدار المعدود، ثم إلى ما يشاء الله من فضل في المقدار غير المحدود.

والإيمان بالله وبما كلَّف الناسَ الإيمانَ به جزاؤه الجنة بُؤْرة رحمة الله.

والكفر بالله وبما كلَّف الناسَ الإيمانَ به وحذَّر من الكفر به جزاؤه الطرد من واسع رحمة الله، ومن طُرد من واسع رحمة الله أدركه سخط الله، وبؤرة سخط الله جهنَّم دار العذاب، أعاذَنَا الله منها.

وسبب خلود الكافر في دار سخط الله أنَّه كان كافراً بالله أبداً، فلو أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعله خالداً في الحياة الدنيا لبقي كافراً به أبداً، إذن فهو يستحقُّ أن يخلد في دار سخط الله أبداً، وبذلك تتكافأ المعصية والعقوبة.

ومن مات وهو مؤمن إيماناً مقبولاً، ولو كان من أدنى الحدود المقبولة في الإيمان استحقَّ أن يكافأ عليه بدخول الجنَّة، بعد أن يَنَال جزاءه بالعدل على ذنوبه أو يتفضَّل الله عليه بالمغفرة، فيغفر له ذنوبه كُلَّها أو بعضها.

هذه المفاهيم الأساسية في الجزاء قد دلَّت عليها قواطع النصوص في القرآن والسنة، ومدارك العقول السوية قـد تصلُ إليهـا ولو لم تـرد بها النصوص، وتشهد بأنَّها هي مقتضىٰ الحق والحكمة بعد أن تفهم دلالة النصوص عليها.

١ ـ قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأعراف: ٧]:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ. هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟ (١٤٧)﴾.

٢ ـ وقال الله عزَّ وجلَّ في سورة [القصص: ٢٨]:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا، وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾.

٣ ـ وقال عزَّ وجلَّ في سورة [الأنعام: ٦]:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ إلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لاَ يُظْلَمُوْنَ (١٦٠)﴾.

٤ ـ وَقَالَ عَزَّ وجلَّ في سورة [يونس: ١٠]:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) والَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ (٢٧)﴾.

٥ ـ وقال عزَّ وجَلَّ في سورة [غافر: ٤٠]:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَىٰ إلاَّ مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾.

وهكذا تَكَامَلتِ النُّصوص القرآنيَّة متدرِّجَةً في بَيَانِهَا لقانون الجزاء الرَّبَّانيّ بالعدل وبالفضل، وهي مرتَّبة بحسب تنزيلها:

● إذْ بدأ النصُّ الأول منها ببيان: هل يجزون إلَّا ما كانوا يعملون؟ وفي هذا تقرير مبدأ العدل.

● ثم تضمَّن النصُّ التالي: أنَّ الجزاء على الحسنة خيرٌ منها، أمَّا الذين عملوا السيِّئات فلا يجزون إلَّا ما كانوا يعملون.

وفي هذا تقرير إجمالي لمبدأ الفضل على الحسنة، ولمبدأ العدل على السيئة.

● ثمَّ تضمَّن النصُّ الثالث أنَّ الجزاء على الحسنة يضاعف إلى عشر أمثالها، أمَّا السيئة فبمثلها دون ظلم.

وفي هذا بيان فيه تفصيل لمبدأ الفضل على الحسنة، وفيه جزم بأنَّ المثليَّة على السيئة لا يصاحبها أيّ ظلم لأحد.

● ثمَّ تضمَّن النَّصُّ الرابع: أنَّ للَّذين أحسنوا الحسنَى (وهي الجنة) وزيادة (وهي من رضوان الله الذي يفرغه عليهم) ولا يرهق وجوههم قَتَرٌ ولا ذلَّة (وهذا كناية عن كمال اغتباطهم بسعادتهم، وظفرهم بمقام التكريم والمجد. وأنَّ للَّذين كسبُوا السَّيئاتِ العظمىٰ مُقْترنةً بالكفر فجزاء كلّ سيِّئة منها بمثلها، وترهَقُهم (أي: تغشاهم وتعمُّهم) ذلَّة، وتسودّ وجوههم كآبةً ممَّا يلقون من جزاء بالعدل، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

ففي هذا بيان تفصيليٌّ لدار الجزاء بالفضل مع تفصيل آخر عن حالة النفس ومظهر الوجه، وبيان تفصيلي لدار الجزاء بالعدل وهي النار مع تفصيل آخر عن حالة النفس من الذلَّة، ومظهر الوجه من الكآبة.

● ثمَّ تضمَّن النَّصُّ الخامس تأكيداً لقانون العدل بجانب السيئة، وتفصيلاً في قانون الفضل لم يأت فيما سبق من نصوص، فمن عمل صالحاً سواءٌ أكان ذكراً أو أنثى بشرط أن يكون مؤمناً بما كلَّف الله الإيمان به، دخل الجنَّة دار الجزاء بالفضل ورزقه الله فيها بغير حساب، فانطلقت المضاعفة على الحسنة إلى ما لا حصر له.

* * *

ولمَّا كان ضبط العدل إنما يكون بالقصاص من الجسد أو النفس أو المال، عضواً بعضوٍ مثله، وألماً بألم مثله، ومالاً بمالٍ مثله، وهكذا. . . . كان الجزاء بالعدل يقتضي أن يكون الجزاء مطابقاً للذنب.

بَيْدَ أنَّ المطابقة لا تستقيم في كلّ الذنوب، لذلك كانت الحكمة تقضي بأن يُعدَلَ إلى المماثلة ولكن من جنس العمل. وحين لا يصلح جنس العمل لأن يكون الجزاء منه، فإن الحكمة تقضي بأن يُعدَلَ إلى تقدير قيمة العمل في ميزان ما يسرُّ ويؤلم، وما يُرْضِي ويُسْخط، ونحو ذلك.

ثم يكون الجزاء من المؤلمات بمقدار ما أحدث العمل السَّيِّء من ألم لمن ظُلم به، أو بمقدار ما أحدث من لذَّة ومسرَّة لمن جَنَاهُ واكتسبه، إذا كان الذنب لم يصب أحداً بأذى أو ألم، وإنَّما ظلم فيه المذنب نفسه.

* * *

وضمن قاعدة «**الجزاء من جنس العمل**» أبان الرسول ﷺ في هذا الحديث الذي نتفهَّمه ستَّ قضايا من قضايا العمل الصالح، يجازي الله فيها عباده بصُوَرٍ من الجزاء بالفضل هي من أجناس أعمالهم، مع ما أعدَّ لهم من أجرٍ عظيم في جنَّاتِ النعيم، زائد على مكافأتهم عليها من أجناس أعمالهم.

وهذه القضايا هي من الفضائل العمليَّة الاجتماعية، ومما يكتسب به المؤمن السبق في درجات مرتبة البرّ، أو درجات مرتبة الإحسان، فوق مرتبة كمال التقوى التي يتحقق بها مَنْ فَعَلَ الواجبات وتَرَكَ المحرَّمات، ولو لم يَسْتَزِدْ من فعل الصالحات وأعمال الخير والبرِّ فوق ذلك.

وأتابع هذه القضايا الستَّ بالشرح مستعيناً باسم الله الرحمن الرحيم:

* * *

القضية الأولى:

هي قضيَّة مساعدة المؤمن لأخيه المؤمن بتنفيس كُرْبته إذا وجده في كُربة. وظاهرٌ أنَّ هذه المساعدة، هي من فضائل الأخلاق العملية الاجتماعية، ومن أعمال البرِّ والإحسان.

ولكلِّ كُربة من كُرب الحياة الدُّنيا تنفيس بحسبها.

فالكُرْبَةُ التي سببها الفقر يكون تنفيسها ببذل المال، أو بتيسير السُّبُل

إلى تحصيل ما يحتاج إليه المكروب من مال.

والكُربة التي سببها رغبة الوصول إلى مطلوب مأذون به شرعاً عند ذي سلطان، يكون تنفيسُها بتذليل الصعوبات والعقبات التي تجعل ذا السلطان يحقق للمكروب ذلك المطلوب، كبذل الجاه، والشفاعة الحسنة، أو غير ذلك من وسائل مأذون بها شرعاً.

والكُرْبَةُ التي سببها الرغبة في زواج لم تتيسَّرْ أسبابه، يكون تنفيسها بالمساعدة على بلوغه بالوسائل المأذون بها شرعاً، ما لم يكن المطلوب زواجاً معيّناً، والمصلحة الدينيَّة تقضي بعدم المساعدة فيه لتحقيقه، لأنَّه يجرُّ ولو في الظنِّ الراجح إلى غير ما يرضي الله عزَّ وجلَّ.

والكُرْبَةُ التي سبَبُها الخوفُ من ظالمٍ على النَّفس أو الأهل أو المال، يكون تنفيسها بالمساعدة على تحقيق أسباب الأمن.

وهكذا إلى سائر الكُرَب.

أمَّا الجزاء الرَّبَّاني على تنفيس كُرْبةِ مسلمٍ ابتغاء مرضاة الله، فيتألَّف من نوعين:

النوع الأول: المكافأة بتنفيسٍ من جنسه، وأعظم صور هذه المكافأة يكون يوم القيامة، يوم يقوم الناس من الأجداث لموقف الحساب، إذْ تشتدُّ يومئذٍ الكُرُبات، وتضيق لهول موقف الحساب الطويل الصدور، ويتمنَّى الإنسان يومئذٍ أن يجد لكُرَبِهِ التي تحيط به تنفيساً، فلا يجد إلاَّ ما قدَّم من أعمالٍ صالحات، ومنها أنَّه كان قد نَفَّس في الحياة الدنيا كُرْبَةً أو كُرُبَاتٍ عن إخوانه المؤمنين.

النوع الثاني: المكافأة عليه بنعيم من نعيم الجنة.

وقد دلَّ على هذه القضيَّة الأولى قول الرسول ﷺ في الحديث:

«مَنْ نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَة».

وجاء في حديث عند البخاري وأبي داود والترمذي والنسائي من رواية عبدالله بن عمر، أنَّ النبي ﷺ قال:

«وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ القيامة».

* * *

القضيَّة الثانية:

هي قضية تيسير المسلم على أخيه المسلم الْمُعْسِر.

وظاهر أنَّ هذا التيسير من فضائل الأخلاق العملية الاجتماعية، ومن أعمال البرّ التي يثيب الله عليها في الدنيا والآخرة ثواباً مضاعفاً من جنس العمل.

والتيسير على المعسر يكون بوجوه متعدِّدة:

● منها التيسير على المدين المعسر، بإنظاره إلى وقت يساره، وبتجزئة الأقساط عليه، حتى يؤدِّي ما عليه براحة، أو بالحطّ عنه من الدين الذي عليه ومسامحته فيه، أو بمسامحته بكلِّ الدين الذي عليه، وهذا من أفضل الصدقات الخفية.

● ومنها التيسير على من هو مُلزَم بعمل يعسر عليه القيام به، ويكون التيسير عليه بالتخفيف عنه، أو بمساعدته في العمل، دون محاسبته على ذلك بنقص أجره أو مكافأته أو عطائه.

● ومنها التيسير في المحاسبة على الحقوق، إذا كان من عليه الحقُّ في عُسْرٍ من أمره، ويصعُب عليه تقديم كشف حسابٍ دقيق.

● ومنها تيسير الموظف على أصحاب المصالح بالشكليَّات الورقية التي يَعْسُر على صاحب الحاجة إحضارها، إذا وجد الموظف إلى ذلك سبيلاً لا يضرُّه سلوكه.

فكم من شكليَّات ورقيَّة هي من زوائد قيود الترتيبات الإدارية، ومن

شأنها أن تُحمِّل أصحاب المصالح والحاجات عنتاً لا لزوم له، إذ يَعْسُر عليهم إحضارها، وتفوت عليهم بذلك المصالح، لا سيما إذا كان لقضائها أوقات محدَّدة.

إلى غير ذلك من وجوه.

فمن يسَّر على مُعْسِرٍ، ضمن الحدود المأذون بها شرعاً، أثابه الله بثوابين من جنس عمله:

الثواب الأول: أن ييسِّر الله له من أموره في الدنيا، فلا يُعسِّرها عليه.

الثواب الثاني: أن ييسِّر الله عليه في الآخرة مكافأة له على ما كان قد فعل من تيسير، ومن التيسير عليه أن يحاسبه حساباً يسيراً، ولا يحاسبه حساباً عسيراً.

وقد دلَّ على هذه القضية قول الرسول ﷺ في الحديث الذي نتفهمه: «وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عَلَيْهِ في الدُّنْيَا والآخرَة».

* * *

القضية الثالثة:

هي قضية ستر المسلم لأخيه المسلم في قبائحه ومعاصيه الخاصَّة التي يستتر بها ولا يجاهر، ولا تضرُّ بمصالح المسلمين العامَّة، في شؤون أمنهم، وسياستهم، واقتصادهم، وأخلاقهم، ودينهم.

فالله عزَّ وجلَّ يحبُّ من المؤمنين أن يستروا قبائح ومعاصي إخوانهم المسلمين، إذا استتروا هم بها ولم يجاهروا، ولا يحبُّ فضيحتهم في ذلك، لما في فضيحتهم من إشاعة أنواع الفساد والفواحش بين المؤمنين، وإقامة العقبات أمام استقامة المذنبين، لأن رغبتهم بالاستقامة تنقطع بعد تشهيرهم بمعاصيهم، بخلاف ما لو ظلُّوا في حالة الستر.

فكثير من الناس متى رأى غيره من مستوري الحال يرتكب الكبائر هان

عليه أن يقتدي به ويرتكبها، فيكون هاتك سترهم من المساهمينَ في إشاعة الفواحش وأفعال السوء بين المسلمين.

كما أنَّ مستور الحال يظلُّ راغباً في التوبة وصلاح حاله ما لم يشتهر بين الناس أنه من مرتكبي الكبائر، فإذا اشتهر بها هانت عنده المجانة، وضعفت رغبته في التوبة، على أنه إذا أمعن في فجوره، وصار ميؤوساً من صلاحه، فإنَّ الله يفضحه ولو عصى في مغارة.

لذلك كان ستر المسلم لأخيه المسلم وعدم هتك السَّتر عنه، من فضائل الأخلاق الاجتماعية، ومن أعمال البرِّ التي يثيب الله عليها، بمكافأة معجَّلة، ومكافأتين مؤجلتين:

فالمكافأة المعجَّلة: أن يستره الله في الدنيا، وهذا الستر مطلوب عظيم لكل مسلم، لأنَّ الإنسان مهما استقام فهو عرضة للأخطاء والمعاصي، وقد ثبت في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ قوله:

«كلُّ بني آدَمَ خطَّاءٌ وَخَيْرُ الخطَّائين التَّوَّابُون».

المكافأتان المؤجَّلتان: أن يستره الله عزَّ وجلَّ في الآخرة، في موقف الحساب، وبعد دخول الجنة.

فلا يفضحه يوم الحساب بما ارتكب من فواحش وسيّئات، ويبقي حاله مستوراً إذا دخل الجنَّة بفضل الله.

وكلاهما مطلوبان عظيمان من مطالب المؤمن، لأنَّ من فضحه الله يوم الدين أخزاه وأذلَّه بين الخلائق، وذلك من أشنع أنواع العذاب الذي يمسُّ أهل الكرامة.

وفي الدلالة على فضيلة ستر المسلم لأخيه المسلم في معاصيه الخاصة به، التي لا تضرُّ بمصالح المسلمين العامة، قال الرسول ﷺ في الحديث الذي نتفهَّمه:

«وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ الله فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

ونظيره ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:
«لا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْداً في الدنيا إلَّا سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَة».

وما رواه البخاريّ ومسلم عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال:
«وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ومن أشنع أنواع الفضيحة أن يفضح الإنسان نفسه بما فعل من فواحش وآثام، ما لم يكن قد قَصد تطهير نفسه بإقامة الحدّ الشرعي عليه.

وأشنع كلّ ذلك المجاهرة أمام النَّاس بارتكاب الآثَامِ والفواحش، فهذه من المجانة التي لا يرتكبها إلاَّ غُلاة الفسَّاق.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَىٰ إلاَّ الْمُجَاهِرينَ، وَإنّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ باللَّيْلِ عَمَلاً، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ الله عليه فيقول: يَا فُلاَنُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وكذا، وقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، ويُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ الله عليه».

وفي رواية: «وإنَّ مِنَ الْمَجَانَةِ» بدل «وإنَّ من المجاهرة».

أمَّا حبُّ إشاعة الفاحشَةِ بين المؤمنين بنشر مقالات السُّوء، الَّتي تَمَسُّ أبرياءهم، أو المستورين الذين لم يدانوا قضَاءً بفاحشة، فهو من كبائر الإثم، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [النور: ٢٤]:
﴿إنَّ الَّذينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ في الَّذينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا والآخِرَة (١٩)﴾.

أمَّا في الدنيا فحدُّ القذف الشرعي، أو عقوباتٌ ينزلها الله بهم في أنفسهم أو أموالهم أو أيّ شيء يؤلمهم، أو من كلّ ذلك أو بعضه. وأمَّا في الآخرة فعقوبات عادلة ينزلها الله بهم يوم الدين.

* * *

القضية الرابعة:

هي قضيَّة عَوْنِ المسلم لأخيه المسلم فيما لا معصية لله عزَّ وجلَّ فيه.

وظاهرٌ أنَّ هذه المعونة هي من فضائل الأخلاق العملية الاجتماعية، ومن أعمال البرِّ التي يثيب الله عليها ثواباً من جنسها. فيكافىء الله عزَّ وجلَّ من يُعين أخاه في أمر من أموره المأذون بها شرعاً، بأن يكون الله معيناً له في أموره، طَوال المدَّة الَّتي يشتغل فيها بمعونَةِ أخيه، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي نتفهَّمه:

«وَالله فِي عَوْنِ العبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ في عَوْنِ أَخيه».

ومن عَوْن الله للعبد في المكافأةِ الَّتي هي من جِنْسِ الْعَمَلِ:

أن يخلُفه في تجارته، أو زراعته، أو بيته، أو مكان عمله، أو في أيِّ أمرٍ من أموره أو أيِّ شيءٍ يخصُّه، فيصْنَعَ لَهُ من الخيرات والحفظ والنّماء فوق ما كان سيصنع لنفسه، لأنَّه ترك وانصرف مع أخيه المسلم في معونة له، بأمرٍ لا معصية لله فيه.

وهذا القيد (هو أن تكون المعونة في أمر ليس فيه معصية لله عزَّ وجلَّ) هو من المفاهيم الإسلامية التي يقتضيها جمع النصوص، وفهمها مجتمعة متكاملة، ومن النصوص في هذا الموضوع قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [المائدة: ٥]:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ والتَّقْوىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا على الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ. إنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾.

وقد بَدَأ الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية بالبرِّ، لأنَّ البرَّ مرتبَةٌ هِيَ فَوْقَ مرتبة التقوى، إذ هو من قبيل التوسّع في عمل الخير الذي لم يوجبه الله ولكن رغَّب فيه.

أمَّا مرتبة التقوى فهي المرتبة التي يقع في درجاتها فعل الواجبات وترك

المحرَّمات، وبها يتقي المؤمن المسلم المؤاخذة والعقوبة، على ما كلَّفه الله عمله أو تركه.

فالتعاون بين المسلمين يجب أن يكون أوَّلًا في حدود مرتبة البرِّ، كتأسيس المدارس، وعمارة المساجد، والمستشفيات، والخدمات العامة، ثمَّ في حدود مرتبة التقوىٰ كمعاونة الإِنسان المسلم لأخيه في عمل مباح لا معصية لله فيه.

أمَّا المعاصي والآثام وأعمال الظلم والعدوان فلا تجوز المعونة فيها.

* * *

القضيَّة الخامسة:

هي قضيَّة طلب العلم النافع بحسب المفاهيم الدينيَّة الإِسلاميَّة.

وقد حثَّ الإِسلام على العلم والتعلُّم في نصوص مستفيضة كثيرة، وحثَّ على سلوك الطُّرُق التي يُلْتَمَسُ فيها هذا العلم.

فطالب العلم الذي يسلك لتحصيله طرقاً يلتمس فيها اكتساب المعارف النافعة له في دنيه ودنياه، والنافعة للأمَّة الإِسلامية، في دينها ودنياها، ولا يجني عليها شرَّاً أو ضُرَّاً، يكافئه الله عزَّ وجلَّ على ذلك، بأن يُسهِّل الله له بسلوكه طريقاً لالتماس العلم النافع طريقاً لبلوغ الجنَّة، وكلَّما عدَّد الطُّرُق لالتماس المعرفة النافعة سهَّل الله له طُرُقاً إلى بلوغ الجنَّة، فيكون الجزاء من جنس العمل.

فسلوك طريق للعلم النافع، يكافىء الله المؤمن عليه بأن يُسَهِّل له طريقاً إلى الجنة.

ولمَّا كانت الجنة درجات متفاوتات، فإنَّ باستطاعتنا أن نفهم أنَّ مداومة متابعة طُرُقِ العلم تُكافَأُ بِتَسهيل الطُّرِقِ الموصلة إلى المراتب الرفيعة في جنَّات النعيم، إلى جنَّاتِ عدْنٍ، إلى الفردوس الأعلى.

وبحث قضيَّة طلب العلم النافع بحث طويل تُدوّن فيه بحوث مستفيضة، فالعلم من أعظم الفضائل والكمالات التي حثَّ الله عزَّ وجلَّ والرسول ﷺ عليها، والعلم هو الوسيلة الأولى للإيمان الصحيح، وهو الوسيلة الدائمة للارتقاء في درجات الإيمان ومراتب العبودية لله عزَّ وجلَّ، ومراتب كمال المعرفة بالله وصفاته، ومتقنات خلقه، وهو الوسيلة لتحقق الْخَشْية من الله الدافعة لصدق الخضوع له، والتحقُّق بمراتب التقوى والبرِّ والإحسان.

* * *

القضية السادسة:

هي قضية الاجتماع على تدارس القرآن في بيت من بيوت الرَّحمٰن. وهي إحدى وسائل تحصيل العلم الديني الذي اشتمل عليه كتاب الله، وإحدى وسائل حفظ هذا الكتاب الخاتم، ونقله من جيل إلى جيل، ومن أعظم الوسائل لربط العبد بربِّه، ومداومة مناجاته له، وهو مفتاح تدبُّر آياته، والعمل بها لمن خشي، وتأثُّر بحقائقه، ومواعظه وزواجره، وترغيباته، وما فيه من عبَرٍ ومُذَكِّراتٍ.

وقد أبان الحديث أنَّ الصورة المثْلَىٰ لتحقيق هذه الفضيلة المتعلِّقة بكتاب الله القرآن يجب أن تتوافر فيها أربعة شروط:

الشرط الأول: الاجتماع، والاجتماع المنظَّم لا بدَّ له من جامع هو شيخ حلقة الاجتماع، أو أميرها.

الشرط الثاني: أن يكون الاجتماع في بيت من بيوت الله، لتبقَىٰ للقرآن حرمته، بحُرْمَةِ المسجد الذي لا يجوز فيه اللَّغو ولا العبث.

الشرط الثالث: تلاوة كتاب الله فُرادَىٰ على الشيخ، للتَّلَقِّي وتجويد الأداء.

الشرط الرابع: تدارس القرآن جماعيّاً للحفظ بتلاوة تالٍ منهم، وسماع غيره له فرداً أو جماعةً.

ويلاحظ أنَّ هذا برنامج مدرسيّ كامل لمدارس تحفيظ القرآن.

أمّا ثوابهم المعجَّل الذي هو من جنس عملهم فهو يتلخَّص بالأمور التالية:

الأمر الأوَّل: أن تنزل عليهم السكينة، والسكينة هي أمْنٌ وطمأنينة يحدث بهما وقارٌ وبشر.

والسكينة هي من ثمرات الاجتماع، لأنَّ الإنسان يحدث له الأمن والطمأنينة ضمن الجماعة.

الأمر الثاني: أن تغشاهم رحمة الله، فتعمهم بسبب اجتماعهم على الله في بيت من بيوت الله، فبيوت الله أماكن تَنَزُّلِ رحماته.

الأمر الثالث: أن تَحُفَّهم ملائكة الرحمة، فَتُحِيط بهم، فيُكافؤونَ على اجتماعهم على الله عزَّ وجلَّ، بأن يرسل الله إليهم جماعاتٍ من ملائكة الرحمة، يحفُّونهم، لإيناسهم، والدعاء لهم بالرحمة والعفو والغفران.

الأمر الرابع: أن يذكرهم الله فيمن عنده مكافأةً لهم على ذكرهم لله بتدارسهم كتابه.

روى مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُون الله إلاَّ حفَّتْهُمُ الْمَلَائِكة، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ».

* * *

القضية السابعة:

هي قضيَّة التوجيه للحرص على العمل الذي يكتسب به السبق في أعمال البرّ، بعد ذكر ستة أنواعٍ منها، وعدم الاعتماد على الصلة النسبية بالأبرار والمحسنين.

لأنَّ من بطَّأ به عمله فكان من المقصِّرين أو من أهل مرتبة التقوىٰ لم

يُسْرِعْ به نسبه حتَّى يجعله من السابقين، ومن أهل مرتبة البرِّ، أو من أهل مرتبة الإحسان لمجرَّد النَّسب.

لكن قد يتفضَّل الله على السابقين فيسرُّهم بإلحاق المقصِّرين عنهم من أصولهم وأزواجهم وفروعهم بهم في منازلهم في الجنَّة، دون أن يجعل للمقصِّرين منازل خاصَّة مساوية لمنازل السابقين، ودون أن ينقص السابقين أيّ شيءٍ من عملهم بسبب هذا الإلحاق.

هذا الموضوع قد تناولته بالبيان ثلاثة نصوص قرآنية:

فالنصُّ الأول منها: ما جاء في سورة [غافر: ٤٠] يصف الله عزَّ وجلَّ فيه دعاء الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله للذين آمنوا بأن يدخلهم الله جنَّات عدن، وهي جنّاتٌ مُعَدَّةٌ لأهل السَّبق بالأعمال الصالحات، الذين دخلوا في مرتبة الأبرار، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ (٩)﴾.

فَهَذَا دُعَاء حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَولَهُ من الملائكة لِلَّذِينَ آمَنُوا وَتَابُوا واتَّبَعُوا سبيل الله فصاروا بذلك من الذين استكملوا شروط مرتبة التقوىٰ، بأن يتفضَّل الله عليهم فيرفع منزلتهم في الجنَّة، فيجعلهم مع الأبرار الذين استحقُّوا جنَّاتِ عدْنٍ التي وعدهم بها إذا كانُوا من أهلها واستحقُّوا مرتبتها، وبأن يتفضَّل الله عليهم بأن يدخل جنَّاتِ عدنٍ معهم من صلح صلاحاً ما بالإيمان وبجملة من أعمال المتقين من آبائهم وأزواجهم وذُرِّياتهم، لأنَّ ذلك يكون أكثر إسعاداً لهم، وأكثر مسرَّةً لنفوسهم وقلوبهم. وأمَّا سَيِّئاتهم التي

ارتكبُوها والتي من شأنها أن تنزل مرتبتهم أو تعرّضهم للمؤاخذة والعقاب، فَقِهِمْ رَبَّنَا المؤاخذة عليها، ومن تَقِهِ المؤاخذة على سيِّئاته يومئذٍ فقد رحمته رحمةً عظيمة، وذلك هو الفوز العظيم.

هذا من الملائكة دعاء لهم، فهل يستجيب الله دعاءهم أم لا؟ علينا أن نتدبَّر ما جاء في النَّصَّيْنِ الآخرين.

النصُّ الثاني منها: ما جاء في سورة [الطور: ٥٢] وكان تنزيله بعد خمس عشرة سورة من تنزيل النصّ السابق من سورة غافر، وفيها يقول الله عز وجلَّ:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾.

وَمَا أَلَتْنَاهُمْ: أي: وما نقصناهم.

فَكَأَنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أبانَ في هذا النص أنَّه استجاب لدعاء الْمَلاَئِكَةِ الَّذِي جاء في النَّصِّ السابق في حدود مسألة إلحاق ذرِّيتهم بهم، لا في مسألة رفع مرتبتهم من مرتبة المتقين إلى مرتبة الأبرار.

فالقرار هنا: «إنَّ المتقين في جنَّاتٍ ونعيم» ولم يأتِ فيه أنَّهم في جنَّاتِ عَدْنٍ كما سأل الملائكة لهم في دعائهم.

لكنَّ أهل مرتبة التقوى يكونون على درجات، وأهل الدرجات العليا منها يكرمهم الله بأن يلحق بهم ذُرِّيَّتهم إذا لم يكونوا من أهلها، فيجعلهم معهم في منازلهم. وكلمة الإلحاق تدلُّ على أنهم لم يبلغوا بعملهم هذه الدرجات، ولكن يتفضَّل الله على أهل هذه الدرجات بأن يُلحق بهم ذُرّيتهم إسعاداً لهم، ومَسَرَّةً لقلوبهم ونفوسهم.

النص الثالث منها: وقد نزل بعد النَّصيْن السابقين، وهو ما جاء في سورة [الرعد: ١٣] وفيه يقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيْثَاقَ (٢٠) والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُوْنَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَىٰ الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، والْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ (٢٤)﴾.

فَمِنْ أَوْصَافِ أُولي الأَلبابِ هُنَا أَوْصَافٌ زَائِدَةٌ على أوصاف أهل مرتبة التقوى، منها ما يلي:

١ ـ الصبر ابتغاء وجه الله.

٢ ـ درْء السيّئةِ بالحسنة.

٣ ـ الإِنفاقُ سِرّاً وعلانية.

فهذه الصفات هي من صفات الأبرار والمحسنين، لذلك جعلهم الله من أهل (جنَّاتِ عدن) وهي منازل أرفع من منازل (جنَّاتٍ ونعيم) بدليل امتياز (جنَّاتِ عدن) بصفات زائدة على صفات (جنَّاتٍ ونعيم) يدرك هذا من يتدبَّر آيات القرآن المتعلِّقة بكلٍّ منهما.

وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد استجاب هنا أيضاً لدعاء الملائكة في مسألة الإِلحاق، فألحق بالأبرار الذين يستحقُّون (جنَّاتِ عدْن) من صلح من آبائهم، وأزواجهم، وذرّياتهم، ممَّن لم يستحقوا مرتبة (جنَّاتِ عدن) فجعلهم معهم في منازلهم في جنَّات عدْن.

* * *

د ـ ممَّا يستفاد من الحديث:

يستفاد من هذا الحديث فوائد كثيرة منها ما يلي:

١ ـ العمل الصالح يكافىء الله عليه بثواب من جنسه:

أ ـ فتنفيس الكربة عن المؤمن يكافىء الله عليه بتنفيس كُربةٍ من كُرَب يوم القيامة عن فاعله.

ب ـ والتيسير على المعسر يكافىء الله عليه بالتيسير على فاعله في الدنيا والآخرة.

جـ ـ وستر المسلم يكافىء الله عليه بستر فاعله في الدنيا والآخرة.

د ـ ومعاونة المسلم لأخيه يكافىء الله عليه بأن يكون في عون فاعله طَوَال المدَّة التي يكون فيها معاوناً له.

٢ ـ طُرُق العلم النافع الذي يُبْتَغَىٰ به وجهُ الله موصولة بطرُق توصل إلى الجنة.

٣ ـ اجتماع المسلمين في المساجد لتلاوة كتاب الله وتدارسه يكافئهم الله عليه بأربعة أمور:

الأول: تنزل عليهم السكينة.
الثاني: تغشاهم رحمة الله.
الثالث: تحفُّهم الملائكة.
الرابع: يذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة.

٤ ـ من قصَّر في الأعمال التي ترفع إلى كمال مرتبة التقوى أو إلى درجات مرتبة البرِّ، أو درجات مرتبة الإحسان، فكان من المبطِّئين، لم يغنه نسبُه الكريم حتى يجعله من المسرعين السابقين.

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والصور البيانية

في هذا الحديث وجوه بيانية متعددة منها ما يلي:

١ ـ الأسلوب البياني المختار في هذا الحديث هو أسلوب الدعوة إلى ستّ فضائل من أعمال البرّ، عن طريق الترغيب في الثواب عليها، بتقرير حقائق من سنن الله عزَّ وجلَّ في الجزاء عليها، تدخل في قاعدة: «الجزاء من جنس العمل».

٢ ـ عرض الرسول ﷺ الفضائل الستّ التي رغَّبَ فيها، على صورة حبَّات نفيسات من الجواهر في عقد متناسق، تؤلِّف بينها صفات مشتركة:

أ ـ فهي تشتمل على أعمال تشترك في أنَّها من أعمال مرتبة البرّ التي هي فوق مرتبة التقوى، وقد تصل إلى مرتبة الإحسان التي هي فوق مرتبة البرّ.

ب ـ وتشترك في أنّ الذين يحرصون عليها هم المجتهدون الـذين يطمحون إلى المنازل العلية في الجنة، ودرجات القرب من الفردوس الأعلى للظفر برضوان الله الأكبر.

جـ ـ وتشترك في أنها فضائل اجتماعية:

● فالتنفيس عن المكروب فضيلة اجتماعية.

● والتيسير على المعسر فضيلة اجتماعية.

● وستر المسلم لأخيه المسلم فضيلة اجتماعية.

● ومعونة عباد الله فضيلة اجتماعية.

● والتماس العلم النافع يحتاج إلى تَلَقٍّ عن ورثة الأنبياء، الذين هم العلماء المخلصون الناصحون من العلماء بالكتاب والسنة وما يتّصل بهما، فهي فضيلة اجتماعية، وتتصل بها فضائل اجتماعية كثيرة، منها آداب المتعلّم بين يدي معلمه، وآداب التعلّم والتلّقي.

● والاجتماع في بيت من بيوت الله لتدارس القرآن، وسيلةً إلى ضبطه وحفظه فضيلة اجتماعية ظاهرة.

د ـ وتشترك في أنَّ الجزاء عليها يدخل في قاعدة: «الجزاء من جنس العمل».

فالمواءمة بين حبّات هذا العقد البياني مواءمة كاملة، ففيها التناسق، والتوازن، في البريق والألوان، وتكامل الأشعة، والظلال، والتناظر في البناء اللفظي والأسلوب.

إنَّ المواءمة في العقود البيانية ينبغي أن تلاحظ فيها المعاني، والصياغة اللفظية، وكلاهما مستوفيان في العقدِ النفيس الذي اشتمل عليه هذا الحديث.

٣ ـ يلاحظ في العقد البياني النفيس الذي اشتمل عليه هذا الحديث الإبداع في القفل الذي ختم به، وهو قول الرسول ﷺ فيه: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

فهو بكنايته التي تفهم لزوماً منه يشير إلى محذوف لم يذكر في صدر الحديث، مثل: تنافسوا بالتسابق في ستة مجالات من أعمال البرّ. أو نحو ذلك.

وبعد هذا المطويّ المقدَّر بدأ الرسول ﷺ بنظم العقد فقال:

● من نفَّس عن مؤمن كربة. . .
● ومن يسَّر على معسر. . .
وهكذا إلى سائر حبات العقد الستّ.

وبعد أن نظمها جميعاً أشار صلوات الله عليه إلى أنَّ هذه الأعمال تحتاج إلى جِدٍّ واجتهاد، وإسراع دون إبطاء أو كسل، ولا يكفي فيها الاعتماد على الأنساب، لأنَّه لا شيء بعد العمل الذاتي قد يتوهَّم منه الناس أنَّه ينفعهم في السبق غير النَّسَب، فكان القفل الرائع لهذا العقد النفيس قول الرسول صلوات الله عليه:
«وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ».

والعملُ الذي يبطِّىء هو العمل الضعيف أو المصحوب بالكسل والإهمال وعدم الاكتراث، فهو في الحديث علىٰ تقدير: ومن بطَّأَ بِهِ عملُهُ الضعيف الذي لا همَّة فيه ولا جدّ ولا اجتهاد.

٤ ـ في جملة «ومن بطَّأ به عمله لم يُسْرِعْ به نَسَبُه» استعارة فعل «بطَّأ» الذي هو في الأصل لحركة المشي بضعف وتقصير على طريق حسّي، فدلَّ به على قلة الاهتمام بكسب أعمال البرّ.

واستعارة فعل «لم يُسْرع» الذي هو في الأصل موضوع للحسيّات، فدلَّ به على عدم الحصول على النصيب الكثير من الثواب الذي يحظى به العاملون المجدُّون في القيام بأعمال البرِّ والإحسان.

* * *

ثانياً: من الإعراب

١ ـ «من نفَّس» وسائر النظائر، اسم شرط جازم يجزم فعلين: أولهما فعل الشرط، والثاني جواب الشرط وجزاؤه.

وأفعال الشرط وأفعال الجزاء في جمل هذا الحديث قد جاءت أفعالاً

ماضية، فهي في محل أفعال مضارعة مجزومة، كأنه قال: مَنْ يُنَفِّسْ عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا يُنَفِّسِ الله عنه كربَةً من كرب يوم القيامة.

وهكذا إلى سائر الجمل.

٢ - قول الرسول: «ما كان العبد في عون أخيه» **ما**: مصدرية ظرفية، أي: مدَّة كون العبد.

٣ - قول الرسول: «وما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاَّ نزلت عليهم السكينة...».

الاستثناء في هذه الجملة استثناء مفرغ، وما بعد إلاَّ في محل نصب على أنَّه حال، أي: وما اجتمع قوم على الصفة المذكورة إلاَّ حالة كونهم نازلةً عليهم السكينة، وغاشيةً لهم الرحمة، وحافةً لهم الملائكة، وذاكراً ربُّهم لهم فيمن عنده من كرام الملائكة.

* * *

الحديث السابع عشر

عن حذيفةَ بْن اليمان رضي الله عنه قال: حدَّثنا رَسُولُ الله ﷺ حَدِيثَيْنِ، فقد رأيتُ أحَدَهُما، وأَنا أنْتَظر الآخرَ.

حَدَّثَنا:

«إنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ في جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَعَلِموا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّة».

ثُمَّ حدَّثنا رسول الله ﷺ عن رَفْعِ الأَمَانَةِ فقال:

«يَنَامُ الرَّجُلُ فَتُقْبَضُ الأمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ. ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَىٰ رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ».

ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ حَصَىٰ، فَدَحْرَجَهُ على رِجْلِهِ ثُمَّ قال:

«فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ، حَتَّىٰ يُقَالَ: إنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِيناً، حَتَّىٰ يُقَالَ للرجُلِ: ما أَجْلَدَهُ!. ما أَظْرَفَهُ!. مَا أَعْقَلَهُ!. وَمَا في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمَانٍ».

رواه البخاري ومسلم

أ ـ ترجمة راوي الحديث (حذيفة بن اليمان):

١ ـ هو أبو عبدالله حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمانِ. أنصاري، أخو بني عبد قيس، حليف بني عبد الأَشْهَل.

آخى الرسول ﷺ بينه وبين عمَّار بن ياسر في المؤاخاة التي عقدها بين المهاجرين والأنصار بعد هجرته إلى المدينة.

٣ ـ تصدَّق بِدِيَةِ أبيه الذي قتله المسلمون خطأً يوم أحد على المسلمين، فزاده ذلك منزلة عند رسول الله ﷺ.

٤ ـ كان صاحب سرّ رسول الله ﷺ في المنافقين.

٥ ـ قال عن نفسه: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرّ مخافة أن أقع فيه.

٦ ـ قال عليّ بن أبي طالب بشأنه: هو أعلم أصحاب محمَّد بالمنافقين.

٧ ـ اختاره الرسول ﷺ من بين كلّ أصحابه في غزوة الأحزاب (= الخندق) في ليلة ليلاء شديدة البرد والظلمة والريح، فأرسله ليدخل في جيش العدو، ويتحسَّس أخبارهم، ويعود دون أن يحدث في القوم حدثاً، وقد كان في شدَّة من البرد والخوف، فدعا الرسول ﷺ له، فأذهب الله عنه

البرد والخوف، وتسلَّل إلى القوم، وعلم أنهم راحلون، وعاد بالخبر، وعاد إليه الشعور بالبرد.

٨ ـ استعمله عمر بن الخطَّاب على المدائن، وكتب في عهده لأهل المدائن: (أن اسمعوا له، وأطيعوا، وأعطوهُ ما سألَكُمْ).

فخرج حذيفة من عند عمر على حمارٍ عليه إكاف (= برذعة)، وعلى الحمار زاده، فلمَّا قَدِم المدائن، استقبله وجوهها، وقرأ عليهم عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب، فقالوا له: سَلْنَا مَا شئت.

قال: أسألكم طعاماً آكُلُه، وعَلَفَ حماري هذا ما دمت فيكم.

وبعد مدَّة من الزمن كتب إليه أمير المؤمنين عمر: أن أَقْدِم. فاستجاب حذيفة لأمر أمير المؤمنين، ومشى إليه، فلمَّا بلغَ عُمَرَ قُدومُه كَمَنَ لَهُ على الطَّريق في مكان لا يراه، فلمَّا رآه عمر على الحال الذي خرج من عنده عليه أتاه فالتزمه وقال له: أنت أخي، وأنا أخوك. إذ رآه صادقاً كثير الزهد في الدنيا، لم يجمع لنفسه من ولايته شيئاً.

وكان حذيفة بن اليمان أحد ثلاثة تمنَّىٰ عمر بن الخطاب أن يكثر الله منهم في المسلمين.

٩ ـ مات رضي الله عنه بالمدائن سنة (٣٥) وقيل: سنة (٣٦) للهجرة، بعد مقتل عثمان رضي الله عنه بأربعين ليلة.

رُوي أنه لمَّا ثَقُل حذيفة سمع بذلك رهطه والأنصار الذين في المدائن، فأتوه في جوف اللَّيل أو عند الصبح، فقال: أيُّ ساعةٍ هذه؟. قالوا: جوف اللَّيل، أو عند الصبح. فقال: أعوذ بالله من صباحٍ إلى النار. ثم قال: جئتم بما أُكَفَّنُ به؟. قالوا: نعم. قال: لا تُغالُوا بالأَكْفَان، فإنَّه إنْ يكن لي عند الله خير بُدِّلت به خيراً منه، وإن كانت الأخرى سلبته سلباً سريعاً.

ب ـ اللُّغة والمعنى المراد:

١ ـ «إنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ»:

الأمانة: هي ضدُّ الخيانة. وهي مأخوذةٌ من: (أَمِنَ يأمَنُ أمْناً، وأَمَاناً، وأَمَانَةً) بمعنى لم يخف، إذ الأمن ضدُّ الخوف، وأُخذت منه الأمانة التي هي ضدُّ الخيانة، لأنَّ من كان لديه خلقُ الأمانة لم يَخَفْ صاحب الحق منه على حقه، ولا صاحب العهد منه على عهده، بل يكون في أَمْنٍ وأَمَنَةٍ من جهته.

تقول لغة: أَمِن فلانٌ فلاناً، وأمَّنَه، وائتمنه.

وجذر المادَّة يدور حول معنى الأمن الذي هو ضدُّ الخوف، ومنها اشتقَّ أيضاً الإيمان، الذي هو طمأنينة القلب لما اعتقده وصدَّق به، لأنه يصل إلى حالة يأمن فيها الخطأ والغلط ومجانبة الحقِّ والصواب، ويأمن فيها العاقبة السيئة التي لا يأمنها الشاكُّون والمتردِّدون والذين لا تجعلهم الظنون يستقرُّون ويطمئنون.

فالمخاطر في تجارته قلق غير آمِن، لأنَّه يخاطر اعتماداً على الظَّن، بخلاف من يتاجر على يقين، فإنه يكون آمناً مطمئناً.

والكافر بالله بعد عرض الأدلة عليه قَلِقٌ مضطرب غير آمن، لأنه يجحدُ ربَّه اعتماداً على الأوهام والظنون ورغبات نفسه، وهو دائماً يخاف من سوء المصير، ومن عقاب الله له، بخلاف المؤمن بالله، فإنَّه يظلُّ مطمئن القلب من جهة ربِّه، غير خائف من أن يعذَّب عذاب الكافرين، لكنه إن كان من أهل المعاصي فإنَّه يخاف أن يعذَّب عذاب العصاة فقط، وهو عذاب مؤقت يرجى الخلاص منه.

لذلك جاء الربط بين الأمانة والإيمان في طائفة من أقوال الرسول ﷺ، منها قوله كما سيأتي «لا إيمانَ لِمَنْ لاَ أَمانَةَ له».

وإذْ عرفنا أنَّ الأمانة من الأمن كان لنا أن نقول:

إنَّ الذي يأمن الناس خيانته، أو عدوانه، أو هضمه لحقٍّ عنده، تكون جهته ذاتَ أَمْنٍ وأَمَانٍ وأَمَانة.

ولمَّا كان ذلك يرجع إلى خلقه، أو إلى سلوكه الذي يأمره به دينه، سُمِّي خلُقُه الذي هذا أثره باسم الأمانة التي هي في الأصل من الأمن الذي هو ضدُّ الخوف، وسُمِّي سلوكُه الذي يستجيب فيه لأوامر دينه باسم الأمانة.

والأشياء التي تحتاج في الناس إلى خلق الأمانة، أو إلى سلوك الأمانة كثيرة لا حصر لها، وهي تشمل كلَّ ما يكون للآخرين فيه حقٌّ ما، والمطلوب ممَّن يقع ذلك الشيء في دائرة حفظه أو في دائرة إمكان العدوان عليه بأي وجه من الوجوه، أن يحفظه ويرعاه، ولا ينال منه ما لا حق له فيه، ويؤدِّيه لصاحبه أو من أمره صاحبه بأن يؤدِّيه إليه، دون أن يمسَّه بما يكره صاحب الحق فيه، أو يدعه على ما وضعه عليه صاحبه، دون أن يمسَّه بما يكره أن يمسَّه به.

إنَّ كلَّ شيء موضوع في حرز مثله قد استؤمن الناس جميعاً عليه، فمن أخذه من حرز مثله فهو خائن لما استؤْمِن عليه بشكل عامّ.

وتعظم حقوق الاستئمان العام في صور، حتى يكون لها مثل طبيعة الاستئمان الخاص. فالضيف مستأمن على بيت مضيفه وكلّ ما له فيه، فخيانته من أشنع الخيانات وأقبحها ، والجار مستأمن على بيت جاره وأهله وعياله وكلّ خاصته، فخيانته من أشنع الخيانات وأقبحها وكذلك الأجير والعامل ونزيل القوم بجوار أو نحوه.

والأمانة في الأصل مصدر لكنَّها تطلق على الشيء المستأمن عليه كما تطلق على الخلق النفسي، أو السلوك.

فتسمَّى الوديعة أمانة ويجب ردُّها عند الطلب، وتسمَّى العارية أمانة، ويجب ردُّها عند الطلب. وتقول للرجل: مالي أمانة عندك، أو بيتي وأهلي أمانة عندك، وتقول لمعلّم ولدك: ولدي أمانة بين يديك.

فهي على هذا اسم للشيء المستأمن عليه. وتجمع عندئذٍ على أمانات، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [النساء: ٤]:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا. . . (٥٨)﴾.

وقول الله عزَّ وجل في سورة [المؤمنون: ٢٣]:

﴿والَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون (٨)﴾.

حاصل إطلاقات لفظ الأمانة:

ممَّا سبق يظهر لنا أنَّ لفظ «الأمانة» يطلق بإطلاقات ثلاثة على ثلاثة معان:

الإطلاق الأول: يُطلق لفظ «الأمانة» بمعنى الحدث المصدري على السُّلوك الذي يُحَافِظُ به المستأْمَنُ (بفتح الميم اسم مفعول) على ما استؤمن عليه، ضمن تعليمات المستأمِن (بكسر الميم اسم فاعل) الذي هو مالك الشيء الذي استأمن عليه، أو صاحب حقٍّ فيه.

وعلى هذا المعنى يقال بالإفراد: للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، فيقال: عنده وعندهما وعندهم وعندهنَّ أمانة. وضدُّها الخيانة بمعنى الحدث المصدري، الذي يطلق على حدث الخيانة حينما يقع.

فالأمانة على هذا هي الوظيفة المنوطة بالمستأمَنِ تُجاه ما استُؤْمِن عليه.

الإطلاق الثاني: ويطلق لفظ «الأمانة» على الخلق النفسي الذي يدفع المستأْمَنَ إلى حفظ الأمانة ورعايتها وأدائها إلى صاحبها دون ظلم أو عدوان عليها، وعدم التعرُّض إلى ما ليس له به حقٌّ بما لم يأذن به المستأمِن.

فهي على هذا اسم للخلق الثابت، لا للحدث المصدري، وهي على هذا خلقٌ من آثاره تحمُّل الإنسان مسؤولية القيام بما يجب عليه نحو ما وضع

تحت سلطة إرادته الحرَّة واستؤمن عليه. وضدُّها لفظ «الخيانة» بمعنى الخلق النفسيّ أيضاً.

وما يُستأمن الإنسان عليه يشمل كلَّ شيء مادِّيّ أو معنويّ في ذات الإنسان أو خارجه ممَّا يمكن أن يُحدث فيه أثراً أو يتأثر هو فيه بأثرٍ ما.

الإطلاق الثالث: ويطلق لفظ «الأمانة» على ذات الشيء الذي يُسْتأْمَنُ عليه، كالوديعة، والعارية، وغير ذلك، وهي بهذا المعنى تُجْمع على أمانات، وقد علمنا أنَّ كلّ ما سخَّر الله في كونه للناس ومكَّنهم من التصرُّف فيه بأيِّ وجه من وجوه التصرُّف هو أمانة تحت سلطة إرادتهم الحرَّة، وفق هذا الإطلاق.

نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَال:

جَِذْر كُلّ شيء بفتح الجيم وكسرها أصلُه. فيطلق الجذر لغةً على أصل اللسان، وعلى أصل الشجرة، وعلى مغرز العنق من الجسد.

فقول الرسول ﷺ: «إنَّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال» أي: أنزلها الله في أصل قلوبهم، مع فطرتهم التي فطرهم عليها. يدُلُّ على معنى الفطرة في التكوين قولُه: «نزلت» أي نزلت من عند الله، فهذه الصيغة تستعمل في النصوص الشرعية بمعنى الشيء المنزَّل من عند الله، كما جاء في نصوص إنزال الكتاب، وإنزال الملائكة، وإنزال السكينة، وإنزال الماء، وإنزال الحكمة، وإنزال المنّ والسلوى، وإنزال الحديد، وإنزال الميزان، وغير ذلك.

والمراد أنَّ القلوب في أصلها مفطورة على معرفة الأمانة والخيانة، والميل إلى الأمانة واستحسانها، والنفرة من الخيانة واستقباحها.

والأمانة فضيلة تستند إلى قاعدة الحقِّ، وحبُّ الحقِّ ممَّا فطر عليه الناس، كما فُطِروا على كراهية الباطل والظلم والعدوان.

وحين تفسد هذه الفطرة فبسبب عوارض طارئة في حياة الإنسان، من

هواه وشهوته، أو من ممارسته، أو بتأثير بيئته.

٢ ـ «ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّة»:

أي: ثمَّ نزل القرآن فبيَّن للناس ما يجب عليهم من حفظ الأمانة وعدم خيانتها، وجاءت بيانات الرسول ﷺ شارحةً ومفصِّلةً ومؤكِّدة لما جاء في القرآن.

فاجتمعت حول الإعلام بواجب الأمانة ورذيلة الخيانة دلائلُ فطر العقول والنفوس، ومشاعرُ أعماق القلوب وميلها الفطري، الأمر المعبَّر عنه في الحديث بقول الرسول ﷺ: «إنَّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال»، وبياناتُ القرآن العظيم فيما اشتملت عليه آياته حول الأمانة والخيانة، وبياناتُ الرسول الكريم الشارحة والمفصِّلة والمؤكدة لما جاء في القرآن.

٣ ـ «يَنَامُ الرَّجُلُ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ»:

أي: يأتي على الناس زمان تُرفع فيه الأمانة مِنْ جَذْرِ قُلُوب الرِّجال، إذْ تَفْسُد فِطرُهم التي فطرهم الله عليها، بمؤثرات من أهوائهم وشهواتهم، وممارساتهم، وبمؤثرات من البيئة وفساد أحوال الناس.

وبهذا القبض الأوَّل يبقىٰ من الأمانة أثرٌ في القلوب يشبه الْوَكْتَ.

الوَكْتُ: هو الأثر اليسير القليل في الشيء كالنقطة التي تكون في الشيء على غير لونه. والوكتَةُ شِبْه النقطة في العين. قال ابن سِيدَه: «الوكتة في العين نقطة حمراء في بياضها» وقيل: هي نقطة بيضاء في سوادها.

٤ ـ «ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، كَجمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَىٰ رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ».

مِثْلَ المجْلَ: الْمَجَل والْمَجْل والْمُجول هو ما يحدُث في الجلد من تنفُّط إذا أصابته نار، أو مشقَّة من عمل، فيجتمع ماء من الجسم تحت الجلد الذي تنفَّط، ويرتفع منتبراً منفصلاً عمَّا تحته من اللَّحم.

تقولُ: مَجِل الجلْدُ يَمْجَل من باب سمع، ومَجَل يَمْجُل من باب نصر، مَجْلاً وَمَجَلاً ومُجُولاً.

والْمَجْلَةُ هي الواحدة التي تـظهر في الجلد من ذلـك، وجمعُها: «مَجْل، ومِجَال».

فالمجْلُ بسكون الجيم يكون مصدر مَجَل، ويكون جمع مَجْلة.

فَنَفِط: أي: فَنَفِطَ الجلد من أثر الجمر الذي دحرجته على رجلك.

تقول لغة: نَفِطَ الجلْد يَنْفَط نَفْطاً، وَنَفَطاً، وَنَفِيطاً، وتَنَفَّط، إذا ارتفع عن اللَّحم، وامتلأ ماءً بسبب النار أو العمل. والواحدة من ذلك: «نَفْطَة».

وتقول: يدٌ نافِطَةٌ، ونَفِيطَةٌ، ومَنْفُوطَة، إذا أصابها ذلك.

مُنْتَبِراً: أي: مرتفعاً.

تقول لغةً: نَبَرْتُ الشيء إذا رفعتَه، وانْتَبَرَ الشيءُ إذا ارتفع، ومنه سُمِّي المِنْبر، لأنه المكان الذي يرتفع عليه الخطيب.

وليس فيه شيء: أي: وليس فيه شيء صالح نافع، إنما هو ماء ينبغي إزالته.

وقد شبَّه الرسول ﷺ ما يبقى من الأمانة بعد القبض الثاني لها في تدرُّج حصول الفساد في الناس بمؤثرات البيئة والأهواء والشهوات والتكالب على الحياة الدنيا، شبَّهه بما يتنفَّط من الجلد إذا مسَّته النار.

أي: لا يبقى من الأمانة إلَّا مظاهر شكليَّة ادِّعائية فارغة الجوف من أيّ شيء صحيح نافع.

وضرب مثلاً على ذلك بقوله: «كجمر دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه منتبراً وليس فيه شيء» وَمَثَّلَ ذلك صلوات الله عليه بحركة عملية إذ أخذ بيده

حصى فدحرجه على رجله وسيلة إيضاح من الوسائل التعليمية التي استخدمها الرسول ﷺ.

واختار الرسول ﷺ هذا المثل الْمُحْدِثَ للمجل دون المجْلِ الذي يحدث بسبب مشقة العمل، لأنَّ مشقة العمل قد توحي بأنَّ ضرورة الكدح في الحياة ولّدت ضعف الأمانة أو ارتفاعها، وذلك ممَّا قد يخفِّف جريمة الخيانة.

لكنَّ الجمر الذي يُدَحْرِجه الإنسان بإرادته على رجله يكشف أنَّ مثل هذا العمل لا تلجىء إليه الضرورة، إنَّما قد يدفع إليه اتباع الهوى، أو رغبة الاستكثار من الأموال، أو الركون إلى الذين ظلموا كما قال الله عزَّ وجل في سورة [هود: ١١]:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣)﴾.

وبذلك ترتفع الأمانة، فيرتكبُ الإنسان الخيانة بمسؤولية تَامَّةٍ لَا تخفيف فيها.

٥ ـ «فَيُصْبحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ»:

أي: لا يقتصر قبض الأمانة على أفراد يُفْتَنون فلا يَصْمُدُون للامتحان، بل يكون ظاهرة عامَّة.

ولا يكون ظاهرةً عامَّةً ما لم تفسد البيئةُ كلُّها أو جُلُّها، فالفساد المنتشر في المجتمع تنتقل عدواه إلى الأفراد بسرعة، حتَّىٰ إنَّ الرجل الأمين قد يتحوَّل بين عشيّةٍ وضحاها فتُقْبضُ من قلبه الأمانة إلَّا قليلًا منها، كالنقطة الحمراء في بياض العين، ثمَّ تقبضُ هذه الوكتَةُ بين عشيَّةٍ وضحاها، فلا يبقىٰ منها إلَّا مظهر فقط كالمَجْلة، أي: يبقى مظهر أمانة كاذبة، أما التعامل في الحقيقة فبالخيانة لا بالأمانة.

ومع هذا الفساد المنتشر يندر وجود الأمين ندرة تشبه العدم، فلا يكاد أحدٌ يؤدِّي الأمانة.

٦ ـ **«حَتَّىٰ يُقَالَ: إنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِيناً»:**

في هذا دلالة على أنَّ نُدْرَة الأُمَناء في الناس ستكون ندرةً بالغة، إلى حدّ أن يُشَارَ إلى الأمين واحداً من أسرة في أعداد كثيرة من الأسر أو القبائل، وسائرهم لا أمانة عندهم.

٧ ـ **«حَتَّىٰ يُقَالَ لِلرَّجُلِ : مَا أَجْلَدَهُ! مَا أَظْرَفَهُ! مَا أَعْقَلَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ من إيمانٍ».**

ما أَجْلَدَهُ!: تَعجُّبٌ من كثرة جَلَده، أي: ما أشدَّه وأقواه. فالجَلَدُ الشِّدَّةُ والْقُوَّة.

مَا أظرفه!: تعجُّبٌ من شِدَّةِ ظَرْفِهِ، والظَّرْفُ: البراعة، والكياسة، والحذق، وذكاء القلب، وحسن المنطق.

ما أعقله! تَعجُّبٌ من كثرة عقله وحصافته.

أي: **يُقالُ** له: **ما أجلده! وما أظرفه! وما أعقله!** في أمور الدنيا، لكنه ليس في قلبه مثقال حبَّةٍ من خردلٍ من إيمان، فلا بدَّ أن يكون سلوكه في التعامل منافياً للأمانة، ومنافياً لمقتضى الحقِّ والعدل والعقل.

فوصف النَّاس له بالجَلَد والظَّرْف والعقل قائم على أساس فساد مفاهيم الناس من جهة، وخداع الناس بما يتظاهرون به من عقلٍ وظَرْف وجَلَد، دون أن يكون ذلك أثراً لحقيقةٍ في أعماقهم، إنَّما ينافقون الناس ويراؤونهم به.

إنَّ الإيمان الصحيح هو الذي ينبع منه السلوك القويم في حياة الإنسان، وإذا لم يبق في القلب مثقال حبَّة خردلٍ من إيمان، لم يبق للإنسان سلوك قويم في حياته، ولكن يلجأ الأذكياء منهم إلى اصطناع المظاهر

الخادعة، التي يراها الناس، فيمدحونه بها.

ولذلك ربط الرسول ﷺ في هذا الحديث الأمانة بالإيمان، كما ربطها به في قوله: «لا إيمان لمن لا أمانة له».

عن أنس بن مالك قال: قلَّما خطبنا رسول الله ﷺ إلَّا قال:

«لَا إيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ».

رواه الإمام أحمد والبيهقي والضياء، وهو حديث حسن بوجه عام.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

الأمانة كالإيمان فطريّان وينبعان من منبع واحد:

الإيمان اعتراف لصاحب حقّ الربوبية والإلٓهيَّة بهذا الحق، وإذعان له به، وأداء هذا الحق له مع حفظه ورعايته، وصاحب هذا الحقِّ هو الرَّبُّ الخالق البارىء وحده لا شريك له.

والأمانة بين الناس هي الاعتراف لأصحاب الحقوق بحقوقهم، وحفظها ورعايتها لهم، وأداؤها إليهم غير منقوصة، وعدم التعرُّض لها بعدوان أو ظلم أو هضم، وأداء الشيء المستأمَن عليه وفق أخذه وتحمُّله لمن حُمِل له دون تغيير أو تبديل أو نقصٍ أو نحو ذلك.

والحقوق أنواع كثيرة ماديَّة ومعنوية، ولها صُوَر مختلفة، ولكلٍّ نوع من الحق أمانة تتناسب معه.

فالأمانة في حقوق الأموال تكون بحفظها ورعايتها وتأديتها لأصحابها بأعيانها إذا كانت أعياناً، وبأوصافها التامَّة إذا كانت موصوفة بالذمَّة.

والأمانة في حقوق الأعراض تكون بحفظها ورعايتها وحمايتها وعدم التعرُّض لها بمكروه، وبما لا حقَّ للمستأمَن فيه.

والأمانة في الأخبار والشهادات والعلوم تكون بالصدق فيها، واجتناب الكذب والتحريف والتصحيف والزيادة والنقص، وكتمان ما لا يجوز كتمانه.

والأمانة في الأنساب تكون بإلحاق كلّ ذي نسب بنسبه، على وفق الواقع الذي توصَّل إليه العلم، فالمرأة التي تكتم ما خلق الله في رحمها من زوجها الذي طلَّقها، فتزعم أنَّها أنْهت عدَّتها بالأقراء، لتتزوَّج من غيره، ثمَّ تلحق ما في بطنها من الزوج الأول بالرجل الآخر هي خائنة، تنسب ابنها إلى غير أبيه.

وهكذا تتنوَّع الحقوق، وتتنَوَّعَ معها الأمانات.

ومن شرح الإيمان والأمانة ندرك أنَّ الإيمان والأمانة ينبعان من منبع واحد.

وقد فطر الله القلوب والنفوس على النُّزوع إلى الاعتراف بالحق لصاحب الحق، والإذعان له به، وعلى الشعور بأن العدوان عليه ظلم، وعمل مستنكر وقبيح، ويستحق عليه فاعله المؤاخذة والعقاب، بقدر الأثر الذي يحدثه ذلك العدوان والظلم.

وتظل هذه الفطرة على سوائها ما لم تتعرَّض لعوارض تفسدها، أو تنقص منها، أو تشوِّهها.

وسلامة الفطرة في هذا كسلامة الفطرة في المواليد التي تأتي وفق نظام الْخَلْقِ السَّويّ، إذْ نلاحظ أنَّ الأصل في المواليد من الأحياء التي لم تتعرَّض لأسباب تشوِّهها، أن تأتي سويَّةً كاملة الْخَلْق غير منقوصة، فلا عوراء فيها ولا عرجاء، ولا ناقصة يدٍ أو رجلٍ أو غير ذلك، وما شذّ عن هذا فبسبب طارىء عارض أخرج المولود عن نهج فطرته، وسَواء خَلْقِه.

فالأصل في الناس أن يولدوا مؤمنين أمناء، لأنهم مفطورون على النُّزوع إلى الاعتراف لصاحب الحقِّ بحقه، وحفظه ورعايته له، وأدائه إليه، ومفطورون على الشعور بأنَّ العدوان عليه ظلم وعمل مستنكر وقبيح،

ويستحق عليه فاعله المؤاخذة والعقاب، بقدر الأثر الذي يحدثه ذلك العدوان والظلم.

هذا ما تدلُّ عليه التجربة، وتدلُّ عليه الملاحظة في المواليد من الناس، قبل أن تَفْسُد فطرتهم أو سلوكهم، بأسباب طارئة، من الأهواء والشهوات، والممارسات المتكرِّرة للخيانة وجحود الحق، ومؤثرات البيئة.

ويلاحظ أيضاً في سلوك الناس جميعاً ولو انحرفوا وفسدت مفاهيمهم وتشوَّهت فطرتهم، إذْ يشعرون بالفرق الكبير بين ما لهم به حقّ، وما ليس لهم به حقّ.

ولذلك يصعب جدّاً على الخائن أنْ يجحد أحدٌ له حقَّه، ويراه أمراً مستنكراً وعملاً قبيحاً، وإن كان هو يعمل مثله وأقبح منه، ثم إنَّه يطالب بحقه بجرأة، ويَحْزَن على فواته حزناً شديداً، ويظلُّ يذكره ما عاش، ويظل ينظر إلى ظالمه بحقد وألم ورغبة في الانتقام.

بخلاف ما ليس له به حق، إذا هو استولى عليه ظلماً وعدواناً، أو عن طريق الخيانة، فإذا قوي صاحب الحق على استرجاعه بقوته أو بقوَّة سلطان عادل لم يعظم ذلك في نفس ظالمه، ولم يجد أنَّه خسر شيئاً هو له، فإذا حزن فإنَّه يحزن لأنه لم يستطع أن يحتفظ لنفسه بمطمع كان يطمع فيه، مما ليس له به حقّ، ولا ينظر إلى صاحب الحقِّ الذي استرجع حقَّه بحقد وألم، إنَّما يبحث عن صيد جديد يكون فيه معتدياً ظالماً، ليحقق بعض مطامعه التي لا تنتهي.

وهذا ما تدلُّ عليه النصوص الإسلامية أيضاً، منها ما يلي:

١ ـ ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن عِيَاضٍ الْمُجَاشِعي، من خطبة خطبها رسول الله ﷺ، وجاء فيها فيما يرويه الرسُول عن الله عزَّ وجلَّ حديثاً قدسيّاً:

﴿وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ

عَنْ دِينِهِمْ، وحرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً».

حُنَفَاء: أي: على الدين الحقِّ، واستنكار كلّ باطل وزيغ.

فاجتالتهم: أي: فاستخفَّتْهُمُ الشياطين، واحْتَمَلَتْهُمْ من مواقع فطرتهم، وذهبت بهم وجعلت تجول بهم في الكفر والشرك والعصيان.

تقول لغة: اجتال الغزاة المال إذا ذهبوا به وطردوه واستاقوه. وتقول: جالت الريح بالتراب والحصى على وجه الأرض، أي: احتملته ودارت به وبدَّدته، بعد أن اقتلعته من مستقرِّه.

كذلك تفعل الشياطين بمن تستخفُّهم من أهل الأهواء والشهوات من الناس، فتحوِّلهم عن سواء فطرتهم، وتدور بهم إلى المهالك.

وهذا الحديث يبيِّن مؤثرات الأهواء والشهوات وزخرف الحياة الدنيا مع البيئة.

٢ ـ وما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟».

ثُمَّ يقول:

﴿.. فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾ آية ٣٠ من سورة [الروم: ٣٠].

كَمَا تُنْتَجُ البهيمةُ: تُنْتَجُ بالبناء للمجهول أي: تَلِدْ. يقال لغة: نُتِجَتِ الناقَةُ إذا وَلَدَت.

بهيمةً جَمْعَاء: أي: بهيمة سليمة من العيوب، مجتمعة الأعضاء كاملتَها، فلا جدْعَ بها ولاكيّ.

أي: وكذلك فطرة الدين، والحديث هنا يبيِّن مؤثرات البيئة.

واستشهد الرسول ﷺ على سلامة أصل الفطرة بقول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الروم: ٣٠]:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾.

وأساس الدين القيم الإيمان بالله وباليوم الآخر، وأساس السلوك القيِّم الأمانة.

٣ ـ وفي سياق الحديث عن الدين الذي اصطفاه الله للناس قال الله عزَّ وجلَّ بشأنه في سورة [البقرة: ٢] معلِّماً رسوله والمؤمنين أن يقولوا:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)﴾.

صِبْغَةَ اللَّهِ: أي: فِطْرَةَ الله، فالدين الشامل للإيمان والإسلام وخلق الأمانة، والتحقق بالعبودية لله عزَّ وجل من الفِطَرِ الجذور التي فطر الله الناس عليها.

ـ ٢ ـ

الشهادة على الأنفس بربوبيَّة الله لها

والفطرة التي فطر الله الناس عليها من الاعتراف للرَّب الخالق الواحد الأحد بربوبيته لهم، والإذعان له بهذا الحقِّ، قد أشهد الله به الناس على أنفسهم وهم في عالم الذّر، وهم خالون من شهوات الحياة ونـزعاتها ونزغاتها، قبل أن يخلقهم في عالم حياة الابتلاء، مزوَّدين بالأهواء والشهوات والنزعات والنزغات، والإرادة الحرَّة، والقدرة على كسب الخير، واكتساب الشرّ.

وكان ذلك بصورة أخبرنا الله عنها، بعد أن نسيناها، لكن بقيت أدلَّة المشهود به في عقولنا، وبقيت خيوطٌ تشدُّنا إليه في مشاعر إحساساتنا

العميقة، التي تتحرَّك بها قلوبنا، وتجذبنا نحوه عند اضطرارنا، وعند حاجاتنا الْمُلِحَّة التي لا نجد أسباباً لتحقيقها غير اللُّجوء إلى القوَّة الغيبيَّة الكبرى العليمة الحكيمة الرحيمة.

لا نستبعدْ هذا، فمعظم ما جرى لنا في طفولتنا وكثير مما جرى لنا ونحن أحداث مميِّزون قد نسيناه، ويخبرنا عنه أهلونا والذين كانوا مشرفين على تربيتنا، فنحن نُحدِّث به روايةً عنهم.

وبعضه نذكره باهتاً، وبعضه نذكره وفيه نوع جلاء، وبعضه نذكره جليًّا.

ونُصدِّق ما يحدِّثنا به أهلونا عن طفولتنا، وما يحدِّثنا به من كانوا مشرفين علىٰ تربيتنا، وكثيرٌ منه قد اكتسبنا منه معارف وعلوماً، وأصبحت هذه المعارف والعلوم أجزاء من ذوات عقولنا وأفكارنا.

لقد تعلَّمنا اللُّغة التي نتحدَّث بها، وحين بدأنا تعلُّمها كنَّا شاهدين كلَّ مرحلة من مراحلها.

لكننا بعد أن كبرنا نَسِينا كلَّ هذه المراحل التي عشناها وشهدناها، وبقيت عندنا ثمراتها، فالملكة البيانية، ومحفوظاتنا من الكلمات ثمرةُ تلك المراحل.

أفننكرها لأننا نسيناها؟ أفنكذِّب من يحدِّثنا عنها لأنَّها مُسِحتْ من ذاكرتنا، أو طُويت في أعماق تلافيفها؟.

لو لم يحدِّثْنا أهلونا ومربُّونا عنها لكان علينا أن نثبتها بدليل آثارها الباقية فينا.

كذلك نقول فيما أخبرنا الله عنه من أنَّه أشهدنا على أنفسنا بأنَّه ربُّنا وخالقنا، منذ كُنَّا في عالم الذَّرِّ، في المراحل الأولى لبداية تكويننا، وهي غير مراحل عالم التحرك من الأصلاب إلى الأرحام إلى الحياة الدنيا.

هذه قصة مضت من تاريخ تكويننا، أخبرنا الله عزَّ وجلَّ عنها بقوله في سورة [الأعراف: ٧]:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟. قالُوا: بَلَىٰ شَهِدْنَا. أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِيْنَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُوْنَ (١٧٣)﴾.

لقد قدَّر الله أن يخلُق من شاء أن يخلقه من الناس بصورهم وبكلِّ صفاتهم، وقضى لكلٍّ منهم وقتاً يظهر فيه في عالم الابتلاء، وعمراً يعيشه، وظروف امتحانٍ يتعرَّض لها.

ولمَّا خلق الله عزَّ وجلَّ آدم عليه السلام أودع في ظهره كُلَّ ذُرِّيته إلى أن تقوم الساعة، وجعلهم متداخلين بعضهم في بعض على وفق نظام تناسلهم فيما بعد ذلك.

دلَّنا على هذا ما جاء في بيان الرسول ﷺ لهذا الأخذ الذي ذكره الله في هذا النصِّ، إذ جاء في البيان أنَّ الله عزَّ وجلَّ مسح على ظهر آدم فاستخرج منه كلَّ ذُرِّيته، وأشهدهم على أنفسهم.

وَفَهْمُ هذا مع قول الله تعالى في النَّص: ﴿وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بني آدم من ظهورهم ذُرِّيتهم﴾ أي: من ظهر كلِّ واحدٍ منهم ذُرِّيته، لا يستقيم إلاَّ إذا قلنا: إنَّ مصغَّر كلِّ إنسانٍ في ظهره مصغَّرات كلِّ من سيخرج من نسله، وهكذا تتسلسل الظهور والمصَغَّرات متداخلةً بعضها في بعض، حتى آخر نسلٍ من الناس.

وليس هذا ممَّا يستبعد على قدرة الله عزَّ وجلَّ، فقد اكتشفنا في عصرنا الحاضر من المصغرات الذريَّة المتداخلة ما لو انتشر وكَبُرَ بخصائصه لملأ العالم، وقدرة الله أعظم وأجلّ.

إنَّ خلق الله المتقن لَمُدْهِشٌ محيّر، سواء فيما أتقن من المصغَّرات

التي قد يَجْمعُ مقدارُ رَأْسِ الإِبْرة منها ملايين ملايين الوحدات ذات الصفات الخاصة التي لو كُبّرت لكانَت خلقاً مدهشاً، وفيما أتقن من المكبّرات التي لا يستطيع الوهم أن يدرك مداها.

أمَّا كيف أشهدنا على أنفسنا فقصَّةٌ من الغيب عنَّا بعد أن نسيناها، لكنَّ خبر الله عنها حقّ، وقد بقيت لدينا آثار هذا الإشهاد، وهي الفطرة التي بها ندرك الرَّبَّ الخالق، وتشدُّنا إليه عند الضرورة، فندعوه ونلجأ إليه، وتشدُّنا إليه المشاعر الداخلية القلبية لنمجِّده ونحمده ونعظمه ونعبده.

فدليل العقل، ودليل الفطرة، ودليل الخبر الذي ذكره الله لنا فيه أنَّه أشهدنا على أنفسنا، إذ قال لنا: ألست بربكم فقلنا: بلىٰ. كلّ هذه الأدلة تؤكِّد أنَّ الإيمان فطرةٌ فطر الله الناس عليها، وسيدعوهم الله إلى الشهادة على أنفسهم يوم القيامة، فإذا قالوا: إنَّا كنَّا عن هذا غافلين، قال الله لهم: قد أنبأتكم عنه فيما أنزلت عليكم في كتابي فلا عذر لكم بادّعاء الغفلة، ولا عذر لكم بأنَّكم اتَّبعتم آباءكم في شركهم، فالشرك أمرٌ باطل ترفضه العقول وفِطَرُ النفوس ولا عذر فيه لمقلِّد.

هذه فطرة الإيمان، ولكن أكثر الناس جحدوا وأشركوا وكفروا وتحوَّلوا بإراداتهم عن سواء فطرتهم.

ـ ٣ ـ

عرض تحمّل الأمانة والمسؤولية تجاهها على الإنسان وقبوله لها

كما أشهد الله بني آدم على ربوبيته لهم فأقرُّوا بذلك وهم في عالم الذَّر، غير أن أكثرهم جحدوا وأشركوا وكفروا، وتحوَّلوا بإراداتهم عن سواء فطرتهم، وهو ما سبق بيانه في المقولة السابقة.

كذلك عرض الله الأمانة لحملها وتحمُّل المسؤوليَّة عنها على السماوات والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يحملْنَها وأشفقن من حملها ومن تحمُّل

المسؤوليَّة عنها، وعرضها على الإنسان فحَمَلها واستعدَّ أن يتحمَّل المسؤولية عنها.

وهذا يدلُّ على أنَّ معرفة حقّ الأمانة والإقرار بهذا الحق، والاستعداد للوفاء به، أمور مغروزة في عمق فطرة الإنسان، كما جاء في الحديث الذي نتفهمه «إنَّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال».

لكنَّ الإنسان قد كان عند التنفيذ في رحلة الامتحان في الحياة الدنيا ظلوماً جهولاً، فلم يؤدِّ من الأمانة التي حملها واستعدَّ أن يؤدِّيَ حقوقها ما يجب عليه فيها.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأحزاب: **٣٣**]:
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَـةَ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ **اللهُ** الْمُنَافِقِينَ والْمُنَافِقَاتِ والْمُشْرِكِيْنَ وَالْمُشْـرِكَاتِ وَيَتُـوبَ اللَّهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٣)﴾.

وَأَشْفَقْنَ مِنها: أي: وخِفْنَ وَحَذِرْنَ من تَحمُّل الأمانَةِ وما يترتَّب على حَمْلِها من مسؤوليةٍ ومحاسبة وجزاء، لأنَّ حَمْلَها مع ما فيـه من تكريم وتشريف، يستلزم المسؤولية والتكليف، ثمَّ المحاسبة والجزاء، فالإشفاق من ذلك.

ونتساءل عن الأمانة التي عرضها الله عزَّ وجلَّ على السماوات والأرض والجبال والإنسان، فأبت السماوات والأرض والجبال أن تحملها، وأَشْفَقْنَ من مسؤولية حملها، ومن التكليف الذي يرافقه، ومن الحساب والجزاء اللَّذين يتبعان ذلك، وحَمَلَها الإنسان، واستعدَّ أن يتَحَمَّل التبعة من حساب وجزاء؟

لا بدَّ للإجابة على هذا التساؤل من تحليل للصفات التي تتمتع بها هذه الكائنات، ولعناصر الأمانة، لإدراك الأمور التي جعلت السماوات والأرض والجبال تأبىٰ حملها، والتي جعلت الإنسان يَقْبَلُ حَمْلها، ويستعدُّ لتحمُّلِ

التكليف حَوْلَها، وَتَبِعَةِ الحساب والجزاء بعد ذلك.

إنَّ العرض يستلزم إدراك المعروض عليه حقيقة معنى ما يُعرض عليه، أي: فهمه والعلم به، إذا كان على حقيقته وليس مجازاً.

والفهم لشيءٍ ما يستلزم وجود أداة الفهم أو جهاز الفهم لدى الفاهم، والاستعداد لإدراك وسيلة التفهيم، والإدراك قد يكون صفة للمخلوق، دون أن تكون له صفات الشهوة والإحساسات باللَّذة والألم ونحو ذلك، ودون أن تكون له إرادة واختيار وقدرة على تنفيذ شيءٍ ممَّا يريد.

وهل يشترط له نوع حياة أولا؟ هذا أمرٌ من أمور الغيب عنا، ومن الصعب علينا البتّ فيه[1].

وقد أخبرنا الله أنَّ كلَّ شيء يسبِّح بحمده، ولكن لا نفقه تسبيحهم، فهل هو بدلالة الحال، أو هو تسبيح معه نوع إدراك خلقه الله للأشياء؟. احتمالان قائمان، والثاني منهما غير مستحيل والله على كلِّ شيء قدير، والعلوم الحديثة كشفت لنا من خصائص الخلايا وأعمالها ووظائفها، وما تؤدِّيه من أعمال متقنة، ما يدهش العقول، وكأن لها إدراكاً، وتحمل إنذارات

---

(١) لله أن يخلق ما يشاء، فيمكن أن يخلق مخلوقاً يدرك المعاني لكنَّه لا يحسُّ بلذَّة أو ألم أو شهوة، فنراه جامداً، كحال الذي يخدَّر منه في عملية جراحية كل جسمه، إلَّا جهاز إدراكه ووعيه.

ويمكن أن يخلق مخلوقاً يدرك ويحسُّ بلذة وألم، لكن لا شهوة له وليس له إرادة واختيار.

ويمكن أن يخلق مخلوقاً يدرك ويحسُّ بلذة وألم وله شهوة لكن ليس له إرادة واختيار، فهو مسيَّر.

ويمكن أن يخلق مخلوقاً يدرك ويحسُّ بلذة وألم وله شهوة ولكن ليس له قدرات عقلية يميِّز فيها التصرُّفات الدقيقة فهو يتحرَّك بغرائزه وبعض مطالبه.

ويمكن أن يخلق مخلوقاً يدرك ويحس بلذة وألم وله شهوات ومطامع وآمال وله إرادة واختيار، وله قدرات عقلية كافية للتصرف الذي يسأل عنه ويحاسب عليه. وهذا هو القابل لأن تودع عنده الأشياء التي له فيها لذات وآلام وشهوات ومطامع أمانات لامتحانه فيها، ويطالب بأن يكون أميناً عليها وبأن يرعاها، وفق تعاليم وبيانات من استأمنه عليها، ويطالب بأن لا يتناول منها إلَّا ما أذن له به مالكها.

ورسائل، وترجع بالمطلوب على أحسن وجه، فسبحان الخالق العليم الحكيم، الذي هو على كلِّ شيء قدير.

وعلى هذا نقول:

حين عرض الأمانة على السماوات، والأرض والجبال وعلى الإِنسان الأول وفيه ذرِّيته، أو على الإِنسان الشامل لكلِّ أفراده وهم في عالم الذَّر، لا بدَّ أن يكون هؤلاء قد أدركوا ما عُرِضَ عليهم وفهموه، حتى يأبى حمل الأمانة من أباه، ويقبل حَمْلَها من قبله.

ويمكن أن نصوِّر هذا العرْضَ والحوار الذي جرى حوله تخيُّلاً، واستنباطاً من وجيز البيان[1]:

العرض: أتريدين أيَّتُها السماوات والأرض والجبال أن تَحْمِلْنَ الأمانة. أتُريدُ أيُّها الإِنسان أن تحمل الأمانة؟

المعروض عليهم: وَمَا هِيَ الأمانة التي نحملها؟

العرض: تُجعلُ لَكُمْ إرادة حرَّة، وسلطةٌ على بعض ما يوضع في ذواتكم من قُوىً وطاقات وأشياء أمانةً عندكم، على سبيل الإِعارة للانتفاع أو الوديعة، ويُؤْذَن لكم بالتصرُّف فيها بإرادات حرَّة لكم، وبالتصرُّف فيما حولكم من الكون، ممَّا تصل قدراتكم إليه أو إلى مفاتيحه.

المعروض عليهم: هذا التصرُّف من صفات الخالق المالك، وكيف نتصرَّف وليس لدينا رغبات، ولا شهوات، ولا حاجات، ولا أهواء، ولا نستطيع أن تكون لنا صفات الربِّ الحكيم؟

العرض: تُخلقُ فيكم رغبات، وشهوات، وحاجات، وأهواء، ولَذَّاتٌ، وآلام.

---

(١) يجب أن يعلم القارىء أنَّ الحوار الذي يجدُه حوارٌ تخيُّليٌّ والغرض منه تقريب مفهوم الأمانة الذي جاء في الآية، نظراً إلى اختلاف أقوال أهل التأويل حول المراد منها، وبُعدِ كثير منهم عن إصابة الحقيقة الكاملة التي يكشفها التحليل.

المعروض عليهم: وهل يُبَاح لنا أن نتصرَّف بإراداتنا الحرَّة، وفق رغباتنا وشهواتنا وحاجاتنا وأهوائنا، دون مسؤولية؟

العرض: يُعطىٰ لكمُ التمكين من التصرُّف، لكن لا على سبيل إباحة كلّ شيءٍ.

المعروض عليهم: كيف نتصرَّف إذن؟

العرض: يُوجَّه لكم التكليف لفعل أشياء وترك أشياء على خلاف رغباتكم وشهواتكم وأهوائكم. ويباح لكم أشياء لتلبية مطالب حاجاتكم وشهواتكم.

المعروض عليهم: فَإذا عصينا التكليف وخالفنا الأوامر والنواهي؟

العرض: أنتم إذن مُلاحقون بالمحاسبة والجزاء على اختياراتكم.

المعروض عليهم: هذا تكريم وتشريف، مقرون بتكليف ومسؤولية، وبعده حساب وجزاء، ولكن هل يبقى في ذاكرتنا هذا العرض وهذا الحوار؟

العرض: يُطوى من ذاكرتكم هذا العرض وهذا الحوار، وتُطوىٰ من ذاكرتكم هذه المعرفة الحاضرة بخالقكم، ويبقى فيكم ما يشدُّكم إلى معرفته والإيمان به إيماناً غيبيّاً، وإلى معرفة الغاية من وجود الأمانة الكبرى تحت سلطتكم، وتُرسَل إليكم الرسلُ وتُنَـزَّل إليكم الكتب، لتعريفكم وبيان المطلوب منكم وإنذاركم وتحذيركم، وتبشير من آمن وأطاع منكم.

المعروض عليهم: وما هو نوع الجزاء؟

العرض: عذاب أبدي أليم بالحريق على الكفر بالخالق والإشراك به، وجحود ربوبيَّته أو ألوهيته. وعذاب دون ذلك بالعدل حسب المعاصي والإساءات.

ونعيم أبديٌّ على الإيمان بالخالق إيماناً غيبيّاً، والإسلام له. ودرجات من النعيم بعضها فوق بعض، بقدر ما يقدِّم كلٌّ من صالح الأعمال، مع

احتمال غفران وعفو عن سيئات دون الشرك بحسب مشيئة بارئكم.

السماوات والأرض والجبال: هذه مخاطرة مخيفة نأبىٰ قبولها ما دام الأمر عرضاً لاجبر فيه، فنحن لذلك نأبىٰ حمل هذه الأمانة.

الإنسان: قبلت هذا العرض، فأنا أحمل هذه الأمانة الكبرى، وأتحمَّل تبعتها، وتحلو عندي هذه المخاطرة، ويشدُّني إليها الطمع بمقام التكريم، وببلوغ المجد العظيم.

العرض: خُذْها وادخلْ رحلةَ الامتحان أيُّها الإنسان.

ـ ٤ ـ

خلاصة حول الأشياء التي استؤمن الإنسان عليها

مما سبق بيانه نستطيع أن ندرك أنَّ الأمانة بوصفها اسماً يطلقَ على الأشياء التي توضع تحت سلطة ذي الإرادة الحرّة والقدرة على التصرف والمعرفة بوجوهه من خير وشرّ وإصلاح وإفساد وحفظ وتفريط، إعارةً، أو وديعةً، أو ضيافةً، مما لا يملكه في الحقيقة، ويطلبُ منه المحافظة عليها، ورعايتها، وعدم التفريط فيها، وعدم التصرف فيها وعدم الانتفاع بها أو منها إلّا ضمن حدود إذن مالكها وتعاليمه وبياناته التي يحدّدها دون ظلم أو عدوان أو إهمال وتفريط وتقصير واستهانة بالحقوق، هذه الأمانة تتناول كلّ شيء يكون لذي الإرادة الحرّة عليه سلطةٌ ما، مادّية أو معنوية.

فإذا نظرنا نظرة استقصاء وسبر إلى الأشياء التي وصفها الخالق البارىء المصوِّر المالك الحقيقي لكلِّ ما في السماوات والأرض، تحت سلطة الإنسان المزوَّد بالشروط التي تؤهله لأن توضع الأشياء أمانة عنده، لاختباره هل يكون أميناً عليها أوْ لا؟. وجدنا أنَّها تتناول كلَّ شيءٍ مادِّيّ أو معنويّ داخل في ذات الإنسان، أو خارج عنه، ممَّا هو مُمَكَّن من التصرُّف فيه بالتمكين القدريّ الرَّبَّاني، صفة الذي له الخلق والملك والأمر والحكم، وهو

على كلِّ شيء قدير، وقد مكَّنه من ذلك ليمتحنه، ثم ليحاسبه ويجازيه.

لقد منحه تفضيلاً وتكريماً، ليمتحنه فيما منحه.

ويَردُ هنا سؤال وهو: إذا كانت الأشياء الداخلة في ذات الإنسان أمانةً عنده أيضاً، فمن هو المستأمنُ فيه؟

وللإجابة على هذا السؤال أقول:

إنَّ الإنسان له هُوِّية داخليَّة ممكَّنَةٌ بتمكين الله وإقداره من التصرُّف الإرادي، ولهذه الْهُوِّيّة الداخليَّة الصفاتُ الأساسية المؤهّلة لتحمُّلِ الأمانات والمسؤوليَّة عنها.

ولا بدَّ أن تجمع الصفات الأساسيَّة لتحمُّل الأمانة العناصر التالية:

١ ـ الإرادة الحرَّة، غير المجبورة.

٢ ـ التمييز بين وجوه التصرف المختلفة، تمييزاً كافياً لتحمُّل الأمانة.

٣ ـ القدرة على التصرف في المأذون به وفي غير المأذون به، مع التمكين القدريّ من كلّ واحد منهما.

أمَّا المسؤوليَّة بعد وضع الأمانات تحت سلطة هذه الهويَّة الداخليَّة الجامعة لصفاتها الأساسية، فلها ثلاثة شروط أساسيَّة أيضاً:

الشرط الأول: توجيه البيانات المحدِّدة لوجوه التصرُّف، إلزاماً بالفعل أو ترغيباً فيه، وإلزاماً بالترك أو ترغيباً فيه، وإباحة وتخييراً دون أيَّةِ مؤاخذة.

الشرط الثاني: العلم بهذه البيانات.

الشرط الثالث: أن لا تختل صفة من الصفات الأساسية للهويَّة الداخليَّة المؤهّلَة لتحمُّل الأمانة.

فإذا وضعنا دائرةً للفصل والتمييز حول هذه الهوّيّة الداخلية للإنسان

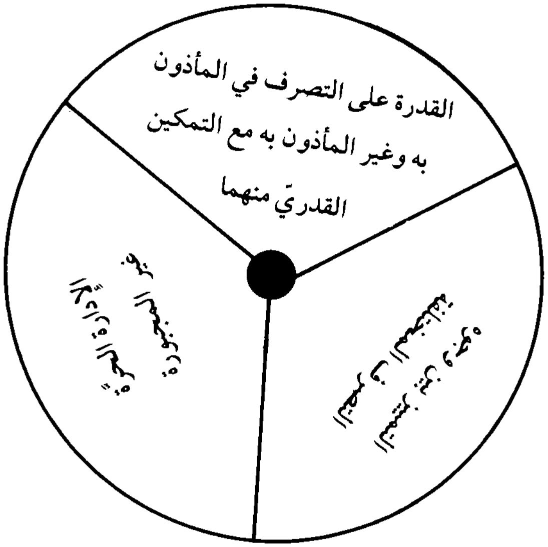

وجدنا أنَّ كلّ ما عدا ذلك ممَّا هو داخل في ذات الإِنسان ممَّا يملك التصرُّف فيه بإرادته الحرَّة، سواء أكان مادِّيّاً أو معنويّاً، هو أمانة موضوعة عنده.

ثم إنَّ كلَّ ما حوله من الكون من الناس والأحياء والأشياء والقوى والطاقات وكلّ حِسّيّ أو غير حسّيّ، مما يملك التصرف فيه بأيّ وجه من الوجوه قَلَّ أو كثُر، كبُر أو صغُر انفرد هو به أو شاركه فيه آخرون، أمانة عنده، وهو مسؤول عن تصرفاته فيه، باعتباره مسخَّراً لسلطته بتسخير الله له، وهو يطاوعه متى عرف كيف يتعامل معه، وتوصل إلى المفاتيح التي يتمكَّن بها من إطلاق الطاقات وتوجيهها وتسخيرها.

بناء على هذا فالحواسّ الخمس للإنسان أمانةٌ تحت سلطته، وهو مسؤول عن تصرُّفاته الإرادية فيها وبها. وجسده كلُّه أمانة تحت سلطته، وهو مسؤول عند الله صاحب الملك الحقيقي عن تصرفاته الإرادية فيه أو به، وفِكْرُه وما يتوصل به إلى معارف وعلوم أمانة تحت سلطته، وهو مسؤول عند الله عن تصرُّفاته الإرادية فيه أو به. ونفسه وخصائصها ودوافعها وشهواتها

وأهواؤها أمانة تحت سلطته، وهو مسؤول عند الله عن تصرُّفاته الإرادية فيها أو بها. وقلبه وخصائصه الاعتقادية الإيمانية، ومشاعره الوجدانيَّة، وعواطفه وانفعالاته أمانة تحت سلطته، وهو مسؤول عند الله عن تصرُّفاته الإرادية فيه أو به.

* * *

أيها الإنسان: عيناك وما تبصر بهما وما تغمزُ وما تغرِي وما تتجمَّل وما تفعل أيّ شيءٍ بهما، وأُذُناك وما تسمع بهما وما تفعل أي شيء بهما، وفمُك وأَنْفُك وبطنُك ويداك ورجلاك وما بينهما، وسائر جوارحك الظاهرة، وما تفعل بها، كلُّ ذلك أمانة تحت سُلْطَةِ هُوِيَّتك الداخلية المريدة المدركة والممكنة من التصرف فيها، ومن التصرف بها في أشياء من غيرها.

فإن استعملتها في طاعة الله خالقكَ ومالكك ومالك كلّ شيء في الكون، وفيما أذن لك بأن تستعملها فيه، كنت أميناً، راعياً للأمانة، حافظاً لها، وقدّمت الدليل التجريبي على أنَّك تتحلَّىٰ بخلق الأمانة.

وإن استعملتها في معصية الله، وفي غير ما أذن الله لك بأن تستعملها فيه كنت خائناً، غيرَ راعٍ للأمانة، ولا حافظ لها، وقدّمتَ الشاهد على نفسك بأنَّ خلق الأمانة الفطريَّ فيك قد جرحته بإرادتك، أو أنَّك أفسدت ما فطر الله فيك من ميل إلى خلق الأمانة فاستبدلت به خُلُق الخيانة.

إنَّ ما تَسْرقه وتَنْهبه وتسلُبه وتغشُّه وتبطش به وتَتَحسَّسُه تجسُّساً أو تلذُّذاً مما لا حقَّ لك به مستخدماً لذلك يدك وحيلةَ فكرك هو من الخيانة المناقضة للأمانة، فهو من خائنة الأيدي والأفكار.

وما تستخدم لسانك فيه وفمك من كذب وافتراء وغيبة ونميمة وشتيمة وكفر ودعوة إلى ضلالة أو إلى فسق وفجور وعصيان، أو ما تستخدمهما فيه من مأكل أو مشرب أو تلذّذ محرّم أو عدوان على نفسك أو أحد من خلق الله، أو غير ذلك ممّا لم يأذن الخالق المالك لك فيه، مستخدماً لذلك حيلة فكرك، هو من الخيانة المناقضة للأمانة، فهو من خائنة الألسنة والأفواه والأفكار.

وما تفعل بعينيك ممَّا لم يأذن به الله، وما تُضْمِر مع ذلك في صدرك،

هو من خائنة الأعين، وخائنة الصدور، واذْكر أنَّ ربَّك الخالق المالك الرقيب عليك: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُن وما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(١).

اعلم أيها الإنسان أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وضع لسانك أمانة عندك، ومنحك القدرة على استعماله في طاعته ومعصيته. واستأمنك على الحقِّ الذي مكَّنَكَ من معرفته، واستأمنك على أعراض الناس وعلى حقوق الجماعة، واستأمنك على دينه وشرائعه، فإن استعملته في جعل الحقِّ باطلاً، وفي الإساءة إلى عباد الله، أو في تفريق جماعة الحق، أو في مناهضة دين الله بالدعوة إلى الباطل أو الشرِّ أو الإثم والفسوق والعصيان فقد خُنْتَ أمانة الله عندك.

واعلم أيُّها الإنسان أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وضع سمعك وبصرك أمانة عندك، ومنحك القدرة على استعمالهما في طاعته ومعصيته، واستأمنك على حقوقه عليك، وعلى حقوق نفسك وحقوق سائر خلق الله عليك.

فإن استمعت أو نظرت إلى ما لم يأذن به، أو تصرّفت بهما تصرُّفاً على خلاف طاعته، فقد خُنت أمانة الله عندك.

وستشهد عليك جوارحُك بخيانتك، يوم الحساب والجزاء.

واعلم أيها الإنسان أنَّ كلّ قدرة جسدية أو نفسية أو فكرية أمانة عندك من الله، الذي وضعها تحت سلطتك ومكَّنك من استخدامها في طاعته ومعصيته، ومن القيام بها في أعمال كثيرة وعظيمة، في ذاتك، وفيما حولك من الناس والأحياء والأشياء، فأنت بها مُمَكَّن من التوصل إلى مفاتيح قوى عظيمة في الكون، تستطيع بها نسف الجبال، وتدمير المدن، وإهلاك الحرث والنسل.

فَإنْ تصرَّفت في هذه الأمانات التي تحت سلطتك تصرُّفاً لم يأذن به خالقها ومالكها ومودعها أمانة تحت سلطتك، فقد خنت أمانة الله عندك، وقدّمت الشهادة من نفسك على نفسك بأنك استبدلت خلق الخيانة، بخلق الأمانة الذي جعله الله مغروزاً في عمق فطرتك.

(١) آية ١٩ من سورة [غافر: ٤٠].

إنَّ قدرة التفكير والتعلُّم والبحث العلمي وتتبُّع وسائل المعرفة أمانة عندك استأمنك الله عليها، ومكّنك من استعمالها في طاعته وفي معصيته، في مجالات الخير والشرِّ، والحقِّ والباطل، وتزيين ذلك والتحبيب فيه، أو تقبيحه والتنفير منه.

وجعل لديك القدرة على رسم الخطط لتحقيق الحقِّ والخير، ومحاربتهما، ولنشر الباطل والشرِّ ومقاومتهما.

وكلَّفك أن تستعمل هذه القدرة التي جعلها لديك في الحقِّ والخير والفضيلة، وحرَّم عليك استعمالها في تأييد الباطل ونشر الشر، وفي مقاومة الحقِّ والخير والفضيلة.

فإن تصرَّفت بهذه القدرة السامية لديك التي هي من أرفع الكمالات، في معصية خالقها ومالكها، ومستأمنك عليها في ذاتك وفيما حولك، ومستأمنك على ما حولك من الكون، إذْ مكَّنَكَ من التعرف عليه وعلى صفاته وقوانينه، ومن التوصُّل إلى معرفة واستخدام مفاتيح قواه الكبرى، فقد خنت أمانة الله عندك، وقدَّمت الشهادة من نفسك علىَ نفسك بأنَّك استبدلت خلق الخيانة، بخلق الأمانة الذي جعله الله مغروزاً في عمق فطرتك.

فالباحثون العلميُّون الذين يتوصلون إلى مفاتيح القوى الكامنة في الكون، ويستطيعون استخدامها في التعمير أو التدمير مستأمنون عليها من قبل خالقها ومالكها، ومستأمنون على خَلْق الله الذي مكَّنهم من استخدام هذه القوى لإهلاكهم وتدمير مُدنهم، كما مكَّنهم من استخدامها لخيرهم وأمنهم ورزقهم.

فإن استخدموها في الإهلاك والتدمير وإرادة العلوّ في الأرض، فقد عَصَوْا خالقها ومالكها الذي استأمنهم عليها ليبلوهم، وشهدوا على أنفسهم بما فعلوا أنهم خانوا أمانة الله عندهم.

أيُّها الإنسان: اعلم أنَّ فرجَك وغريزتك الموصولة به والمندفعة للمعاشرة والمباشرة أمانة عندك استأمنك الله عليها، ومكَّنك من استعمالها

فيما أذن لك فيه، وفيما حرَّمه عليك، ووضع من حولك أمانات كثيرات مكَّنَكَ بالتمكين القدريّ من معاشرتها ومباشرتها على غير ما أذن لك وأباح، كما مكَّنك من تلبية غريزتك في وجوه أباحها لك، ليبلوَك.

فإنْ تصرَّفتَ في هذه الدائرة من دوائر الأمانات تصرُّفاً عصيت الله فيه، وهو صاحب هذه الأمانات ومالكها، فقد خنت أمانة الله عندك، وشهدت بنفسك على نفسك بخيانتك.

أيّها الإنسان: اعلم أنَّ ذاتك هي ملك خالقك، فهي أمانة لدى هوّيَّتك الداخلية الممكَّنة من التصرُّف فيك، فليس من حقِّك أن تؤذي نفسك، أو تقتلها منتحراً، أو تقطع أيّ عضوٍ من أعضائك أو تفسده دون إذنٍ من الخالق المالك، أو أمرٍ به.

وليس من حقِّك أن تتناول طعاماً أو شراباً أو شهوة ممَّا يضرُّك، ويفسد جسدك أو شيئاً منه، دون إذنٍ من الخالق المالك.

أيها الإنسان: اعلم أنَّ كلَّ ما حولك من الناس والأحياء والأشياء ممَّا تستطيع أن تتصرَّف فيه بشيءٍ ما هو أمانة عندك من الله خالقها ومالكها، ومسخِّرها بقوانينه القدريَّة لما لديك من قوَّة وحيلة، فليس من حقِّك أن تتصرَّف في شيءٍ منها إلاَّ ضمن حدود إذن خالقها ومالكها أو أمره.

أيُّها الإنسان: نفسك وشهواتها. غرائزك الداخليَّة ومطالبها. قلبك وعواطفه. وظيفتك. زوجك. ولدك. اليتيم الذي في كفالتك. أهلك والأقربون وسائر الرحم. الناس من حولك. كلّ ذي حياة. النبات والشجر. الأرض والجبال. النار. الحديد وسائر المعادن. كلّ ما سخَّر الله لك في الأرض أو في السماء. كلّ أولئك أمانة تحت سلطة هوّيتك الداخليَّة فيك، فلا تكن خائناً للأمانة، واذكر أنَّك قبلت حمل الأمانة يوم عرَض الله الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها، وحملتها أنت وأعلنت استعدادك أن لا تظلم حقوقها، وإلاَّ كنت مسؤولاً عنها، ومستعداً للمحاسبة والجزاء.

ـ ٥ ـ

هل أدَّىٰ الإِنسان الأمانة بعد التجربة والامتحان

عرفنا أنَّ الإِنسان قد حمل الأمانة بعد عرضها عليه، وأنَّه استعدَّ لأن يدخل رحلة الامتحان، ويتحمَّل نتائج اختياراته التي يختارها، فيحاسب ويجازىٰ.

فما الذي قدَّمه للحساب والجزاء بعد رحلة الامتحان؟

هل كان أميناً؟. وهل استجاب لنداء فطرته التي تناديه في جذور قلبه؟. وهل استمع إلى وصايا الله والرسول، وإلى بيانات كتاب الله وسنة رسوله؟. وهل أطاع الأوامر والنواهي، وازدجر بالزواجر والتحذيرات والإِنذارات وخشي الله وعقابه، وطمع بثوابه العظيم ورحمته الواسعة؟.

أمْ كان خائناً؟ فهضم الحقوق، وجحد الخالق المالك، وتعدَّىٰ وظلم، ولم يؤدِّ حقوق الأمانة التي حملها، ولم يستجب لنداء فطرته التي تناديه في جذور قلبه، ولم يستمع إلى وصايا الله والرسول، وإلى بيانات كتاب الله وسنّة رسوله، ولم يطع الأوامر والنواهي، ولم يزدجر رُغم وفرة الزواجر والتحذيرات والإِنذارات، ولم يخش الله وعقابه، ولم يكترث للإِطماع بثوابه العظيم ورحمته الواسعة يوم الدين؟.

لقد أثبت الإِحصاء بعد التجربة والامتحان أنَّ النسبة العظمىٰ من الناس قد كانوا:

أولاً: ظلومين لأنفسهم، وظلومين لحقوق الأمانات التي حملوها، واستعدُّوا أن يدخلوا رحلة الامتحان حولها، وأن يتحمَّلوا نتائج اختياراتهم، فيحاسبوا ويجازوا عليها.

ثانياً: جهولين، إذْ ظلموا أنفسهم، ولم يُصغُوا إلى نداء قلوبهم التي تناديهم من جذورها، ولم يُصْغوا إلى نداءات الله ورسوله في البيانات

والوصايا، والتحذيرات والإنذارات والإطماعات.

فصحَّ أن يُدْمَغَ الإنسان بأنَّه قد كان ظلوماً جهولاً، نظراً إلى واقع حال النسبة الغالبة من الناس.

وهو ما كشفه العلم الربَّاني قبل وقوعه، وصدق الله العليم الخبير عزَّ وجلَّ في سورة [الأحزاب: ٣٣]:
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَـةَ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢)﴾.

ولمَّا كان الغرض من عرض الأمانة عليه ليحملها ابتلاءَه وامتحانه، ثمَّ محاسبَتَه ومجازاته يوم الدين، على ما يقدّم في رحلة امتحانه، مع النظر إلى من آمن وعصىٰ بعين الرحمة والغفران رعايةً لضعْف بشريته قال تعالى في الآية التالية:
﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِيْنَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ الله غَفُوراً رَحِيماً (٧٣)﴾.

وبين المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، والمشركين الَّذين هم أخفّ الكُفَّار كُفراً سائرُ الكُفَّار، فهم في النار تحت المشركين، وفوق المنافقين، ولمَّا كان المشركون أخفَّ أهل الكفر كفراً، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [النساء: ٤]:
﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً (٤٨)﴾.

ولو كان شيء من الكفر أخفَّ من الشّرك لكان دونه، ولكان ممَّا يَغْفره الله، لكنَّه لا شيء من الكفر أخف من الشرك.

ولا يفهمَنَّ فاهم أنَّ قول الله عزَّ وجلَّ بشأن الأمانة، ﴿وَحَمَلَها الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جهولاً﴾ أنَّ وصف الإنسان بأنَّه كان ظلوماً جهولاً من أجل أنه

قَبِلَ تَحَمُّلَ الأمانة وحَمَلَها، بل من أجل أنَّه خَانَ الأَمَانة بعد أن حملها، وهذا هو المشاهد في سلوكه.

لقد أعطاه الله مرتبة التكريم، وفضَّله على كثير ممَّن خلق تفضيلاً عظيماً، وحمَّله الأمانة وهي مرتبة من التكريم جليلة، لكنَّه لم يرعَ حقوقها، بل ظلم فيها، وتعدَّى حقوق ذوي الحقوق، وفرَّط فيها، وتهاون بشأنها، وخالف وصايا خالقها ومالكها ومستأمِنِه عليها، وعصى أوامره ونواهيَه، وربَّما أشرك به أو جحده، فأثبت بهضم الحق وجحوده أنه خائن ظلوم، وأثبت بتغافله عن المصير السّيِّء الذي أعدَّه الله عزَّ وجلَّ للخائنين، وعن العقاب الأليم الذي يرتقبه أنَّه جهول.

— ٦ —

ما يجري في المخلوقات التي لم تتحمَّل الأمانة

بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال حَمْلَ الأمانة التي عرضها الخالق البارىء المصوِّر عليها، وأبت تحمُّل المسؤولية تجاهها، ويدخل في عموم اللواتي أَبَيْنَ تحمُّل الأمانة قبضةُ الطين التي دبَّت فيها حياة الإنسان، وهو كلُّ ما في ذات الإنسان نفسه من عناصر جَبْرِيَّةٍ مسخَّرةٍ لهويَّة الإنسان الداخلية ذات الإرادة الحرَّة، والمُمَكَّنَةِ من العمل والتحرُّك في المسخَّرات لها.

فكلُّ ما يجري فيها أو بها أو منها من أحداث له صورتان:

الصورة الأولى: أن تكون أموراً خاضعة لسلطان قضاء الله وقدره وأمره مباشرة، دون أن تمرَّ على إرادة أيِّ مخلوق منحه الله إرادة حرَّة، وسخَّر له ما سخَّر من كونه.

وهذا الذي يجري بمحض قضاء الله وقدره وأمره، مصحوب بحكمة من حِكم الله العظيمة، وهو آية من آياته.

أمَّا السنن ذات النظام المعتاد فالحِكَمُ الجليلة منها ظاهرةٌ لكلِّ ذي نظر، وأمَّا طوارىء الأحداث التي تأتي بالمصائب والنكبات للأحياء، فهي أيضاً لا تخلو من حِكَم عظيمة، يؤمن بها أهل الإيمان، ويكتشفها أهل البصيرة بتصاريف الله في عباده.

فما تتفجَّر البراكين، وتُهلك ما تُهلك، وتدمِّر ما تُدمّر. وما تَخِرُّ الصواعق، فتحرق ما تحرق، وتهلك ما تهلك، وتدمِّر ما تدمِّر. وما **تفيض الأنهر** وتسيل السيول وتُلقي السُّحبُ من أحمالها وأثقالها، فتُغرق ما تُغرق، وتُهلك ما تُهلك، وتجتاح ما تجتاح. وما تهتاج الرِّيح بعنفها وجبروتها فتدمِّر ما تدمَّر، وتقتلع ما تقتلع. وما تأتي به جيوش الحشرات والجراثيم والأوبئة من مصائب وبلايا.

كلُّ ذلك بقضاء الله وقدره وأمره، لحكمة العقوبة والجزاء، أو لحكمة التربية أو الابتلاء، وكلُّ ذلك في الحقيقة خيرٌ لا شرَّ فيه، وإذا جهل الناس ما فيه من خير، فالله الربُّ الخالق عليم حكيم.

الصورة الثانية: أن تكون أموراً خاضعة بتسخير الله وتمكينه لمن سخَّرها لهم:

أ ـ من ذوات الغرائز الفطرية التي تتحرَّك ضمن أنظمة غرائزها، وتحرُّكها أقرب إلى الجبر منه إلى الاختيار، ولا مسؤولية فيه على المتحرِّك، باستثناء ما تُدْرِكه بفطرتها، كظلم البهيمة للبهيمة من نوعها، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:
«لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاء من الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ».

يُقَاد: يُقْتَصّ.

الشاة الْجَلْحَاء: هِيَ التي لاَ قُرونَ لها.

أي: إذَا نطحت القرناء الجلحاء ظلماً وعدواناً.

ب ـ أو من ذوي الإرادات الحرَّة، الذين منحهم الله إراداتٍ حرَّة، وقدرات على التمييز بين الخير والشرِّ، ومكَّنهم من التصرف فيما سخَّر لهم، وجعل لهم الغرائز والأهواء والشهوات، ليبلُوَهم فيما آتاهم.

وهذا التسخير يَحْكُمُه سلطانُ القضاء والقدر، ولا يَجْرِي في الْمُسَخَّرَات إلاَّ مَا يُجْرِي فيه الله عزَّ وجلَّ تَمْكِينَه الْقَدَرِيَّ، وَلَو كان على خلاف أوامره ونواهيه الشرعيَّة الموجَّهَةِ للمكلَّفين.

إنَّ الكائنات المجبورة في السماوات والأرض والجبال، خاضعةٌ لسلطان الجبر بقضاء الله وقدره، فهي تتحرَّك ضمن أنظمتها بالقضاء الجبري دون أن يكون لها اختيارٌ وإرادة حرَّة في أيِّ شيء يكون منها، أو يكون فيها، أو يكون بها، وخاضعة بالتسخير الرَّبَّاني لما سخَّرها الله له، ولمن سخَّرها الله له.

نزرع الشجرة في الأرض فتمتصُّ الشجرة غذاءها من الأرض ضمن نظام تسخيرها، وتغذيها الأرض بعناصرها وبما لديها من ماء ضمن نظام تسخيرها الرَّباني، وتحيط بها الأشياء مما حولها فيقوم كلُّ شيء منها بوظيفته ضمن قانونه القدريّ، وضمن نظام التسخير الذي يهيمن عليه، ولا شيء منها يفعل بإرادته واختياره، ولا شيء منها يؤدِّي وظيفته بخلق الأمانة، الذي هو من صفات النفس ذات الإرادة الحرَّة.

ويطلق صاحب المدفع قذيفته، فتنطلق القذيفة ضمن قانونها القدريّ، فتؤدِّي عملها المرسوم لها، وتطاوع من سُخِّرَتْ له، دون إخلالٍ بأيَّةٍ صغيرة أو كبيرة من الصفات المسخَّرة فيها بتسخير الله، ولا تؤدِّي أعمالها بإرادة ولا اختيار، ولا بخلُق الأمانة الذي هو من صفات النفس ذات الإرادة الحرَّة والإدراك.

وهكذا تؤدِّي الكائنات المجبورة أعمالَها بقانونها الرَّباني الجبري، حسب الأمر الرَّباني المباشر، أو حسب التسخير لذوي الإرادات الحرَّة. فهي

لا تؤدِّي بإرادة حرَّةٍ واختيار، ولا بخلق الأمانة، مع أنَّ ما تؤدِّيه قد يكون أداء كاملاً غير منقوص، والسبب في ذلك أنَّه أثر من آثار سُنَنِ الله الثابتة فيما سخَّر من خلقه لبعض خلقه.

— ٧ —

بيان القرآن وبيان السنة في الأمر بالأمانة والتحذير من الخيانة

بعد أن ذكر الرسول ﷺ مؤكِّداً أنَّ الدافع إلى فضيلة الأمانة خلُقاً وسلوكاً أمر فطريّ أنزله الله في جَذْرِ قلوب الرِّجال، وهذا يستلزم أن تكون الخيانة رذيلةً يستنكرها كُلُّ سَوِيّ بقي على فطرته من الناس، ذكر صلوات الله عليه أن تعاليم القرآن ووصاياه، وبيانات السنة ووصاياها، جاءت مطابقة لما تنزع إليه هذه الفطرة السويَّة في الناس.

فلننظر في بعض هذه التعاليم والبيانات والوصايا:

١ ـ أبان الرسول ﷺ أنَّ من آثار الإيمان الصحيح في سلوك المؤمن أن يأمن جارُه كيدَه وخيانَته وشروره وظلمه، فمن لم يأمن جاره ذلك منه فهو مجروح الإيمان، عديم الأمانة، إذ الإيمان والأمانة ينبتان من مغرز واحد هو حبّ الحقِّ والاعتراف به ورعايته لأهله.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنَّ النبيّ ﷺ قال:
«وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ».

قيل: مَنْ يا رسول الله؟
قال: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».

بوائقه: أي: دواهيهُ، وغوائله، وشروره، وخياناته.

٢ ـ وأبانَ الرسول ﷺ أنَّ المؤمن الصادق الإيمان هو الأمين على دماء الناس وأموالهم.

روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:
«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُوْنَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَىٰ دِمَائِهِمْ وأَمْوَالِهِمْ».

وروى البيهقيّ في شعب الإيمان بإسناد حسن عن أنسٍ قال: قلَّما خطبنا رسول الله ﷺ إلاَّ قال:
«لَا إيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَه».

ورواه أيضاً الإمام أحمد في مسنده، والضياء.

فربط رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث الأمانة وكون الإنسان مأمون الجانب بالإيمان، وجعل عدم الأمانة مؤثِّراً في صحَّة الإيمان.

٣ ـ وخاطب الرسول ﷺ الرجال بأن يتَّقوا الله في النساء، وأبان لهم أنَّهم أخذوهنَّ بأمانةِ الله، واستحلُّوا فروجَهُنَّ بكلمة الله، فَهُنَّ أمانة عندهم استأمنهم الله عليها.

فقد جاء في خطبته ﷺ في حجة الوداع قوله:
«فَاتَّقُوا الله في النِساءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِـأَمَانَـةِ الله، واسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله».

من حديث طويل رواه مسلم عن جابر بن عبدالله.

٤ ـ والأمانة من أوائل السلوك الإسلامي الذي دعا إليه الإسلام، مع بدايات الدعوة، لأنها من أسس الأخلاق الاجتماعية الكبرى.

ففي قصة سؤال هرقل عظيم الروم في الشام لأبي سفيان بن حرب، وكان على رأس وفد عنده من قريش، عن النبيِّ محمَّد ﷺ، روى البخاريّ عن عبدالله بن عباس قال: أخبرني أبو سفيان أنَّ هرقل قال له:
(سألْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُ بالصلاةِ، والصِّدْقِ، والْعَفَافِ، والْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وأَدَاءِ الأَمَانَةِ).

قال: «وهذه صفة نبيّ».

٥ ـ وجعل الرسول ﷺ الخيانة من علامات النفاق، والنفاق مناقض للإيمان.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:
«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإنْ صَامَ وَصَلَّىٰ وَزَعَمَ أَنَّهُ مسلم».

وروى البخاريّ ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ:
«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وَإذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

٦ ـ ونهى رسول الله ﷺ عن معاملة الخائن بالخيانة.

عن أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال:
«أَدِّ الأَمَانَةَ إلَىٰ مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»

رواه الترمذي وأبو داود

٧ ـ وأَمَرَ الله المؤتَمَنِين من المؤمنين على الحقوق المالية من ديون وغيرها، بأن يُؤَدُّوا الأمانات إلى أهلها، والمؤتَمَنين على الشهادة أن لَا يكتموا ما تحمَّلوا من شهادات، فقال الله عزَّ وجلَّ في آية المداينة في سورة [البقرة: ٢]:

﴿وَإنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ، فَإنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾.

فكتمان الشهادة التي يتسبَّب كتمانها في هضم الحقِّ خيانة يأثم بها قلب كاتمها.

٨ ـ وذكر الله من صفات المؤمنين المفلحين أنَّهم لأماناتهم وعهدهم

راعون، فقال عزَّ وجلَّ في سورة [المؤمنون: ٢٣] مبيّناً الوصف الخامس من أوصافهم:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)﴾.

وأبان عزَّ وجلَّ في سورة [المعارج: ٧٠] أنَّ هذا الوصف هو من أوصاف الَّذين يَحْمُون أنفسهم في الحياة الدنيا من الْهَلَع، وهو الجزع عند مسِّ الشرِّ، والشحُّ الشديد عند سعة الرزق ووفرة المال.

٩ ـ وشنَّع الله عزَّ وجلَّ على معظم اليهود من أهل الكتاب بأنَّ من خلائقهم عدم أداء الأمانات لغير من كان على ملّتهم، ويرون ذلك أمراً مُباحاً لهم كذباً على الله وزوراً، فقال عزَّ وجلَّ في سورة [آل عمران: ٣]:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

ويغلب وجود الفريق الثاني في اليهود، لأنَّهم هم الذين يقسِّمون الناس إلى قسمين: يهود، وأمِّيين.

١٠ ـ وَوَجَّه الله عزَّ وجلَّ الأمر للَّذين آمنوا بأن يؤدُّوا الأمانات إلى أهلها، فقال عزَّ وجلَّ لهم في سورة [النساء: ٤]:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ. إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨)﴾.

فالله عزَّ وجلَّ يأمر في هذه الآية أمراً جازماً بتأدية كلِّ الأمانات إلى أهلها، ومن الأمانات إسناد الأمور إلى المؤهلين لها، القادرين على القيام بها بأمانة، كسلطات الحكم، والقضاء، وتنظيم النظم، وتقديم المشورات السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية وغيرها.

فإسناد الأمور ألى غير أهلها المؤهلين للقيام بها بأمانة خيانة، ومعصية

لله، ولا يدفع إلى ذلك إلَّا مصلحة شخصيَّة أو هوى وجهل وغباء.

والقضاء أمانة، والحكم بغير العدل خيانة، وهضم للحقوق، ومعصية لله عزَّ وجلَّ.

ومع أنَّ النص في هذه الآية عامٌّ يَشْملُ كلَّ الأمانات، إلَّا أنَّ موضوع أداء أمانة الحكم والسلطان لمن هم أهل له، ومؤهلون للقيام به بأمانة يعتبر من أوَّل ما يُوَجَّه له النظر فيها، أخذاً من توابعه، ففي التوابع الأمر بالحكم بالعدل، ثم الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر من المؤمنين، فهي توابع تشعر بالمقصود الرئيسي من الأمر بتأدية الأمانات إلى أهلها.

١١ ـ وأبان الرسول ﷺ أنَّ الإمارة وسلطة الحكم أمانة، فمن الخيانة أن يطلبها من لم يكن أهلاً لها، ومن الخيانة إسناد الحكم إلى غير أهله.

روى مسلم عن أبي ذرّ قال: قلتُ: يا رسول الله، ألاَ تَسْتَعْمِلُني؟ فضرب بيده على مَنْكبي، ثم قال:

«يَا أَبَا ذَرّ، إنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإنَّها أَمَانَةٌ، وإنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلاَّ مَنْ أَخَذَها بِحَقِّها وَأَدَّى الذي عَلَيْهِ فِيها».

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: بينما كان النبي ﷺ يُحدِّث، إذْ جاءه أعرابيٌّ فقال: متىٰ الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمعْ، حتى إذا قضى حديثه قال:

«أيْنَ أُرَاهُ السَّائِلِ عَنِ السَّاعَةِ؟».

قال: ها أنا يا رسول الله.

قال: «فإذا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَة».

قال: كيفَ إضَاعَتُها.

قال: «إذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعة».

وروى الحاكم أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«مَن اسْتَعْمَلَ رَجُلاً عَلَىٰ عِصَابَةٍ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَىٰ لله مِنْهُ فَقَدْ خَانَ الله وَرَسُولَهُ والمؤمنين».

فهذه الأحاديث تدلُّ على أنَّ سلطة تولية الولايات، وإسناد الإمارات أمانة، وأنَّ إعطاءها إلى غير أهلها الأكفياء لها خيانة.

وعلى هذا فمن الأمانة أن لا يطلب الولاية من ليس كفؤاً لها، وحين يكون المجتمع مجتمعاً إسلاميًّا فالواجب فيه أن لا يسأل الإمارة أحد، وأن تترك الحريَّة التامَّة للمجتمع المسلم أن يبايع الأصلح من أهل الكفاية للحكم، وتترك الحريَّة التامَّة للحاكم المسلم أن يختار عمَّاله الأكفياء دون أيَّة مؤثرات أو مطالب مُلحَّة، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن سمرة عن طلب الإمارة.

روى البخاريّ ومسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا».

١٢ ـ وأبان الرسول ﷺ أنَّ من استأمن أحداً على سرِّه، فهو أمانة عنده، ويجب عليه أن يحفظه له ولا يُفْشِيه، ما لم يكن فيه إضرار بمصالح المسلمين العامة، أو سياسة الدولة الإسلامية أو هضم حقّ، وهذا الشرط مستفاد من قواعد الإسلام الكبرىٰ وأحكامه الكليَّة، ومن نصوص خاصة سيأتي بيان بعضها.

روى الترمذيّ وأبو داود عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ أنه قال:
«إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَة».

أي: ما حدَّث به مما يسوؤه إعلانه وإفشاؤه فهو أمانة استودعها سرّ من ألقى إليه الحديث.

وهذه الأمانة يجب حفظُها وعدم إفشائها، ولذلك كان من المعروف

عند الناس أنَّهم إذا أرادوا أن يوصوا جلساءهم بحفظ ما يجري في مجالسهم وعدم إفشائه قالوا: المجالس بالأمانات، وهذا القول مأخوذ من كلام الرسول ﷺ.

روى أبو داود عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ:
«الْمَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ، إلاَّ ثَلاَثَةَ مَجَالِسَ: سَفْكَ دَمٍ حرام، أو فَرْجٍ حَرَامٍ، أَوِ اقْتِطَاعَ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ».

ويقاس على هذه المجالس أشباهها، كالمجالس التي تدبّر فيها المؤامرات ضدَّ المسلمين، فهي مجالس لا حرمة لها، بل التستّر عليها خيانة عظمى للأمانة التي استؤمن عليها كلُّ فرد من أفراد المسلمين، وهي أن يكون حافظاً راعياً لجماعة المسلمين، أميناً على مصالحهم، وعيناً يقظة ساهرة تراقب مكايد أعدائهم، ومؤامرات الذين يتآمرون ضدَّهم: ضدَّ دينهم، أو ضدَّ جماعتهم، أو ضدَّ قادتهم الصالحين.

١٣ - ونهى الله عن الخيانة وحذَّر منها فقال عزَّ وجلَّ في سورة [الأنفال: ٨]:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)﴾.

١٤ - وأبان الله عزَّ وجلَّ أنّه لا يحبّ الخائنين، وأنَّه لا يحبُّ من كان خوَّاناً أثيماً.

١٥ - ولشدَّة حرص الرسول ﷺ على أمانة المسلمين كان إذا ودَّع شخصاً أو جيشاً دعا لمن يودِّعه، فاستودع الله دينه وأمانته وخواتيم عمله.

عن عبدالله بن عمر قال: كان النبيّ ﷺ إذا ودَّع رجلاً أخذ بيده، فلا يدعُها حتى يكون الرجل هو يدع يد النبيّ ﷺ ويقول:
«أَسْتَوْدِعُ الله دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ».

رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه بإسناد صحيح.

وعن عبدالله الخطميّ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يستودع الجيش قال:

«أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكُمْ وَأَمَانَتَكُمْ وَخَوَاتِيمَ أَعْمَالِكُمْ».

رواه أبو داود بإسناد صحيح.

١٦ ـ وأبان الرسول ﷺ أنَّ الخازن المسلم الأمين، إذَا أعطىٰ ما أمَره بعطائه وليّ المال من صدقة أو نحوها وافراً طيبة به نفسه فهو أحد المتصدِّقين، وله من الأجر مثل أجر المتصدِّق.

فعن أبي موسى عن النبي ﷺ أنَّه قال:

«إنَّ الْخَازِنَ الْمُسْلِمَ الأَمِينَ الَّذِي يُعْطِي مَا أُمِرَ بِه، فَيُعْطِيه كَامِلاً مُوَفَّراً، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَهُوَ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ».

رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي

المجالات التي تدخل فيها الأمانة والخيانة:

من تتبُّع النصوص ومن ملاحظة مفهوم الأمانة والخيانة، نجد أنَّهما يدخلان في كلِّ مجالٍ من مجالات السُّلوك الإنسانيّ الظاهر والباطن.

وأشير بالتفصيل إلى المجالات التاليات:

١ ـ الأموال.

٢ ـ الأعراض.

٣ ـ الأجساد والنفوس.

٤ ـ المعارف والعلوم.

٥ ـ الولاية.

٦ ـ الشهادة.

٧ ـ القضاء.

٨ ـ الكتابة.

٩ ـ الأسرار.

١٠ ـ الرسالات.

١١ ـ السمع والبصر واللسان وسائر الحواس الظاهرة والباطنة.

١٢ ـ العقائد والأفكار والنيَّات وحركات النفس الإرادية.

١٣ ـ القلوب وما تضمر، والصدور وما تخفي من كلِّ ما يخضع للإرادة الحرَّة في الإنسان.

إلى غير ذلك.

ـ ٨ ـ

قبض الأمانة بمعنى الدافع الفطريّ النزّاع إلى أداء الأمانات إلى أهلها

بعد أن أكَّد الرسول ﷺ في الحديث الذي نتفهَّم ما فيه من مضامين أنَّ الدافع إلى التحلِّي بخلُق الأمانة بوصفه فرعاً من فروع حبّ الحقِّ والاعتراف به لأهله، أمرٌ فطريٌّ أنزله الله في جذر قلوب الرجال.

أخبر صلوات الله عليه أن هذا الخلُق الكريم سيتعرَّض في آخر الزَّمن إلى القبض من أعماق القلوب بفساد الناس، وفساد التعامل بينهم، وطغيان المادَّة، والغفلة عن يوم الدين وما فيه من حساب وجزاء، ونُمُوّ الأنانية المفرطة المتعلقة بالحياة الدنيا.

وأبان صلوات الله عليه أنَّ هذا الفساد الذي يُفْضي إلى قبض الأمانة من قلوب الرجال يأتي متدرِّجاً على مراحل، ولا بدَّ أن نفهم أنَّ القبض يكون بعد ولادة الإنسان على سواء فطرته أوَّلاً، ثمَّ يأتي القبض بمؤثرات العوارض من البيئة والأهواء والشهوات وممارسات السلوك المنافي لخلق الأمانة، فهو قبضٌ بأسباب من الناس أنفسهم، وبما أنَّ الفساد يأتي متدرجاً فقبض الأمانة يأتي متدرجاً.

ففي المراحل الأولى تقبض الأمانة حتى لا يبقىٰ منها إلَّا الأثر القليل.

وفي المراحل التالية تقبض قبضاً آخر حتىً لا يبقىٰ منها إلاَّ مظاهر الرّياء والنفاق، والتَّصنُّع الخادع الذي يخيّل الإنسان به للآخرين أنه أمين، ليخدع من يغترّ به، حتى إذا أمِنَه سَطَا على حقه وهضمه ثمَّ جحده، ثمَّ عاد إلى التظاهر بالأمانة وبراءة الذِّمَّة، وأخذ يستُر نفسه بالمعاذير الكواذب، ليعيد الكرَّة، فيسطو على صيد جديد.

وقد صوَّر الرسول ﷺ هذه المرحلة بمثال النُّفْطَات المنْتَبِرَات التي يُحدثها الجمرُ على الجلد، فيظهر لها ضخامة في مرأى العين، إلاَّ أَنَّها منتفخة بغشٍ وخديعة، وحقُّها أن تُبْزَل أو تثقب ليخرُج ما فيها ممَّا لا خير فيه.

ثمَّ تأتي مرحلة تنتهي فيها صور الخداع هذه، إذْ ينكشف أربابُها، فلا يأمن الناسُ بعضهم بعضاً على شيء، ويتبايعون فيما بينهم بغاية الحذر والتعامل القائم على تخوين بعضهم بعضاً، وأنَّه لا أمين فيهم، ولا يكاد أحدٌ منهم يؤدِّي الأمانة.

ويغدو الأمين بين الناس مخلوقاً نادراً جدًّاً، فيتحدَّث الناس عنه كما يتحدَّثون عن الغرائب والعجائب النادرة، وكما يتحدَّثون عن نوادر الحجارة الكريمة، حتى يقال: إنَّ في بني فلان رجلاً أميناً.

وبانعدام الأمانة ينعدم القرض الحسن، وتنعدم الثقة بالشركاء، وتنعدم الثقة بجودة الصناعات، ومن مظاهر ذلك في عصرنا الحاضر الذي نعيشه الدعايات الكواذب لترويج السِّلع المليئة بالغش.

وحين تقبض الأمانة من جذر قلوب الرجال، لا يبقى في ظاهر الناس ما يدلُّ عليها، حتى ترى الرجل الجلد القوي، الكيِّس الظريف، العاقل في مظهره، فلا يدلُّك ذلك على أنَّه أمين، فلا تستطيع أن تعامله على أساس الثقة به، لأنه ليس في قلبه مثقال حبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إيمان.

لقد فقد جذور الإيمان والأمانة معاً[1].

د ـ ممَّا يستفاد من الحديث:

يستفاد من هذا الحديث فوائد كثيرة منها ما يلي:

١ ـ مما فطر الله البشر عليه في عقولهم وأعماق وجدانهم فطرة الأمانة، وهذه الفطرة تتفق ولا تختلف مع ما نزل في كتاب الله وجاء في سنة رسول الله ﷺ.

٢ ـ يأتي على الناس زمان تفسد فيه الأوضاع الاجتماعية فساداً كبيراً، حتَّى تؤثر على فطرة الأمانة فيهم، فتسلب منهم هذه الفطرة بتأثير استجابتهم لأهوائهم ولمؤثرات البيئة شيئاً فشيئاً، حتى لا يبقى منها إلَّا مظاهر كاذبة فارغة المضمون، وهذه المظاهر هي من قبيل الرياء والنفاق ووسائل المخادعة.

وبدايات هذه النبوءة النبوية قد أخذت تظهر في المجتمعات.

٣ ـ من وسائل التربية النبوية استخدام الوسائل التعليمية التوضيحية:

فمنها التشبيه بالحسيات، وعرض صورة المشبه به في مشهد حسّي.

---

(١) باستطاعة الباحث أن يستكمل جوانب أخرى حول الأمانة والخيانة أو ردتها في كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» في مبحث «الأمانة» على أنني ذكرت هنا أموراً ومفاهيم وتفصيلات لم أذكرها هناك، فاللّهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً.

البَلاغة وَالإعـرَابْ

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

١ ـ تأكيد الخبر بلفظ (إنَّ) في جملة «إنَّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال» لأنَّ مضمون الخبر يشتمل على أمر يتعلَّق بما في عمق النفس، فقد يُستغرب ويُستبعد، فَحَسُنَ تأكيد الخبر معه للمخاطب، لِلَفْتِ نظرِه إلى أنَّه حقيقة مؤكَّدة، وليست حديثاً من الظنِّ.

٢ ـ كنَّى الرسول ﷺ عن تمكُّن فطرة الأمانة في النفوس، وأنَّها موجودة في الإنسان منذ طفولته الأولى، بعبارة «نزلت في جذر قلوب الرجال» لأنَّ ما ينزل في الجذور (= الأصول) يكون في العادة متمكِّناً ثابتاً في العمق، ويكون مرافقاً لأوائل النشأة، إذْ جذور النباتات تتشعَّب في الأرض قبل ظهور سوقها وفروعها على سطح الأرض.

٣ ـ الإيجاز بحذف ما يمكن أن يعلم:

● في قوله: «ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة» أي: ثم نزل القرآن على وفق ما نزل في جَذْر قلوب الرجال، وجاءت بيانات السنَّة كذلك فعلموا من القرآن وعلموا من السنة حقَّ الأمانة، وما يجب فيها، وقبح الخيانة وما يحرم منها.

● وفي قوله: «كجمر دحرجته على رجلك فَنَفِطَ فتراهُ منتبراً» أي: فنفِط مكان دحرجة الجمر على الجلد.

٤ ـ تشبيه أمرٍ معنويّ بأمر حسّي لتقريب تصوُّر الحقيقة، وإدراك نسبة كمِّيَّتِها، ففي موضعين تشبيهان عاديان حذف منهما وجه الشبه فقط، وهما:

أ ـ «فيظلُّ أثرها مثل الْوَكْت» أي: في المقدار الذي بقي.

ب ـ «فيظلُّ أَثَرها مثل الْمَجَل» أي: في الكيف، إذْ هو انتفاخ غير ذي مضمون صالح.

وفي موضع ثالث تشبيهٌ من نوع تشبيه التمثيل، وهو:

«كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً» لأنَّ وجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدِّد، إذْ فيه أنَّ الأمانة تصبح بنار الأهواء والشهوات واتباع الضالين المضلين التي تتابع على النفس بسرعة بمثابة نفَطات تَظْهر بالتتابع في مواضع الأمانة من النفس، فتنتفخ وتنتبر، وليس فيها مضمون أمانة.

٥ ـ البيان التربوي الحسيّ باستخدام وسيلة إيضاح مادِّيّة، مع البيان الكلامي، وذلك في عمل الرسول ﷺ الذي عبَّر عنه الرَّاوي بقوله: «ثمَّ أخذ رسول الله ﷺ حصىً فدحرجَهُ على رجله».

٦ ـ كان الرسول ﷺ يخاطب بهذا الحديث جمعاً من أصحابه، ثم وجَّه الخطاب توجيه خطاب المفرد، فقال:

«كجمر دحرجتَه على رجلكَ فنفط فتَراهُ منتبراً» وفي هذا النوع من الخطاب اجتذابٌ لانتباه كلِّ فرد من المخاطبين، كأنَّه هو المقصود بالخطاب، مع ما فيه من جمال التنويع، والخروج عن نسق الوتيرة الواحدة المملَّة.

ويمكن أن تُستنبط وجوه أخرى والله أعلم.

ثانياً ـ من الإعراب

١ ـ «إنَّ الأمانة نزلت» بكسر همزة «إنَّ» بعد فعل حدثنا خلافاً للظاهر

المقتضي فتح همزتها، لأنَّها هنا على حكاية لفظ الرسول ﷺ، فالرسول إنما قال: «إنَّ الأمانة» والراوي «حذيفة» قال من عنده حدَّثنا، أي: حدثنا فقال: «إنَّ الأمانة».

٢ ـ قول الرسول ﷺ: «ثم ينام النومة» فيه دليل على أن مرحلة القبض الثاني مرحلة متراخية عن مرحلة القبض الأول، إذْ لفظ «ثم» للترتيب مع التراخي.

٣ ـ «كجمر دحرجته على رجلك» بدل من قومه: «مثل المجَل» أي: مثل المجَـل مثل جمر دحرجته.

٤ ـ جملة «يتبايعون فلا يكاد..» في محلّ نصب خبر «يصبح» لأنَّها من أخوات كان ترفع الاسم وتنصب الخبر.

٥ ـ «ما أجلده» و«ما أظرفه» و«ما أعقله» صيغ تعجب، وإعـرابُ أجزائِها كما يلي «ما» مبتدأ بمعنى شيء عظيم يتعجَّب منه. «أجلد» فعل ماضٍ مبني على الفتح لإنشاء التعجب، والفاعل ضمير مستتر يعود على المبتدأ «ما» والضمير الظاهر في محل نصب مفعول به، وجملة «أجلده» في محل رفع خبر المبتدأ. وكذلك سائرها، أي: شيء عظيم أجلده وأظرفه وأعقله.

٦ ـ «من إيمان» تمييز لكلمة: «مثقال» مجرور بحرف الجر (من).

الحديث الثامن عشر

عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنَّ رسولَ الله ﷺ سَمِعَ جَلَبَةً[1] بِبَاب حُجْرَتِهِ فَخَرَجَ إليهم فقال:

«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلاَ يَأْخُذَنَّهُ، فإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ».

وفي رواية فقال:

«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ يَذَرْهَا».

أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(١) جَلَبَةً: أي: أصوات ناسٍ يتراجعون الكلام في خصومة أو غيرها، وأصل (الجَلَبة) يدلُّ على جملة أصوات يسمعُها الإنسان، فَهِمَ منها شيئاً أو لم يَفْهم.

أ ـ ترجمة راوية الحديث (أمُّ سلمة):

١ ـ هي أمّ المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ، أمُّ سَلَمَةَ هند بنت أبي أميَّة بن المغيرة، مكيَّة من بني مخزوم.

٢ ـ كانت قبل أن يتزوَّج بها رسول الله ﷺ تحت أبي سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ولها منه: (سلمة ـ وعمر ـ وزينب ـ ورقيَّة)، وكان أبو سلمة وحمزة عمّ الرسول، والرسول ﷺ إخوة من الرضاعة، أرضعتهم مولاة لأبي لهب.

٣ ـ كانت هي وزوجها من أوائل من أسلم في مكة، وهاجـرا مع من هاجر إلى الحبشة، ثم رجعا إلى مكة مع الذين رجعوا من الهجرة الأولى، وحين رجعا دخل زوجها في جوار أبي طالب عمّ النبيّ ﷺ، وكان خاله، فأمُّه بَرَّة بنت عبد المطلب.

٤ ـ ولمَّا بدأ أصحاب الرسول ﷺ الهجرة إلى المدينة، عزم زوجها على الهجرة إلى المدينة، وعزمت هي أيضاً على ذلك، لكنَّ أولياءها من أهلها منعوها من الهجرة معه، فبقيت حزينة كئيبة، تخرج كلّ غداة فتجلس بالأبطح، فما تزال تبكي حتى تمسي، وبقيت كذلك قرابة سنة، ورآها بعض أقاربها حزينة فاستعطف أهلها فأذنُوا لها بأن تلحق بزوجها فهاجرت ولحقت به.

٥ ـ بعث الرسول ﷺ زوجها عبدالله بن عبد الأسد أميراً على سريَّة

لتأديب بني أسد، فعاد منتصراً غانماً، لكنّه توفي رضي الله عنه بعد هذه السريَّة، إذْ انْتَقَض عليه جرح كان قد أصيب به يوم بدر واندمل يومئذ، وكانت وفاته لثلاث مضين من جمادى الآخرة سنة ثلاث من الهجرة.

٦ ـ بعد أن أنهت رضي الله عنها عدَّتها خطبها أبو بكر فاعتذرت، ثمَّ خطبها عمر فاعتذرت.

ثم بعث رسول الله ﷺ من يخطبها له، فقالت: إنِّي امرأةٌ مُسنَّة، وأُمُّ أيتام، وشديدة الغيرة.

فبعث إليها الرسول ﷺ: «أَمَّا قولك: إنَّك امرأةٌ مُسنَّةٌ، فأَنَا أَسَنُّ منك، وأمَّا قولُك: إنِّي أُمُّ أيتام، فإنَّ كَلَّهُمْ على الله ورسوله (أي: فَإِنَّ تَحمُّل يُتْمِهم على الله ورسوله، والكَلُّ في اللُّغة: اليتيم والعيال) وأمَّا قولُكِ: إنَّك شديدة الغَيْرة، فإنِّي أدعو الله أن يُذْهِبَ عنك ذلك.

فوافقت وتزوَّجها الرسول، وغدت أمّ المؤمنين، وقد زوَّجه إيَّاها ابنُها سلَمة بن أَبي سَلَمة، وكان ذلك في ليالٍ بقين من شوَّال من السنة التي مات فيها زوجُها أبو سلمة، وهي سنة ثلاث من الهجرة.

٧ ـ كانت رضي الله عنها عاقلة وذات رأي حصيف، ومن ذلك أنَّ أصحاب الرسول ﷺ لمَّا تلكَّؤُوا يوم الحديبية في تنفيذ أمره بعد عقد الصلح مع مشركي قريش، في أن ينحروا ويتحلَّلوا من عمرتهم باعتبار أنَّهم مُحْصَرون، ودخل عليها الرسول ﷺ وشكا إليها تباطُؤَهم في الاستجابة لأمره، أشارت عليه بأن يخرج إليهم فلا يكلِّم منهم أحداً، حتى ينحر بُدْنه، ويدعو حالقه فيحلق.

ففعل صلوات الله عليه ما أشارت به عليه، فتبعه الناس، فنحروا وتحلَّلوا من عمرتهم.

٨ ـ روى عنها كثير من الصحابة والتابعين، منهم ابن عباس، وعائشة، وابنتها زينب، وابنها عمر، وابن المسيّب.

٩ ـ توفيت سنة تسع وخمسين للهجرة، ودفنت بالبقيع، وكان عمرها أربعاً وثمانين سنة.

(جمعت هذه الترجمة من أخبارها في سيرة ابن هشام، وحياة الصحابة، ومشكاة المصابيح، وبعض كتب التراجم)

* * *

ب ـ اللُّغة والمعنى المراد:

١ ـ **«إنَّما أنَا بَشَر»**: أي: ما أنا إلَّا واحد من الناس، أتصف في تكويني وأصل خلقي بصفات الناس، من الْخَلْقِ والحياة والموت، والأكل والشرب والنوم، وسائر حاجات الناس البشرية، والنسيان، والحكم على الظاهر، وعدم علم الغيب إلَّا ما يعلِّمني الله منه.

وهذا يفيد أنَّه ليس مَلَكاً ولا إلَهاً يعلم الغيب، وليس له قوى خارقة خارجة عن طبائع البشر، إلَّا ما يجريه الله على يديه من الخوارق، أو ما يأذن له بإجرائه مما أعطاه مفاتيحه.

وكلمة بشر تطلق على الإنسان واحداً كان أو مثنى أو جمعاً، مذكَّراً أو مؤنّثاً، فيقال: هو وهي وهما وهم وهنَّ بشر.

وقد يثنَّىٰ فيقال: بشران، ويجمع على أبشار.

ويقال لظاهر جلد الإنسان: بَشَرَة، وبشَر، وقد يكون بَشَر جَمْعَ بشرة، مثل شجر جمع شجرة.

٢ ـ **«وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ»**: أي: ترفعون إليَّ أمور خلافاتكم الحقوقيَّة، التي تتجادلون فيها، لأحكم بينكم بما أنزل الله في ضوء ما تقدِّمون من أدلَّةٍ وَبَيِّنات.

والخصومة في اللُّغة: الجدل. تقول لغة: خاصمت الرجل مخاصمةً وخصاماً، إذا جادلته.

ويقال: خَاصَمَ فلان فلاناً فَخَصَمَهُ يَخْصِمُه خَصْماً، إذَا غلبه بالحجَّة.

وكلّ فريق من المتخاصِمِيْنَ يُطلق عليه لفظ «خَصْم» وهو يطلق على المفرد والمثنَّى والجمع والمذكر والمؤنث، وقد يُثَنَّى ويُجْمع، فيقال خصمان وخصوم، قال عزَّ وجلَّ في سورة [ص: ٣٨]:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ. قالُوا: لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّراطِ (٢٢)﴾.

نبأ الخصم: هم فريقان متخاصمان.

خَصْمان بغى بعضنا على بعض: فقد جاء الخصم هنا مثنًّى، والمراد فريقان متخاصمان.

٣ ـ «ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ»:

لعلَّ: هي هنا بمعنى توقُّع أمرٍ ممكن الحصول، فهي هنا نظير «قد» حينما تأتي بمعنى التوقع.

قال الجوهري: لعلَّ كلمة شكّ. والظاهر أنَّ مراده ما ذكره النحاة من أنَّها لتوقُّع أمرٍ ممكن الوقوع، لكنَّ احتمال الوقوع أمر غير مجزوم به إثباتاً ولَا نفياً.

وجاء في كتب اللُّغة أنَّ «لعلَّ» كلمة رجاء وطمع وشك.

وبالنظر إلى استعمالاتها يظهر أنَّ الأصل في دلالتها أن تكون لبيان أنَّ ما دخلت عليه أمرٌ ممكن، فإذا وقع فهو أحد الاحتمالات المتوقَّعة في الإمكان.

ثم ربَّما تحمل معنى ترجيح جانب الوقوع، فإن كان أمراً محبوباً رافقه الرجاء والطمع. وإن كان أمراً غير محبوب رافقه الإشفاق والتخوُّف.

ومع دلالتها على توقّع أمر ممكن الحصول ربَّما تحمل معنى التعليل،

ولذلك ذكر جماعة من النحويين أنَّها تكون للتعليل، منهم الأخفش والكسائي. وعلى هذا المعنى نستطيع حمل نصوص قرآنية كثيرة، مثل: (لعلكم تتقون ـ لعلكم تشكرون ـ لعلكم تهتدون ـ لعلكم تعقلون ـ لعلكم تتفكرون ـ لعلكم تذكرون ـ لعلكم تفلحون ـ لعلكم ترحمون).

وربما تحمل معنى الاستفهام مع معناها الأصلي، أو يكون الاستفهام فيها مقدّراً تقول: لعلَّكَ فعلت كذا؟ أي: هل فعلته؟

أَلْحَنَ: أفعل تفضيل، أي: أعرف بسوق حُجَّته، وأَفْطَن لها، وأقدر على الجدَلِ والمخاصمة والتَّغلُّب على الخصم.

وهو من «اللَّحَنِ» بفتح الحاء، وهي الفطنة.

أمَّا اللَّحْن بسكون الحاء فهو الخطأ والميل عن صحيح المنطق. وقيل: (اللَّحَن واللَّحْن) كلاهما يُستعملان في الفطنة وفي الخطأ.

تقول لغة: لَحَنَ يَلْحَنُ لَحْناً وَلَحَناً. وتقول: رَجُلٌ لَحِنٌ، مثل فَطِنٍ، أي: عارفٌ بعواقب الكلام ظَريف.

بِحُجَّتِهِ: الحُجَّةُ ما يُقَدَّمُ من دليلٍ لإثبات الدعوى، سواءٌ أكان حقاً في باطن الأمر، أو باطلاً مزيّفاً بزُخْرف القول.

ولذلك وصف الله المبطلين بأنَّ حجَّتهم داحضة، أي: باطلة زائلة، فقال عزَّ وجلَّ في سورة [الشورى: ٤٢]:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ في اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)﴾.

وقدَّم الله عزَّ وجلَّ صورةً عن الحجَّة الباطلة احتجاجَ منكري البعث على صحَّة إنكارهم له، أنَّهم يطالبون بالإتيان بآبائهم الذين ماتوا فلا يستجاب لطلبهم، قال تعالى في سورة [الجاثية: ٤٥]:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ. وَمَا

لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا: ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ: اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾.

أمَّا «**البرهان**» فهو الدليل القاطع ظاهراً وباطناً، فلا بُدَّ أن يكون خالياً من الزَّيف، لذلك طالب الله المشركين بأن يأتُوا ببرهانهم على ما يدَّعون فقال عزَّ وجلَّ في سورة [النمل: ٢٧]:

﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ؟! قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)﴾.

وطالب الله اليهود والنصارى بأن يقدِّموا برهانهم على ادّعائهم أنه لن يدخل الجنَّة إلاَّ مَنْ كان هوداً أو نصارى، فقال عزَّ وجلَّ في سورة [البقرة: ٢]:

﴿وَقَالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾.

فالحجَّةُ: جنس عامٌّ يشمل الدليل الحقّ والدليل الباطل، والبرهان نوع خاص منه، وهو لا يطلق إلاَّ على الدليل الحقِّ القاطع، فبينهما عموم وخصوص مطلق.

فتعريف بعض اللُّغويين الحجَّة بالبرهان تعريف غير دقيق، إذْ هو من تعريف العامّ بالخاص، كتعريف الحيوان بالإنسان. وكذلك قول الأزهري: الحجَّة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، فهو تعريف لا يصلح، لأنَّ الحجَّة الداحضة التي تحدَّث القرآن عنها لا يتحقَّق بها الظفر عند الخصومة.

أمَّا قول بعضهم في تعريف الحجَّة: هي الدليل والبرهان فصالح إذا حملنا ذلك على معنى أنَّ كلاً من الدليل والبرهان يُسَمَّىٰ حجَّةً.

٤ ـ «فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ»:

أي: فأحكم له بحسب ما أسمع منه من حُجَّةٍ يقدِّمها، يكون فيها أقدر على تزيين ادِّعائه من خصمه.

فالقضاء: هو الحكم، والفصل في الأمور، والفصل بين الخصوم بإمضاء ما يراه القاضي من الحق.

يُقال: قضىٰ القاضي له، إذا كان القضاء لمصلحته.

ويقال: قضىٰ عليه، إذا كان قضاؤه ضدَّ مصلحته.

وأصل القضاء مأخوذٌ من معنى إمضاء الشيء وإتمامه وإنهائه والفراغ منه، تقول: عمل الرجل العمل حتى قضاه وأمضاه، أي: أنهاه.

والقاضي: هو الذي يُنْهِي أحكامه ويُمْضيها ويقطَعُها حتى يفرغ منها.

فَسُمِّي بَتُّ الحكم وإنهاؤه قضاءً.

٥ ـ قول الرسول ﷺ في الرواية الأخرى:

«فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسَبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَه»:

أَبْلَـغ: أي: أقدر على تزيين حجته، حتى يبلُغ بها إقناع القاضي بأنَّه هو صاحب الحقِّ.

والبليغ: هو القادرعلى أن يبلغ بعبارته غاية التعبير عمّا في نفسه من المعاني، أو غاية التأثير في من يخاطبه.

وأصل المادَّة من بلوغ الشيء إلى الشيء، أي: وصوله إليه.

فَأَحْسِب: أي: أَظُنّ. يقال لغة: حَسِبَ الأمر كائناً كذا يَحْسِبُهُ ويَحْسَبُهُ بكسر السين وفتحها في المضارع حِسْبَاناً وَمَحْسَبَةً وَمَحْسِبَةً إذَا ظَنَّهُ علىٰ الوجه الذي قدَّره.

أَمَّا حَسَبَهُ بمعنى عدَّه من العدد، ففعله يقال فيه: حَسَبَ الشيءَ يَحسُبُه

بالضَّمِّ حَسْباً وَحِسَاباً وَحِسَابَةً وحُسْبَاناً وَحِسْبَاناً إذا عدَّه.

٦ ـ «**فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»:

أي: **فإنَّما أقطع له قطعة تسبِّب** له عذاباً في النار على قدرها، بحكمي المستند إلى أقواله التي ظننت بها أنَّه صاحب حقّ، ولا يُعْفِيه من جريمة أخذ ما لا حقَّ له به أنَّني حكمت له، لأنه يعلم من نفسه أنه مبطل، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [القيامة: ٧٥]:

﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾.

وإذا كان حكم رسول الله ﷺ القضائي المبني على ما سمع من أدلَّة، وقُدِّم له من حجج، لا يُعفي من مسؤولية جريمة هضم الحقِّ، فحكم أيّ قاضٍ بعده لا يعفي ـ من باب أولى ـ الشخص الذي حكم له، من جريمة إثمه التي يعلم من نفسه أنَّه أجرمها.

أمَّا إذا كان القاضي متواطئاً مع مَن حكم له، لرشوة، أو قرابة، أو نُصْرة لقوم أو جماعة أو حزب، فهو أعظم المجرمين جرماً، لأنه يحكم بغير ما أنزل الله، ويفسد ميزان العدل، ويخون أمانة القضاء، ويشجِّع المجرمين على ارتكاب الجرائم، وشراء ضمائر القضاة لتبرئتهم وحمايتهم من عواقب الحكم بالعدل، وذلك من عوامل فساد الأُمَّةِ وخراب الدولة، وانتشار الظلم في الأرض.

٧ ـ «**فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ يَذَرْهَا**»:

في هذا تخيير له بين حَمْل القطعةِ الَّتي ليس له بها حقّ في حقيقة الأمر، وإنْ جعل له القضاء المبني على الظاهر أنَّه هو المستحق لها، وبين تركها الَّذي يتقي به ذلك العذاب.

فهو تخيير يتضمَّن معنى الأمر بالتقوى والإنذار والتهديد بالعقاب، وهو على نهج قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الكهف: ١٨]:

﴿وَقُل : الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ؛ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩)﴾.

جـ ـ الشَّرح العام:

ـ ١ ـ

بشرية الرسول ﷺ

إنَّ المعجزات التي يجريها الله عزَّ وجلَّ على أيدي رسله، لِيُدلَّ الناس على أنَّهم صادقون في دعوى أنهم رسُل الله، وكذلك الخصائص التي يَختصُّهم الله بها من اتّصالٍ بالوحي الذي هو من عالم الغيب، ومن معرفةٍ ببعض أمورٍ من الغيب يطلعهم الله عليها، وكمالات ذاتية، تدفع كثيراً من الناس إلى توهُّم أنَّ الرُّسُل ليسوا من نوع البشر، وإنْ كانوا على صورة البشر.

وهذا التوهّم يجرُّ وراءه جملة أوهام وتصوُّرات حول الرسل عليهم السلام.

فمن الناس من يتصوَّرهم أرواحاً مجسَّدة ليراها الناس، ومنهم من يجعلهم كالملائكة، ومنهم من يرفعهم إلى مرتبة لا يصلحُ لها إلَّا الإِلٰه، ومنهم من يجعلهم آلهة بالفعل كما غَلا النصارى في عيسىٰ عليه السلام.

وتعظُم الأخطاء والخرافات كلَّما زادت أبنية الأوهام وتتابع بعضها وراء بعض.

ولإثبات بشريَّة الأنبياء والمرسلين وإيضاحها للناس بشكل ماديّ، حصر الله امتيازهم عن الناس بصفات خاصَّةٍ اقتضتها النُّبوَّة والرِّسالة، مع بقاء سائر صفات البشرية فيهم كسائر الناس، فهم يُولَدُون كما يُولد سائر الناس، وينشؤون كما ينشأ سائر الناس، ويحيَوْنَ ويموتون، ويتعرَّضونَ للأمراض، ويأكلون ويشربون ويطرحون فضلات الأطعمة ويتزوَّجون ويمشون في الأسواق

يبيعون ويشترون، كسائر الناس. وقد ينسون إلَّا ما حفظهم الله بحفظه من نسيانه مما يتعلَّق بأمور تبليغ الدين، ثم هم لا يعلمون من أمور الغيب إلَّا ما يعلمهم الله إيَّاه، فإذا لم يأتهم علم عن الله فهم فيه كسائر الناس.

ومن ذلك أنَّهم في أقضيتهم بين الناس يحكمون بغلبة الظَّنِّ، حسب الأدلة التي يقدِّمها الخصوم لدعاواهم، فقد يحكمون لإنسان بشيء لاحق له فيه في واقع الأمر، بناءً على ما قدَّم من أدِلَّة ترجّح لديهم بها أنه صاحب حقّ، فحكموا له، وقد يحكمون على إنسانٍ بأنَّه ليس هو صاحب الحق أو بأنَّه مُدَان، بناءً على ظاهر الأدلَّة التي ترجّح لديهم بها إدانته أو أنه غير صاحب الحق، فحكموا عليه، فهم في هذا كسائر القضاة المأمورين بأن يحكموا وفق ما يترجَّح لديهم من حُكم، استناداً إلى الأدلة والأمارات التي قُدِّمت لهم.

وهم في أمور الدنيا ومصالح بنائها وعمرانها، ممَّا لم ينزل عليهم فيه وحيٌ من الله عزَّ وجل، قد يصيبون وقد يخطئون، لأنَّ نظراتهم فيها نظرات اجتهادية بشرية، وموضوعاتها من الموضوعات التي تركها الله للناس يتوصَّلون إليها بوسائلهم العلميَّة والتجريبيّة، ولم يجعلها من أمور الدين التي لا يدع رسوله يخطىء فيها باجتهاد، دون أن يتابعه بالردِّ إلى الصواب والحقِّ، ما لم يكن الخطأ في منهج القضاء أو أسلوبه، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ ينزّل عليه حينئذٍ ما يبيِّن له به المنهج الأقوم والأسلوب الأحكم، كما حدث في قصة بني أبيرق الآتي بيانها.

أمَّا أمور الدين فما تركه الله منها لاجتهاد الرسول وحكمه فإنَّه إذا اجتهد الرسول فيه فحكم بحكم لم يوافق ما هو الأحكم والأكثر صواباً، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ ينزّل عليه ما يبيِّن له فيه الحكم الذي ينبغي أن يكون هو الحكم في القضية، وربما عاتبه على اجتهاده، وأنزل عتابه في كتابه، كقضية حكمه ﷺ في أسرى غزوة بدر الكبرى.

لكنَّ بيانات القرآن المتعلِّقة بعلوم الدنيا، ممَّا هو خارج عن قضايا

الدين ومسائله، هي بيانات حقّ لا محالة، ولا يمكن أن تكون مخالفة للواقع، إذْ هي بيانات عليم بكل شيء، حكيم خبير، لا يقول إلاَّ حقاً، ولا يُنزِّل إلاَّ حقاً.

● وبسبب الأوهام التي تُخيِّل لبعض الناس ضرورة ارتفاع الرُّسل عن البشرية، تعجّب فريق من الَّذين كفروا بالمرسلين من كونهم بشـراً في صفاتهم كسائر البشر، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [القمر: ٥٤]:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا: أَبَشراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ؟! إنَّا إذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟! بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥)﴾.

وسُعُر: أي: وجنون، يقولون: ناقة مسعورة إذا كان بها جنون.

أشِر: أي: مستكبر، يريد أن يتعالى عليهم وتكون له الكبرياء في الأرض بادِّعائه النبوَّة والرِّسالة.

وأنكر بعض المكذبين بالمرسلين عليهم بشريتهم في أنهم يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويتزوَّجون النساء.

فأخبر الله عزَّ وجلَّ عن مقالة المشركين الذين كذبوا برسوله محمَّد ﷺ فقال تعالى في سورة [الفرقان: ٢٥]:

﴿وَقَالُوا: مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ، لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا. وَقَالَ الظَّالِمُونَ: إنْ تَتَّبِعُـونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (٨)﴾.

ورد الله عليهم فيها بقوله عزَّ وجل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ. . . (٢٠)﴾.

وبهذه الأوهام ظنَّ مشركو قريش أنَّ من ضرورة كون الرسول رسولاً، أنْ يكون قادراً على إجراء خوارق عظمى حسب طلب قومه، وفي بيان هذا

الموقف من مواقف المشركين المكذبين بالرسول ﷺ، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [الإسراء: ١٧]:

﴿وَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ. قُلْ: سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَنْ قَالُوا: أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً؟! (٩٤)﴾.

كِسَفاً: قِطَعاً، الواحدة «كِسْفَة».

قَبيلاً: أي: جماعة نُقَابلهم ونُعَاينهم، أو كُفَلاَء يَشْهَدُونَ لك بأنَّك رسولٌ حقّاً.

من زخرف: أي: من ذهب.

وتكرَّرت أشباه هذه المقولات التوهميَّة على ألسنة معظم الذين كذَّبوا برسُل الله عليهم السلام.

● وأكَّد الرسول محمد ﷺ بشريّته في عدَّةِ مناسبات أبان فيها أنه ليس معصوماً عن الخطأ في أمور الدنيا، ولا عن النسيان في أحواله الخاصَّة التي لا علاقة لها بالعصمة في أمور الدين، وأبان فيها أنه في شؤون القضاء والفصل بين الخصوم إنَّما يحكم بالاستناد إلى الأدلة التي تُقَدَّمُ لَهُ، كسائر القضاة الذين يحكمون بالعدل من البشر، فهو في الأحوال العاديّة لا يتلقَّىٰ بحقيقة ما عليه حال الخصوم علماً يوحى إليه به من عند الله. ليكون في ذلك أسوة للقضاة، وليكون منهجه معلِّماً وهادياً لهم.

ومن أمثلة بشريته صلوات الله عليه التي من ظواهرها احتمال خطأ رأيه في شؤون الدنيا التي لا يرتبط بها تشريع ولا بلاغ عن الله، خطؤه في قضية تأبير النخل، ودليله ما رواه مسلم عن رافع بن خَدِيجٍ قال: قدم نبيُّ الله ﷺ

وهم يُؤبِّرون النَّخل (أي: يُلَقِّحونه ليصلح وليُعْطِي نتاجاً حسناً ناضجاً) فقال:

«ما تَصْنَعُونَ؟».

قالوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ.

قال: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْراً».

فتركوه، فنقصت.

قال: فذكروا ذلك له.

فقال: «إِنَّما أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ من أَمْرِ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّما أَنَا بَشَرٌ».

أي: أصيب وأُخطىء، ولستم ملزمين فيه بطاعتي، ما دام من أمور الدنيا التي تتوصَّلون إلى حقائقها بِتَجَارِبِكُمْ.

وأَمَّا بشريته ﷺ التي من ظواهرها تَعَرُّضُه للنسيان في أحواله الخاصة التي لا علاقة لها بالعصمة في أمور الدين، فمن شواهدها ما رواه البخاريّ ومسلم عن عبدالله بن مسعود، أنَّ رسول الله ﷺ صلَّى الظهر خمساً.

فقيل له: أَزِيدَ في الصَّلاَةِ؟

فقال: «وَمَا ذَاكَ؟».

قالوا: صلَّيت خمساً، فسجد سَجْدَتَيْنِ بعدما سلَّم.

وفي رواية قال:

«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَىٰ كَمَا تَنْسَوْنَ، فإذا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي، وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ، فَلْيُتِمَّ ما عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ، ثُمَّ يَسْجُدْه سَجْدَتَيْنِ».

عن مشكاة المصابيح الحديث رقم ١٠١٦

ومن ذلك بشريته ﷺ في شؤون المتخاصمين على الحقوق، وهو ما جاء في الحديث الذي نتفهَّمه، فهو ﷺ يقضي بين الخصوم بحسب الأدلة التي تقدّم إليه منهم لا بحَسب عِلْمٍ غيبيّ يأتيه عن الله يعرف به حقيقة الأمر، فحكمه يوافق ظواهر الأدلة، وقد لا يوافق الحقَّ في باطن الأمر.

ومن شواهد بشريته في أموره الخاصَّة التي هو فيها كسائر الناس، قصته مع ناقته التي ضلَّت منه في بعض الطريق وهو سائر إلى تبوك في: (غزوة تبـوك).

روى ابن هشام في أحداث خروج الرسول ﷺ مع أصحابه إلى غزوة تبوك، عن ابن إسحاق ما يلي:

(ثُـمَّ إنَّ رسول الله ﷺ سار حتى إذَا كان ببعض الطريق ضلَّتْ ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أصحابه يقال له: «عُمَارةُ بن حَزْم» وكان عَقَبيّاً بَدْرِيّاً (أي: ممن شهد بَيْعة العقبة وشهد بدراً) وكان في رَحْله «زَيْدُ بن اللُّصَيتِ القينُقَاعي» وكان منافقاً من اليهود.

فقال «زيدُ بنُ اللُّصَيْت» وهو في رحل عُمارة، وعُمارةُ عِنْدَ رَسول الله ﷺ:

أليس محمَّد يزعمُ أنَّه نبيٌّ! ويخبركُمْ عن خَبَرِ السَّماء، وهو لا يَدْري أين ناقته؟!

فقال رسول الله ﷺ: وعُمَارَةُ عنده:

«إنَّ رَجُلًا قال: هذا محمَّد يخبركم أنَّه نبيٌّ، وَيَزْعُمُ أنَّه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، وإنِّي والله لَا أعلم إلَّا ما علَّمني الله، وقد دَلَّنِي الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شِعْبِ كذا وكذا، قَدْ حَبَسَتْها شجرةٌ بِزِمَامِها فانطلقوا حتَّى تأتوني بها».

فذهبوا فجاءوا بها.

فرجع «عُمارةُ بن حَزْم» إلى رحله فقال: لعجبٌ من شيءٍ حدَّثَنَاه رسول الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للَّذِي قال «زيدُ بن اللُّصيت».

فقال رجلٌ ممَّن كان في رحل عُمارة ولم يحضُر رسولَ الله ﷺ: زيدٌ

والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقبل عُمارة على زَيْدٍ يَجَأُ في عُنُقه (أي: يَطْعُنُهُ في عنقه) ويقول: إليَّ عبادَ الله، إنَّ في رحلي لداهيةً وما أشعر، أخرج أيْ عدوَّ الله من رحلي، فلا تَصْحَبْـني).

— ٢ —

القضاء بين الخصوم واختلاف قدراتهم في تزيين الحجج

النسبة العظمى من مصالح الناس في الحياة الدنيا، تقضي الضرورة بالاعتماد على رجحان الظنِّ لدى الأخذ بأسباب قضائها وتحصيلها وتسييرها.

فما يترجَّح في العقل أو في العادة وبحسب التجربة تحقيق النفع المقصود منه أو بسببه، فهو الأمر الذي تقضي الضرورة باتخاذه والقيام به في ظروف هذه الحياة الدنيا.

ومن توقف في تحقيق مصالحه في حياته حتى يصل إلى العلم اليقينيّ في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة لم يعمل شيئاً، وحلَّ به يقين الضَّرر أو الهلاك، لتركه الأخذ بما يحقِّق له مصالحه بغلبة الظنِّ.

الزارع يزرع زرعه، ويتخذ وسائله وأسبابه، بناء على الرجاء بتحقُّق ما يريد من الزراعة، ويباشر الأعمال والوسائل والأسباب التي يترجَّح في ظنِّه أنها تحقق له النفع، قياساً على تجارب الماضي وخبرات الزُّرَّاع، لكنَّه لا يمكن أنْ يملك يقيناً مقطوعاً به بأنَّ زرعه سيُعطي ما يرجوه منه، إذْ لا يملك استيفاء كلِّ الوسائل المشهودة والغيبيَّة، ولا يملك ضمان احتمالات المستقبل الذي هو غيب، إذْ قد تأتي جائحة فَتُتْلِف زرعه، أو تأتي حشرة لم يحسب حسابها فتأكله، إلى غير ذلك.

لكنَّه مع هذه الاحتمالات يزرع ويتوكَّل على الله، ويرجو منه تحقيق

النتائج، ويتّخذ كلّ الوسائل والأسباب التي جرت العادة بضرورة اتّخاذها لتحقيق المطلوب.

وقد جعلها الله كذلك لامتحان توكّل المؤمنين عليه، وصدق إيمانهم به.

والتاجر يغامر ببذل ماله في تجارته، وفي أسفاره، وفي ركوبه البحار واجتيازه القفار، طمعاً في تحقيق الربح، بناءً على رجحان الظنّ بأنّ ما يتاجر فيه يترجّح فيه تحقيق الربح على الخسارة، استناداً إلى خبرته، وقياساً على ما جرت به العادة، ويقدّر في نفسه احتمال الخسارة بنسبة تقلُّ عن احتمال الربح، وهو يخاطر ضمن الاحتمال الذي تقبل فيه المخاطرة بحسب العادة، ويترجّح فيه أنّ احتمالات الخسارة أقلُّ من احتمالات الربح.

ويتوكّل على الله، ويسأل الله من فضله، ويمارس أعماله بناءً على ذلك.

ولو أنّه توقف في أعماله التجاريّة على ما يكون فيه يقين الربح، لم يجد إلّا أعمالاً يسيرة جدّاً، وتتعطل بذلك مصالح الحياة الدنيا.

نظير ذلك استنباط كثير من أحكام الدين من مصادر التشريع الإسلامي، ممّا لم يصل إلينا بيقين، إذْ لا سبيل إلى التوصُّل إليه إلّا عن طريق رجحان أحد الاحتمالَيْن أو الاحتمالات بقوّة رُجْحَان الظنّ، لا بقوّة اليقين المقطوع به، وما يترجّح في ظنّ المجتهد المأذون شرعاً بالاجتهاد من أنّه هو الحكم، يجب عليه العمل به قطعاً، حتّى يأتي ما هو أرجح منه، وأقوى دليلاً.

وقد عفا الله عن الخطأ في إصابة الحقّ الذي هو الحكم عند الله، بالنسبة إلى المجتهد المأذون بالاجتهاد، الصادق في بذل غاية وسعه للوصول إلى الحقّ، لأنّ هذا المجتهد المأذون بالاجتهاد لا يملك أكثر من ذلك، والله لا يكلّف نفساً إلّا وسعها.

ولو شاء الله أن لا يكون المجتهدون عرضة للصواب والخطأ في أمور الاجتهاد في الدين، لأنزل نصوصاً قطعية مفصَّلة فيها بيان قطعيّ لكلٍّ حكم فرعي من أحكام الدين.

وشأن القضاء بين الخصوم كشأن سائر موضوعات الحياة التي يتولّاها الناس.

فالقاضي قلَّما يجد يقيناً يحكم به بين الناس في خصوماتهم، ولو أنَّه توقف عن الحكم حتى تأتيه الأدلة المفيدة لليقين لما استطاع أن يُصْدر أحكاماً في معظم الدعاوى التي تُعْرَض عليه، لأنه لنْ يجد الدليل المفيد لليقين إلاَّ في النادر القليل جدًّا، وهذا النادر قلَّما يُرْفَعُ إليه.

وبذلك يتعطَّل القضاء، وتتعطَّل مصالح الناس.

فلا مناص للقاضي من الاعتماد على رجحان الظنِّ فيما يعرض عليه من قضايا، وبناءً على ذلك يُصدِر أحكامه، ويفصل بين الخصوم.

إنَّه إذا قدَّم شاهدان عدلان شهادتيهما بإثبات حقٍّ من الحقوق، أو جناية أو جريمة عدا جريمة الزنا التي لا تثبت إلاَّ بأربعة شهود عدول، فإنَّ القاضي المسلم مكلَّف أن يجري حكمه وفق شهادتيهما، مع أنهما لا تفيدان أكثر من رجحان الظنِّ، لاحتمال كونهما غير عدلين في باطن الأمر، أو احتِمال خطئهما أو نسيانهما أو غير ذلك.

لكنَّ قضاء القاضي لصالح أحد الخصمين وضدَّ الخصم الآخر بناءً على ظواهر الأدلة الَّتي عرضت عليه، وزُيِّنت له، لا يغيِّر حقيقة الواقع، إنَّما يعطي مسوِّغاً ظاهريّاً لمن حكم له بأن يستفيد بين الناس من حكمه.

ويظلُّ صاحب الحقِّ في واقع الأمر هو صاحب الحقِّ فعلاً عند الله، ويظلُّ الظالم الظافر بحكم القاضي ظالماً عند الله، ويُشَدِّد الله عليه العقوبة، لأنَّه ضلَّل القاضي بما زيَّف من أدلَّة فحكم له، فظهر بين الناس أنَّه صاحب حق، وهو في الحقيقة ظالم مجرم، وجرم هذا أكثر وأعظم من جرم ظالم آخر

هضم الحق دون أن يستغلَّ القضاء بالتضليل والتزييف ليحكم له.

إن مستغلّ قضاء القاضي بالتزييف والتزوير والمخادعة ظالم بهضم الحقِّ، ومزيِّف مزوِّر كذَّاب، ومعذِّب خصمه بعذاب هضمِ حقِّه، وعذاب عجزه عن إثباته، وعذاب رؤية ظالمه هاضم حقه هو صاحب الحقِّ في نظر الناس. لذلك كان ما يقتطعه بالقضاء ممَّا لا حقَّ له فيه قطعة من نارٍ يعذَّبُ بها، بقَدْر مُرَكَّبِ الجرم الذي أجرمه.

وقد نهى الله عزَّ وجلَّ الذين آمنوا عن أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، ونهاهم عن الإدلاء بها إلى الحكام، ليأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وهم يعلمون أنَّهم ظالمون لا حقَّ لهم، فقال تعالى مخاطباً لهم في سورة [البقرة: ٢]:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾.

وقد جعل الله عزَّ وجلَّ رسُلَه في القضاء بين الخصوم أسوة للناس في هذا، فلم يُعطهم امتيازاً خاصاً يعرفون به حقائق أحوال الخصوم عن طريق الوحي، ليحكموا بين الناس بناءً على ذلك، وإنَّما جعلهم مثل سائر القضاة يحكمون بحسب ما يُعرض عليهم من أدلَّة، وبحسب ما يترجَّح لديهم وما يغلب على ظنِّهم، فمن رجَّحت الأدلَّة لديهم عند التقاضي أنَّه هو صاحب الحقِّ حكموا له ضدَّ خصمه، ولو كان واقع حال الأمر بخلاف ذلك. والله يتولَّى بعد ذلك عقاب الظالم هاضم الحقِّ، ولا يعفيه من ذلك أنَّ القضاء حكم له، فحكم القاضي لا يحلِّل حَراماً، بل يزيده ذلك عقاباً لأنَّه ضلَّل القاضي بما قدَّم من أكاذيب، أو شهود زور، أو حجج وأدلَّة زيّن له فيها أنَّه هو صاحب الحقِّ.

وقصَّ الله علينا قصة خصومةٍ حكَمَ به النبيَّان الرسولان داود وسليمان عليهما السلام استناداً إلى نظرهما واجتهادهما للحكم بالعدل، وأبَان الله أنَّ

فهم سليمان كان أقرب إلى العدل من فهم أبيه داود في تلك القضيَّة.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأنبياء: ٢١]:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً... (٧٩)﴾.

إِذْ نَفَشَتْ فيه غنم القوم: أي: رعت فيه ليلاً فأفسدته على أصحابه.

وفي بيان واقعة قضائهما روى الطبري بسنده عن ابن مسعود قال:

كرْمٌ قد أنبت عناقيده فأفسدته، أي: الغنم.

قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم.

فقال سليمان: غَيْرُ هذا يا نبيَّ الله.

قال: وما ذاك؟

قال: يُدْفَعُ الكَرْمُ إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتَّى يعود كما كان، وتُدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيبُ منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعتَ الكرمَ إلى صاحبه، ودفعتَ الغنم إلى صاحبها.

وروى الطبري أيضاً بسنده عن ابن عباس:

أنَّ رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم.

فقال صاحب الحرث: إنَّ هذا أرسل غنمه في حَرْثي، فلم يُبْق من حَرْثي شيئاً.

فقال له داود: اذهب فإنَّ الغنم كُلَّها لك، فقضى بذلك داود.

ومَرَّ صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالَّذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود، فقال: يا نبيَّ الله، إنَّ القضاء سوى الذي قضيت.

فقال داود: كيف؟

قال سليمان: إنَّ الحرث لا يخفى على صاحبه ما يخرج منه في كلِّ عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نسل في كلِّ عام.

فقال داود: قد أصبت، القضاءُ كما قضيت.

أمَّا قول الله عزَّ وجل: ﴿ففهَّمناها سليمان﴾ فهو من التفهيم الذي قد يحصل نظيره لغير الأنبياء، وليس هو تفهيماً عن طريق الوحي كما هو ظاهر.

وكذلك يتفاوت الْقُضاة في فهمهم للقضايا، ويكون فهم بعضهم أقرب إلى تحقيق العدل من فهم بعض.

ومن أمثلة تأثُّر الرسول ﷺ في نظره القضائي بأقوال الفريق الجاني ما يلي:

كان طُعْمة بن بشير بن أبيرق من مسلمة الأنصار، وكان بشير أبو طعمة هذا من المعروفين بالنفاق.

قالوا: فنقب طُعمة جداراً لرفاعة بن زيد، وسرق له درعَيْن ودقيقاً، وكان في جراب الدقيق خرق، فجعل ينتثر منه الدقيق، وكان ذلك أثراً مادِّيًّاً دلَّ على اللُّصوص.

وعرف رفاعة بن زيد وأهلُه أَنَّ بني أبيرق هم الذين سرقوا الدرعين والدقيق.

فجاء قتادة بن النعمان ابن أخي رفاعة بن زيد إلى رسول الله ﷺ، فشكا إليه بني أبيرق، وما كان منهم من سرقة.

وشاع أمر بني أبيرق في المدينة، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أُسَيْدَ بن عروة بن أبيرق، فقـال:

يا رسول الله، إنَّ هؤلاء قد عمدوا إلى أهل بيت هم أهل صلاح ودين، فاتهموهم بالسرقة، ورموهم بها من غير بيّنة، وأخذ يجادل عن ذَوِيه.

فتنكَّر الرسول ﷺ لقتادة بن النعمان ورفاعة بن زيد، لأنَّهم قد اتَّهمُوا بني أبيرق دون بيِّنة.

فأنزل الله عليه ما بيّن له فيه خيانة اللُّصوص، ونهاه عن أن يدافع عنهم، أو يجادل لتبرئتهم، فهم مدانون بالخيانة، لا سيما أنَّ أمارتها تشير إليهم.

ولم يقتصر أمر بني أبيرق على إنكار ما كان منهم من جناية، وإنَّما رَمَوْا به بريئاً فألصقوا به التُّهَمَةَ، وهذا البريء هو: «لبيد بن سَهْل» إذْ قال بنو أبيرق:

لسنا السارقين، ولكنَّ السارق لبيد بن سهل.

فأنزل الله قرآناً كشف به خيانة بني أبيرق، وبراءةَ لبيد بن سهل من التهمة، وبيَّن فيه لرسوله المنهج الذي يجب اتباعه في القضاء بين الخصوم، والأسلوب الذي ينبغي أن يعاملهم به.

عندئذٍ هرب السارق من بني أبيرق إلى مكة، ثمَّ هرب إلى خيبر، ثم إنَّه نقب بيتاً ذات ليلة ليسرق فسقط الحائط عليه فمات.

قال الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ بصدد هذه الحادثة في سورة [النساء: ٤]:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) واسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أثيماً (١٠٧)﴾ الآيات حتى الآية (١١٣).

فعالج هذا النصّ القرآني كلّ العناصر التي اشتملت عليها أحداث سرقة طعمة بن بشير بن أُبَيْرِق، مهتماً بما يتَّصل بها من أحكام ونصائح

وتوجيهات دينيَّة وقضائية للرَّسول ﷺ والمسلمين.

وقد نزل التقويم القرآني في هذه الحادثة لأنَّ الخطأ قد كان في المنهج والأسلوب القضائي، ولو اقتصر الأمر على قدرة أحد الخصمين على تزيين حججه وعجز الآخر، وضاع بسبب ذلك على العاجز حقُّه، ولم يقع خطأ في المنهج والأسلوب القضائي من الرسول ﷺ فلربّما لم تكن الحادثة تستدعي إنزال قرآن بشأنها، وينطبق عليها حينئذٍ قول الرسول ﷺ في الحديث الذي نتفهّمه: «ولعلَّ بعضكم أن يكون ألْحَن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه».

ـ ٣ ـ

مسؤولية القضاء

إنَّ مسؤوليَّة القضاء مسؤولية عظيمة، لأنَّ القاضي مُمَثِّل العدالة، والدخول في القضاء مزلق خطير، لا يصمد فيه إلَّا الأبرار، وأهل كمال التقوى، أمَّا من ضعفت عندهم التقوى فهم إلى الزّلل والجور أقرب منهم إلى الحكم بالعدل، وهم يستطيعون عن طريق سلطة القضاء أن يكونوا شركاء الظالمين والمجرمين واللُّصوص والغشاشين وهاضمي الحقوق والمعتدين على اليتامى والأرامل وسائر الضعفاء، وشركاء أهل الغلول الذين يسطون على الأموال العامة، إمَّا بالرَّشاوى أو المساومات على تقاسم فوائد المظالم، فيكون القضاء لهم أقرب وسيلة للثراء الفاحش في الدنيا والعذاب الأليم في نار جهنم.

ولا يتصدَّى للقضاء ويطلبه من يخشى الله كثيراً، وهو يعلم من نفسه ضعفها.

وقد كان أهل الورع من علماء المسلمين وفقهائهم يفرُّون من القضاء، ولا يقبلون أن يتولَّوْا منصبه إذا عرض عليهم، ومنهم الإمام أبو حنيفة رحمه الله مع غزارة علمه وعظيم ورعه.

والتعامل مع منصب القضاء كالتَّعامل مع النار والكهرباء ونحوهما من ذوات المخاطر.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَنْ جُعِلَ قَاضِياً فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّين».

رواه أحمد، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه «وإسناده صحيح».

والقضاة على ثلاثة أقسام، واحد منهم في الجنة واثنان منهم في النار:

القسم الأول: الذين يعرفون الحقَّ فيقضون به، وهؤلاء هم الذين في الجنَّة.

القسم الثاني: الذين يعرفون الحق فلا يقضون به، وهؤلاء في النار.

القسم الثالث: الذين يقضون بين النَّاس وهم جاهلون ليسوا أهلاً للقضاء، وهؤلاء في النار أيضاً سواءٌ أصابوا أو أخطؤوا في قضائهم، لأنَّ إصابتهم إنْ أصابُوا رميةٌ اتفاقيَّة من غير رامٍ، وأكثر أحكامهم في أقضيتهم منزعها الجهل والهوى.

عن بُرَيْدَة قال: قال رسول الله ﷺ:
«الْقُضَاةُ ثَلاَثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، واثْنَانِ في النَّار،
- فأمَّا الَّذِي في الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَىٰ به.
- ورَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ، فَهُوَ فِي النَّارِ.
- وَرَجُلٌ قَضَىٰ لِلنَّاسِ عَلَىٰ جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ».

رواه أبو داود وابن ماجه «وإسناده صحيح».

إنَّ من أقبح صور ظلم الدولة فساد جهاز القضاء فيها، لأن جهاز القضاء هو رقيب العدالة وحارسها، وحاميها، فإذا صار الحامي شريك الظالم والخائن عمّ الظلم والفساد في الأرض.

وأنبّه هنا على أنَّ فساد جهاز القضاء الشرعي في بعض البلدان الإسلامية قد اتُّخِذَ ذريعة لظفر أعداء الإسلام بإلغاء القضاء الشرعيّ إلغاءً كليًّاً، والتحوُّل إلى القضاء المدني، والعمل بالقوانين المدنيَّة الوضعيَّة.

ــ ٤ ــ

قطعة من نار

فما يأخذه المسلم من حق أخيه المسلم مستعيناً على ذلك، بما يقدِّم من أدلَّةٍ مزوَّرة للقاضي المسلم، فيضلِّله بها، فيظُنُّ أنَّهُ صَاحبُ الحق، فيحكم له، هي قطعة من نارٍ يُعَذَّب بها على قدر قطعة الحقّ التي أخذها، فإنْ كانت أرضاً طُوِّقها يومَ القيامة إلى سبع أرضين، كما ورد في الحديث الصحيح، وإنْ كانت ذهباً أو فضَّة كُوِيَ بها جمرةً محميَّةً في النار، وهكذا تُقَوَّم الحقوق التي سلبها بغير حق، ويعذَّب بقدرها من نار جهنَّم، عدا ما ينزل به من عذاب الدنيا، آلاماً، وإتلافاً لأمواله، وأمراضاً، وهموماً وغموماً ومصائب ونحو ذلك.

* * *

د ـ ممَّا يستفاد من هذا الحديث:

بعد النظر في هذا الحديث وشرحه المفصَّل الذي سبق، نستطيع استخلاص المستفادات التاليات منه:

١ ـ الرسول محمد ﷺ إنسان بشر، اصطفاه الله من الناس فبعثه رسولاً، فهو فيما لم يعصمه الله منه بشر كسائر البشر، وكذلك الأنبياء والمرسلون، إذْ هو أفضلهم وخاتمهم عليهم السلام.

٢ ـ من بشرية الرسول ﷺ أنه يحكم بين الناس في خصوماتهم بحسب ظواهر الأدلة التي تقدَّم إليه منهم.

٣ ـ يكفي في القضاء الحكم بناءً على رجحان الظَّنِّ، لقول

الرسول ﷺ: «فأحسِبُ أنه صادق فأقضي له» أي: فأظنّ.

٤ ـ حكم القاضي بين الخصوم ولو كان نبيّاً لا يُغير من حقيقة الأمر شيئاً، فهو لا يُحلُّ حراماً، ولا يحرِّم حلالاً، إنَّما يفصل بين الخصوم بحسب الظاهر، وعند الله يجتمعون فيحكم بينهم بعلمه.

٥ ـ من أخذ حقَّ أخيه بوسيلة القضاء وتزوير الحجج والأدلة، فإنَّما يأخذ قطعة من نار تكون عليه عذاباً يوم القيامة، مع العذاب الذي يعذّب به في الدنيا.

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والصور البيانية

في هذا الحديث وجوه بلاغية وبيانيَّة متعدِّدة، منها ما يلي:

١ ـ «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»: فيه قصر إضافي، أي: ما أنا إلَّا بشر بالإضافة إلى تكويني الجسدي والنفسيّ والفكريّ أتعرَّض إلى مثل ما يتعرَّض إليه البشر، فيما عدا ما اصطفاني الله به من النبوَّة والرسالة، وعصمني منه، ممَّا يتنافىٰ مع مهمَّة النبوَّة والرِّسالة.

وجاء التعبير بصيغة القصر هذه لدفع توهم أنَّه يحكم بين الناس بما لديه من علم غيبيّ عن حقائق القضايا التي يقضي فيها بين الخصوم.

٢ ـ «وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ»: جملة مؤكدة بحرف التوكيد (إنَّ) وبالجملة الاسمية.

والداعي للتوكيد أن ما سيبنيه عليها أمرٌ له من الأهميَّة ما يستدعي توكيده، ليدفع بالتوكيد أوهاماً قد تعلَقُ في معتقدات النَّاس حول شخصية الرسول، وأنَّه قد يحكم بناءً على علمه بحقيقة ما عليه واقع حال الخصوم، ولا يقتصر على الظنِّ الراجح المستند إلى الأدلَّة المعروضة عليه من قبلهم.

فالتوكيد في الحقيقة موجَّه لمضمون «فَأَقْضِي لَهُ عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ».

٣ ـ «**فَلَا يَأْخُذَنَّهُ**»: فيه التوكيد بنون التوكيد الثقيلة، واقتضىٰ حرص الرسول ﷺ ورحمته بأمته أن يؤكد لهم التحذير من أخذ حقوق الآخرين، ولو قضى لهم الرسول بها، عملاً بظاهر الأدلة التي عُرِضَت عليه.

٤ ـ «**فإنَّما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّار**»: فيه أمران:

الأول: القصر، أي: ما أقطع له إلَّا قطعة من النار، وهو من نوع القصر الإضافي، أي: ما هذا الذي أقطعه له بقضائي المستند إلىٰ ما زيّن لي من حجج بقوَّة بيانه، بالإضافة إلى عاقبة الأمر وعقوبة الله على ما جنىٰ إلَّا كقطعة من النار.

الثاني: التشبيه البليغ، أي: ما أقطع له إلَّا كقطعة من النار، وقد شبَّهها بقطعة من النار لأنَّ العذاب عليها هو من عذاب النار.

أو هو مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبّب على السبب، نظراً إلى أنَّ أخذه لِمَا لَا حَقَّ له فيه سبب في أن يُعذَّب بقطعة من النار مناظرة لما أخذ.

وهذا الاستعمال شبيه بالاستعمال القرآني الذي في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [النساء: ٤]:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمَاً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠)﴾.

٥ ـ «**فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ يَذَرْهَا**»: فيه أمرٌ تخييريّ استعير للدَّلالة على معنى الوعيد والتهديد.

ثانياً: من الإعراب

١ ـ «**إنَّما أنا بشر**»:

«إنَّ» حرف مشبَّه بالفعل يدخل على المبتدأ والخبر، فينصب المبتدأ على أنه اسم له، ويرفع الخبر على أنَّه خبر له، لكنَّه هنا مكفوف عن العمل بحرف (ما) الذي اتصل به.

وهو حرف توكيد، وباتصاله بحرف (ما) صار من أدوات الحصر، وفي شرح معناه عندئذٍ نقول: ما أنا إلَّا بشر، لأنه ينحلّ من جهة المعنى إلى (ما) و (إلَّا).

٢ ـ «تختصمون إليَّ»:

هذه الجملة من الفعل والفاعل وما تعلَّق به في محلّ رفع خبر حرف (إنَّ) أمَّا اسمها فضمير الخطاب، و (الميم) علامة الجمع.

٣ ـ «لعلَّ بعضكم أن يكون ألحن»:

«لعلَّ»: حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر فهو من أخوات: «إنَّ» وهي: «إنَّ ـ أَنَّ ـ لَيْتَ ـ لَكِنَّ ـ لَعَلَّ».

ويقترن خبر **«لعلَّ»** كثيراً بحرف (أنْ) المصدرية الناصبة للفعل المضارع.

«بَعْضكم»: اسم «لعلَّ» منصوب، وكاف الضمير في محل جرّ مضاف إليه، و (الميم) علامة الجمع.

«أنْ يكونَ أَلْحَن»: (أن) حرف مصدري ونصْب للفعل المضارع. (يكون) منصوب بحرف (أن) وهو فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على (بعضكم). و (أَلحنَ) خبر (يكون) منصوب بالفتح الظاهر. و (أنْ يكون ألحن) في محل رفع خبر (لعلَّ).

٤ ـ «من النار»:

جار ومجرور متعلِّق بمحذوف صفة لـ (قطعة) أي: قطعة كائنة من النار.

٥ ـ «فليحملْها أو يذرْها»:

الفاء عاطفة، معناها التفريع على ما سبق. (يحملْ) فعل مضارع

مجزوم بلام الأمر. والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو). والضمير (ها) مبني في محل نصب مفعول به.

(أو يذرْها) معطوف على الفعل المجزوم فهو مجزوم مثله.

الحديث التاسع عشر والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلِمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، أو شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ».

رواه البخاري

وعَنْ أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال:
«أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟».

قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ.

فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هذا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

رواه مسلم

أ ـ ترجمة (أبي هريرة) راوي الحديثين:

سبقت ترجمته لدى شرح الحديث الثالث.

* * *

ب ـ اللُّغة والمعنى المراد:

١ ـ «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلِمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أو شَيْءٍ»:

مَظْلِمة: بكسر اللاَّم، ومثلها «الظُّلامة» اسم للحق الذي يُطالِبُ به المظلوم من ظلمَه فيه، سواءٌ أكان مادّيّاً مثل المال والمتاع والعدوان على الجسد بقتلٍ أو جرح أو ضرب، أو معنويّاً مثل الشتم والقذف والغيبة والهمز واللَّمز، وتقطيع قلوب الناس بعضها عن بعض بالنميمة، ونحو ذلك.

والظُّلم: اسم لِلْجَوْر ومجاوزة الحدِّ ووضع الشيء في غير موضعه.

ويأتي لفظ «مَظْلِمَة» مصدراً من فعل «ظَلَم».

يقال لغةً: ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ وَيَظْلُمُهُ ظَلْماً وظُلْماً ومَظْلِمة.

مِنْ عِرْضِه: العِرْضُ بكسْرِ العينِ وسكونِ الراء، هو مكانُ المدح والذَّمِّ من الإنسان، من جسده، أو نفسه، أو خُلُقِه، أو عملِه، أو حسبه ونسبه.

أو شيء: أي: أو شيء آخر غير عرضه كالمال والجسد والنفس.

واللَّام في (من كانت له مظلمة) جارَّة بمعنى الاستحقاق، أي: من استحقَّ عُقُوبة مَظْلِمة ظلمها، وهي نظير اللام في قول الله تعالى ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ وقوله: ﴿لا جرم أنَّ لهم النار﴾ أي: قد استحقوا الخزي واستحقُّوا النار. أو هي بمعنى (على) نظيرها في قول الله تعالى: ﴿وإنْ أسأتُم فلها﴾ أي: فعليها، كذا قال ابن هشام في المغني.

واللام الجارَّة في «لأخيه» للتعدية، أي: مظلِمة ظلمها أخاه.

أو نقول: منْ كانت عليه عقوبة مظلمة لحق أخيه عليه فيها.

٢ ـ «فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ»:

أي: فليسأله في هذه الحياة الدنيا أن يجعله في حِلٍّ من مظْلِمَته، أو فليتَّخذ وسِيلةً يُرضِيهِ بها، حتى يكونَ في حِلٍّ من ظُلَامته.

وعلى هذا فالفعل من (حلَّ) ضدُّ (حرُم) ومعنى: فَتحلَّل فَعَلَ مَا يُخْرِجُه من الحرام إلى الحلال.

أو هو من حَلِّ العُقْدَةِ بمعنَى فَكِّها، وعلى هذا فمعنى: «فلْيتحلَّلْه» فليتّخِذْ ما يجعَلُ مظْلومَهُ يَحُلُّ عُقْدَة وَثَاقِهِ، لأنَّ الظَّالم في وَثاقِ العدْلِ لصالح مظلومه، حتَّى يَفُكَّ عُقْدَة وثاقه ويَحُلُّها بردِّ حقِّه إليه، أو بعفوه ومسامحته.

٣ ـ «قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ»:

أي: قبل يوم الدين، يوم الحساب والجزاء، يوم لا دينار ولا درهم يفتدي بها الظالم من عقوبة المظالم التي ظلمها في حياته.

٤ ـ «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟»:

المفلِس: هو من خَسِرَ دَنانيره ودراهمه، ولم يبق معه إلَّا فلوس، أو لم يبق معه فلس.

فعلى المعنى الأول يقال: أفلس يُفْلِسُ إفلاساً، أي: صار مفلساً،

كأنما صارت دنانيره ودراهمه فلوساً قليلة ضئيلة القيمة.

وعلى المعنى الثاني يقال: أفلس إذا لم يبق له مال، حتَّى صار إلى حالٍ يقالُ له فيها: ليس معه فَلْس واحد.

ولذلك جاء تفسير الصحابة للمفلس بقولهم: المفلس فينا منْ لا درهم له ولا متاع.

٥ ـ «وَيَأْتي قَدْ شَتَمَ هَذَا»:

الشتم قبيح الكلام إذ يُوَجّه على سبيل السبِّ لآخر، دون قـذفٍ بفاحشة.

٦ ـ «وَقَذَفَ هَذَا»:

أصل القذف مطلق الرمي بسهم أو حجر أو نحو ذلك، ثم صار عامًّاً في القذف بأيِّ شيءٍ على شيء آخر، حتى قذف الكلام والأفكار والمعاني بالحقِّ أو بالباطل.

ثُمَّ خُصِّص بالاتِّهام بالزنا، حتى غلب استعماله للدلالة على هذا المعنى، وهو المراد في الحديث.

تقول لغة: قَذَف بالشيء يَقْذِفُ قَذْفاً فانقذَفَ، إذا رمَىٰ به. والتَّقاذف: التَّرامي. وتقول: قَذَفَ فُلاناً بكذا، إذا رَمَاهُ به.

٧ ـ «وأَكَلَ مَالَ هَذَا»:

أصل الأكل معروف، ثم جرى توسُّع في دلالته، فصار يطلق على كلّ أخذ للمال، ثم صار يستعمل غالباً في أخذ المال بغير حقّ سواء انتفع به الآخذ بأكلٍ أو بغيره.

وقد استعمل الأكل في الدلالة على أخذ المال بغير حق مع الإصرار على عدم ردِّه، لأنَّ الآكل يستهلك ما أكل، حتَّى يكون جزءاً من لحمه

ودمه، فلا يستطاع ردّ المأكول إلى ما كان عليه، ومن ذلك قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [النساء: ٤]:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠)﴾.

٨ ـ «وَسَفَكَ دَمَ هَذَا»:

أي: قتله أو جرحه، وأصل معنى سَفْكِ الدَّم صَبُّه.

تقول لغة: سَفَكَ الدَّمَ يَسْفِكُه ويَسْفُكُه بكسر الفاء وضمِّها فانْسَفَكَ الدَّمُ فَهُو مَسْفُوكٌ وَسَفِيك.

٩ ـ «فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا من حَسَنَاتِهِ»:

أي: يكون التسديد يوم الحساب والجزاء لأصحاب المظلَمَاتِ ممَّا يَمْلك من حسناته التي قدَّمها في حياته، على مقدارها بالعدل، لأنَّ الحسنات هي الشيء الوحيد الذي يملكه بعد ذاته ممَّا له قيمة يوم القيامة.

والحسنات: جمع حسنة، مؤنث حسن، وهي صفة لموصوف محذوف، أي: الخصلة الحسنة التي فعلها في حياته ابتغاء مرضاة ربِّه. وكلُّ طاعة لله عزَّ وجل خالصة لوجهه، أو قربة يتقرب بها الإنسان إلى ربِّه ممَّا يقبله عزَّ وجل من كسب اختياري، مهما قلَّ وصغر فهو حسنة، وجمعها حسنات. وضدُّها سيئة وجمعها سيِّئات.

فالصلاة والصيام والزكاة والحجّ والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلّ أعمال الخير والبرّ حسنات تكتب للإنسان في صحائف أعماله الصالحات، إذا كان قد ابتغى بها وجه ربِّه عزَّ وجلّ.

وكلُّ المخالفات والمعاصي والذنوب سيئات.

١٠ ـ «فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ»:

أي: فإن لم يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شيء يُسدّد منها لأصحاب المظْلِمَات،

لأنَّ مظلِماته أكثر من حسناته أو لم يبق منها شيء لنفسه، ظهر حينئذٍ إفلاسه الحقيقي، فهو مَدِين لأصحاب مظْلِماتٍ، ولا يجد لديه حسناتٍ يسدِّد منها، أو سدَّد أصحاب المظالم لكنَّه استنفد بذلك كلَّ ما لديه، فلم يبق له شيء يكافأ عليه بالثواب.

واستعمل الرسول ﷺ حرف الشرط (إنْ) الدَّالِّ على أنَّ ما بعده وهو فعل الشرط مشكوك فيه، إشارةً إلى فضل الله العظيم الذي يَقِلُّ معه أنْ تَفنَىٰ حسنات المؤمن، قبل أن يسدِّد ما عليه من مظلِمات لأصحاب الحقوق.

١١ ـ «أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»:

الخَطَايا: جمع خطيئة، ويُقالُ خَطِيّة أيضاً. والخطيئة الذَّنب الذي يكون عن عَمْد وقصد.

أي: بعد ظهور إفلاسه من الحسنات بعد التسديد منها لفريق من أصحاب الحقوق الذين ظلمهم في الحياة الدنيا، يكون تسديد حقوق المظلمات الباقية بأنْ يتحمَّل من ذنوب من كان قد ظلمهم بقدر مظلِماتهم، فتضافَ إلى أوزاره.

وبما أنَّه قد صار مفلساً من الحسنات، وحاملاً أوزار نفسه، ومن أوزار من ظلمهم، فإنَّ استحقاقه حينئذٍ أن يُطْرح في النار ليسدِّد حسابه مما يذوق من عذاب، طبق قانون العدل الرَّبَّاني.

* * *

جـ ـ الشرح العام:

إذا كان الظلم في حقوق الله التي هي من دون الإشراك به قد يشملها فضلُ الغفران الذي قد تقضي به حكمة الله ورحمته.

فإنَّ حقوق العباد مشمولة بقانون العدل الذي لا يضيع فيه مثقال ذرَّة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

فهي ثلاثة دواوين: ديوان لا يغفرُه الله وهو الإشراك به. وديوان يغفر الله منه ما يشاء، وهو ما يكون من ظلم العباد فيما بينهم وبين الله من دون الإشراك به، وديوان يقيم الله فيه عدله لا محالة، وهو ظلم العباد للعباد.

روى الإمام أحمد والبيهقيّ في شعب الإيمان، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«الدواوين ثلاثة:

● ديوان لا يغفره الله، الإشراك بالله، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

● وديوان لا يتركه الله، ظلم العباد فيما بينهم حتَّى يقتصَّ بعضهم من بعض.

● وديوان لا يعبأ الله به، ظلم العباد فيما بينهم وبين الله، فذاك إلى الله، إنْ شاء عذَّبَ به، وَإِنْ شَاء تجاوز عنه».

والمراد من الدواوين صحائف الأعمال.

ولذلك يقول علماؤنا: حقوق العباد مبنية على المشاحّة وحقوق الله مبنيَّة على المسامحة. أي: فيما عدا الإشراك به.

ولمَّا كانت إقامة العدل بين الخلائق قراراً لازماً لا استثناء فيه، فإنَّ الإنسان يظلُّ يوم القيامة مُوثَقاً بمظلِماته التي ظلمها عباد الله حتى يتحلَّل منها بالتقاصّ من حسناته أو بحمل سيّئاتهم.

فعليه أن يتدارك أمره في الحياة الدنيا، فلْيتحلَّلْ من مظلِمَاته التي ظلمها عباد الله، وذلك بردّ الحقوق إلى أهلها، أو باستعطافهم للحصول على مسامحتهم وعفوهم، لئلا يعوضهم الله عنها من حسناته يوم الدين على مقاديرها، أو بأن يأخذ من سيّئاتهم على مقاديرها، فيطرحها عليه إنْ لم تَفِ حسناته بتسديد حقوق المظلِمات التي ظلمها.

والصلاة والصيام والزكاة أمثلة في رواية «مسلم» للعمل الصالح الذي جاء عامًّاً في رواية «البخاري».

ولا نعرف للتحميل من السيئات الوارد في الإفلاس الأخروي نظيراً في الإفلاس الدنيوي الذي لا يستطيع معه المدين أن يُسدِّد كلَّ الحقوق المالية التي عليه للدائنين ممَّا يملك من أموال، فهي طريقة من إقامة العدل الأخروي يقدِّرها الله عزَّ وجلَّ بالعدل الكامل.

ومن بديع البيان النبويّ أنَّ الرسول ﷺ استخدم أسلوب تطبيق صورة معروفة من صور الحياة الدنيا الشائعة بين الناس على قضية من قضايا الجزاء الأخروي هي أحرى بأن تطبَّق عليها.

فالناس يعرفون في أسواقهم التجارية من هو المفلس، ويعرفون كيف يَحدُثُ له الإفلاس عند اجتماع الدائنين عليه، وعجز أمواله عن الوفاء بحقوقهم.

وهو أمر يخشاه تجَّار الحياة الدنيا خشية عظيمة، لأنَّه يُسقطهم من أعين التجار، ويخرجُهم من السوق التجارية، ويعرِّضهم لضائقة ملازمة، ويحرمهم من ثقة الناس بهم والتعامل معهم، بعد المكانة المرموقة التي كانت لهم في معاملاتهم التجاريَّة.

فيطرح الرسول ﷺ السؤال على طائفة من أصحابه، فيقول لهم: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِس؟».

وهذا الأسلوب قد تكرَّر في بيانات الرسول ﷺ، فمنه قوله: «مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟» أي: بطل المصارعة. قالوا: الذي لا يصرعه الرجال.

قال: «ليس بذاك، ولكنَّه الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَب».

رواه مسلم عن ابن مسعود.

لقد أبان لهم الرسول ﷺ بهذا الأسلوب المفهومَ الخلقيَّ الذي أراد

تعليمهم إيَّاه، وهو أنَّ بطل المصارعة حقّاً هـو الذي يملك نفسه عند الغضب، وذلك لأنه يستطيع أن يغلب أقوى المصارعين له، نَفْسَهُ التي بين جنبيه.

وفي الحديث الذي نتفهَّمه: سألهم الرسول عن المفلس فقالوا: إنَّ المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فلما أجابوا بما يعرفون من أمور دنياهم نقلهم إلى ما هو أهمُّ وأخطر، وهو الإفلاس يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء.

فأبان لهم أنَّ المفلس من أمّته هو من يأتي يوم القيامة بأعمال صالحات من أعمال العبادات والطاعات، لكنَّه يأتي مع ذلك يحمل أوزاراً وأثقالاً من مَظْلِمَاتٍ ظلمها عباد الله، كأكل مالٍ بغير حق، وكعدوان بشتم أو قذف أو قتل أو جراحة.

وضرب الرسول ﷺ أمثلة على هذه المظلِمات:

- فذكر مَظْلِمة الشتم بغير حق.
- وذكر مَظْلِمَةَ القذفِ بالباطل.
- وذكر مظلِمة أكل مال الناس بالباطل، أو بالعدوان والظلم.
- وذكر مظْلِمةَ سَفْكِ الدَّم بغير حقّ، والضَّرْب بغير حقّ.

فالشتم والقذفُ مثالان جاءا في رواية «مسلم» للمظلمة من العرض التي جاءت في رواية «البخاري».

وأكل المال وسفك الدَّم والضرب بغير حقّ أمثلة جاءت في رواية «مسلم» للمَظْلِمة من غير العرض.

وهذه الأمثلة الواردة تشمل أنواع حُرُمَات المسلم على المسلم، المبيَّنةِ فيما ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ إذْ يقول: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ».

وقد وردت تفصيلات كثيرات في نصوص القرآن والسنة، تحذِّر من ظُلْم الأخ لأخيه، ومن العدوان على حقوقه، سواءٌ أكان ذلك في أمواله، أو في جسده وحياته، أو في عرضه وشرفه، أو في أي شيءٍ يؤذيه أو يضرُّه.

* * *

قاعدة التَّقاصّ بالعدل:

دلَّ هٰذان الحديثان المرويّان عن الرسول ﷺ، اللَّذان نتفهَّم دلالاتهما، على أنَّ عند الله يوم القيامة ميزاناً دقيقاً جدًّا، صالحاً لتقدير قِيَم الحسنات والسيّئات، والمبرّات والمظالم، ومقاصة بعضها من بعض دون وَكْسٍ ولا شطط.

فمظلِمةٌ بمئة درهم تُقَوَّم مثلاً بمثل ثوابها لو كانت صدقة مقبولة خالصة لوجه الله عزَّ وجلَّ، فهي تعادل كذا صلوات من الصلوات المقبولة الخالصة لوجه الله، ثوابها عند الله مثل ثواب التصدُّق بمئة الدرهم، على أنَّنا بهذا نُقرِّب تصوير تقدير المعادلة ولا نُحدّد، فالتحديد متعذِّر علينا، وعدل الله عزَّ وجل لا يضلُّ عنه مثقال ذرَّة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وبعد تقدير المعادلة يؤخذ من الظالم القدرُ المعادل من حسناته، فيُشْطَبُ من صحيفته، ويضاف إلى صحيفة حسنات المظلوم، ويكون بذلك التقاصّ.

ويجري نظير ذلك في سيّئات المظلوم حين يؤخذ منها ويُطرحُ على من ظلمه، الذي لم يبق لديه حسنات تؤخذ منه على سبيل المقاصَّة.

* * *

الظلم من أقبح القبائح ومن كبائر الإثم:

ولمَّا كان ظُلْمُ الآخرين حقوقَهم من أقبح القبائح التي تُدركها أقل الخلائق إدراكاً، ومن كبائر الإثم عند الله، حرَّمه الله عزَّ وجلَّ على نفسه، وجعله بين عباده محرَّماً، دلَّ على هذا ما جاء في الحديث القدسي الذي

رواه مسلم عن أبي ذرّ، عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربّه، وفيه أنَّ الله تبارك وتعالى قال:

﴿يَا عِبَادِي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً، فَلاَ تَظَالَمُوا﴾.

في هذا البيان الرَّبَّاني نُلاحظ أنَّ الله عزَّ وجلَّ سوَّىٰ عباده بنفسه في موضوع ظُلْمِ الآخرين حقوقهم، فحرَّمه على نفسه، ثم جعله محرَّماً على عباده، وإذْ حرَّم الله على نفسه الظلم فإنَّه سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً مثقال ذرَّة، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [النساء: ٤]:

﴿إنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (٤٠)﴾.

وحين يُقيم الله عزَّ وجلَّ عَدْلَه في عباده، فإنَّه لا يظلمهم شيئاً، ولكنَّهم هُمُ الذين ظلموا أنفسهم، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [يونس: ١٠]:

﴿إنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ (٤٤)﴾.

ولذلك فإن الله عزَّ وجلَّ لا يُهمل الظالم الذي يظلم عباد الله حقوقهم، لكنَّه قد يُمْهله ليتوب، وليؤدِّي الحقوق إلى أهلها، فإذا أخذه أَخَذَهُ أَخْذَ عَزيزٍ مقتدر، وكم يمكر الظالم فيوقعه الله في مكره، وكم يكيد فيرميه الله في مكايده، وربَّما حفر حُفْرةً لغيره فكان هو ضحيَّتها، ورُبَّما نصبَ شَرَكاً لغيره فوقع هو فيه.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الله يُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإذَا أَخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ».

ثم قرأ رسول الله ﷺ، قول الله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود: ١١].

والله عزَّ وجلَّ نصير المظلوم، لذلك كانت دعوته مستجابة عنده، ليس بينها وبينه حجاب.

روى البخاريّ ومسلم عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ فقال:

«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمَاً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ وأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ».

وروى البيهقيُّ في شُعَبِ الإيمان، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِيَّاكَ وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ اللهَ حَقَّهُ، وَإِنَّ اللهَ لاَ يَمْنَعُ ذَا حَقٍّ حَقَّهُ».

ألا فَلْيحذر الذين يظلمون عباد الله فإنَّ الله لهم بالمرصاد.

* * *

د ـ ممَّا يستفاد من الحديثين:

يستفاد من هٰذين الحديثين فوائد كثيرة منها ما يلي:

١ ـ التشديد من أمر ظلم الإنسان لعباد الله، وبيان أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يتركه دون أن يقيم بين عباده عدله.

٢ ـ حثُّ الرسول ﷺ المسلمين على أن يتحلَّلَ كلٌّ منهم من مظلِماته التي ظلمها بعض عباد الله في الحياة الدنيا، لأنَّ عدل الله عزَّ وجلَّ سيُلاَحقُ الظالمين يوم الدين، حتَّىٰ تُؤَدَّىٰ الحقوقُ إلى أهلها.

٣ ـ بيان أنّ تسديد حقوق المظالم يوم الدين يكون ممَّا في سجلِّ أعمالهم من حسنات وسيئات.

فيؤخذ من حسنات الظالم بقدر قيمة الحقِّ الذي ظلَمَهُ، ويُضَاف إلى صحيفة حسنات المظلوم، حتى إذا انتهى ما في كتابه من حسنات أُخذ من سيّئات المظلوم بقدر قيمة الحقِّ الذي ظلمه فيه ظالمه، فأضيفت إلى سيّئات الظالم، فيعفَى المظلوم من العذاب عليها، ويَسْتَحِقُّ الظالم التعذيبَ بدله.

٤ ـ توجيه الرسول ﷺ إلى أنَّ المفلس حقّاً هو المفلس يوم الدين، وهو الذي يُؤْخذ من حسناته التي عملها في الحياة الدنيا، فتضاف إلى صحائف الذين كان قد ظلمهم في الحياة الدنيا، ومات دون أن يؤدِّي ما عليه لهم من حقوق، أو يستسمحهم، حتى تفنى حسناته كلُّها قبل أن يُقضى كُلُّ ما عليه من حقوق للآخرين، في الْمَظْلِمَاتِ الَّتِي ظلمها.

٥ ـ ظلم الناس للناس يكون بإيذائهم في أنفسهم، أو أموالهم، أو أعراضهم، من غير حقّ.

* * *

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والصور البيانية

في هذين الحديثين وجوه بلاغية متعدِّدة، منها ما يلي:

١ ـ أسلوب الحديث في رواية «البخاري» هو أسلوب التوجيه العامّ ببيان قاعدة كليَّة مصدَّرة باسم الشرط (من) الذي هو من ألفاظ العموم.

وهذا من الأساليب التربوية المؤثرة، التي لا تصادف في المخاطبين أيَّة عقبة نفسيَّة صادَّة.

٢ ـ وأسلوب الحديث في رواية «مسلم» هو أسلوب السؤال عن فكرةٍ يعرفها المخاطبون في معاملاتهم، وهي معنى كلمة «المفلس» وسماع ما يعرفون عنها، ثم الانتقال بهم إلى أمرٍ دينيّ مشابه، وبيان أنَّ هذا الأمر الدينيّ أحقُّ بأن يطلق عليه لفظ «المفلس».

٣ ـ استخدم الرسول ﷺ في الحديث اسم الإشارة «هذا» في: «ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا... وهكذا» ولم يقل هذا وذاك وذلك...

ويظهر أنَّ الغرض الدلالة على أنَّ أصحاب المظلِمات يكونون محيطين به يوم الحساب، مطالبين بحقوقهم، فمن البلاغة المطابقةِ لمقتضى الحال الإشارةُ إليهم بإشارة القريب.

٤ ـ تأكيد الخبر بحرف التأكيد (إنَّ) في قوله: «إنَّ المفلس من أمّتي من يأتي . . .» وبالجملة الاسمية، لأنَّ مضمون الخبر فيه تحويل المخاطبين من مفهوم يعرفونه، إلى مفهوم ديني يجهلونه، وقد يقع منهم موقع الاستغراب.

٥ ـ جاء في رواية «مسلم»: «فإنْ فنيت حسناته» باستخدام حرف الشرط «إنْ» الذي يدخل على فعل شرط مشكوك في حصوله، أو نسبةُ حصوله في الأفراد المتعدِّدين أقلُّ من غيرها، إشارةً إلى واسع رحمة الله التي يضاعف بها ثواب الحسنات، حتّى يقلَّ في المسلمين من تفنىٰ حسناته قبل أن يسدِّد ما عليه من مظلِمَاتٍ لأصحاب الحقوق.

أمّا حرف الشرط «إنْ» في رواية «البخاري» فهي لمطلق الشرط دون ملاحظة ما دخلت عليه، بدليل إيرادها في الاحتمال الأول وفي مقابله: «إنْ كان له عمل صالح . . . وإن لم يكن له حسنات».

ثانياً: من الإعراب

١ ـ «من كانت له مظلمة» اسم شرط في محل رفع مبتدأ. وفعله في محلّ جزم. (له)متعلق بمحذوف حال متقدِّم على صاحبه الذي هو «مظلمة». و«مظلمة» اسم كان مرفوع.

٢ ـ «لأخيه من عرضه أو شيءٍ فليتحلّلْه»: «لأخيه» متعلِّق بمحذوف صفة لـ«مظلمة» أو متعلِّق بـ«مظلمة» على أنها مصدر. وكذلك «من عرضه» و«فليتحلَّلْه» الفاء واقعة في جواب الشرط، و«اللام» لام الأمر، والفعل مجزوم بلام الأمر، والفاعل ضمير يعود على (من) و(هاء) الضمير مفعول به.

٣ ـ «قبل أن لا يكون دينار ولا درهم»: قبلَ: منصوب على الظرفية، وهو مضاف و(أنْ) وما بعدها في تأويل مصدر في محل جرّ مضاف إليه.

«يكون»: هنا فعل تامّ غير ناقص بمعنى يوجد. «دينار» فاعل مرفوع.

٤ ـ «إنْ كان له عمل... أَخِذَ...» حرف شرط جازم، وكان فعل الشرط في محلّ جزم. «أُخِذَ» جواب الشرط وجزاؤه في محلّ جزم.

٥ ـ «المفلسُ فينا من لا درهم»: «المفلس» مبتدأ. «فينا» جار ومجرور متعلِّق بمحذوف حال من المفلس «من» اسم موصول في محلّ رفع خبر. «لا» نافية للجنس. «درهم» اسمها.

الحديث الحادي والعشرون

عن عبدالله بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«ضَرَبَ الله مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً، وَعَنْ جَنَبَتَي الصِّراطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا على الصِّرَاطِ، وَلاَ تَعْوَجُّوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ، فَإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ».

ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَرَ:

«أَنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الإسْلاَمُ، وأَنَّ الأَبْوَابَ الْمُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ الله، وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ حُدُودُ الله، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ الله فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ».

رواه الإمام أحمد، ورَزِين بسند صحيح.

ورواه أحمد والحاكم والبيهقي في شُعَبِ الإيمان والترمذي عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَان.

وأورده السيوطي عن النَّواسِ بتخريج الإمام أحمد والحاكم كما يلي:

«ضَرَبَ الله تَعَالَىٰ مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً، وَعَلَىٰ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ

فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَىٰ بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعاً، وَلَا تَتَعَوَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ.

فالصِّرَاطُ: الإِسْلَامُ. والسُّورَانِ: حُدُودُ الله تَعَالَىٰ والأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ الله تَعَالَىٰ. وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ الله. والدَّاعِي مِنْ فَوْقُ: وَاعِظُ الله فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ».

أشار السيوطي في الجامع الصغير إلى صحته.

أ ـ ترجمة (عبدالله بن مسعود) راوي الحديث:

١ ـ هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن مسعود بن غافل الْهُذَلِيّ، ويعرف أيضاً بابْنِ أُمِّ عَبْدٍ، ويلتقي نسبه مع نسب رسول الله ﷺ في مدركة بن إلياس.

٢ ـ كان من أوائل الذين أسلموا، فقد أُسلم قبل دخول النبيّ ﷺ دار الأرقم، والذين سبقوه إلى الإِسلام دون العشرة، قيل: وكان سادس من دخل في الإِسلام، وكان عمره يومئذٍ دون العشرين، وكان من ضعفاء المسلمين، وفقرائهم.

٣ ـ اصطفاه رسول الله ﷺ، فكان من خواصِّه، وصاحبَ سرِّه وخدمته في سواكه ونعليه وطَهُوره في السفر، فكان يحمل له نعليه حينما يخلعهما.

٤ ـ كان خفيف اللَّحم قصيراً نحيفاً شديد الأُدمة، إذا وقف لم يزد طوله على رجل جالس من طوال الرجال.

٥ ـ هاجر إلى الحبشة مع الذين هاجروا إليها بتوجيه من الرسول ﷺ، وكانوا نحواً من ثمانين رجلًا، كما حدَّث بذلك هو نفسه فيما أخرجه الإِمام أحمد.

ثمَّ تَعَجَّل العودة إلى الرسول في المدينة قبل إخوانه، فشهد غزوة بدر، ثم ما بعدها من مشاهد.

٦ ـ شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وقال بشأنه: «رضيتُ لأمَّتي ما رضيَ لها ابنُ أمّ عبد، وسخطتُ لها ما سخط لها ابن أمّ عبد». «وما حدَّثكم ابنُ مسعود فصدِّقوه». وقال له الرسول ﷺ: «إنَّكَ غلامٌ مُعَلَّم» وآخى بينه وبين سعد بن معاذ.

أخرج ابن عساكر عن عثمان بن أبي العاص قال: رجلانِ مات النبيّ ﷺ وهو يُحبُّهما: عبدالله بن مسعود. وعمَّار بن ياسر.

٧ ـ كان يُشَبَّه بالنبيّ ﷺ، في سمته، ودَلِّه، وهديه.

٨ ـ كان من أهل الفتوى، وكان كثير العلم بكتاب الله، ومما روي عنه أنه قال: «ما أُنْزلت سورة إلاّ وأنا أعلم فيما أنزلت».

وقال: أخذت منْ فِي رسول الله ﷺ سبعين سورة.

٩ ـ كان شديد التمسُّك بالسنة، وشديد الإنكار على الَّذين يبتدعون في الدين، ومن أقواله في ذلك: «الاقتصاد في السنة أحسن من الاجتهاد في البدعة».

١٠ ـ كان كثير الورع، كثير التهجُّد من الليل، يواظب على التنفُّل بين المغرب والعشاء، كثير الغيرة على دين الله، كثير النصح للمسلمين، يعلّم القرآن، ويعلِّم ما لديه من علوم الدين، ويدعو إلى التعلُّم ويرغِّبُ فيه. وكان كثير الصلاة قليل الصوم، وحين سئل في ذلك قال: إذا صُمْتُ ضعفتُ عن الصلاة، والصلاة أحبُّ إليَّ من الصيام.

١١ ـ وَلِيَ القضاءَ بالكوفة، ووَلِيَ بيت مالها، في عهد عمر وصدر من خلافة عثمان. وحين أرسله عمر بن الخطاب إلى الكوفة معلِّماً، ووزيراً لعمَّار بن ياسر الذي بعثه أميراً عليها، كتب كتاباً إلى أهل الكوفة قال فيه:

«أمَّا بعد: فإني بعثت إليكم عمَّاراً أميراً، وعبدالله معلّماً ووزيراً، وهما من النُّجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، فاسمعوا لهما، واقتدوا بهما، وإنِّي

قد آثرتكُم بعبدالله على نفسي . . » .

وكان عمر بن الخطاب شديد العناية به، وكان هو عـظيم التقديـر والاحترام والحبّ لعمر رضي الله عنهما.

١٢ ـ أُثرت عنه أقوال وكلمات نفيسة، منها:

● «عليكم بهذا القرآن، فإنَّه مأدبة الله، فمن استطاع منكم أن يأخذ من مأدبة الله فليفعل، فإنَّما العلم بالتعلُّم».

● «لأنْ يعضّ أحدكم على جَمْرَة حتَّىٰ تُطفأ خيرٌ من أن يقول لأمر قضاه الله: ليت هذا لم يكن».

● «والله الذي لا إلَه إلاَّ هو ما على ظهر الأرض شيء أَحْوَجَ إلى طول سَجْن من لسان».

● «ما دُمتَ في صلاةٍ فأنت تَقْرَعُ باب الملك، ومن يقرعْ باب الملك يُفْتَحْ له».

١٣ ـ أقبل في رهط من أهل العراق عُمَّاراً، فوجَدُوا بالرَبذَةِ جنازة على ظهر الطريق، قد كادت الإبل أن تطأها، فقام إليه صاحب الجنازة فقال: هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه. فاستهلَّ عبدالله بن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ: «تمشي وَحْدَك، وتموتُ وحدَك، وتُبعث وحدَك».

ثم نزل هو وأصحابه فَوارَوْه.

١٤ ـ عاد إلى المدينة في خلافة عثمان، فمات بها سنة اثنتين وثلاثين (٣٢) للهجرة ودفن بالبقيع، عن بضع وستين سنة.

١٥ ـ قال أصحاب مجلس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بشأنه: يا أمير المؤمنين، ما رأينا رجلاً كان أحسن خُلُقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشدَّ ورعاً من عبدالله بن مسعود. فأقرهم على ما قالوا، ثم

قال: اللَّهمَّ إنِّي أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل، قرأ القرآن فأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، فقيهٌ في الدين، عالمٌ بالسنة.

رضي الله عنه.

الترجمة جمعتها من مشكاة المصابيح وحياة الصحابة.

ترجمة: (النوَّاس بن سِمْعان):

١ ـ هو النَّواس بن سَمْعان بن خالد بن عبدالله بن أبي بكرة بن كلاب بن ربيعة الكلابي، ويقال: الأنصاري «سَمعان: بفتح السين وكسرها».

له ولأبيه صحبة، يقال: إنَّ أباه سَمعان بن خالد وفد على النبيّ ﷺ فدعا النبيّ له، وأعطى النبيّ نعليه فقبلهما منه.

٢ ـ سكن النوَّاس الشام، فهو معدود في الشاميين.

٣ ـ روى عنه جبير بن نُفَير، وأبو إدريس الخولاني، وجماعة.

جمعاً من الاستيعاب، والإصابة، وتهذيب التهذيب ومشكاة المصابيح

ب ـ اللُّغة والمعنى المراد:

١ ـ «ضَرَبَ الله مَثَلاً صِراطاً مُسْتَقِيماً»:

ضَرَب: الضربُ معروف، تقول: ضرَبَه يضرِبُهُ ضَرْباً، وتقول في المبالغة: ضرَّبه بتشديد الراء. وفي المفاعلة تقول: ضاربه، وتقول: تضاربا، واضْطَرَبا. وفي مبالغة اسم الفاعل تقول: ضَرُوب، وضَرِيب، وضَرِب، ومِضْرَب.

وفي اسم المفعول تقول: مَضْرُوب وضَرِيب.

ولمَّا كان العامل يَضْرِب الأرض بقدميه، أو بمركوبه، سمِّي الخروج

إلى التجارة أو الغزو ضرباً في الأرض، ثم أطلق تعبير الضرب في الأرض على ابتغاء الرزق.

ولمَّا كانت المصكوكات النقديَّة تُضْرَب على قوالب منقوشة على أمثلتها، سميت صناعة النقود المطبوعة ضرباً، فيقولون: دراهم ضَرْبُ الأمير فلان. ومن هذا أطلقت مادَّة «الضرب» على تقديم الأمثال في الكلام، لأنها أشباه أشياء أخرى قدّمت لها الأمثال، لتوضيحها، أو تحسينها أو تقبيحها، إلى غير ذلك من الأغراض التي تُقَدَّمُ لهَا الأمثال.

مثلاً: انظر ما جاء في الحديث الحادي عشر.

صراطاً: أصل الصراط السراط «بالسين» وهو بالصاد لغة قريش، ومعناه الطريق الواضح.

وأصل المادَّة من سَرِط الطعامَ سَرَطاً وسَرَطَاناً إذا بَلَعَهُ. ومنه قيل: إنَّما قيل للطريق الواضح سِرَاط لأنَّـه يَسْتَرِطُ المـارَّة، أي: يبتلعهم لسهولته ووضوحه وخُلُوِّه من العقبات.

مستقيماً: أي: لا اعوجاج فيه.

٢ ـ **«وَعَنْ جَنَبَتِي الصِّرَاطِ سُوران»**:

أي: سورٌ عن الجانب الأيمن للصراط، وسورٌ عن الجانب الأيسر للصراط. والسُّورُ عند العرب حائط المدينة، وهو أشرف الحيطان، لأنَّه يكون محيطاً قويّاً مانعاً للعدوّ مُحصَّناً.

جَنَبَتَي: مثنى جَنَبَة، وهو الجانب، والْجَانِبُ شِقُّ الإنسان، وطرف أي شيء، كَالْجَنْب.

٣ ـ **«فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحة»**:

أي: في السورَيْنِ أَبْوَابٌ تَنْفُذ إلى ما وراء الصِّراط من جهة اليمين، وإلى ما وراءه من جهة الشمال، وهذه الأبواب مُفَتَّحة، ليست مغلقة، وفي

هذا دلالة على أنَّ من أرادَ دُخُولها لم يَجِدْ ما يَمْنَعُه من دخُولها، وكذلك شأن المعاصي والذنوب والآثام، أبوابها مفتَّحة لمن شاء ارتكابها من الناس، وهم مُمَكَّنُون بالتمكين القدري من ارتكابها، ولكن على مرتكبيها أن يتحمَّلوا نتائج أعمالهم، من حسابٍ وجزاء بالعدل.

٤ ـ «وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاة»:

أي: وهذه الستورُ تُساعِد سالك الصراط على أن يعرف أماكن الأبواب المفتَّحة، فلا يقترب منها، لئلا تزلّ قدمه، فينْزَلِقَ منها إلى خارج الصراط، إلى حيث تستقبله المهالك أو المضارّ والمؤذيات.

وكذلك أحكام الشريعة المبيّنةُ لحدود الله، إنَّها بمثابة ستور مرخاة، تكُفُّ بَصَرَ السَّالك، لكنَّها لا تمنع من يريد الدُّخُولَ في الأبواب عندها، وتستجيبُ لمن يُزيحها ليطَّلع علىٰ ما وراءها، أو يعبُر.

٥ ـ «وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا على الصِّرَاطِ وَلاَ تَعْوَجُّوا» وفي الرواية الثانية: «وعِنْدَ بَابِ الصِّرَاطِ»:

أي: عند أوَّلِ الصِّراط داعٍ ينادي الناس فيدعوهم إلى سلوك هذا الصراط المستقيم، ليتخلَّصوا من ضلالهم الذي هم فيه، ويدعوهم إلى الاستقامة عليه، وهم سائرون إلى الغاية التي لها يطمحون في حياتهم، ويحذِّرهم من أن يَعْوَجُّوا عن خطِّ الاستقامة فيه.

داعٍ: اسم فاعل مِنْ: «دعا يدعو» بمعنى نادىٰ طالباً من يدعوه لتحقيق ما يدعوه إليه.

والدُّعاءُ الرَّغبة إلى الله عزَّ وجلَّ.

استقيموا على الصراط: أي: اعتدلوا وأنتم سائرون على الصراط، لا تميلوا ذات اليمين ولا ذات الشمال عنه.

وأصل المادة من انتصاب القامة واعتدالها عند القيام، وهو خلاف

الانحناء أو الميل أو الاعوجاج ثم أطلقت الاستقامة على الاعتدال وعدم الاعوجاج أو الميل في كلٍّ شيء ماديّ أو معنوي.

ولا تَعْوَجُّوا: تقول لغة: اعْوَجَّ اعْوجاجاً، وعَوِجَ يَعْوَجُ عَوَجاً. والاسم من ذلك: الْعِوَج.

والشيء الأعوج معروف، وهو الذي انحرف عن خطٍّ استقامته.

٦ ـ **«وفَوْقَ ذٰلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ» وفي الرواية الثانية: «وَدَاعٍ يَدْعُو من فَوْقِ الصِّرَاطِ، فإِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتح...»**:

أي: وفوق الصِّراط وعلى امتداد مسير السالك فيه داعٍ آخر، يتنزَّل بيانُه وتحذيرُه من علُوّ، فيتلقَّاه قلبُ السالك على الصراط، فكلَّما هَمَّ أَنْ يَفْتَح شيئاً من الأبواب التي في السُّورين على جَنَبَتَي الصِّراط، قال له: ويْحَكَ لَا تَفْتَحْه، فإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تلجه.

وَيْحَكَ: وَيْح: كلمة رَحْمَة. تقول لمن تعطه رحمةً به ويْحَكَ، فتنصبُ «ويحَ» بفعل محذوف مقدَّرٍ ذهناً. فمن يقول لرجل: وَيْحَكَ. كأنَّه يقول له: أَلْزَمَكَ الله ويحاً. وكأنَّ المعنى: يرحَمُكَ الله، وهي نظير: سلاماً عليكم.

فكلمة: (ويح) كلمة ترحُّم وتوجُّع. وقد تستعمل بمعنى المدح والتعجب.

وَلَكَ أن ترفع فتقول: «وَيْحُ فلانٍ» أو «ويْحٌ لفلان» فيكون رفعها على أنَّها مبتدأ. نظير: سلامٌ عليكُم.

قال الجوهري: «ويح» كلمة رحمة، و«ويل» كلمة عذاب والكاف في «ويحَكَ» مضاف إليه.

ويقولون: ويْحَ فلانٍ، وويْحاً لفلان، وويحٌ لفلان، وويحُ فلانٍ.

تلِجْه: تَدْخُلْه، تقول لغة: وَلَجَ يَلِجُ وُلُوجاً إذا دخل.

٧ ـ «ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَرَ»:

أي: فسَّرَ الرسول ﷺ المثل السابق الذي أخبر أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي ضربه.

فهل ضربه في حديث قدسي، أو فيما أُنْزِل على بعض رسله السابقين؟ الله أعلم، فكلاهما محتمل.

٨ ـ «أَنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الإِسْلَامِ»:

أي: فسّر الرسول المشبَّهَ في كلمة (الصِّراط) الواردة في المثل، والتي هي مشبّه به فأبَانَ أنّه الإسلام، فالإسلام هو صراط النجاة للناس في هذه الحياة الدنيا، وصراط السعادة الخالدة.

٩ ـ «وَأَنَّ الأَبْوَابَ الْمُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ الله»:

أي: وأنَّ محارم الله في أحكام الإسلام تشبه في المثل الذي ضربه الله الأبوابَ المفتَّحةَ في السورين القائمين على جَنَبَتَي الصراط، والمراد ما وراء الأبواب وهي المحرّمات التي توصل إليها الأبواب.

محارم الله: مَا حرَّمه الله، واحدتُها مَحْرَمَة وَمَحْرُمَة.

١٠ ـ «وأَنَّ السُّتُور الْمُرْخَاةَ حُدُود الله» وجاء في الرواية الثانية: «والسُّورَانِ حُدُودُ الله تعالى»:

أي: وأنَّ حدود الله في أحكام دينه للناس تشبه في المثل الذي ضربه الستورَ المرخاةَ على الأبواب، أو تشبه امتداد السورين، ويدخل فيهما الأبواب والستور المرخاة، فالرواية الثانية عبَّرت عن الكلّ، والرواية الأولى حدَّدت أماكن العبور والخروج عن الصراط.

حُدُودُ الله: أحكام شريعته لعباده. وقد سمّىٰ الله عزَّ وجلَّ في القرآن

أحكامه حدوداً في عدَّة آيات، لأنَّ الحدَّ هو الْمَعْلَمُ الفاصل بين أمرين، والفاصل يُميِّز الشيء عن الشيء الآخر، حتَّى لا يختلطا ولا يتداخلا في أنفسهما، أو في تصوُّر الناظر إليهما والباحث عنهما.

والحدُّ مانع من دخول أيِّ جزء من أجزاء كلٍ من المحدودين به في صاحبه، ومانع من خروج أيِّ جزء من أجزاء المحدود به إلى غيره.

وسمِّيت أحكام شريعة الله حدود الله لأنَّها ذات مقادير محدَّدة مقدَّرة، وبين كلٍّ منها وسائرِ الأحكام حدّ ذو معالم واضحة[١].

ومن تفسير السُّورين بحدود الله في الرواية الثانية نفهم أنَّ حدود الله قسمان: حدود جبرية قاهرة، وحدود تكليفية لا تمنع عابرها، كما سيأتي في الشرح العام.

١١ ـ «وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَىٰ رَأْسِ الصِّراطِ هُو القرآن»:

أي: وأنَّ القرآن يشبه في المثل الذي ضربه الله الداعي الواقف على رأس الصراط، وهذا الداعي ينادي الناس قائلاً:

«اسْتَقِيمُوا عَلَىٰ الصِّرَاطِ وَلَا تَعْوَجُّوا» كما جاء في الرواية الأولى. أو: «يا أَيُّها النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جميعاً وَلَا تَتَعَوَّجوا» كما جاء في الرِّواية الثانية.

ويمكن أن نجمع بين الروايتين فنجعلَ مقالة هذا الداعي كما يلي:

يا أَيُّها الناس ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعاً، واستقيموا عليه وَلَا تَعْوَجُّوا.

فالروايتان متكاملتان في هذه المقولة.

---

(١) انظر تتمة ما يتعلَّق بحدود الله ما جاء في كتاب (الصيام ورمضان في السنة والقرآن) للمؤلف، عند تفسير قول الله تعالى: «تلك حدود الله فلا تقربوها».

١٢ ـ «وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ اللهِ في قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِن». كما جاء في الرواية الأولى. «وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقُ وَاعِظُ اللهِ في قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ». كما في الرواية الثانية.

أي: وأنَّ واعِظَ الله الذي تتنزَّل مواعظه من فوق الصِّراط مصاحباً سير السالكِ فيه فتهبط مواعظه إلى قلب المسلم المؤمن سالكِ الصراط، عند همّه بأنْ يخرج عن سوائه، وَيَدْخُلَ في بابٍ من الأبواب المفتَّحة على جَنَبَتَيْهِ، فيقول له ويْحَكَ (= رحمةً لك) لَا تَفْتَحْ البابَ، فإنَّك إنْ فتحته أغرتك مغريات، فحرَّكَتْ نفسَك وأهواءَكَ وَشهواتِكَ، فانجذبت إليها، فدخلْتَ، فسقَطْتَ فيما لا تُحْمَد عُقْبَاه، وخسرتَ وندمتَ.

والمراد من «المسلم» في الرواية الثانية هو من كان إسلامه إسلاماً صادقاً، وأثراً لإيمانٍ صحيح، بدليل أنَّه دخل الصراط وسار فيه، ولا يدخل الصراط ويتلَقَّى مواعِظَ الله في قلبه، إلَّا من كان مؤمناً.

والمراد من «المؤمن» في الرواية الأولى هو من آمن فأسلم وأطاع، بدليل أنَّه دخل الصراط وسار فيه، وقد جاء تفسير الصراط في المثل بأنَّه الإسلام.

جـ ـ الشرح العام:

أخبرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد ضرب للناس مثلاً، في حديث قدسي، أو فيما أنزل في الرسالات السابقات، وهذا المثل قد ضربه لدينه الذي هو الإسلام، ولوسيلة الدعوة إليه، ولمواطن العبودية الجبرية لله، ولمواطن طلب العبودية الاختيارية له مع التمكين الاختياري من الانحراف عن دينه، وارتكاب المعاصي والآثام، وللمساعد على الالتزام بتطبيق أحكام الإسلام وشرائعه ووصاياه.

● فالإسلام الذي هو الدين عنده كالصراط المستقيم.

● والداعي إليه المُبَيِّن لتعاليمه وشرائعه وأحكامه هو القرآن وهو كالداعي على رأس الصراط يدعو الناس إلى الدخول فيه والاستقامة على سوائه.

● ومواطن العبودية لله بالقهر والجبر في كلِّ ما لا اختيار للإنسان فيه كالسُّورَيْن المبْنِيَّيْنِ القائِمَيْن على جانبي الصراط.

● ومواطن العبودية الاختيارية لله عزَّ وجلَّ، مع التمكين الاختياريّ من الانحراف عن أحكام الإسلام في كلِّ تصرُّف للإنسان يخضع لإرادته، كالأبواب المفتحة في السُّورَيْن القائمين على جانبي الصراط.

● وأحكام الله المبيّنة لحدوده، كالستور المرخاة على الأبواب.

● وواعظ الله في قلب كلّ مؤمن مسلم كالداعي القائم من فوق الصراط يحذِّر من دخول الأبواب، وفتح ستورها.

رحلة الامتحان في هذه الحياة الدنيا:

الناس في رحلة هذه الحياة الدنيا الفانية ممتحنون مبتلون، ما ملكوا في حياتهم هذه أهليَّة التكليف.

والمطلوب منهم في هذه الرحلة العابرة الفانية، التي تأتي بعدها حياة البقاء للحساب والجزاء، أن يسلكوا الصراط المستقيم الذي رسمه الله لهم، وكلَّفهم أن يسلكوه، ويلتزموا سواءه.

وهذا الصِّراط هو صراط الله للذين أنعم عليهم، من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، ومن تبعهم ولحق بهم.

أمَّا الضالون فهم الذين لم يهتدوا لهذا الصراط، لأنَّهم لم يهتمُّوا بالبحث عنه، انشغالاً بمتاع الحياة الدنيا، أو أعرضوا عن الدُّعاة الهُدَاة وأصمُّوا آذانهم، فلم يُصْغوا إلى دعواتهم، ولم يستجيبوا لدعوة الاستماع إلى

آيات الله المنزَّلات، وعصبوا أعينهم عن رؤية آيات الله في الكون، فلم ينظروا إليها نظر تفكُّر وتدبُّر.

وأمَّا المغضوب عليهم فهم الذين عرفوا من الحقّ ما يهديهم إلى الصراط ويدلُّهم عليه، لكنَّهم استكبروا أو استولت عليهم رغبات الفجور والانطلاق الوقح في الآثام والشرور وأنواع الظلم والطغيان في الأرض، فجحدوا الحقائق الرَّبانية التي كان عليهم أن يعترفوا بها إيماناً، واستكبروا عن طاعة بارئهم الذي كان عليهم أن يُسلموا له طاعةً وخضوعاً.

وهذا هو الصراط المستقيم الواضح المعالم، ذو الحدود المبيَّنَةِ من جَنَبَةِ اليمين ومن جَنَبَةِ الشمال، وهو الطريق الضامن للنجاة، والموصل إلى السعادة العظمى الخالدة التي لا فناء لها.

إنَّه الإسلام:

● الشامل للقاعدة الإيمانية الاعتقاديَّة القلبية، المستندة إلى الحقائق الفكرية العلميَّة، التي لا يكون مؤمناً بها إلَّا من اعترف بأركانها وعناصرها اعترافاً إراديًّا، وصدَّق بها من عُمْقِ قلبه، تصديقاً لا شكَّ معه، ولا حيرةَ فيه ولا تردُّد.

● والشامل للعمل الصالح:

أ ـ في السلوك الإراديّ الظاهر، وفق أحكام الله لعباده وسنة رسوله ﷺ.

ب ـ وفي السلوك الإراديّ الباطن، الحاوي لأعمال القلب والنفس والفكر الإرادية، وفق أحكام الله عزَّ وجلَّ لعباده، وسنة رسوله ﷺ.

جـ ـ وفي النيّات والغايات من الأعمال، بابتغاء مرضاة الله فيها، مع التزام طاعته فيما شرع لعباده، مما أمر به أو نهى عنه، أو أذن بفعله وتركه.

ويسأل الإنسان المكلَّف فيقول: كيف أعرف هذا الصراط الذي كُلِّفتُ

أن أسلكه في رحلة هذه الحياة الدنيا الفانية، التي تنتهي بموتي وبعودتي إلى التراب الذي تكوّن منه جسدي؟.

ويأتي الجواب الديني فيقول له: عندك كتاب الله القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي يهديك إعجازه إلى أنَّه كلامٌ منزَّل من لدن عزيز حكيم عليم، هو ربُّك خالقُك وخالق الكون كلِّه.

هذا القرآن يدعوك إلى صراط نجاتك وسعادتك، ويهديك إليه.

وقد بلَّغه للناس رسول الله الصادقُ الأمين، ذو الخلق العظيم، والمؤيدُ المصدَّقُ بالمعجزات الباهرات من ربِّه الجليل العليم الحكيم.

وعندك بيانات الرسول الشارحة للقرآن بالأقوال والأفعال والسيرة والتقريرات.

فادخل الصراط المستقيم الذي يدعوك إلى دخوله كتاب الله وبيانات رسوله.

ففي هذا الصراط مفاهيم الإيمان، وأركانه، وعناصره، وأحكامها. ومفاهيم الإسلام، وأركانه، وعناصره، وأحكامها. ومفاهيم التقوى والبرّ والإحسان بمراتبها، ودرجاتِ كلٍّ منها، وفضائلها، ومواعيد الجزاء بالثواب عليها. ومفاهيم المعاصي والآثام والمخالفات وتعدِّي حدود الله، وما يترتب عليها من جزاء بالعقاب.

الحدود الجبريَّة القهرية، والحدود الاختيارية التكليفيَّة:

ولكلٍّ هذه المفاهيم والأحكام حدود من جانب اليمين، وحدودٌ من جانب الشمال.

ومن هذه الحدود أماكن مسوَّرةٌ بالمقادير الجبرية، لا تستطيع أيُّها الإنسان اجتيازها ولا اختراقها، مهما احْتَلْتَ واتخذت من وسائل، لأنَّ الخالق البارىء المصوِّر لم يجعلها خاضعة لسلطان إرادتك وقوَّتك، فأنت لا تستطيع

أن تعصيَ القوانين الجبرية القائمة في الوجود، فتستفيدَ من معصيتها شيئاً في حياتك الفانية، فإن لم تطعها لتستفيد من طاعتك لها خسرت ما في قوانينها من منافع، وإن عصيتها أصابتك مضارّ معصيتك لها بحسب قوانينها.

جرّب إن شئت أن تعصي أحكام الله وقوانينه في الحياة والموت، وفي الخلق والتكوين، إنَّك ستجد نفسك محكوماً بسلطان القهر الرَّباني، ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾.

جرب إن شئت أن تعصيَ قوانين الخالق الجبار في النار، فادخلْ فيها بشحمك ولحمك دون ستارٍ واقٍ من حرِّها، وقدِّر لنفسك أن لا تحترق. إنَّك لا تستطيع ذلك، ولو فعلْتَ لأحرقكَ الله بالنار التي عصيتَ قوانينه فيها.

جرِّب إن شئت أن تعصيَ قوانين الخالق الجبار في الصخور الصمَّاء، فاضربْ رأسك بها، أو ألق بجسدك من شاهق عليها، وقدِّر لنفسك أن تحطِّمها هي دون أن تتحطَّمَ أنت. إنَّكَ لا تستطيع ذلك، ولو فعلْتَ لحطَّمَكَ الله بالصُّخور الصمَّاء التي عصَيْتَ قوانينه فيها.

جرّب إن شئت أن تعصيَ قوانين الخالق الجبار في حاجة حياتك إلى التنفس الذي يمدُّها بالأكسجين اللازم لها، فادخل إلى عمق البحر دون أن تتنفس، أو احبس أنفاسك أكثر من القدر الذي يسمح به قانون الله في حياة الناس وموتهم، دون أن تَتسبَّبَ بقتل نفسك، إنَّكَ لا تستطيع ذلك، ولو فعلتَ لأماتكَ الله الذي عصيت قوانينه في الحياة والموت، فحرَمْتَ جَسَدَكَ من التنفُّس اللازم لحياتك.

أنت إذن في رحلة حياتِكَ الفانية هذِه مُحاطٌ بقوانين جبريَّةٍ قاهرة، لا تستطيع معصيتها مستفيداً من عصيانك لها شيئاً ينفعك في حياتك الدنيا، بل أنتَ مُلْجأٌ إلى طاعتها إلجاءً إذا أردت أن تنتفعَ منها في حياتك. وهي في طريق حياتك بمثابة السُّورَيْن القائمين على جانبي طريق يسلكه العابرون إلى غايةٍ يرجونها من سلوكه.

فالحدود عند الأماكن التي قامت عندها الأسوار حدودٌ قهرية جبريَّة، لا يملك الناس اختراقَها عُصَاةً لها.

ولكن يوجد ضمن هذه الحدود العامَّة أماكن مفتوحةٌ كأبواب، لم تُبْنَ علَيْها أسوارٌ قهريَّةٌ جبريّة، إنَّما أُرْخيتْ عليها سُتُور يمكن إزاحتها، والدخول من الأبواب المفتَّحةِ عندها، وهذه الستور هي دلائـل على الحدود في أماكنها، تدلُّ على أن هذه المداخل حدود محظورة الدخول والتجاوز، تقول لسالكي الصراط: هنا حدود الله فلا تعتدوها، ومن دخلها أساء وعصى، وقد يحقِّق بعض شهواته وأهوائه في حياته الدنيا إذا دخلها، لكنَّه يجني على نفسه، إذْ تترتب عليه العقوبة المؤجلة لوقت آخر في الحياة الدنيا، أو في حياةٍ أخرىٰ بعد الحياة الدنيا.

فالحدود عند هذه الأبواب المفتَّحة في السُّـورَيْن حدودٌ تكليفيَّـة، وطاعَتُها تكون من خلالِ إرادات المكلفين الحرَّة، لا بقوانين جبريَّة قائمة عليها، حارسةٍ لها، مانعةٍ بالقهر من معصيتها واختراقها.

وهذه الحدود عند هذه الأبواب المفتحة، مع دخول الصراط ابتداءً والسير فيه هي أماكن امتحان الإنسان في الحياة الدنيا، وابتلاءِ إرادته وعمله، وهي أماكن مسؤوليته، لأنَّ الخالق البارىء المصوِّر جعلها تحت سلطة إرادته الحرَّة لامتحانه فيها.

واعظ الله الذي تتنزّل مواعظه إلى قلب المؤمن المسلم:

ومع القرآن الذي يدعو الناس إلى دخول الصراط، راسماً لهم أبعاده، ومحدِّداً لهم كلّ حدوده، وموضحاً لهم كلّ معالمه، رعى الله عزَّ وجلَّ كلَّ سالكٍ في هذا الصراط بعناية من لدُنْه، تساعده على الاستقامة فيه.

إنَّه واعظ الله الذي تتنزَّل مواعظه إلى قلب كلِّ سالِك في صراط الإسلام.

ويتمثَّل ذلك بمشاعر وجدانية، ونداءات داخلية، يقذفها الله في قلبه إلهاماً، وتكون شدَّتُها على مقدار صدق ارتباطه بالله، وإخلاصه له، وحرصه على تحقيق مراضيه والتزام حدوده.

وهذه المشاعر والنداءات الداخلية تعظه وتذكِّره، وتنهاهُ وتأمره، فكلَّما همَّ بأنْ يفتح ستارة من الستور المرخاة على الأبواب، وجد في قلبه داعياً يدعوه، يناديه ويعظه، يقول له: ويْحَكَ ارحم نفسك، ولا تظلمها، فلا تفتح الستارة، فعندها حدٌّ من حدود الله، وخلف الحدّ مزلق إلى شرّ، ومن دنا من الستارة ففتحها زاغ بصره، فانزلق، فهوى فتعرَّض لعذاب من الله، أو خسران مبين.

إنَّ هذه المواعظ النفيسة التي يُحسّ بها المسلم المؤمن سالك صراط الإسلام في عُمْقِ قلبه، تَتَنَزَّلُ عليه من فوق، من علوٍّ، من واعظٍ يسايره من أعلى الصراط وهو سالك فيه، وهو من العناية الرَّبَّانية المساعدة له على نفسه.

وحين يعظه هذا الواعظ بأن لا يفتح ستور الأبواب المفتَّحة عند حدود الله التكليفية، فإنما يعينه على أن يكفَّ عن نفسه فضول التَّطلُّع إلى محارم الله، ويكُفَّ عن نفسه نزعات الأهواء والشهوات، ونزغات الشياطين.

فالمؤمن المسلم سالك صراط الإسلام، الحريص على سعادة نفسه، وحمايتها من سخط الله ومقته وغضبه، يرى الستور الدَّالَّة على حدود الله التي قال الله بشأنها في سورة [البقرة: ٢]:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوْهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾.

وقال بشأنِها أيضاً:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ (٢٢٩)﴾.

وقال بشأنها في سورة [الطلاق: ٦٥]:

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ... (١)﴾.

يرى هذه الستور المرخاة عند حدود الله التكليفيَّة فلا يَتَعَدَّاها، بل لا يقتربُ منها، ولا يعلِّق نفسه بشيءٍ ممَّا وراءها، ولا يفكِّر فيه، حتَّى لا يشتهيه ويهواه، بل يمرُّ على الصراط مستقيماً، فلا يرى عند الأبواب والستور الْمُرْخَاةِ عليها إلَّا:

- هنا حدود الله فلا تقربوها.
- هنا حدود الله فلا تعتدوها.

أمَّا من لم يلتزم بهدي القرآن الذي رسم للناس صراط النجاة والسعادة، ولم يعبأ ببيانات الرسول المبلّغ عن الله، ولا بمواعظ واعظ الله في قلب كلّ مؤمن مسلم سالك في الصراط، فإنَّه سيجد نفسه قد احتوشته الشياطين، واستدرجته حتى يكشف ستارة باب من هذه الأبواب المفتَّحة، فينزلق إلى الآثام والخطايا، ويجلب إلى نفسه ما لا تحمد عقباه.

وقد سكت البيان في الحديث لدى ضرب المثل عمَّا وراء الأبواب المفتحة، من مزالق ومنحدرات، لأنَّ ذهن اللَّبيب يدركها بسرعةٍ متى سمع المثل أو قرأه.

وسكت البيان أيضاً عن التصريح بأنَّ الصراط هو صراط النجاة والسعادة، اكتفاءً ببيان أنَّ الصراط هو الإسلام، إذْ من المعلوم في الإسلام أنَّه هو الذي يضمن للناس النجاة من شقاء الدنيا والآخرة، وهو الذي يضمن للناس سعادة الحياة الأخرى، مع سعادة دنيوية عظيمة للأفراد والجماعات لا يمكن تحقيقها بغيره من مذاهب الناس.

د ـ مما يستفاد من الحديث بروايتيه:

يستفاد من هذا الحديث بروايتيه فوائد متعدِّدة، منها ما يلي:

١ ـ الإسلام هو الصراط المستقيم لحياة الإنسان، وهو الذي يضمن لمن التزم به في مسيرة حياته النجاة من الشقاء في الحياة الدنيا والآخرة، والسعادة في الحياة الدنيا، والسعادة الأبدية في الحياة الأخرى الخالدة.

٢ ـ كتاب الله القرآن داعٍ مرشد، غير مُجْبِرٍ ولا مُلْزِمٍ إكْراهاً، وهو يهدي إلى الصراط المستقيم، الذي هو الإسلام دين الله للناس، ويدعو الإنسان إلى دخوله والاستقامة عليه طَوال حياته.

٣ ـ الإنسان في طريق حياته واقع بين صنفين من القوانين الرَّبانية.

الصنف الأول: قوانين الجبر الذي لا سلطان للإنسان عليها، وهي حدود الله الجبريَّة القاهرة، التي يخضع لها كلّ مخلوق، ولا يستطيع اختراقها ولا تعدِّيَها، وهي كالأسوار المنيعة المحصنة، وهي خارج نطاق مسؤوليَّة المكلّف في الحياة.

الصنف الثاني: قوانين التخيير، وهي مجالات تحرُّك الإنسان الاختياري، الذي مكّن الله الإنسان فيه من طاعة أوامره التكليفيَّة، ومكّنه من معصيتها، ليمتحن إرادته وعمله في الحياة الدنيا، ثم ليحاسبه ويجازيه على اختياراته.

وهي كالأبواب المفتَّحة ضمن الأسوار المنيعة الحصينة. وهي مجالات مسؤولية الإنسان في الحياة الدنيا.

٤ ـ حدود الله التشريعية ضمن مجالات التمكين الاختياري، تدلُّ عليها بيانات القرآن والسنة وما يرجع إليهما من أدلَّة، وهي كالستور المرخاة على الأبواب المفتَّحة ضمن الأسوار المنيعة الحصينة.

٥ ـ يساعد الله عزَّ وجلَّ بعنايته وتوفيقه المؤمن المسلم السالك في صراط الإسلام بواعظ من لدنه، تصلُ مواعظه التحذيريَّة إلى قلبه، كلّما همَّ بأن ينحرف عن الصراط، ليكون له مذكّراً ومحذِّراً.

٦ ـ من وسائل التأثير في الدعوة إلى الله ضربُ الأمثال، لتقريب الأفكار التي يراد بيانُها، والإقناع بها، وتزيينها، وهو لون من ألوان الأدب الرفيع التي اتخذتها النصوص الإسلامية ضمن وسائلها.

فعلى الدعاة إلى الله أن يستفيدوا من هذا الهدي الرَّبانيّ والنبوي في دعوتهم إلى دين الله، والتزام صراطه المستقيم.

* * *

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والصور البيانية

في هذا الحديث وجوه بلاغيَّة بيانية متعدِّدة، منها ما يلي:

١ ـ الأسلوب المختار في هذا الحديث هو أسلوب ضرب المثل، لما في ضرب المثل من الاختصار والإيجاز الكلامي، مع اشتماله على معانٍ غزيرة ثرَّة، ولما في ضرب المثل من تقريب للأفكار التي يراد بيانها، والإقناع بها، وتزيينها.

والمثل الذي اشتمل عليه هذا الحديث هو من قبيل تشبيه التمثيل المركَّب، القائم على تقديم لوحة بيانية مركَّبة من عناصر، تصوّر عدَّة مفردات متلاقية في صورة، تقابلها في الممثّل له مفردات مشابهة لها متلاقية في صورة، على أنَّ كلَّ فرد يشبه الفرد المقابل له، وله وجه شبه خاصّ به، مع التشابه الكلّي بين الصورتين، إذْ يُنْتَزَعُ له وجه شبه عامّ يؤخذ من المتعدِّدات.

وهذا من روائع تشبيه التمثيل.

أ ـ فالصراط المستقيم في لوحة المثل، يشبهُهُ الإسلام في الممثّل له، الذي هو واقع حال الرسالة الرَّبانية للناس.

ووجه الشبه أنَّ كلًّا منهما سبب موصل للغاية المحققة للمطلوب.

ب ـ والداعي على رأس الصراط الـذي يدعـو الناس إلى دخـوله والاستقامة عليه في لوحة المثل، يشبهه القرآن الذي ينادي الناس جميعاً لالتزام دين الإسلام في الممثّل له الذي هو لوحة الرسالة الربَّانية.

ووجه الشبه أنَّ كلًّا منهما يهدي إلى الحقِّ والخير هدايةً دون جبر ولا إلزام.

جـ ـ والسوران القائمان على جانبي الصراط في لوحة المثل، يشبههما عبوديَّة الإنسان الجبريَّة لله فيما يجري به من مقادير النعم والمصائب، لا سلطان له عليها بشيء فلا يستطيع أن يجلب منها نفعاً أو يدفع منها ضرًّا.

ووجه الشبه أنَّ كلًّا منهما يعجز السالك عن اختراقه وتجاوز حدوده.

د ـ والأبواب المفتَّحة في السُّوَرَيْن القائمين على جانبي الصراط في لوحة المثل، يشبهها في واقع حال الممثَّل له ما لدى الإنسان من تمكين اختياريٍّ في أن يخالف شريعة الله لعباده، وأحكام حلاله وحرامه، كما هو ممكّن تمكيناً اختياريّاً من أن يسلك الصراط المستقيم، وأن يستقيم على سوائه.

ووجه الشبه أنَّ كلًّا منهما يتمكن السالك من عبوره واختراقه وتعدِّي حدوده.

هـ ـ والستور المرخاة على الأبواب في لوحة المثل، يشبهها أدلَّة حدود الله التي هي أحكام شريعته لعباده، وهي المبيّنة فيما أنزل على رسوله، في واقع حال الممثَّل له.

ووجه الشَّبه أنَّ في كلٍّ منهما دلالة تدلُّ على أمكنة الحدود، دون أن يكون فيه قوَّة مانعة من تعدِّيها بالجبر والقهر.

و ـ والداعي من فوق الصراط الذي يساير السالك فيه، فينزّل عليه حتى يبلغ إلى عمق قلبه تحذيراته ومواعظه كلَّما همَّ بأن يفتح ستارة من هذه

الستور، رحمة به، وشفقةً عليه، من أن ينزلق إلى ما لا تُحمد عُقْبَاهُ في لوحة المثل، يشبهُهُ ما ينزّل الله من إلهامات تحذير وإنذارٍ وموعظة، إلى عبده المؤمن المسلم، كلّما هَمَّ بأن يعصيَ ربَّه، في واقع حال الممثّل له.

ووجه الشبه أنَّ كلاًّ منهما واعظ حكيم رحيم يرافق مسير السالك، وتصل مواعظه إلى عمق القلب.

ز ـ ثمَّ إنَّ لوحة المثل بصورة عامَّة، تشبهها مجموعة عناصر الممثّل له بصورة عامَّة أيضاً، وذلك في حركتها العامَّة التي يمكن أن يُنْتَزَع لها ذهناً وجه شبه مأخوذٌ من العناصر الجزئية في كلٍّ منهما.

ووجه الشبه هذا يُدرَكُ في النفس والذهن، ولو عجزت العبارة عن بيانه.

٢ ـ يوجدفي هذا الحديث إيجاز حكيم، وقد تمَّ هذا الإيجاز بحذف ما يمكن أن يُعلَم لزوماً.

فمن تكريم المخاطب، الاعتمادُ على ذكائه لمعرفة ما يمكن أن يصلٍ إليه بنفسه، من اقتضاءات النصِّ ولوازمه الفكرية، فلا يُصَرَّح له فيه بما يدلُّ عليه دلالة واضحة لفظية. هذا إذا كان المخاطب أهلاً لمثل هذا الإيجاز، وقادراً على التوصُّل إلى معرفته بنفسه.

ثانياً: من الإعراب

١ ـ «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً».

«صراطاً»: بدل من **«مثلاً»** وهو تفسير له.

«مستقيماً»: صفة لـ **«صراطاً»**.

٢ ـ «وعند رأس الصراط داعٍ»:

«داعٍ»: مبتدأ متأخِّر مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدرة لثقل ظهـورها

على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، وهما سكون الياء وسكون التنوين.

«وعند رأس الصراط»: ظرف متعلّق بخبر متقدِّم. **«رأس»** مضاف إليه مجرور، وكذلك «الصراط».

ونظير ذلك: **«وفوق ذلك داعٍ يدعو»**.

٣ ـ «ولا تعوجُّوا»:

«لا»: ناهيه تجزم الفعل المضارع. «تعوَجّوا» فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، لأنه من الأفعال الخمسة.

٤ ـ «كلَّما همَّ عبدُ أن يفتح شيئاً من تِلْكَ الأبواب قال»:

«كلَّما»: أداة شرط غير جازم، وفعل الشرط: **«همَّ»** وجوابُه: **«قال»**. و«كلَّ» منها منصوب على الظرفية، والعامل فيه فعل الجواب: «قال» أي: قال كلَّما. و«ما» حرف مصدريّ، والجملة بعده صلة له، فلا محلَّ لها من الإعراب، أي: كُلَّ هَمٍّ. ولمَّا تضمَّن معنى الظرفية صار بمعنى «كُلَّ وقتِ هَمٍّ». هذا ما رجحه ابن هشام في المغني في إعراب «كلَّما».

٥ ـ «ويْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ»:

«وَيْـحَ»: منصوب بفعل مقدَّر، كنصب المفعول المطلق بفعل محذوف، في نحو «تحيَّةً وسلاماً». **والكاف** مضاف إليه. **«لا تفتحْه»**: لا ناهية تجزم الفعل المضارع، والفعل بعدها مجزوم، وفاعله ضمير مستتر وجوباً تقديره: «أنت» **والهاء**: ضمير في محلّ نصبٍ مفعول به.

* * *

الحديث الثاني والعشرون

عن عَبْدِالله بْنِ مسعود رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ:

«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْق، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقاً.

وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الْكَذِبَ، حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً».

رواه البخاري ومسلم

أ ـ ترجمة راوي الحديث (عبد الله بن مسعود):

سبقت في الحديث «الحادي والعشرين».

ب ـ اللُّغة والمعنىٰ المراد:

١ ـ «عَلَيْكُمْ بالصِّدْق»:

أي: التزموا بالصِّدق. (عليكم) هو في الأصل حرفُ جرٍّ وضميرٌ مجرور به، والميم علامة الجمع. ولكنَّه هنا ونحوه نُقِل عن أصله وصار اسم فعلٍ أمر، فهو لفظ مبني يعمل عمل الفعل الذي ناب عنه، ولا محلَّ له من الإعراب. ونابت كاف الخطاب مناب الفاعل في: «التزموا». و«بالصدق» جار ومجرور متعلق باسم الفعل: «عليكم».

«الصدق»: يقع صفة للكلام، وصفةً للمتكلم، فيقال: كلامٌ صِدْقٌ أو صادق. ومتكلّم صادق.

- أمَّا الصِّدْقُ في الكلام فهو مطابقته لواقع الحال.
- وأمَّا صِدْقُ المتكلِّم فهو أن يُحَدِّث بما يعتقد أنَّه حقٌ وصدق، ولو كان اعتقاده مخالفاً للواقع.

وكذلك «**الكذب**» يقع صفة للكلام وصفة للمتكلِّم، فيقال: كلامٌ كَذِبٌ أو كاذب. ومتكلّم كاذب.

● فكذب الكلام هو مخالفته لواقع الحال.

● وكذب المتكلم هو أن يُحَدِّثَ بما يَعْتَقد أنه كذب وباطل، ولو كان اعتقاده مخالفاً للواقع، أي: ولو كان الكلام الذي حدَّث به صدقاً مطابقاً للواقع، لأنه يحدِّث بما يعتقد أنَّه كذِب، فهو كاذب، كالملحد الذي ينكر وجود الله عزَّ وجلّ، وينافق أمام المسلمين فيقول: «القرآن كلامُ الله المنزلُ على رسوله» إنَّه كاذب في حديثه، لأنَّه يرى أنَّ ما يُحدِّثُ به حديث كذب، لكنَّ كلمته التي قالها حقٌّ وصدق، نظراً إلى أنها مطابقة للحقِّ والواقع.

٢ ـ **«فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى الْبِرِّ»**:

«يَهْدِي إلى الْبِرِّ»: أي: يوصل إلى البرّ. وفعل هَدَىٰ يهدي يدور لغة حول المعاني التالية:

أ ـ أرشَدَ من الضلال.

ب ـ دلَّ على الشيء المطلوب التعرف عليه، طريقاً كان أو غيره، وبيَّنه وعَرَّف به، وتَقول على هذا المعنى: هديْتُه، بمعنى دَلَلْتَه، وَهَدَيْتُ له، بمعنىٰ بَيَّنْتَ له.

وتقولُ: هَدَيتُه للحَقّ، وهديتُه إلى الحقِّ. وتقول: هديتُهُ الطريقَ، بمعنى عرَّفته إيَّاه. وهديت له الطَّريق، بمعنى بَيَّنْتَ له الطريق.

جـ ـ ويستعمل فعل «هدى» بمعنى أوصل إلى غاية، أو تسبَّب في الوصول إلى غاية، كما جاء في هذا الحديث.

د ـ ويستعمل فعل «هَدَاهُ» بمعنى: نَسَبَهُ إلى الهدى، أو ذكر أنَّه مهديّ، أو مهتدٍ، أو وجده كذلك. وهذا كثير في تعدية الأفعال. ومن تدبَّر النصوص بإمعان، وتَعَهَّد الرجوع إلى كُتُب اللُّغة العربية، ودلالاتِ الاستعمالات فيها، وجَدَ نظير ذلك بوفرة تُشعر بأنَّ الإسناد يصحُّ لغة عند أيَّة علاقة يصحُّ معها في

منطق العقل هذا الإسناد، وعلى هذا فينبغي أن يُوَجَّه كلّ نصٍّ للمعنى الذي يقتضيه سباق النصِّ وسياقه في جملته الكليَّة.

فقول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الشمس: ٩١]:
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (٩)﴾.

ينبغي أن يُحْمَل على معنى: قد أفلح من جعل نفسه بإرادته الحرَّة وَعمَلِه زَكِيَّةً طاهرةً من الكفر والمعاصي.

أما قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [النجم: ٥٣]:
﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)﴾.

فينبغي أن يُحْمَل على معنَىٰ: لا تَحْكُمُوا لأنفسكم ولا تحدِّثوا عن أنفسكم بأنَّكم أزكياء طاهرون أتقياء، فالحكم بتزكية الأنفس ليس لكم، إنَّما هو لله، فهو أعلم بمن اتَّقىٰ حقّاً، فمن زكَّاه الله فحكم له بذلك فهو الزكيّ التقيّ، لأنه سبحانه هو العليم بعباده، الحكيم في أحكامه.

وعلى هذا النَّسق ينبغي أن نفهم إسنادات الأفعال وتعدياتها.

«البرّ»: هو التوسُّع في فعل الخير فَوْقَ الواجب، وتفيد دلالات نصوص القرآن والسنة على أنَّ «البرّ» مرتبةٌ فوقَ مرتبة التقوى، ودُونَ مرتبة الإحسان، ولكلٍّ من هذه المراتب الثلاث درجات.

● فقول الله عزَّ وجلَّ في سورة [آل عمران: ٣]:
﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾.

يَدُلُّ على أنَّ البرَّ عَمَلٌ من أعمال الخير فوق الواجب، لأنَّ الواجب في الزكاةِ يؤخذ من أوسط الأموال، لا من كرائمها، ولا ممَّا يحبُّ الناس من أموالهم، فقد نهى الرسول ﷺ جُبَاة الزكاة عن أن يأخذوا كرائم أموال من

تجب عليهم الزكاة، أو ما يُحِبُّ باذلوا الزكاة من أموالهم، فدَلَّ على أن الإنفاق ممَّا يُحِبُّ المنفق من أمواله مرتبة غير مفروضة، وهذه المرتبة تُسمَّى مرتبة البرّ.

أمَّا ما يَجِبُ على الإنسان أن يُنْفقه من ماله، فإنفاقه له هو من مرتبة التقوى، لأنَّ أداء الواجب وترك المحرَّم ممَّا يقي به الإنسان نفسه من عقوبة المخالفة.

فالبرُّ توسُّع في عمل الخير فوق مرتبة التقوىٰ.

● وجمع الله عزَّ وجلَّ بين البرِّ والتَّقوى في آيتين، وقدَّم فيهما البرّ على التقوى، إشعاراً بأنَّ البرَّ مرتبتُه أعلى من مرتبة التقوى.

ففي سورة [المجادلة: ٥٨] يقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩)﴾.

وفي سورة [المائدة: ٥] يقول الله عزَّ وجلَّ خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾.

ففي هاتين الآيتين جاء عطف التقوى على البرّ، والأصل في العطف أنَّه يقتضي التغاير، وإذْ قد عرفنا من مختلف النصوص أنَّ التقوى تكون بفعل الواجبات وترك المحرَّمات، كان علينا أن نفهم أنَّ البرَّ توسُّعٌ في فعل الخير فوق مرتبة التقوى.

وفي مقابل مرتبتي البرّ والتقوىٰ جاء في الآيتين دركتا الإثم والعدوان، فدركة الإثم تقابلُ مرتبةَ التقوىٰ، ودركة العدوان وهي دركة إفراط في المعصية تقابلُ مرتبةَ البرّ.

● وكان أناس في الجاهلية يُسَمُّون أنفسهم حُمْساً، مفرد «أَحْمَس»

يرون أنَّ من التوسع في الخير والتشدُّد في أعمال عبادة الحجِّ، أنَّهم إذا أحرموا بالحجِّ فمن الأفضل لهم أن لا يدخلوا البيوت من أبوابها، بل يدخلوها من ظهورها، لئلا تُغَطِّي رؤوسهم عتبات الأبواب، فكانوا يضعون السلالم ويصعدون الْجُدُر وينزلون إلى البيوت من ظهورها، أو نحو ذلك من وسائل، فأنزل الله عزَّ وجلَّ قوله في سورة [البقرة: ٢]:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ (١٨٩)﴾.

فأبان الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية عدَّة قَضَايَا:

الأولى: أنَّ إتيانَ البيوت من ظهورها بالنسبة إلى المحرم بالحج ليس من أعمال البرِّ التي تقرّب إلى الله عزَّ وجل، فلا أجر في هذا العمل لمن فعله، بل هو من البدع والتزيُّدات الدخيلة على عبادة الحجِّ من بدع الجاهلية، دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في الآية:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورها﴾.

الثانية: أنَّ الْبِرَّ الذي هو التوسُّع في عمل الصالحات ومراضي الله عزَّ وجلَّ لا يكون إلَّا بعد التحقق بمرتبة التقوى، التي هي فعلُ الواجبات وتركُ المحرَّمات، فمن تحقق بهذه المرتبة، وأراد الارتقاء إلى مرتبة الْبِرِّ فلْيَأْتِ بالمندوبات والصالحات ومراضي الله الزائدة على الواجبات والمحرمات، ويكون ذلك بفعل المندوبات وترك المكروهات.

فالتحقق بمرتبة التقوى شرط للارتقاء إلى مرتبة البرِّ، ومثال ذلك الهدايا وإكرام الضيف ونوافل الصدقات فهي إنما تكون من البرِّ بعد أداء الزكاة المفروضة، والنفقة الواجبة. وكذلك نوافلُ الصلوات المسنونة إنَّما تُقْبل بشرط أداء الصلاة المفرضة.

وهكذا كلُّ مرتبةٍ دنيا هي شرط للارتقاء إلى المرتبة التي فوقها.

دلَّ على هذه القضية قول الله عزَّ وجلَّ في الآية:
﴿ولكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾.

أي: ولكِنَّ الْبِرَّ المقبول هو بِرُّ مَنِ اتَّقَىٰ، أمَّا من لم يَتَّقِ الله فلم يفعل الواجب ولم يترك المحرَّم، فكيف يَتَسَنَّى له أن يَقْفِزَ إلى مرتبة البرِّ.

الثالثة: الأمر بإتيان البيوت من أبوابها، وفي هذا إلغاء جازم للبدعة الجاهلية، دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَأْتُوا البيوتَ من أبوابها﴾.

الرابعة: الأمر بتقوى الله رجاء الفلاح بدخول الجنة، فمن اتَّقىٰ الله دخل الجنة فأفلح، دلَّ عليه قول الله تعالى في الآية: ﴿واتَّقوا الله لعلكم تُفْلِحون﴾.

● وجاء في سورة [الانفطار: ٨٢] مقابلة الأبرار بالفجَّار، فقال الله عزَّ وجلَّ:
﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾.

والفاجر هو المسرف بوقاحة في فعل الشرور والقبائح وارتكابها، والمتفجِّر إليها تَفَجُّراً، وفي مقابله يكون الْبَرُّ الذي هو واحد الأبرار من كان متقيّاً، ومرتقياً فوق مرتبة التقوى بالتقرُّبِ بنوافل العبادات والأعمال الصالحات.

وكذلك جاء في سورة [المطفِّفين: ٨٣] فقال عزَّ وجلَّ:
﴿كلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧)﴾.

سِجِّين: فِعّيل من السِّجن.
و ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨)﴾.

● ووصف الله عزَّ وجل الأبرار في سورة [الإنسان: ٧٦] بأوصاف فيها ما هو زائد على مقتضيات مرتبة التقوى.

فدلَّ كلّ ذلك على أنَّ البِّر مرتبة هي فوق مرتبة التقوى، أمَّا «الإِحسان»

فهو مرتبة فوق مرتبة البرِّ، وقد جاء في بيان الرسول ﷺ أنَّ الإحسان: أنْ تعبُدَ الله كأنَّكَ تَراه.

● وجواب الرسول ﷺ السائل عن البرِّ بأنه حُسْنُ الخلق، يدلُّ أيضاً على أنَّ مرتبة البرّ فوق مرتبة التقوى، لأنَّ حسن الخلق في كثير من صوره تطوّع في الخير زائد على فعل الواجبات وترك المحرّمات. وقول الرسول ﷺ: «ليس من البرِّ الصيام في السفر» يدلُّ على أن الصيام في السفر ليس هو العمل الأفضل من الفطر فيه، والعمل الأفضل هو فوق مرتبة التقوى.

وقد أطلت في الاستدلال على أنَّ مرتبة البرّ هي مرتبة فوق مرتبة التقوى، لأنني وجدت أنَّ معظم الشُّراح والمفسِّرين لا يُفَرِّقُون بين البرّ والتقوى، فقد يجعلونهما مترادفين، وقد يُفَسِّرون أحدهما بالآخر، وهو على خلاف ما تدلُّ عليه النصوص، وما يدلُّ عليه معنى الكلمتين لغة.

فَمَعنىٰ قول الرسول ﷺ: «فإنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرّ»: فإنَّ التزام الصدق في القول يوصل الصادق إلى الرغبة في أن يفعل أفعال البر، حتّى يكون من الأبرار. والسبب في ذلك أنَّه لا يستطيع أن يغطِّي معاصيَه وتقصيراته بالكذب، فهو يحرص على استكمال مرتبة التقوى خوفاً من الملام، ثم يرغب في فعل الصالحات فوق ذلك، لأنَّ استكمال مرتبة التقوى يدفع نفس المتَّقي إلى الارتقاء في درجات مرتبة البرّ دفعاً ذاتياً، حرصاً على السبق، وطمعاً باغتنام عظيم الأجر.

٣ ـ «وَإنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّة»:

أي: وإنَّ البرَّ يوصل إلى الجنَّة دون تعثُّر ولا عقبات، ولا مناقشة حساب.

٤ ـ «وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقاً»:

يَتَحرَّى: يتعمَّدُ ويطلُب ما هو أحرى وأجدر بأن يفعله أو يتخلَّق به من وجهة نظره.

صِدِّيقاً: الصِّدِّيق هو من صار الصدق سجيَّةً له، وخلُقاً ثابتاً، وصيغة «فعِّيل» من صِيَغ المبالغة بمعنىٰ كثير الصدق، ولكن من لازم تحرِّي الصدق وكَثُر صدقه في أقواله كان الصدق سجيَّة من سجاياه التي لا تفارقه حتى في خواطره ورغباتِ نفسه.

لذلك يُكْتَب عند الله «صِدِّيقاً». والصدِّيقون أصحاب مرتبة رفيعة عند الله، وهم يُصنَّفون بعد النبيين.

٥ ـ «وَإِيَّاكُمْ والْكَذِبَ»:

إِيَّاكم: ضمير هو مفعول به منصوب على التحذير بفعل محذوف وجوباً تقديره: إِيَّاكُمْ أُحذِّر.

والكذِبَ: معطوف على «إِيَّاكم» بالنَّصب. والتقدير من جهة المعنى: أحذِّركم من الكذب، فباعدوا أنفسكم منه. ويمكن اعتبار الواو «واو المعية» فيكون «والكذبَ» مفعولاً معه.

٦ ـ «فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ»:

أي: فإنَّ الكذبَ يوصل إلى الفجور، فهو من الأسباب الموصلة إليه، لأنَّ الكذب يُسهِّل للعاصي إخفاء معاصيه وإنكار آثامه، ويُجرِّئُه على التمادي في الغي، حتى يكون فاجراً.

والفجور: هو التدفق الوقح في فعل الشرور، والانبعاثُ في المعاصي والقبائح دون مبالاة.

٧ ـ «وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ»:

أي: وإنَّ الفجور يوصل إلى النار، لأنَّ الفاجر تهون عنده كبائر الذنوب، حتى يتبلَّد حِسُّه الديني، فلا يفكِّر في التوبة والندم والرجوع إلى

الطاعة والاستقامة، فيعيش حياته آثماً فاجراً، ثم يموت وهو كذلك، فيكون من أهل النار بمقضى عدل الله عزَّ وجل من جهة، وعدم وجود ما يستعطف رحمة الله عليه في دخيلة نفسه من جهة ثانية.

٨ ـ «وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً»:

أي: حتى يكون الكَذِبُ سَجيَّةً من سجاياه الَّتِي لا تفارقه، وبذلك يكتبُ عند الله في صحف ملائكته كذّاباً.

وصيغة «كذَّاب» على وزن «فَعَّال» من صيغ المبالغة، وهي هنا للدلالة على أنَّ الكذب صار خلقاً مكتسباً له، ووصفاً لازماً لا يُفارقه.

والكذَّابون أصحاب دركةٍ عند الله تُقَابل في انحطاطها دَرجة الصدِّيقين في سُمُوِّها.

جـ ـ الشرح العامّ:

ـ ١ ـ

مقدمات

الصدق كالأمانة من الفطر التي فطر الله الناس عليها، وكـالإيمان بالحقِّ، والتَّصديق به، وحبّه.

فالنفوس الإنسانية بفطرتها الأولى تنزعُ إلى الصدق، وإلى الأمانة، وإلى حبّ الحق، والإيمان به، والاعتراف بأنه حق.

وهذه الْفِطَرُ الأصول تُنَمَّىٰ بالاكتساب والتربية والعادة.

● فالإيمان بالحقّ يرسخ في عمق القلب، حتى يكون ذا أثر قويّ في تحريك العاطفة وتوجيه السلوك.

● والأمانة تعْظُم جذورها في القلب، وتمتدُّ فروعها إلى أطراف النفس

وحواشيها، حتَّى تكون خلُقاً ثابتاً، وحتى يكون صاحبه أميناً حقّاً.

● وكذلك يتأصَّل الصدق في عمق القلب، وتعظم جذوره، وتمتدُّ فروعه إلى أطراف النفس وحواشيها، حتَّى يكون خلُقاً راسخاً ثابتاً، وحتى يكون صاحبه صَدُوقاً، فَصِدِّيقاً.

والكذبُ كالخيانة، وكجحود الحقِّ والكفر به بعد معرفته، أعراض طارئة على أصل الفطرة، وأخلاقٌ تُكتَسَبُ اكتساباً على خلاف أساس الفطرة. والنفسُ الإنسانية مستعدَّة لاكتسابها، كما يحصل التشويه الطارىء في الْخَلْقِ الجسميّ، الذي هو سويٌّ في أساس فطرته وتكوينه، إذْ تطرأ عليه أسباب تفسد فطرته، أو تشوِّه فيها، فتحدث فيه العيوب، كالعمى، والصمم، والْعَرَج، وعوارض الأمراض المشوِّهة لأساس الفطرة.

والمؤثراتِ في تشويه حبّ الحق والاعتراف به، ونوازع الصدِّق والأمانة كثيرة، وهي تأتي من العادة، أو البيئة ومؤثراتها، أو التربية السيئة، أو نوازع شياطين الإنس والجنِّ، أو نوازع الأهواء والشهوات، ودواعي الحب والكراهية، والغضب والرضى، والخوف والطمع، والرَّغَب والرَّهَب، ونحو ذلك.

هذه الحقيقة تظهر لنا من ملاحظة أحوال الصغار منذ طفولتهم ونشأتهم الأولى، إذْ نلاحظ أنَّهم مفطورون على حبّ الحق والاعتراف به، وحبّ الصدق، وحبّ الأمانة، وميل نفوسهم إليها.

وقد دلَّت عليها دلائل من نصوص الدين الإسلامي، فمنها ما يلي:

١ ـ قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الروم: ٣٠]:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾.

٢ ـ ما رواه مسلم عن عِياضِ الْمُجَاشِعِيّ، من خطبةٍ خطبها رسول

الله ﷺ، وجاء فيها فيما يرويه الرسول عن الله عزَّ وجلَّ حديثاً قدسيّاً:

«وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لهم، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بي مَا لَم أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً».

وقد سبق شرحه عند شرح الحديث السابع عشر (حديث الأمانة).

٣ ـ وما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ مَوْلودٍ إلاَّ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، فَأَبَواه يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ الْبَهِيْمَةُ بَهِيمةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّون فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟».

وقد سبق شرحه عند شرح الحديث السابع عشر (حديث الأمانة).

٤ ـ وما رواه البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان، أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرجال».

وقد سبق شرح هذا الحديث.

٥ ـ وما رواه الإمام أحمد عن أبي أُمَامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُطْبَعُ المؤمِنُ على الْخِلاَلِ كُلِّهَا إلاَّ الْخِيَانَةَ والْكَذِبَ».

فدلَّ هذا الحديث، مع حديث: «كلّ مولودٍ يولد على الفطرة» على أنَّ أيَّ مولودٍ لا يُطبعُ في أصل فطرته على الخيانة والكذب، بل هو في أصل فطرته ينزع إلى حبِّ الحق، وإلى الصدق.

ودلَّ حديث حذيفة على أنَّ الأمانة من الأخلاق الفطرية التي جعلها الله في جذر قلوبِ الرجال.

الصدق يكون في الأقوال ويكون في الأعمال:

والصدق صفة تكون في الأقوال، وتكون في الأعمال:

● فالصادق في أقواله هو الذي يقول ما يعتقد أنَّه مطابق للواقع في

أخباره وأنبائه. والذي يقول في مواعيده وعقوده وعهوده ما عزم على تنفيذه والوفاء به منها. أمَّا من وعد وعداً، أو عقد عقداً، أو عاهد عهداً، وهو ينوي عدم الوفاء بما قال، فهو كاذب في ذلك.

● والصادق في أعماله هو الذي يعمل أعمالاً ذات دلالات عند غيره، فلا ينافق فيها، ولا يرائي، ولا يصانع، ولا يخادع، ولا يُوهم أنَّه يعمل وهو في الحقيقة لا يعمل، ولا يشارك بالعمل الضعيف لإرضاء الناس بما يتظاهر به مقصِّراً بالعمل الواجب الذي يجب عليه أن يعمله.

● فالمنافقون عندما أمر الرسول ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، لردِّ كيد أحزاب الكفر، كانوا يوهمون بأنهم يعملون ويشاركون مشاركة شكليَّة بالأعمال الضعيفة، فكانوا في أعمالهم هذه ومشاركاتهم كاذبين، لأنهم لم يكونوا يريدون من قلوبهم أن يعملوا، وإنما كانوا يوهمون المسلمين بأنهم يعملون معهم لستر نفاقهم بذلك.

● والدَّم الذي جاء به إخوة يوسف عليه السلام على قميصه، ليقدِّموا به دليلاً مادِّياً على أنَّه قد أكله الذئب كما ادَّعوا، وأنَّ ما على القميص إنما هو دمه، سمَّاه الله دماً كذباً، فقال عزَّ وجلَّ في سورة [يوسف: ١٢]:

﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ... (١٨)﴾.

ورُوي أنَّ الرسول ﷺ قال للَّتي أوهمت أنَّها تقتل القمل بأظافرها، إذْ جعلت تخرج منها أصواتاً تشبه أصوات قتل القمل: هذا من كذب الأنامل.

فكلُّ عمل يوهم الإنسانُ به حدوثَ شيءٍ لم يحدث، أو يُعَبِّر به عن وجود شيء غير موجود هو من كذب العمل، وربَّما كان الكذب في الأعمال أشدَّ خطراً وأقوىٰ أثراً من الكذِب في الأقوال.

وتمَّت كلمة ربِّك صِدْقاً وعَدْلاً:

أمَّا كلمات الرَّب الخالق في أحكامه التكوينيَّة، والتكليفية،

والتشريعية، وأحكامه في الوعد والوعيد، وفي غير ذلك، فقد تمَّت على أساسين اثنين هما:

الأول: الصدق.

الثاني: العدل. ثم يأتي فوق العدل فضل الله وإحسانه، ومنه عفوه وغفرانه.

وقد ألزم الله عزَّ وجلَّ نفسه بالصدق والعدل، لأنهما من الكمال، ونقيضاهما نقصٌ تنزّه عنه الله العليم الحكيم الغني عن كلِّ شيء، وهو على كلِّ شيء قدير.

فلا كذب في كلمات الله ولا ظلم.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأنعام: ٦]:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾.

وكما ألزم الله عزَّ وجلَّ نفسه بالصدق والعدل فقد جعل تكوينه الجبريّ ملازماً لهما، فلا يخرج كائن بخلق الله الجبريّ عن الصدق والعدل.

وما ألزم الله به نفسه من الصدق والعدل ألزم به عباده المكلفين، عن طريق إراداتهم الحرَّة التي منحهم إيَّاها ليبلوهم أيُّهم أحسن عملاً، فمن أطاع واستقام على صراط الله المستقيم، فصدق وعدل، صَدَقَهُ وعد الله، فأوصله إلى جنَّات النعيم حيثُ فضل الله العظيم. ومن عصىٰ ما أمره الله بأن يلتزم به، فلم يصدقْ ولم يعدِلْ، ولم يستقم على صراط الله، صدَقَهُ وعِيدُ الله، فجذبه إلى عذاب الجحيم، حيثُ تطبيقُ قانُونِ العدل الرَّباني.

● فمن الصدق في الكائنات الجبريّة أنَّ من اتَّخذ أسْبَابَ الأشياء وفق أنظمة كلمات الله السببيَّة التي دلَّت عليها التجربات، صَدَقَتْهُ الأشياء، فأعطتْهُ النَّتائجَ المقرَّرة في أنظمة التكوين السببي التي دلَّت عليها التجربات.

فمن أكل الطعام النافع صدقه الطعام فكان غذاءً نافعاً له، ومن تناول الدواء الذي جعله الله بكلمته شفاءً للعلَّة التي يشكو منها، صَدَقَهُ الدواء، فكان شفاءً له، ولو كان هو بالله كافراً، ومن تَحَسَّى السَّمَّ الذي جعله الله بكلمته في التكوين الجبري قاتلاً، صَدَقَهُ السُّمُّ فقتله، ولو كان هو بالله مؤمناً.

فقد تمَّتْ كلمةُ الله فيما يمكن أن يتحقَّق فيه الصدقُ صدقاً.

● ومن العدل في الكائنات الجبريَّة أنَّ من بذلَ جَهْداً ما وفق أنظمةِ كلماتِ الله السببيَّة، نال أو أصاب ثمرة جَهْدِه بالعدل، وقد يزيده الله فضلاً وإحساناً.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [هود: ١١]:

﴿مَـنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيها، وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُوْنَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾.

وقد تمَّت كلمةُ الله فيما يَحْسُن فيه العدلُ عَدْلاً.

فالصدق صفةٌ من صفات الله، وظاهرة من ظواهر الكون المجبور الذي لا خيارَ ولا حريَّة له.

والمطلوب من المكلَّفين الذين منحهم الله إرادات حُرَّة، أن ينسجموا باختيارهم الحرّ مع ما ألزمَ بِهِ الله نفسه من الصدق وألزمهم به، وأن ينسجموا مع صفات كونه المجبور، فذلك هو الكمال، والخروج عنه عنادٌ من المكلَّف، وشذوذ قبيح عن نَسَق الوجود ونظام خَلْقِ الله، وانحدارٌ إلى حضيض النقص، مع ما فيه من عصيان لأوامر الربِّ الخالق ونواهيه.

حاجة المجتمع الإنساني إلى خلق الصدق:

وتبدو لنا حاجة المجتمع الإنساني إلى خلُق الصِّدق، حينما نلاحظُ أنَّ

شطراً كبيراً من العلاقات الاجتماعية، والمعاملات الإنسانية، تعتمد على صدق الكلمة، وصدقِ الانتماء، وصدق التعبيرات العملية في دلالاتها على الغايات القلبية منها، والنياتِ من ورائها.

فإذا لم تكن الكلمة معبّرة تعبيراً صادقاً عمَّا في نفس قائلها، ولم تكن الأفعال معبّرةً تعبيراً صادقاً عن النيّات المضمرة من ورائها، لم نجد وسيلة أخرى كافية نعرف بها إرادات الناس، ونعرف بها حاجاتهم، وحقيقة أخبارهم، وحقيقة انتمائهم، ومراداتهم من أعمالهم.

لولا الثقة بصدق الكلمة، وصدقِ العمل، لتفكَّكَتْ معظَم الروابط الاجتماعية بين الناس، ويكفي أن نتصوَّر مجتمعاً قائماً على الكذب بين أفراده، لِنُدْرِكَ مبلغ تفكُّكه، وتقطُّع روابطه، وانعدام صور التعاون بين أفراده.

● كيف يكون لمجتمعٍ ما كيانٌ متماسكٌ مترابط، وأفراده لا يتعاملون فيما بينهم بالصدق؟!

وكيف يكون لمثل هذا المجتمع ثروة من ثقافة أو تاريخ أو حضارة؟

● كيف يُوثَقُ بنقل المعارف والعلوم، إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع الإنساني؟!

● كيف يوثق بنقل الأخبار والتواريخ إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع؟!

● كيف يوثق بالوعود والعهود والعقود ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟!

● كيف يوثق بالدَّعاوَىٰ والشهادات وأدلة الإثبات القولية ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟!

● ما هو مصير مجتمع قائم على الكذب؟

● أليس مصيره الانحلال والتفكُّك، ثمَّ التخلُّف الحضاريّ الشنيع، ثم الخراب والدمار؟.

● أليس الجهل المخزي أحد سمات هذا المجتمع المنحلّ؟

● أليس الظلم والعدوان، والجور والفجور والطغيان، صفات لها السيادة فيه؟

● ما هو مصير مجتمع قائم على الخداع في الأعمال، ومظاهر الانتماء، وأفرادُه كاذبون مخادعون؟

* * *

ـ ٢ ـ

مع الحديث الذي نتفهمه ونشرحه

لمَّا كان الصدق من كمال الأخلاق، ومن كُبْرَيات الفضائل، ذات النفع الحضاريّ العظيم، وضرورةً من ضرورات المجتمع الإنساني.

ولمَّا كان الكذب من قبائح الأخلاق، ومن كبريات الرذائل، ذات الضرر البالغ في المجتمع الإنساني، وعُنْصُرَ إفسادٍ كبير، ووسيلةَ ظلمٍ وعدوان، وجور وفجور وطغيان، وسببَ هدمٍ للأبنية الحضاريَّة، وتقطيع لروابط المجتمعات الإنسانية، وتمزيقٍ لصلاتها ولأوصالها، ومُشْعِلاً لنيران الفتنِ، والعداوةِ والبغضاء بين الناس.

أَمرَ الإسلام بالصدق وحث المؤمنين عليه، ونهىٰ عن الكذب، وشدَّد في التحذير منه، ووضع قواعد تربية المجتمع الإسلاميّ على الصدق، واتخذ مختلف الوسائل الكفيلة بغرسٍ وتنمية وترسيخ هذا الخلق العظيم في نفوس أفراده جميعاً، صغاره وكباره، رجاله ونسائه. وأَبَانَ للذين آمنوا أنَّ افتراء الكذب يَتَنَافَىٰ مع الإيمان:

● فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة [النحل: ١٦]:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾.

● وروى الإمَامُ مالك في الموطَّأ، عن صفوان بن سليم، أنَّه قيلَ لرسول الله ﷺ: أيكونُ المؤمن جباناً؟

قال: «نعم»

فقيل له: أيكونُ المؤمنُ بخيلاً؟

قال: «نعم»

فقيل: أيكونُ المؤمنُ كذَّاباً؟

قال: «لا».

فدلَّت الآية على حصر افتراء الكذب بالَّذين لا يؤمنون، أمَّا الكذبات العارضات في حياة الإنسان، التي لا تكون افتراءً مدبَّراً متعمَّداً مقصوداً، ولا تكون عن خُلُق أصيل ثابت، فربما تقع من المؤمن.

ودلَّ الحديث على أنَّ المؤمن لا يكون كذَّاباً، أي: لا يصل إلى مستوى في تحرِّي الكذب يُدْمَغُ فيه بأنَّه كذَّابٌ خُلُقه الكذب. أمَّا الكذبات العارضات فليس في الحديث ما يدلُّ على أنَّها لا تكون من المؤمن، وذلك لأنَّ «كذَّاب» صيغة مبالغة تدلُّ على تمكُّن خلق الكذب من نفسه.

فافتراء الكذب وافتعاله عن إصرار وتعمُّدٍ وتخطيط وتدبير له، إنَّما يفعله الكذَّابون الَّذين لا يؤمنون.

اعتياد الصدق يوصل إلى مرتبة البرِّ:

وحديثنا الذي نتفهَّمه من الأحاديث العظيمة التي فيها أمرٌ للمسلمين بالتزام الصدق، وبيانُ أنَّ الالتزام به من الأسباب التي تنقل المسلم من مرتبة المتقين، فترفعه إلى مرتبة الأبرار، ثم تكونُ بذلك سبباً موصلاً إلى الجنة دون مناقشة حسابٍ ولا عذاب، لأنَّ من دخل في صنف الأبرار حمَىٰ نفسه من الإخلال بواجبات مرتبة التقوى، إذْ يكون قد استوفى واجباتها، ولو

بالتكفير عن السيئات والعفو والغفران من الله، وصار لديه وفرٌ من الطاعات النوافل جعله يرتقي في درجات مرتبة البرّ، ويدخل في صنف الأبرار.

وكلمة «البرّ» في قول الرسول ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى الْبِرِّ». كلمة جامعة تدلُّ على كلّ وجوه الخير، ومُخْتَلف الأعمال الصالحات، مما هو زائد على فعل الواجبات وترك المحرَّمات، وهي الأمور التي تقتضيها مرتبة التقوى.

ونتساءل: كيف يهدي الصدق إلى مختلِف وجوه البرّ؟.

وبالتحليل والتأمل نلاحظ ما يلي:

حينما يكون الإنسان صدوقاً، أي: يكون خلُق الصدق أصيلاً في نفسه، ووصفاً ملازماً لسلوكه، فما هو موقفه السلوكيّ إذا عرف الحقَّ وسئل عنه؟

إنَّه لا بدَّ أن يكون موقفه تجاهه الإعلان عنه بصدق، فيقول: هو حق.

والاعتراف بالحق أوَّل طرق الإيمان، للتحقق به كاملاً، فالصدق إذن لا بدَّ أن يهديه إلى كمال الإيمان بعد التعرُّف على أركانه، وعناصر هذه الأركان بأدلتها، والإيمانُ هو القاعدة الأساسية للتقوى.

وبعد اعترافه وإسلامه سيجد نفسه مندفعاً إلى صدق انتمائه الذي أعلنه، وذلك بفعل ما هو واجب عليه، وترك ما هو محرَّم عليه، وحين يُسْأَل عن أيِّ واجب أو أي محرّم: هل فعله أو لم يفعله؟ فإنَّه يجد نفسه مدفوعاً بمقتضى كونه صدوقاً إلى الاعتراف بواقع حاله. لكنَّه قبل أن يَتْرُكَ الواجب ويرتكب المحرَّم لا بدَّ أن يُقَدِّر في نفسه أنه سيتعرَّض من قبل المسلمين للسؤال عن التزامه الديني، وهو يكره أن يكتشف المسلمون معاصيه ومخالفاته، لذلك يجد نفسه مدفوعاً بقوَّة للقيام بما هو واجب عليه في إسلامه، وتركِ ما هو حرامٌ عليه، وبذلك يستكمل تلقائيّاً شروط أعلى درجات مرتبة التقوى.

ثم يجد نفسه تلقائيّاً مدفوعاً إلى الاستزادة من أعمال الخير، **بفعل** السنن ونوافل الطاعات والعبادات، وبذلك يصعد في درجات مرتبة البرّ.

وعندئذٍ لا يجد نفسه محاسباً عند الله على ترك واجب أو ارتكاب محرّم، بل يجد نفسه مستحقاً دخول الجنَّة دون أن يُناقَش الحساب.

ولا بدَّ أن نلاحظ أنَّ الصدوق لا يمكن أن يكون منافقاً، لأنَّ الكذب هو العماد الأول للنفاق.

بهذا التحليل يتبيَّن لنا التسلسل المنطقي في قول الرسول ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ، وإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّة».

اكتسابُ خُلُق الصدق الرَّاسخ في النفس بالعادة:

ونفهم من قول الرسول ﷺ: «وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقاً».

أنَّ خلُق الصِّدقِ قابل للاكتساب في حيَاةِ الإنسان، وقابل للتنمية والترسيخ، عن طريق التدريب العملي المقترن بالإرادة الجازمة. فمن مظاهر الإرادة الجازمة تحرِّي الصدق في الأقوال كلّها، وفي مختلف وسائل التعبير العملية.

والذي يتحرَّىٰ الصدقَ لا يسمح لنفسه بأن يُلْقِيَ كلاماً جُزافاً دون تروٍّ ولا بصيرة، ولا يسمح لنفسه بأن يتَّبع ما ليس له به علم، فيحكُمَ بالظنون التي ليس لها ما يدعَمُها ويؤيِّدها من الأدلَّة الكافية للإثبات أو للنفي، ولا يسمحُ لنفسه بأن يُرائيَ، أو ينافق في أعماله لأنَّه يحرص على الصدق، ويتحرَّىٰ بإرادته الجازمة الصدق في أقواله وأعماله، وبذلك يكون صَدُوقاً، أي: متحلِّياً بخلُق الصدق الذي غدا متمكِّناً في نفسه، وعندئذٍ **يُكْتَبُ عنْدَ الله «صِدِّيقاً»** أي: مكتسباً بإرادته واعتياده خلُق الصدق، الذي يستحقُّ عليه أن يكون مع الصدِّيقين، وينالَ به ثوابَ الصدِّيقين، إذا ابتغىٰ بتخلُّقِه بهذا الخلق العظيم رضوان الله وثوابه.

اعتياد الكذب يوصل إلى دركة الفجور:

والفجور في اللُّغة كما سبق أن عرفنا، هو الاندفاع الوقح إلى فعل الشرور والآثام، والانبعاث بتدفُّق في المعاصي والقبائح دون مبالاة، والفجور لفظ جامع يدلُّ على مختلف أنواع القبائح المسرفة في قبحها.

وعرفنا أنَّ دركة الفجور في انحطاطِها وتسفُّلِها تقابلُ درجةَ البرّ في ارتقائها وسموّها.

ونتساءل: كيف يوصلُ الكذب إلى الانغماس في الفجور؟ وبالتحليل والتأمُّل نلاحظ ما يلي:

إنَّ من كان الكذب خلُقاً أصيلاً فيه، هان عليه أن يُنكر الحقّ ويدَّعيَ خلافه.

فإذا عرف أنَّ أركان الإيمان حقٌّ بعد أن أقيمت له الأدلَّة والبراهين، لم يجد حرجاً في نفسه أن ينكرها، ويدَّعي خلافها كذباً وبهتاناً، استجابة لأهواء نفسه وشهواتها، ثم لم يجد حرجاً في نفسه أيضاً أن يُعلنَ أنَّ ما يرغب فيه من باطل ظاهرِ البطلان أفكارٌ صحيحةٌ مطابقةٌ للحقيقة والواقع، ويجب الاعتقاد بها، مع علمه بأنَّه يكذب على الحقيقة والواقع، ويحاول أن يقنع الآخرين بأكاذيبه التي يفتريها على الحقيقة والواقع.

إنَّه يفعل ذلك استجابة لأهواء نفسه، وتلبيةً لشهواتها.

ومعلومٌ أنَّ الكفر بأركان الإيمان من أفجر الفجور، والذي ساعد عليه وأوصل إليه هو خلق الكذب، ولو أنَّه كان صدوقاً لم يطاوعه خلقه على جُحُود الحقِّ الذي ظهر له، لكنَّه كان كذَّاباً فوجد في نفسه مفرَّاً من وجه الحقِّ بافتراء الكذب.

والمنافق يستطيع أن يتظاهر بالإسلام زوراً وكذباً، ليحميه النفاق من نقمة المسلمين في الدنيا، أو ليظفر بمطامع ماديَّةٍ يشارك فيها المسلمين

الصادقين، والذي ساعده على ذلك هو خلق الكذب، إذْ جعله يركب في سلوكه أفجر الفجور، وهو النفاق، ولمَّا كان النفاق أفجر الفجور كان المنافق في الدرْك الأسفل من النار. ولو أنَّه كان صدوقاً لم يطاوعه خلقه على ركوب مركب النفاق الذي لا يستطيعه إلاَّ بالكذب والاستمرار عليه ما دام منافقاً، وبتجديد الأكاذيب كلَّما خاف أن ينكشف نفاقه.

اكتساب خلق الكذب الذي يتأصَّل في النفس بالعادة:

ونفهم من قول الرسول ﷺ: «وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً».

أنَّ خلُق الكذب قابلٌ للاكتساب في حياة الإنسان، وقابلٌ للتنمية والترسيخ، عن طريق التدريب العملي المقترنِ بالقصد والإرادة الجازمة، فمن مظاهر القصد والإرادة الجازمة تحرِّي الكذب في الأقوال، وفي مختلف وسائل التعبير العملية.

ويزيدُ من تمكُّنِ خلُق الكذِب في نفسه استفادتُه من أكاذيبه في تحقيق مطالِبه ورغائبه في حياته وتعاملِه مع الناس، وتحقيق أهوائه وشهواته التي يكون فيها ظالماً آثماً.

فالذي يَستُر غشَّهُ وخيانتَه وظلمَه للناس بالكذب، فيصل به إلى ما يشتهي ويهوَىٰ من مالٍ أو منصب أو انتقام من خصم أو ظلم لمنافس له، يحلُو عنده الكذب، ويراه وسيلة سهلة لا تكلِّفه إلاَّ أقوالاً أو تظاهراً بأعمال إيهامية، أو أَيْمَاناً كاذبات يحلفُها، أو شهادات زور يشهدها، فيستمرئه ويعتاده حتَّى يكون مدمناً لا يستطيع مفارقته، كمدمن الخمر والمخدِّرات القواتل.

لكنَّه استمراءٌ مؤقت تعقبُه غُصَص مُرَّةٌ ذاتُ شوكٍ وعذَابٍ أليم.

وحين يتأصل في نفسه خلُق الكذب، فيكون كذوباً في حياته، يُكتَبُ عند الله كذَّاباً.

* * *

- ٣ -

لواحق

من أظلم الظلم افتراء الكـذب على الله ورسوله:

إن من أشنع وأقبح صور الكذب افتراءَ الكذب على الله عزَّ وجلَّ، أو على رسوله ﷺ، لأنَّه افتراء في الدين، وتلاعب بشرائع الله لعباده، وتجرّؤٌ عظيم على النار.

وقد أبان القرآن الكريم أنَّ من أظلم الظلم افتراء الكذب على الله عزَّ وجلَّ، فقال تعالى في سورة [الأنعام: ٦]:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ الله كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ؟! . . . (٩٣)﴾.

وأبان الرسول ﷺ عظم جرم من كذب عليه متعمِّداً، فقد جاء في الحديث المتواتر قولُ الرسول ﷺ:

«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّار».

فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ: أي: فَلْيَحُلَّ في مقعده من النار، وَلْيُقِمْ فيه. وهذا وعيد من الرسول ﷺ بأَنَّ من كذَبَ عليه متعمِّداً فإنَّه سيكون له مقعدٌ في النار، وسيحُلّ فيه ويُقيم في عذابه.

شهادة الزور من الكبائر الكبرى:

والأصل في الشهادة أن تكون سنداً لجانب الحق، ومعينة للقضاء على إقامة العدل، والحكم على الجناة الذين تنحرف بهم أهواؤهم وشهواتهم، فيظلمون، ويَبْغُون، ويأكلون أموال الناس بالباطل.

فإذا تحوَّلت الشهـادة عن وظيفتها فكـانت سنداً للبـاطل، ومُضَلِّلَةً للقضاء، حتى يحكم القاضي بغير الحقِّ، استناداً إلى ما تضمَّنته من إثبات،

فإنَّها تحمل حينئذٍ إثم جريمتين كُبْرَيَيْنِ في آنٍ واحد.

الجريمة الأولى: عدم تأديتها وظيفتها الطبيعيَّة في إثبات الحق.

الجريمة الثانية: قيامُها بجريمة إيجابيَّة، تُهضَمُ فيها الحقوق، ويُظْلم فيها البرآء، ويستعانُ بها على الإثم والبغي والعدوان.

فهي في هذا كالقاضي الذي بيده سلطة القضاء ليحكم بالعدل، فيحكم بالجور والظلم والعدوان، اتِّباعاً للهوى، أو طمعاً بِعَرَضٍ من أعراض الحياة الدنيا.

وهي أيضاً كالمستأمَن الذي يَخُونُ من استأمنه.

فالجريمة في كلِّ ذلك بجريمتين، والظلم بظُلْمَيْن، ولكلٍّ من أصحاب هذه الجرائم كِفْلَانِ من العقاب.

وقد أبان الرسول ﷺ أنَّ شهادة الزور من أكبر كبائر الذنوب.

روى البخاريّ ومسلم عن أبي بَكْرَة قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُنَبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟».
قُلْنَا: بَلَىٰ يا رسول الله.
قال: «الإِشْرَاكُ بالله، وعُقُوقُ الوالِدَيْنِ».

وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَس فقال:
«أَلَا وَقَوْلُ الزُّور، وشهادةُ الزُّور».
فما زال يكَرِّرُهَا حتَّىٰ قلنا: ليته سكت.

قذف الْبُرَآء بما لم يفعلوا:

ومن الكبائر الكبرى في مجال الكذب قذفُ الْبُرَآءِ بما لم **يفعلوا**، كقذْف المؤمنات المحصنات البريئات بالزنَىٰ، دون أن يثبت وقوع الزنىٰ بأربعة شهود عدول يشهدون بوقوعه، وبأنَّهم رأوه رأيَ العين، وعقاب القاذف

دون أدلَّة إثبات بأربعة شهود عدول أن يجلد ثمانين جلدة، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [النور: ٢٤]:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾.

اليمين الغموس:

ومن أقبح صور الكذب، الكذبُ الَّذي يؤكَّد ويُوثَّق باليمين، وهو الحلف بالله عزَّ وجلَّ لتوثيق الكلام الكاذب.

وهذه اليمين الكاذبة الفاجرة هي اليمين الغموس، وقد سُمِّيتْ بهذا الاسم لأنَّها تَغْمِسُ صاحبها في الإثم الكبير، ثم تغمسه في النار.

واليمين الغموس من أعظم الكبائر، وإنَّما كانت كذلك لأنَّ فيها استغلال ثقة المخاطب بأيمان الحالف بالله، وأنَّه لا يتجرَّأ على أن يحلف بالله كاذباً، فيصدِّقه ويستسلم له، ويعتبر يمينه بقوَّة البيِّنة.

روى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الكبائِرُ: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وَقَتْلُ النفس، والْيَمِينُ الْغَمُوسُ».

وفي رواية أخرى، أنَّ أعرابيّاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟

قال: «الإِشْرَاكُ بالله».

قال: ثمَّ ماذا؟

قال: «الْيَمِينُ الْغَمُوسُ».

قلت: وَمَا اليمين الْغموس؟

قال: «الَّذي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ».

أي: يقتطعُ مال امرىء مسلم بيمين هو فيها كاذب.

وقال الله عزَّ وجلَّ في سورة [آل عمران: ٣]:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾.

الحالات الاستثنائية التي يجوز فيها الكذب:

عرفنا ممَّا سبق كبيرة الكذب، ولكن توجد حالات يجوز فيها الكذب تحقيقاً لمصلحة هي أعظم ممَّا في الكذب من مضرَّة، أو دفعاً لمضرة هي أشدُّ ممَّا في الكذب من مضرَّة، وأعظم ممَّا في الصدق حينئذٍ من مصلحة.

● فمن الحالات التي يجوز فيها الكذب، الكذب على العدوّ في حالة حربه للمسلمين، لتضليله، ولإيقاعه في فخّ من فخاخ الخداع الحربي.

ولكن لا يدخل في هذا جواز الكذب عليه بتأمينه أو معاهدته ثم الغدر به، فهذا غير جائز قطعاً، بل هو من كبائر الذنوب.

● ومن الحالات التي يجوز فيها الكذب، أن يتوسط إنسان للإصلاح بين فريقين متخاصمين، ثمَّ لا يجد وسيلة للإصلاح بينهما أنجع من أن يركب مركب الكذب على مقدار الضرورة، دون إسراف ولا زيادة على قدر الضرورة.

● ومن الحالات التي يجوز فيها الكذب، حديث الرجل لامرأته، وحديث المرأة لزوجها، في الأمور التي تَشُدُّ أواصر الوفاق والمودَّة بينهما، فهذه من الحالات التي يُتَسامح فيها بشيء من الكذب لتوثيق روابط الأُسْرَة، ولإضفاء الأجواء الشاعريَّة على مجالس الأنس والسّمر والغزلِ بين الزوجين.

دلَّ على هذه الحالات التي يجوز فيها الكذب، استثناءً من قاعدة تحريم الكذب، عدَّةُ أحاديث نبويَّةٍ، منها ما يلي:

١ ـ روى البخاريّ ومسلم عن أمّ كُلثوم، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيُنْمِي خَيْراً أَوْ يَقُولُ خيراً».

فَيُنْمي خيراً: أي: فَيُذِيعُ أقوالاً فيها بعض الكذب لـلإصلاح بين الناس، ولإزالة ما بينهم من عداوات.

تقول لغة: أَنْمَىٰ الْخَبَرَ يُنْمِيهِ إذا أذاعه ونشره.

٢ ـ وروى مسلمٌ وأحمد وأبو داود عن أمّ كُلثوم بنت عقبة، قالت: «لَمْ أَسْمَعِ النبيَّ ﷺ يُرَخِّصُ في شَيْءٍ مِنَ الكَذِبِ مِمَّا تَقُولُ النَّاسُ، إلَّا في الْحَرْبِ، والإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا».

٣ ـ وروى الترمذي عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ:

«يَا أَيُّها النَّاسُ، مَا يَحْمِلُكُمْ أن تَتَابَعُوا عَلَىٰ الْكَذِبِ، كَتَتَابُعِ الْفَرَاشِ في النَّارِ، الكَذِبُ كُلُّهُ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ حَرَامٌ إلَّا في ثَلَاثِ خِصَالٍ:

- رَجُلٌ كَذَبَ على امْرَأَتِهِ لِيُرْضِيَهَا.
- وَرَجُلٌ كَذَبَ في الْحَرْبِ، فإنَّ الْحَرْبَ خُدْعَة.
- وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ المَرْأَةِ زَوْجَهَا».

٤ ـ لكن لا يدخل في الكذب المباح ما تكذب به المرأة على ضرَّتها، إذْ تخبرها بأنَّ زوجها اصطفاها بكذا، وأكرمها بكذا، وهو لم يفعل، بل هذا كذب محرَّم.

روى البخاريّ ومسلم عن أسماء رضي الله عنها، أنَّ امرأة قالت: يا رسول الله، إنَّ لي ضرَّةً، فهلْ عليَّ جُنَاحٌ إنْ تشَبَّعْتُ من زوجي غير الذي يُعْطِيني؟

فقال النبيّ ﷺ:

«الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ».

أي: كلابس ثوبي كذب، يكذب بهما على الناس، أحدهما فوق الآخر.

إنْ تَشَبَّعْتُ من زوجي غير الذي يعطيني: أي: إنْ تظاهرتُ وتحدَّثْتُ بأنَّه يعطيني أشياء، ويمنحني أشياء، أو يخُصُّني بأشياء، وهو في واقع حاله على خلاف ذلك.

د ـ مما يستفاد من هذا الحديث:

يستفاد من هذا الحديث فوائد كثيرة منها ما يلي:

١ ـ الأمر بالتزام الصدق الشامل للصدق في القول والصدق في العمل، وهو المسمَّى بالإخلاص.

٢ ـ التزام الصدق يوصل من التزم به إلى التحقُّق بمرتبة التقوىٰ، ثم الارتقاء إلى مرتبة البرّ.

٣ ـ التزام عادة الصدق تكوّن خلق الصدق الأصيل الثابت في النفس.

٤ ـ التزام الصدق في السلوك مع تحرِّيه يرتقي به العبد عند ربِّه حتى يكون صدِّيقاً، ويجعله من صنف الصدِّيقين.

٥ ـ التحذير من الكذب الشامل للكذب في القول والكذب في العمل، ومن الكذب في العمل الرياءُ والنفاق.

٦ ـ التزام الكذب يوصل من التزم به إلى الانحطاط إلى دركة الفجور.

٧ ـ التزام عادة الكذب تكوّن خلق الكذب الأصيل الثابت في النفس.

٨ ـ التزام الكذب في السلوك مع تحرِّيه ينحطّ به العبد عند ربّه، حتّىٰ يُكتبَ عند الله كذَّاباً، ويجعله الله عزَّ وجلَّ من صنف الكذَّابين.

البَلاغة وَالإعـرَاب

أوَّلًا: من وجوه البلاغة والبيان

١ ـ الأسلوب المختار في هذا الحديث هو أسلوب الإلزام بالأمر مع الإغراء، والنهي مع التحذير، واقتـرن بهما تسلسل العواقب للإقناع بالتزام ما أغرى به الأمر، وتجنُّب ما جاء التحذير منه والنهي عنه.

٢ ـ اعتماد أسلوب الترغيب بالمرتبة العليّة وتحصيل أجرها، والتحذير من الدركة المنحطَّة واستحقاق عقوبتها.

٣ ـ تأكيد الخبر بالجملة الاسميَّة وبحرف التأكيد (إنَّ) في الجمل التالية:

- «فإنَّ الصدق يهدي إلى البرّ».
- «وإنَّ البرّ يهدي إلى الجنَّة».
- «وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور».
- «وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار».

والتأكيد في هذه الجمل لحاجة المخاطبين إليه، لأنَّ مضامينها تستثير الاستغراب الذي يستدعي التأكيد.

ثانياً: من الإعراب

«عليكم بالصدق»: «عليكم» اسم فعل أمر محوّل من صيغة الجار والمجرور، وهو بمعنى: «التزموا».

● **«بالصدق»** جار ومجرور متعلق باسم الفعل «عليكم».

● **«يهدي إلى البرّ»** الجملة في محلّ رفع خبر «إنَّ» وكذلك نظائرها في الحديث.

● **«وإيَّاكم والكذب»**: **«إيَّاكُم»** ضمير منصوب على التحذير بفعل مقدَّر محذوف وجوباً، تقديره: إيَّاكم أُحَذِّر.

● **«والكذبَ»** معطوف على «إيَّاكم» بالنصب، والتقدير من جهة المعنى: وأحذِّركم من الكذب فباعدوا أنفسكم منه. ويمكن اعتبار الواو «واو المعيّة» فيكون «والكذبَ» مفعولاً معه.

«وما يزال الرجلُ يصدق ويتحرَّى الصدق»: «ما يزال» فعل مضارع ناقص من أخوات كان، يرفع الاسم وينصب الخبر، **«الرجلُ»** اسم **«ما يزال»** مرفوع **«يصدُق»** الجملة في محل نصب خبر الفعل الناقص. ونظيره: **«وما يزال الرجل يكذب ويتحرَّىٰ الكذب»**.

* * *

الحديث الثالث والعشرون

عن عبدالله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول:

«لَلَّهُ أَشَدُّ فَرحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ في أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَىٰ مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّىٰ أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَىٰ سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ.

فالله أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ».

رواه مسلم، ورواه البخاري أيضاً

بلفظ فيه بعض الاختلاف عن لفظ رواية مسلم

وفي روايةٍ عند «مسلم» عن «أنس» زيادة:

«فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».

مع تغيير في أصل الحديث في التعبير الذي رُوِيَ عن أنس، والمعنى

أ ـ ترجمة (عبدالله بن مسعود) راوي الحديث:

سبقت في الحديث «الحادي والعشرين».

ب ـ اللُّغة والمعنى المراد:

١ ـ «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ من رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ»:

«أَشَدُّ فَرَحاً»: أَشَدّ: «أفعل تفضيل» يستعمل في تعظيم وتقوية وتكثير أي شيءٍ مادِّيّ أو معنويّ. **فرَحاً:** الفرح هو سرورُ النفس بسبب حصول ما تُحِبُّ، وشعورُها بانفتاحٍ سعيد، ومتعةٍ بلقاء المحبوب، ورَاحَةٍ من الشوقِ إليه أو الإِشفاق عليه.

ويستعمل الفرح بمعنى البطر وكفران النعمة، لأنَّ معظم الذين يفرحون بالنعم التي تصيبهم يبطرون ويستكبرون ويكفرون نعم الله عليهم، وهذا المعنى غير مرادٍ هنا، بل المراد هو الأولً.

«بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ»:

بِتَوْبَةِ: التوبةُ لغةً هي الرجوع، فالتوبة من المعصية، هي الرجوع إلى الطاعة. تقول: تابَ المذنب إلى ربِّه يَتُوبُ تَوْباً وَتَوْبَةً ومَتاباً، إذا رجع عن المعصية إلى الطاعة. وتقول: تاب الله على عبده المذنب التائب، أي: عاد عليه بالمغفرة والعفو.

والعبد التوَّاب هو من كان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والنَّدم على ما فرَّط في جنب الله. والله توَّاب رحيم، أي: كثير المغفرة لعباده كثير العفو عنهم.

المؤمن: اسم فاعل من «آمَنَ يُؤْمِنُ إيماناً» ولفظ المؤمن إذا أطلق دون قيد في القرآن والسنة فالمراد منه من كان مصدِّقاً معترفاً بعناصر القاعدة الإيمانيَّة في الإسلام.

«في أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ»:

دَوِّيَّة: الدَّوُّ في اللُّغة الفلاةُ الواسعة التي لا نبات فيها. والأَرْضُ الدَّوِّيَّة هي الأرض المنسوبة إلى الدَّوّ. وقيل: إنَّما سُمِّيَتْ دَوِّيَّة لِدَوِيّ الصوتِ الذي يُسْمعُ فيها. وقيل: لأنها تُدَوِّي بِمَنْ صار فيها، أيْ: تذهبُ بهم.

أمَّا الأرض الدَّوِيَّة بتخفيف الواو فهي الأرض ذاتُ الأدواء أي الأمراض، والأرضُ الموبوءة غير الموافقة.

وضبطُها في حديثنا هذا «دَوِّيَّة» بتشديد الواو، قال الإمام النووي في شرح مسلم: «أمَّا دَوِّيَّة فاتفق العلماء على أنَّها بفتح الدّال وتشديد الواو والياء جميعاً».

مَهْلَكَة: بفتح الميم وفتح اللام وكسرها. **والْمَهْلِكَة**: هي موضع خوف الهلاك. هكذا ضبطها النووي. وابن حجر في الفتح جعلها اسم فاعل من «أَهْلَكَ» فضبطها «مُهْلِكة» بضم الميم وكسر اللاَّم.

أي: في أرض فَلاَةٍ واسعة لَا تُرَىٰ لها نهايات، ولا نبات فيها ولا ماءَ ولا ظلَّ ولا مأوى، والنجاةُ من الهلاك فيها تكاد تكون أمراً ميئوساً منه لمن فقد فيها راحلته وزاده وماءه.

٢ ـ «مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وشرابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ»:

رَاحِلَتُهُ: الراحلة: هي من الإبل المذلَّلة الصالحة لأن يوضع عليها

الرَّحْل، والقويّةُ على الأسفار والأحْمَال.

قال الأزهري: الراحلة عند العرب كل بعير نجيب، سواءٌ كان ذكراً أو أنثى.

والرَّحْلُ: هو مركب يُعَدُّ ليوضع على ظهر البعير لركوب الرجال، **فهو** من مراكب الرجال دون النساء، وجمعُه: أَرْحُل، وَرِحَال.

وقد ذهبت: أي: فاستيقظ والحال قد ذهبت راحلته، وضلت عنه في الفلاة الواسعة، فهو لا يرىٰ لها أثراً، ولا يعلم عنها خبراً.

٣ ـ «فَطَلَبَهَا حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَىٰ مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّىٰ أَمُوتَ»:

فَطَلَبَهَا: طَلَبَ الطَّالِبُ الشيءَ إذَا بحث عنه ليجده وَلِيَأْخُذَهُ. تقولُ: طَلَبَهُ يطلُبُهُ طَلَباً، وتَطَلَّبَهُ يَتَطَلَّبُه تَطَلُّباً، إذا حاول أن يجده ويأخذه.

أَدْركه العطش: أي: نزل به الظَّمأ، وأصلُ الدَّرَك اللِّحَاقُ بالشيء، تقولُ: طَلَبَهُ حتَّى أَدركه، أي: حتَّى لحقَهُ وأمْسَكَ به. وتقول فيمن أصابه العطش: عطشان، وجمعُه: عَطَاشَىٰ، وَعِطَاش. والمرأة عَطْشَىٰ، وعَطِشة وعطشانة.

أي: طلبها في الجهات، فلم يجدها، حتى إذا يَئِسَ من العثور عليها، لم يجد حيلة إلاَّ أن يستسلم إلى الموت.

لكنَّه لم يَرْمِ نَفْسَهُ في أيِّ مكان، بل اختار أن يرجع إلى مكانه الذي كان فيه نائماً، إذْ أفلتت منه راحلته وضلَّت، لأنه قد وضع في حُسْبَانِه أنَّ راحلته إذا وقع في نفسها أن تعود إليه بسبب من الأسباب، فسترجع من حيث ذهبت حتى تصل إلى المكان الذي تركت صاحبها فيه.

فخير مكان يستسلم فيه إلى الموت هو المكان الذي تركته راحلته فيه.

والحديث هنا يقدّم أفضل صور العقل والحكمة، واتخاذ المتيسِّر من الأسباب، في أشدّ حالات اليأس.

٤ ـ «فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ»:

وعليها زاده: الزَّاد في اللُّغة طعام السفر وطعام الحضر، كلُّ ذلك يسمَّىٰ زاداً، ويجمع على أزواد، وعلى أزودة.

وقد جاء في صيغة هذه الرواية عطف «وطعامُه وشرابه» على «وعليها زادُه» مع أنَّ الطعام هو الزاد، فلعلها من باب عطف المفصَّل على المجمل إذا حملنا الزاد على ما يشمل الطعام والشراب.

وفي بعض الروايات عند غير مسلم: «وعليها زَادُهُ وَشَرَابُه» وهي لا إشكال فيها. والرواية التي عند البخاري اقتصرت على: «فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهْ عِنْدَهُ».

٥ ـ «فالله أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»:

تأكيدُ لِمَا بَدَأَ بِهِ الحديث بعد عَرْضِ صورة فَرَح مُضِلِّ رَاحِلته في فَلاَةٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَة، ووصوله إلى ما يشبه حالة اليأس، بمفاجأة عَوْدَتِها إليه، واطْمِئْنَانِهِ إلى النجاة. وهو أنَّ الله عزَّ وجلَّ يفرح بتوبة عبده المؤمن فرحاً أشدّ من فرح هذا الرجل بعودة راحلته إليه.

٦ ـ «فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا»:

أي: أخذ بخطام راحلته، **الخطام**: هو كلُّ ما وُضع في أنف البعير أو النَّاقة ليُقْتَادَ به. وجمع «خِطام»: «خُطُم».

٧ ـ «ثُمَّ قالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وأنا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»:

أي: يريد أن يقول: اللَّهُمَّ أنت رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ليحمَدَ فضل الله عليه،

إذ ردَّ عليه راحلته، بعد أن يئس من العثور عليها. فأخطأ من فرحه ودهشته، فعكس في الألفاظ.

ومثل هذا الخطأ يحصل للإنسان عند دهشته، واضطراب نفسه، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يؤاخذ على مثل هذا الخطأ.

ب ـ الشرح العامّ:

ـ ١ ـ

مع الحديث الذي نتفهَّمه ونشرحه

إنَّ رحمة الله العظيمة بعباده لا تنقض مقتضَيات إرادته الحكيمة، الَّتي قضت بتخييرهم في مجالات أعمالهم الإرادية في الحياة الدنيا، لابتلائهم فيها المستتبع لحسابهم وجزائهم بحسب أعمالهم.

لكنَّ رحمة الله العظيمة بعباده تظلُّ محيطةً بهم، حتى إذا وجدت لديهم أيّ منفذ منفتح من قِبَلِهم لِتَلَقِّي فيوضِهـا تدفَّقت عليهم بـالجود والعطاء، على قَدْر المنفذ الذي فتحوه.

إنَّ رحمة الله كالغيث الهاطل، يتلقَّىٰ منه الناس على مقادير أوعيتهم وتعرُّضِهم له، فمن يحجبُ نفسه عنه باختياره، إذْ يَقُومُ بأعمالٍ أو أسباب تحجُبه عنه، فإنَّه يظلُّ عنه محجوباً، ومن خيراته محروماً.

أمَّا من تعرَّض لفيوض رحمات الله فإنَّه يُصيبُ منها لا محالة على مقدار تعرُّضه، وما يُصيب منها مضاعفُ أسبابِه إلى عشرة أضعاف في الحدِّ الأدنى، فإلى سبعمائة ضعف، فإلى أضعاف أخرى لا يستطيع هو حصرها.

فإذا قدَّم العبد إيماناً صادقاً، فتح بذلك على نفسه باب رحمة من رحمات الله، فصبَّتْ عليه فيوضاً جبّت عنه ما كان منه من عصيان، قبل مرحلة الإيمان، وأعَدَّتْه للخلود في نعيم الجنان.

وإذا قدَّم العبد المؤمن عملاً صالحاً، فتح بذلك على نفسه باب رحمة من رحمات ثواب الله العظيم، فصبَّت عليه فيوضاً من الأجر الجزيل على ما قدّم من عمل صالح ابتغى به وجه ربِّه.

وإذا قدَّم العبد المؤمن المذنب العاصي توبةً واستغفاراً، فتح بذلك على نفسه باب رحمةٍ من رحمات العفو والغفران، فصبَّتْ عليه فيوضاً من رحمة الله له بالمغفرة والعفو والتوبة، فغسلت ذنوبه وزكَّته.

الله يحبُّ من عبده أن يتوب إليه:

والله عزَّ وجلَّ يحبُّ من عبده أن يتوب إليه من ذنوبه ومعاصيه، حتَّى يفتح على نفسه بذلك باب رحمة الغفران والعفو وتكفير السيئات، ثم يسلُك في مسالك إصلاح نفسه وعمله، حتى يُفِيض عليه رحمات الثواب الجزيل، والأجر العظيم، ثمَّ يدخل في سباق أعمال البرّ حتى يبدّل سيئـاته إلى حسنات، ويُفيض عليه رحمات ثواب الأبرار فالمحسنين.

فرح الله عزَّ وجلَّ بتوبة عبده المؤمن:

والله عزَّ وجلَّ يفرَحُ فرحاً شديداً بتوبة عبده المؤمن، إذا هو تاب من ذنوبه، ورجعَ إلى طاعة ربِّه، لأنَّه بتوبته خلَّص نفسه من عقوبة الذنب، وعرض نفسه لفيوض رحمات الرَّبِّ، وبإصلاح عمله ينقل نفسه إلى مواطن تنزّل رحمات الثواب الجزيل على صالحات الأعمال.

على أنَّ التوبة نَفْسَها هي عند الله من صالحات الأعمال، التي تستَحِقُّ ثواب الغفران، والعفو والرِّضوان، وبها تُصْبِحُ نفس الإنسان مستعدَّةً لاستقبال فيوض العطاء والإحسان، والفضل والامتنان.

وفي هذا الحديث الذي نتفهَّمُهُ، يُقَرِّب لنا الرسول ﷺ تصوُّرَ مبلغِ فرح الله عزَّ وجلَّ بتوبة عبده المؤمن، إذا هو تاب إلى ربه من ذنوبـه ومعاصيه، وعاد إلى طاعته، وفتح على نفسه بذلك أبواباً من أبواب رحمات

الله التي من فتحها باختياره من خلال إرادته وقليلِ عمله، فاضت عليه، وتدفَّقتْ بالخيْر العظيم، لأنَّها حبيسة وراء هذه الأبوابِ، مجتمعةٌ ضاغطة، تنتظر منه أن يفتحها على نفسه بإرادته ورغبته ويسيرٍ من عمله.

فمن تابَ تابَ الله عليه، ومن سأل الله أعطاه وزاد فضلاً من لَدُنْهُ، ومن عمل صالحاً ابتغاء مرضاة الله ضاعف الله ثوابه، ويسَّر له حسابه.

ولمَّا كان أبلغُ فرحٍ وأعظَمُه في تجارب الناس، هو فرح الإنسان بأن يفاجأ بالنجاة من الموت، بسببٍ غير مرتقب، بعد أن يبلُغ مبلغَ اليأس من النجاة منه، ويَستَسْلِمَ لوقوعه به، وهو شديد الرغبة في الحياة والحرص عليها.

وقد ضرب الرسول ﷺ مثلاً لفرح الله عزَّ وجلَّ بتوبة عبده المؤمن بصورة فَرَحٍ هو أشدُّ من فرح هذا الإنسان الذي صوَّر المثل في الحديث حالتَه النفسية من خلال عرض قصته، إذ تأتيه المفاجأة غيْرُ المرتقبة، فيطمئنُّ إلى نجاته من الموت، بعد وصوله إلى حالة اليأس من النجاة، والاستسلام لأن يموت صبراً، جوعاً وعطشاً، أو يكونَ فريسَةً لوحشٍ ضَارٍ.

ومن الملاحظ في هذا الحديث أنَّ الرسول ﷺ قد أورد في المثل التقريبيّ الذي ضربه فيه، تفصيلات دقيقة بيانية، تجعل من سمع صورة المثل يَصِلُ إلى تصوُّرٍ تامّ لقصة حادثة الرجل، واستدعَاءِ الحالة النفسية التي يكون عليها من الذعر واليأس من النجاة والاستسلام للموت، في صحراء قاحلة جرداء موحشة، ليس فيها طعام ولا شراب ولا أمن، وصار لا ينتظر إلاَّ أن يأتيه الموت صبراً، فيموتَ موتاً بطيئاً من شدَّة الجوع والعطش، أو يموت بين فكّي وحشٍ مفترسٍ جائع.

ـ ٢ ـ

الخطيئة والغفران

فطر الله عز وجلَّ الإنسان، وجعل إرادته ذات سلطان، بين كفَّتي

ميزان، هذه من ذات اليمين تميل به إلى ما يُرْضِي الرَّحمن، وفعل الخير والبرِّ والإحسان، وهـذه من ذات الشمال تنـزع به إلى الكفـر والفسوق والعصيان، واتباع خطوات الشيطان.

● أمَّا التي من ذات اليمين: فدوافع طيّبةٌ خَيِّرَة، تُحبُّ الحقَّ وتهفو إليه، وتميل إلى فعل الخير، وتَشْعر بالطُّمأنينة إليه، يُضافُ إليها ما يلي:

١ ـ عقلٌ مرشد إلى الصواب، يُدْرِك الحقَّ والباطل، والخير والشرَّ، والفضيلةَ والرذيلة.

٢ ـ ولَمَّةُ مَلَكٍ من ملائكة الرَّحمٰنِ، يأمره بالخير من داخل نفسه، ويحثُّه عليه، كما جاء في الحديث.

٣ ـ وشريعة الله للناس، وما فيها من مواعظ ووصايا، ووعد ووعيد.

٤ ـ وعظات التجربات الإنسانية العامَّة، والتجربات الشخصية التي تتم في حياة الإنسان نفسه.

٥ ـ ثم مساعدات أخرى من الذين يدعون إلى الخيْر من الناس، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

● وأمَّا التي من ذات الشمال: فنوازع فطريَّة إلى الاستقلال الذاتي، وحبِّ الخروج عن الطاعة والتبعيَّة في بعض أموره، يضاف إليها ما يلي:

١ ـ أهواء تُلحُّ بالمطالب التي لا تتمُّ تلبيتُها إلَّا بالانحراف عن صراط الهداية، وبارتكاب السيّئات والآثام.

٢ ـ وشهوات قد لا تقنع بما هو ميسورٌ على طريق الاستقامة.

٣ ـ ونفسٌ رعناء نزَّاعة إلى الشرِّ، وأمَّارة بالسوء.

٤ ـ وشيطان يوسوس من داخل النفس، يأمر بالفحشاء والمنكر، ويُدَلِّي بغرورٍ إلى مواقع الخطيئة والإثم.

٥ ـ ثُمَّ تَضْلِيلاتُ شياطين الإنس القولية والعملية، المقرونة ببعض لذائذ الجسد، وأهواء الأنفس وشهواتها.

● وقد خُلِقَ الإنسان ضعيفاً بين هذه التي من ذات اليمين، وهذه التي من ذات الشمال، لذلك فهو عُرْضَة للكبوات، والعثرات، والخطيئات.

هذا هو الواقع المشهود في تكوين الإنسان الذي فُطِر عليه، وهو الواقع الذي دلَّت عليه وبيّنته نصوص القرآن المجيد، والسنة المطهَّرة.

ولمَّا كان الإنسان عُرْضَةً للكبوات والعثرات والخطيئات، كان من الحكمة التربويّة له أن تُهيَّأ له عِدَّة فُرَص للاستغفار، والتوبـة، والندم، والإصلاح، والعزم على الاستقامة، حتَّى تكون له بمثابة تطهير، يغسله من قذارات الإثم التي علقت به، كما تُغْسَل الثياب من أدرانها، وما يعلَقُ بها من أوساخ وقاذورات.

ولولا فضل الله على عباده بالحفظ، ورحمتُه لهم بالغفران والعفو، ما زكا من الناس من أحد، إلَّا من عصمهم الله بعصمته، وهذا ما بيَّنَهُ الله عزَّ وجلَّ بقوله في سورة [النور: ٢٤]:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً، وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)﴾.

والسبب في ذلك أنَّ الإنسان عُرْضَةٌ للكبوات والعثرات والخطيئات، فهو مذنب خطَّاء.

وقد أكَّد الرسول ﷺ هذا الواقع الإنساني في بياناته، فمنها ما يلي:

١ ـ عـن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَابُون».

إسناده حسن، وقد رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الحاكم وابن القطان.

٢ ـ وعن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«كُتِبَ عَلَىٰ ابْنِ آدمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَىٰ، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، والأُذُنَانِ زناهما الاسْتِمَاع، واللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، والْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، والرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَىٰ، وَالْقَلْبُ يَهْوَىٰ وَيَتَمَنَّىٰ، والْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُهُ».

أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح

٣ ـ وجاء في الحديث القدسيّ الصحيح:

«يَا عِبَادِي، إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً».

● لذلك فتح الله عزَّ وجلَّ للإنسان أبواب التوبة والاستغفار، وأطمعه بالغفران والعفو، لِيُقِيلَ عثراته.

فواقع حال الضعف البشري، الذي يجعل الإنسان ينزلق إلى الخطيئة وارتكاب الإثم، يستدعي من حكمة الحكيم واقعيَّةً تربويَّة، وواقعيَّة جزائية، وواقعيَّة إصلاحيَّة، ففتح الله الرَّبُّ العليم الرحيم الحكيم للإنسان أبواب الاستغفار، والندم والتوبة والإنابة إلى طريق الطاعة والاستقامة، وهيَّأ له بذلك أهون الوسائل وأكرمها، كيما يتخلَّص من الإثم، ويُلقي عن كاهله وظهره أثقال الأوزار، ويُقوِّم ما اعْوَجَّ منه، ويردّ نفسه إلى صراط الحق والخير، ويتابع مسيرته في الحياة مهديّاً، سالكاً سواءَ السبيل، رجاء أن يظفر بالنجاح حينما تنتهي مدَّة ابتلائه في هذه الحياة الدنيا، ولو لا فتح باب التوبة والإصلاح بعد الخطيئة لم ينج أحدٌ إلاَّ مَن عصمه الله بعصمته. فَفَتْحُ أبواب التوبة من مظاهر الواقعيَّة في الإسلام.

وتختلف عند الناس نسبة ضعف الإرادة الواقعة بين القوى المتباينة التي تتجاذبها من ذات اليمين ومن ذات الشمال، وهذه الإرادة في كلٍّ منهم هي التي تُمثِّل الْحَكَمَ صاحِبَ السلطان بين القوى المتباينَة التي تتجاذبها وتتجاذبه، وهذه الإرادة مهما كانت ذات قوة لا بدَّ أن تضعُف في بعض أحوالها، فتجرِّب الاستجابةَ لبعض القوى التي تجذبها من ذات الشمال،

وعندئذٍ يجد الإنسانُ نفسه ساقطاً في الخطيئة.

وتختلف هذه الاستجابة عند الناس شدَّةً وضعفاً. وكثرةً وقلَّة:

فمنهم السابقون في الخيرات، وهم الذين تقوى إراداتهم، فتكثر صالحاتهم، وتندر فلتات مخالفاتهم وسيئاتهم.

ومنهم المتأرجحون بين الاستقامة والانحراف، وهم الذين يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً.

ومنهم الظالمون لأنفسهم، وهم الذين ضعفت إراداتهم ضعفاً فاحشاً، فانغمسوا في الموبقات الكثيرات، وزادوا في الانحراف عن الصراط السويّ، بما يكتسبون من خطايا.

وكلّ هؤلاء من المؤمنين.

وقد أبان الله عزَّ وجلَّ هذا الضعف الذي فطر عليه الإنسان، والذي يجعله يسقط في الخطيئة لا محالة، إلَّا إذا عصمه الله، فقال تعالى في سورة [النساء: ٤]:

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً (٢٨)﴾.

وقد جاء التخفيف في مقابل الضعف الإنساني بفتح باب الغفران والعفو، واستئناف فُرَصِ التجربة والامتحان، ما دام أمام الإنسان فُسحةٌ من أجَله في ظروف هذه الحياة الدُّنيا، ولم يُقْفَلْ بابُ التوبة.

● وفي قصَّة الخطيئة الأولى في حياة الإنسان، وهي خطيئة آدم عليه السلام، وفي ذِكْرِ القرآنِ لها وَعَرْضِهِ تفصيلاتها، إشعارٌ بالواقع الإنساني، وبالواقعيَّة الدينيَّة المشولة برحمة الله وبحكمته.

إنَّ خطيئة آدم وحوَّاء بأكلهما من الشجرة التي نهاهما الله عنها، قد أخرجتْهُما من الجنَّة، وأهبطتهما إلى الأرض، ثم تداركهما الله برحمته،

فتاب عليهما بعد أن استغفرا وتابا من معصيتهما.

وورثت ذُرّيتهما الدوافع إلى المعصية، وضعفَ الإرادة، وكما تداركهما الله عزَّ وجلَّ برحمته، تدارك ذُرّيتهما بفتح أبواب الغفران والعفو والتوبة والندم والاستغفار لهم، فأبان لهم عزَّ وجلَّ أنَّ من أخرجته الخطيئة عن طريق الجنَّة، أعادته إليه أسباب التوبة الصادقة المخلصة، المقرونة بالندم والاستغفار وشمله الله بغفرانه وعفوه.

ـ ٣ ـ

التوبة في مفاهيم مختلف النصوص

التوبة من الذنوب رجوع إلى الحق والطاعة الواجبة

التوبة من الذنوب عمل من أعمال الرجوع إلى الحقِّ، لأنَّ الطاعة حقّ الله على عباده بعد حقّ الإيمان به.

فالكفر بالله، أوْ بشيءٍ ممَّا يجب الإيمانُ والاعترافُ به، خروجٌ عن دائرة هذا الحق، وانحرافٌ عنه، وابتعاد عن صراطه، والتوبةُ من هذا الكفر تكون بالرجوع إلى دائرة هذا الحق، والتزام صراطه.

ومخالفة أوامر الله ونواهيه خروجٌ وانحراف عن صراط الله المستقيم، وعن حقِّ طاعته، والتوبة من ذلك تكون بالرجوع إلى طاعة الله، والرجوع إلى التزام صراطه، والقيام بحقه على عباده في طاعته، وعدم مخالفة أوامره ونواهيه.

* * *

الكلمات المختارة في الشرع للرجوع إلى الحق والطاعة

ولذلك اختارت النصوص الإسلامية لهذا الرجوع كلمات تدلُّ على معنى الرجوع في أصل وضعها اللغوي، وهي كلمات: «تاب ـ آب ـ أناب»

ومشتقاتها، فيقال: تاب من ذنبه، وآب إلى رشده، وأناب إلى ربِّه.

ولئن كانت هذه الألفاظ ومشتقَّاتها تدلُّ في أصل وضعها اللُّغوي على مطلق معنى الرجوع الشامل للرجوع المحمود، والرجوع المذموم، إلَّا أنَّ الاستعمالات القرآنية والحديثية وغيرها قد جعلتها خاصة في الرجوع المحمود، والرجوعُ المحمود هو رجوع إلى الحق، أو إلى الخير والفضيلة، وكلّ ما هو أجمل وأحسن، بعد الابتعاد عنها.

فمن شواهد استعمال هذه الألفاظ ومشتقاتها ما يلي:

أ ـ قول هود يدعو قومه إلى التوبة إلى الله من الكفر كما جاء في سورة [هود: ١١]:

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾.

ب ـ قول الله عزَّ وجلَّ في شأن التوبة من معصية السرقة في سورة [المائدة: ٥]:

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩)﴾.

جـ ـ قول الله لرسوله في شأن الاستغفار والتوبة ممَّا هو دون أعلى درجات الإحسان، في سورة [النصر: ١١٠]:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾.

أي: فاستغفره وتب إليه إنَّه كان غفَّاراً وتَوَّاباً.

د ـ قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الشورى: ٤٢] مبيناً أنَّه يَهْدِي إلى طاعته حتى يظفر بمرضاته من يُنِيب، أي: من يرجع إليه نادماً تائباً راغباً طالباً سبيل الهدى:

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)﴾.

هـ ـ وقول الله عزَّ وجلَّ في وصف إبراهيم عليه السلام في سورة [هود: ١١]:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥)﴾.

أوّاه: كثير الدعاء. كثير التأوُّه خوفاً من الله.

مُنِيب: أيْ: راجعٌ إلى ربِّه بالْتِزَامِ كمال درجات البرّ والإحسان.

و ـ وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الإسراء: ١٧]:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِيْنَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥)﴾.

للأوَّابين: أي: للرجَّاعِين إلى طاعة الله والاستقامة على صراطه، والتزام مقتضيات التقوى.

ز ـ وقول الله عزَّ وجلَّ في وصف سُليمانَ عليه السلام في سورة [ص: ٣٨]:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)﴾.

أي: إنَّه كثير الرجوع إلى طاعة ربِّه والاستقامة على كمال التقوى والبرِّ والإحسان.

* * *

لِمَ وُصِفَ الإقبال على الله بأنَّه رجُوع إليه؟

ونتساءل: لِمَ وُصف الإقبالُ على الله والتزام طاعته وصراطه بأنَّه رجوع إليه؟.

ويبدو لنا في الجواب أنَّ كُلّ أنواع الانحراف الإنساني، إنَّما هو ابتعادٌ عن مواقع الفطرة السليمة التي فطر الله الناس جميعاً عليها. وهي مواقع الإيمان، والطاعة لله، والقرب منه. وهي مواقع التكريم الذي كرَّم الله به الإنسان منذ خلقه وعلّمه وأمر الملائكة بالسجود له.

فكلُّ دُنُوٍّ من مواقع هذه الفطرة السليمة بعد الابتعاد عنها هو في حقيقة الأمر رجوع.

ولمَّا كان الانحراف عن مواقع الفطرة الأولى للإنسان ابتعاداً إلى جهة المنحدرات، فالهاوية السحيقة، فنار جهنَّم بعيدة الغَوْر، كان الرجوع إلى مواقع الفطرة رجوعاً صاعداً إلى مراتب الكمال الإنساني، فمنازل النعيم في دار الخلود، فرضوانٍ من العليّ الحميد.

فكلّ كمالٍ ومجْدٍ رفيعٍ وعزٍّ منيع، أحقُّ بأن يوصف إقبال الإنسان إليه بأنَّه رجوع، لأن الله عزَّ وجلَّ قد خلق الإنسان أوَّل ما خلقه في أحسن تقويم، ثمَّ تسفَّل الإنسان بمعاصيه وجحوده وكفره، ولا يُعِيدُه إلى مقام التكريم إلَّا الإيمانُ والعمل الصالح، فالمطلوب من الإنسان أن يكون رجَّاعاً إلى مقامِ التكريم الذي فطره الله عليه.

لذلك كان كلُّ إقبال على المعاصي والمخالفات والجحود والكنود والكفر أحقُّ بأن يطلق عليه لفظ التقدُّم الذي هو الضدّ المقابل للرجوع. وهو في الحقيقة تقدُّم في المنحدرات إلى الحضيض السحيق، وتقدُّم إلى أسفل سافلين، وانتكاسٌ وارتكاسٌ وخزي.

* * *

ثناء الله على التائبين المنيبين وحبّه لهم

ولمَّا كان الرجوع إلى الحق، وطاعة الله من فضائل الأخلاق والسلوك، أثنى الله عزَّ وجلَّ على التائبين المنيبين إليه، وأبان في كتابه المجيد أنَّه يحبُّ التوابين.

● ففي الثناء على التائبين قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [التوبة: ٩]:
﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُوْنَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ (١١٢)﴾.

● وفي بيان أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُحبُّ التوَّابين قال تعالى في سورة [البقرة: ٢]:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)﴾.

* * *

شروط قبول التوبة:

ذكر العلماء شروط قبول التوبة، وألخّص منها فيما يلي ما تؤيِّده النصوص:

أولاً: إذَا كَانت التوبة من معصية لا تتعلَّق بحقّ إنسان، فلقبولها عند الله خمسة شروط، وهي كما يلي:

الشرط الأول: أن يقلع المذنب عن معصيته.

الشرط الثاني: أن يندم على فعلها..

الشرط الثالث: أن يعزم في نفسه على أن لا يعود إليها.

الشرط الرابع: أن يتوب قبل أن يحضرَهُ الموت، فإذا حضره الموتُ وبلغَت الرُّوح الحلقوم لم تُقبل تَوْبَتُه حينئذ.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [النساء: ٤]:

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ: إِنِّي تُبْتُ الآنَ... (١٨)﴾.

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الله يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ» **رواه الترمذي وغيره** وأشار السيوطي إلى حسنه.

الشرط الخامس: أن يتوب قبل أن يُقفل باب التوبة، فقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبها، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَاكَ: «حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ

قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً».

فيفسِّر الرسول ﷺ في هذا الحديث مَا جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأنعام: ٦]:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ. يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً. قُلِ: انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)﴾.

فَعِنْدَ طُلُوعِ الشمس من مَغْرِبها يُقْفَلُ باب التوبة.

وروى مسلم عن وكيع، وعن فضيل بن غزوان، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ ﴿لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خيراً﴾: طُلُوعُ الشمس من مَغْرِبها، والدَّجَّال، ودَابَّةُ الأَرْضِ».

ورواه أيضاً ابن جرير عن أبي هريرة، ورواه الترمذي عن فضيل بن غزوان(١).

ثانياً: وإذا كانت التوبة من معصية تتعلَّق بحقِّ إنسان، فلقبولها شرط سادس، يضاف إلى الشروط الخمسة السابقة.

فالشرط السادس: هو أن يؤدِّي لصاحب الحقِّ حقَّه، أو نظير حقّه، أو يحصل على مسامحته وعفوه من غير إكراه.

فإذا تعذَّر عليه أن يسترضيَ أصحاب الحقوق، صدَق في توبته، وسأل الله عزَّ وجلَّ أن يتولَّى عنه إرضاءهم، وحين يعلم الله صدق توبته وعجزه عن تأدية الحقوق لأهلها، فإنَّ الله يتولَّى عنه يوم القيامة إرضاءهم ويغفرُ له.

* * *

تصحُّ التوبة من كلِّ المعاصي والمخالفات والتقصيرات:

وتصحُّ التوبة الصادقة المستوفية لكلِّ شروطها، من كلِّ الذنوب والمعاصي، مهما كان شأنها.

---

(١) أخذاً من تفسير ابن كثير عند تفسيره الآية من سورة الأنعام.

فمن صدق في توبته تاب الله عليه، وغفر له، ولو كانت ذنوبه من أكبر الكبائر، كالكفر بالله كفراً كلّياً، والإشراك به، والقتل، والسرقة، والزِّنىٰ، وغير ذلك من الذنوب، ما لم تنته مدَّة الابتلاء بحضور الموت، وبلوغ الروح إلى الحلقوم، أو بطلوع الشمس من مغربها، أو بخروج الدَّجال، أو خروج دابَّة الأرض.

* * *

مستويات التوبة:

ولمَّا كانت التوبة رجوعاً إلى الله عزَّ وجلَّ من مواقع البعد عنه بسبب المعاصي والذنوب، أو المخالفات والتقصيرات، أو الغفلات واشتغال النفس والفكر والقلب بغير مراقبة الله عزَّ وجلَّ والتفكُّر فيه، كانت ذات مستويات متفاوتات، ومراتب بعضها فوق بعض، ولكلٍّ منها درجات، ويرتقي التائبون فيها بحسب أحوالهم:

● فالتوبة الأولى بعد بعثة الرسول وتبليغه عن الله هي التوبة من الكفر والشرك، وهي توبة ترفع إلى مستوى الإيمان.

وقد دعا الله الذين كفروا إلى هذه التوبة في أوائل سورة [هود: ١١] وهي سورة مكيَّة، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾.

فالأمر بالاستغفار ثم التوبة في هذا النص هما استغفار وتوبة من الكفر بالله ومن الشرك به.

والتوبة من الكفر تجبُّ ما قبلها فضلاً من الله وكرماً، ففي الصحيح عن

الرسول ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما قبله».

● ثم تأتي التوبة من الكبائر، وهي توبة ترفع إلى بعض درجات التقوى.

ومن أمثلة التوبة من الكبائر التوبة من قذف المحصنات، وفيها يقول الله عزَّ وجلَّ في سورة [النور: ٢٤]:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً. وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾.

● ثم تأتي التوبةُ مِنَ الصغَائر، وهي توبةٌ ترْفعُ التائِبَ إلَىٰ أعلَىٰ درجات التقوى.

ويظهر من دلالات النصوص القرآنية أنَّ الصَّغائِر تشترك مع بعض الكبائر بأنها فعل من أفعال السوء، وبناء على ذلك فالتوبة منها تدخل في عموم قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأنعام: ٦] خطاباً لرسوله ﷺ:

«وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)﴾.

ويدلُّ علىٰ أن السُّوء قد يطلق على ما دون الكبائر ما جاء من عطف الفحشاء عليه في القرآن، فقال تعالى في سورة [البقرة: ٢]:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾.

أي: فالشيطان بخطواته يأمر أوَّلاً بالسوء، وهي الصغائر من المعاصي، ثم ينقُل إلى الفحشاء، وهي من كبائر المعاصي، ثم ينقلُ إلى الكبائر الكبرى ومنها الكذبُ على الله والافتراء عليه.

فدلَّ هذا النصُّ على أنَّ السوء يطلق على الصغائر من الذنوب.

● ثمَّ تَأْتي التوبة من فعل المكروهات وترك المندوبات، وهي توبة ترفع إلى درجات البرِّ.

● ثمَّ تَأْتي التوبة من التقصيرات عن درجات الكمال الإنسانيّ في السلوك، وهي توبة ترفع إلى أعلى درجات الإحسان.

● ثم تأتي التوبة من الغفلات عن الله، والاشتغال بغير مراقبته والتفكُّر فيه، وهي توبة ترفع إلى مرتبة المقربين، أهل الرفيق الأعلى في الفردوس من الجنَّات.

ويمكن الاستشهاد للتوبة في حدود هذه المراتب الأخيرة الثلاث، بتوبة النبيِّين والصدِّيقين والمقربين، فمراتب توبتهم من مراتب التوبة العليا، واستغفارهم هو من شعورهم بتقصيراتهم عن بلوغ أعلى درجات الإحسان والقرب من الله عزَّ وجل، فكلَّما وجدوا من أنفسهم أيَّ تقصير ينزل بهم عن أعلى الدرجات التي ينشدونها ويتطلَّعون إليها تابوا إلى الله واستغفروا وأنابوا.

فمن شواهد التوبة التي تدخل في حدود هذه المراتب الثلاث الرفيعة ما يلي:

١ ـ قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [التوبة: ٩]:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)﴾.

فتوبة الرسول ﷺ، وتوبة الصفوة من المهاجرين والأنصار الَّذين اتبعوا الرسول في ساعة الْعُسرة، إذْ دعَاهم إلى غزوة تبوك، قد كانت توبة من تقصيرات شعروا بها عن درجات كمال يطمحون إليها، لقد تابوا منها فتاب الله عليهم.

٢ ـ توبة موسى عليه السلام حينما ذهب إلى مناجاة ربِّه وسأله فقال: ﴿ربِّ أرِني أنْظُرْ إلَيْكَ﴾ فلمَّا تجلَّى الله للجبل صعق موسى عليه السلام، فلما أفاق قال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إليكَ وَأنَا أوَّلُ الْمُؤْمِنِين﴾ فتاب عليه السلام من طلبه النظر إلى ربِّه، إذْ كان الكمال يدعوه إلى الأدب مع الله في مثل هذا المقام حتى يأذن الله له بمثل ذلك أو يعرض هو عليه.

وقد قصَّ الله علينا قصة هذه الحادثة في سورة [الأعراف: ٧].

فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ: رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ. قَالَ: لَنْ تَرَانِي، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي. فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً. فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾.

٣ ـ ومن هذا الباب كانت فيما يظهر توبةُ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فيما قصَّه الله عزَّ وجلَّ علينا في سورة [البقرة: ٢] بقوله:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾.

٤ ـ وَمِنْ هذا الباب استغفار الرسول ﷺ وتوبته.

فقد أمره الله عزَّ وجلَّ في سورة (النصر) بالاستغفار والتوبة فقال له: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾.

وثبت في الصحيح أنَّه كان يستغفر الله ويتوب إليه أكثر من سبعين مرَّة.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «وَاللهِ إنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّة».

وروى مسلمٌ عن الأغرِّ المزني قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا أَيُّها الناسُ تُوبُوا إِلَىٰ الله، فإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةً».

وقال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله في اليوم مِئَةَ مَرَّة».

إنَّه ليُغَانُ على قلبي: أصل الْغَيْنِ في اللُّغة الغيم، ويرادُ من الغينِ الذي يعتري القلوب، الحُجُبُ الرقيقة المعنويَّة التي تغشاها، فتجعلها تفتُر عن مراقبة الله وذكره، فيكون الاستغفار صارفاً لهذه الحجب التي تُشْبِه السحب، ويكون بمثابة جلاءٍ للقلوب، وعندئذٍ تستقبل القلوب أنوار الله دون أن يكون بينها وبينها حجب تحجُبها.

* * *

كيف تكون المقابلة بين توبة العبد إلى ربِّه وتوبة الله عليه:

تدلُّنا النصوص على أنَّ توبة الله على عبده في مقابل توبة العبد إلى ربِّه تكون وفق الوجوه التالية:

الوجه الأول: توبة العبد إلى ربِّه من الكفر بالإيمان والإسلام متى صحَّت واستوفت شروطها، تُقَابَلُ حتماً بتوبة الله عليه، فقد ثبت في الصحيح كما سبق أنَّ الإسلام يجبُّ ما قبله.

وهذا فضل من الله وكرم، ووعدٌ مقطوع به فلا إخلاف فيه، ويبدو أنَّ الغرض من ذلك تشجيع أهل الكفر على الإيمان والإسلام والدخول في زمرة المسلمين.

الوجه الثاني: توبة العصاة المؤمنين الذين يفعلون السوء بجهالة من الجهالات النفسية، التي تضعف معها إراداتهم، ثمَّ يتوبون من قريب، ويُصلحون نفوسهم وأعمالهم.

فهؤلاء قد وعدهم الله على توبتهم وعداً قاطعاً بأن يتوب عليهم، وجعل ذلك قضاءً قضى بـه سبحانه وتعالى على نفسه، إذْ كتب على نفسه الرحمة.

دلَّ على ذلك قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأنعام: ٦] خطاباً لرسوله ﷺ، وهي سورة مكيَّة:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)﴾.

فأبان الله في هذه الآية أنَّه كتب على نفسه الرحمة، أي: ألزم نفسه بها، وفرضها على نفسه عزَّ وجلَّ، وهذه الرحمة التي كتبها على نفسه، هي التوبة والمغفرة لمن عمل من المؤمنين سوءاً بجهالة ثُمَّ تاب من بَعْـدِهِ وأصلح.

فدلَّت هذه الآية على أنَّ التوبة التي فرضها الله عزَّ وجلَّ على نفسه، خاصةٌ بمن عمل بجهالة ذنباً ليس من الفواحش والكبائر الكبرى، إنما هو مما يُطلق عليه لفظ «سُوء» والشرط الثاني: أن يتوب من بعده. والشرط الثالث: أن يُصلح نفسه وعمله.

ثم أنزل الله عزَّ وجلَّ في العهد المدني قوله في سورة [النساء: ٤]:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧)﴾.

فأبان في هذه الآية أمرين فيهما تفصيل وإيضاح للمراد من الآية السابقة التي نزلت في العهد المكّي:

الأمر الأول: حصر الالتزام بتوبة الله على العصاة في هذا النوع من المعاصي، المستتبع بالتوبة من العبد إلى ربِّه.

الأمر الثاني: أنَّ التوبة التي تأتي بعد فعل السوء بجهالة شرطها أن تكون توبة من قريب، لا توبة بعد تهاون ومرور زمن طويل، فقوله عزَّ وجلَّ في آية [النساء]: ﴿ثمَّ يتوبون من قريب﴾ بيان للمراد من قوله في سورة [الأنعام]: ﴿ثم تاب من بعده﴾.

فبين النَّصّيْن تكامل في الدلالات.

الوجه الثالث: توبة العصاة المؤمنين من الكبائر، أو من غيرها مع عدم استيفاء شروط الوجه الثاني.

وقد أعطى الله عزَّ وجلَّ هؤلاء رجاءً بأن يتوب عليهم ويغفر لهم سيئاتهم، دون أن يجعل ذلك أمراً مقطوعاً به، أو أمراً من الأمور التي فرضها على نفسه عزَّ وجلَّ.

وقد دلَّ على هذا الوجه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [التحريم: ٦٦] وهي من أواخر التنزيل المدني:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)﴾.

تَوْبَةً نَصُوحاً: التوبة النَّصُوحُ هي التوبة الصادقة الخالصة، التي يعزم التائب فيها على أن لا يعود إلى الذنب.

ونَصُوح على وزن «فَعُول» من صيغ المبالغة، فنصُوح مبالغة ناصح، أو ناصحة.

وعرَّف الحسنُ التوبة النَّصوحَ بقوله: «هي ندمٌ بالقلب، واستغفار باللِّسان، وتركٌ بالجوارح، وعزْمٌ على أن لا يعود».

* * *

الملائكة تدعو للمؤمنين التائبين بالغفران والنجاة ودخول الجنة

ومن عظيم فضل الله عزَّ وجلَّ على المؤمنين التائبين أنَّه يسخِّر لهم حملة العرش من الملائكة، والذين حول العرش منهم، فيدعون الله لهم بأن يغفر لهم، ويقيهم عذاب الجحيم، ويدخلهم جنات عدن، ويَقِيَهُمْ السَّيِّئات.

دلّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [غافر: ٤٠]:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُوْنَ لِلَّذِينَ آمَنُوا: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيْمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّات عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيْمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾.

* * *

حال العصاة المؤمنين الذين لم يتوبوا من معاصيهم:

أمَّا العصاة من المؤمنين الَّذين لم يتوبوا من معاصيهم فهم وفق دلالات النصوص قسمان:

القسم الأول: عصاة مؤمنون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً، واعترفوا بذنوبهم، دون أن تكون منهم توبة واستقامة وإصلاح.

وهؤلاء لم يُعطهم الله عزَّ وجلَّ وعداً قاطعاً بأن يتوب عليهم ويغفر لهم، ولكن أعطاهم رجاء بذلك.

وقد دلَّ على هذا الرجاء قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [التوبة: ٩]:

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)﴾.

فأمر التوبة على عصاة هذا القسم متردِّد بين الخوف والرجاء، إذْ لم تكُنْ منهم توبةٌ صحيحة.

لكن يظهر أنَّه لا بدَّ أن يكون منهم استغفارٌ من ذنوبهم، وهو ما يدلُّ عليه ضمناً قول الله تعالى في الآية: ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ فالمعترف بذنبه يغلب من حاله أن يطلب من ربِّه العفو والغفران، ولو لم يكن منه مع استغفاره توبة وندم وعزم على عدم العودة إلى الذنب، ولذلك كثرت

النصوص التي تدعو المذنبين إلى أن يستغفروا ربَّهم.

وإذْ نتساءل: هل الرجاء بالغفران والعفو بالنسبة إلى أهل هذا القسم من العصاة هو الأرجح، أو توقُّع العقاب هو الأرجح؟.

فأفضل جواب يظهر لنا هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ عليم حكيم، يعلم ما في القلوب والنفوس، فيعطي كلَّ فردٍ ما يلائم واقع حال قلبه ونفسه، من مغفرة أو عقوبة.

ويرى جمهور العلماء أنَّ الخوف من العقاب ينبغي أن يكون هو الماثل في تصوُّر الذين ما زال لديهم أمل طويل في الحياة، وأنَّ الطمع بالغفران والعفو هو الذي ينبغي أن يكون الماثل في تصوُّر الذين يتوقَّعون قُرْبَ آجالهم، وأن شموس حيواتهم آذنت بالغروب.

القسم الثاني: عصاة مؤمنون أسرفوا جدًّاً على أنفسهم، ولم يتوبوا ولم يعترفوا بذنوبهم، لأنَّ أفكارهم ضائعة في أوحال المعصية، وإراداتهم مشتتة في عاتيات الأهواء.

ورجاء هؤلاء بالمغفرة والعفو ضعيف، ولكنه غير منقطع نهائيّاً، وتوقع العقوبة هو الأرجح بالنسبة إليهم.

وأهل هذا القسم قد بيَّن الله حالهم بقوله عزَّ وجلَّ في سورة [التوبة: ٩]:

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾.

مُرْجَوْن لأمر الله: أي: مؤخّرون لأمر الله، من الإرجاء وهو التأخير.

فهم مؤخَّرون لأمر الله عزَّ وجلَّ، والله بعلمه يحيط بما في قلوبهم ونفوسهم من خيْرٍ وشرّ، ويحيطُ بظُرُوفهم الاجتماعية، وبالأمور التي جعلتهم ينزلقون في المعصية، وهو بحكمته يضَعُ كلًّا من مغفرته وعقوبته في الموضع

الملائم، وهو عزَّ وجلَّ لا يظلم أحداً مثقال ذرَّة.

لكنَّ جانب فضله ورحمته عزَّ وجلَّ أرجح وأسبق في كلّ الأحوال من جانب عدله وسخطه.

* * *

لا يشترط في صحة التوبة عدم العودة إلى الذنب

اشترط بعض أهل العلم في صحة التوبة عدمَ عودة المذنب إلى ذنبه، لكنَّ الَّذي ثبت في الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنَّ الله عزَّ وجلَّ يغفر للعبد ذنبه إذا استغفر ربَّه، وإن كرَّر ذنبه واستغفاره، فإذا كان يغفر لطالبي الغفران، فلا بدَّ أنه يقبل توبة التائبين الصادقين في توبتهم، وإن نقضوا توبتهم بسقوطهم في الذنب، لأنَّ سقوطهم الثاني والثالث والرابع وهكذا أحداث جديدة طارئة، ولم يكن أثراً لإرادة مرافقة لتوبتهم، ولو كان كذلك لم تكن توبتهم صحيحة أصلاً، إذْ هي حينئذٍ توبة غير نصوح.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ عَبْداً أَذْنَبَ ذَنْباً فقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْهُ.

فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ به؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي.

ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبَاً، فقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْباً فَاغْفِرْهُ.

فقال ربّه: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ به؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي.

ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ أَذْنَبَ فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْباً فَاغْفِرْ لي.

فقال: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَفْعَلْ مَا شَاء».

وروى البخاريّ ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الْعَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ الله عَلَيْه».

* * *

نسبة التقابل بين توبة العبد إلى ربِّه وتوبة الله عليه

بين توبة العبد إلى ربِّه وتوبة الله عليه نسبة تشبه ما يكون بين الإنسان وظلِّه في المرآة.

فظلُّه في المرآة يبتعد عنه بمقدار ابتعاده عنها، ويقترب منه بمقدار اقترابه منها، إلاَّ أنَّ فضل الله ذو نسبة أكثر من حالة تقرُّب العبْدِ إلى ربِّه.

دلَّ على هذا ما جاء في الحديث القدسيّ الصحيح، عن أنس عن النبيّ ﷺ، فيما يرويه عن ربِّه عزَّ وجلَّ، قال:

«إذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعاً، وَإذَا تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً، وَإذَا أتاني يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

* * *

الَّذين لا تقبل توبتهم ولا يغفر لهم

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [آل عمران: ٣]:

﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيْمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)﴾.

ثمَّ أنزل الله عزَّ وجلَّ قوله في سورة [النساء: ٤]:

﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧)﴾.

ظاهر هاتين الآيتين يدلُّ على أنَّ المتلاعبين بالانتماء إلى الإسلام ثمَّ الارتداد عنه عدَّة مرَّات، وأنَّ الَّذين تتأرجَحُ إراداتهم بين الانتماء إلى الدين ثمَّ الارتداد عنه عدَّة مرَّات، لأنَّهم لا ثبات لإراداتهم، إذْ لا تعتمد على اقتناعٍ حقيقي بالانتماء، وإنما يتَّبعون العاطفة والهوى، لَا تقبل توبتُهم ولا

يغفر لهم بعد تكرُّر ذلك منهم عدَّة مرَّات.

فالانتماء إلى الدين لا يقبل التلاعب، ولا يقبل الإقبال إليه والارتداد عنه بحسب العاطفة أو الهوى، بل الانتماء إلى الدين إرادة جازمة ثابتة مبنيَّةٌ على اقتناع وصدق.

والدخول في الدين ثم الارتداد عنه، ثم الدخول فيه والارتداد عنه، عدَّة مرات، دليلٌ على الضلال واتباع الهوى والتأرجح مع العواطف، أو دليل على التلاعب بالدِّين، فالحكم الملائم لهم هو عدم قبول توبتهم، وعدم شمولهم بفضل الغفران.

وهذا الفهم مروي عن سيدنا علي رضي الله عنه، فقد روى ابن أبي حاتم من طريق جابر المعلَّى عن عامر الشعبي عن عليّ رضي الله عنه أنَّه قال: يستتاب المرتدّ ثلاثاً ثم تلا هذه الآية: ﴿إنَّ الذين آمنوا ثمَّ كفروا ثم آمنوا ثمَّ كفروا. . .﴾ الآية.

وعن ابن عباس بإسناد جيد رواه الحافظ أبو بكر البزَّار: «أنَّ قوماً أسلموا ثمَّ ارتَدُّوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا قومهم يسألون لهم، فذكروا لهم ذلك لرسول الله ﷺ، فنزل قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَروا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

لكنَّ جمهور المفسرين حملوا آيتي [آل عمران] و[النساء] على من استمرَّ على كفره حتى حضره الموت، فلن تقبل توبته حينئذ ولن يغفر له.

وأقول: إنَّ عدم قبول توبة من حضره الموت وعدمَ غفران ذنبه أمرٌ عامٌّ لكلِّ الكافرين، سواء تكرَّر منه الإيمان والارتداد أو لم يتكرَّر، وقد نزلت نصوص قرآنية غير هاتين الآيتين تبيِّن هذه الحقيقة، فالأصل حمل هاتين الآيتين على معنى آخر، والرأي ترجيح ما روي عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما في المراد منهما.

* * *

د ـ مِمَّا يستفاد من الحديث:

١ ـ الترغيب في التوبة من كلِّ الذنوب.

٢ ـ فرح الله عزَّ وجلَّ بتوبة عبده المؤمن المذنب أشدُّ من أشدِّ فرحٍ يفرحه الإِنسان في حياته الدنيا.

٣ ـ من الأساليب البيانية المقرِّرة والمقرِّبَة للمعاني غير المدركة بالحسِّ أسلوب التمثيل بما يحسُّه الناس في تجاربهم، أو بما يمكن أن يتخيَّلوا الإِحساس به.

٤ ـ لا يحاسَبُ الإِنسان على الأخطاء اللفظيَّة التي تَصْدُر عنه في الأحوال التي يَفْقِد فيها توازنه الفكري، ويكون فيها مضطرباً لا يدري ما ينطق به لسانه.

البَلاغة وَالإعـرَاب

أوّلاً: من وجوه البلاغة والصور البيانية

١ ـ التأكيد بالجملة الاسمية وبلام التأكيد في قوله «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن. . .».

والباعث على التأكيد أنَّ مضمون الخبر قضية مستغربة تجعل لدى المخاطبين حالة من الاستغراب تستدعي التأكيد.

٢ ـ تقريب الفكرة الغيبيَّة المراد التعبير عنها بالتشبيه التمثيلي الذي يتضمَّن مثلاً يُفْهِم مشاعرَ يعرفُها المخاطبون، أو يستطيعون تخيُّلها. وفي هذا التمثيل دقَّة في التصوير والأداء، ومتابعةٌ لأهمّ الدقائق المطابقة لما يُراد تقريبه بالمثل التشبيهي.

ثانياً: من الإعراب

١ ـ «لله أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ . . .».

«لله»: اللاَّم لام الابتداء للتأكيد: «الله» مبتدأ مرفوع. **«أشدُّ»** خبر المبتدأ مرفوع. **«فرحاً»** تمييز منصوب بالفتح الظاهر. **«بِتَوْبَةِ»** جار ومجرور متعلق بـ«فرحاً» وتوبة مضاف و«عبدِه» مضاف إليه **«المؤمن»** صفة مجرورة. «من رجل» جار ومجرور متعلق بـ«أشدّ».

٢ ـ «معه راحلته، عليها طعامه وشرابه» جملتان والخبر فيهما مقدم على المبتدأ. وهما صفتان لـ «رجل».

٣ ـ «فاستيقظ وعنده راحلته» جملة: «وعنده راحلته» في محل نصب على أنها حال، والخبر فيها ظرف مقدم على المبتدأ.

* * *

الحديث الرابع والعشرون

عن تَميم بْنِ أَوْسٍ الدَّاريّ رضي الله عنه، أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَة، الدِّيْنُ النَّصِيحَة».

قلنا: لِمَنْ يا رسولَ الله؟

قال: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ، وَعَامَّتِهِمْ».

رواه مسلم

أ ـ ترجمة (تَمِيم بن أَوْس) راوي الحديث:

١ ـ هو الصحابي أبو رُقَيَّة تميم بن أوس بن خارجة الدَّاري.

٢ ـ كان نصرانيّاً فأسلم سنة تسع للهجرة. روي في قصة إسلامه عنه رضي الله عنه ما يلي:

أخرج أبو نعيم عن تميم الداري قال:

(كنت بالشام حين بُعِث النبي ﷺ، فخرجتُ لبعض حاجتي، فأدركني اللَّيل، فقلت: أنا في جوار عظيم هذا الوادي اللَّيلة [على عـادة أهل الجاهلية من الاستجارة بالجنّ].

قال: فلمَّا أخذتُ مضجعي، إذ أنا بمنادٍ ينادي ـ لا أراه ـ: عُذْ بالله، فإنَّ الجنَّ لا تجير أحداً على الله.

فقلتُ: أيم الله تقول؟

فقال: قد خرج رسول الأميين رسول الله ﷺ، وصلَّيْنا خلفَهُ بالْحَجُون، فأسْلَمْنَا واتَّبَعْنَاهُ، وذهب كيد الجنِّ، ورُمِيَتْ بالشهب، فانْطلقِ إلى محمَّد رسول ربِّ العالمين فأسلم.

قال تميم: فلمَّا أصبحتُ ذهبتُ إلى دَيْرِ أيُّوب، فسألْتُ راهباً، وأخبرته الخبر.

فقال الراهب: قد صدقوك، يخرجُ من الحرم، ومُهاجرُه الحرم، وهو خير الأنبياء فلا تُسْبَق إليه.

قال تميم: فتكلَّفتُ الشخوص حتى جئتُ رسول الله ﷺ فأسلمتُ)[1].

٣ ـ كان كثير العبادة كثير التهجُّد، وكان يختم القرآن في ركعة، وربَّما ردَّدَ الآية الواحدة اللَّيل كلّه إلى الفجر.

قال محمد بن المنكدر: إنَّ تميماً الداري نام ليلة لم يقم يتهجَّد فيها حتَّى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للَّذي صنع.

٤ ـ كان أحد الأئمة الثلاثة الذين كانوا يؤمُّون المسلمين في صلاة التراويح عهد عمر رضي الله عنهما.

فكان أبيّ بن كعب، وتميم الداري، يقومان في مقام النبي ﷺ، يصلِّيان بالرِّجال قيام رمضان.

وكان سُلَيْمَانُ بن أبي حَثْمَةَ يقومُ بالنساء في رحبة المسجد.

٥ ـ كانت لتميم الداري كرامات مشهودة.

فقد أخرج أبو نعيم في الدلائل (ص ٢١٢) والبيهقي[2] عن معاوية بن حَرْمَل، قال:

(قدمتُ المدينة، فذهب بي تميم الداري إلى طعامه، فأكلتُ أكلاً شديداً، وما شبعتُ من شدَّة الجوع، فقد كنت أقمت في المسجد ثلاثاً لا أطعم شيئاً، فبينا نحن ذات يوم، إذ خرجت نارٌ بالحرَّة، فجاء عُمَر إلى تميم رضي الله عنهما فقال: قُمْ إلى هذه النار.

فقال: يا أمير المؤمنين، من أنا؟ وما أنا؟ (يقلِّل من قيمة نفسه).

فلم يزل به حتى قام معه.

---

(١) من حياة الصحابة ج ٣ ص ٥٧٦ نقلاً عن البداية (٢/ ٣٥٠).

(٢) من حياة الصحابة ج ٣ ص ٦٠٩ نقلاً عن البداية (١٥٣/٦).

قال معاوية بن حَرْمل: وتبعتهما، فانْطلقَا إلى النار، فجعل يَحُوشُها (أي: يجمعها) بيده هكذا حتَّى دخلت الشِّعب، ودخل تميم خلفها.

قال: وجعل عمر يقول: ليس من رأىٰ كمن لم يَرَا!!

٦ ـ سكن المدينة، ثمَّ انتقل منها إلى الشام بعد مقتل عثمان، وأقام بها إلى أن مات، قيل: وهو أوَّل من أسرج السِّرَاجَ في المسجد.

* * *

ب ـ اللُّغة والمعنى المراد:

١ ـ «الدِّينُ النصيحة»:

الدِّين: بكسر الدال يأتي في اللغة دالاًّ على عدَّة معانٍ، هي: الجزاء، والحساب، والطاعة، والخضوع، والذُّل، والتعبُّد، والعادة، والشأن والحال، والسلطان، والقَهْر، والورع، والإِخضاع، والإِذلال، والاستعباد، والحكْمُ والقضاء، والنظام والقانون المتَّبع.

والفعل منه دَانَ، فإذا استعمل متعدِّياً بنفسه كان فاعله الطَّرف الذي له الحكم والسلطان والقهر والمجازاة والمحاسبة والإِذلال والإِخضاع، والقضاء، إلى آخر المعاني، وإذا استعمل لازماً ويتعدَّى بحرف الجرِّ، كان فاعله الطرف الذي يقع عليه الحكم، والسلطان والقهر، والجزاء والحساب، ويكون منه الخضوع والذلُّ والطاعة والعبودية، وهكذا إلى سائر المعاني.

تقول من الأول: دَانَهُ يَدِينه، إذا أخضعه، أو أذلَّه أو استعبده، أو حاسبه، أو قضى أو حكم له أو عليه، أو قهره، أو كان له عليه سلطان، ومنه قول الرسول ﷺ في الحديث:
«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموت» أي: أخضعها وطوَّعها وحاسبها.

وتقول من الثاني: دانَ لهُ، إذا خضع له، أو ذلَّ، أو أطاع، أو تعبَّد،

ومنه قول الرسول ﷺ لعمِّه أبي طالب: «أُرِيدُ مِنْ قُرَيشٍ كلمةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَب» أي: تُطيعهم وتخضع لهم.

ومن الأوَّل والثاني معاً قول قائلهم: دِنْتُهُمْ فَدَانُوا. أي: قهرتهم فأطاعوا. وهكذا إلى سائر المعاني.

فالدِّين اسم دالٌّ على كلّ ذلك. ولمَّا كانت أحكام الله الابتلائية والتكليفية والجزائية تدور حول معاني القضاء والحكم والسلطان والإخضاع والقهر والمجازاة والمحاسبة، ونحو ذلك، كان من الملائم أن يطلق عليها لفظ الدين. ولمَّا كان خضوع العباد وطاعتهم وتعبُّدهم لأحكام الله وسلطانه وقهره، ونحو ذلك، من المعاني الداخلة تحت مفهوم دَانَ له، كان من الملائم أن يطلق عليها لفظ الدِّين.

لذلك أخذ لفظ «الدِّين» كلّ المعاني التي توجبها العلاقة بين الله وعباده المختارين من خلقه.

فالدين عند الله هو الإسلام الشامل لعناصر القاعدة الإيمانية ومفاهيمها، ولأحكام شريعته في أوامرِها ونواهيها ووصاياها ومواعظها وآدابها وأخلاقها، ولقواعد الحساب والجزاء.

والدين من طرف العبد المكلَّف هو الإيمان بالقاعدة الإيمانية ومفاهيمها، والإسلامُ لله بمعنى الاستسلام والطاعة والخضوع له، وعبادته والإخلاص له، والتسليم لأحكامه ومقاديره والالتجاء إليه وحده، وتوحيده في ربوبيته وإلَهيَّته، فلا يشرك العبد بربوبيته أحداً، ولا يشرك في عبادته أحداً.

النَّصيحة: هي إعطاءُ أو معاملة الناصح غيره بأحسن ما هو له من حقٍّ أو واجب، أو أحسن ما يطلبه، أو ينفعه، أو يُصلحه.

ويكون ذلك بخلوص ما يقدِّمه، أو يجريه من تعامل، من غشٍّ، أو نقص، أو عيب، دون بيان، أو مخالفة للمطلوب، أو لمقتضى الحقِّ أو الواجب، ونحو ذلك.

والنصيحة تشمل كلَّ ما فيه إرادة الخير للمنصوح.

تقول لغة: نصحَ الشيءُ، إذا خلص من الشوائب. والناصح هو الخالص من العسل وغيره، وهو الذي لم يخالطه ما يكون به مغشوشاً. فالنُّصح ضدَّ الغش.

وفعل «نَصَحَ» يُستعملُ متعدِّياً بنفسه، فتقول: نَصَحَه، ويستعمل متعدِّياً باللام فتقول: نصحَ له، وتعديته باللاَّم أفصح، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأعراف: ٧] حكاية لمقالة صالح عليه السلام لقومه:

﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِيْنَ (٧٩)﴾.

وفعل «نَصَحَ» من باب «فَتَحَ» تَقول: نَصَحَ يَنْصَحُ نَصْحاً ونُصْحاً وَنَصَاحَةً وَنَصِيحَةً ونِصَاحَةً وَنَصَاحِيَةً ونُصُوحاً.

والاسم: النصيحة.

فالنصيحة كلمة عامَّةٌ شاملة، وهي تختلفُ في تطبيقاتها بحسب الأمر الذي يُطلبُ فيه النُّصح.

فنصيحة التاجر تكون ببيان صفات ما يَعْرِض من بضاعةٍ بصدقٍ كامل، فيُبَيِّن ما فيها من جَوْدةٍ وَرَداءة، ونفع وغيره، ورواجٍ وكساد، وكلٍّ ما ينفع راغب الشراء بيانُه، من صلاح ونفع وخلاف ذلك.

ونصيحة الصانع تكون بأن يقدِّم أفضل ما يستطيع من صنعة دون غش ولا خيانة.

ونصيحة المستشار تكون بأن يقدّم أحسن ما يرى من مشورة يكون بها نفع ومصلحة لمن استشاره.

ونصيحة الطبيب تكون ببذل كامل جَهدِهِ لمعرفة العلَّة، ووصف الدواء الذي يراه أكثر نفعاً وملاءمةً لحال المريض.

ونصيحة المعلِّم تكون ببذل غاية وُسْعِه في تعليم من يُعلِّمه، وباختيار أفضل وجوه التعليم، وأحسن ما يفيده من مسائل العلم وصنوفه.

ونصيحةُ المربِّي تكون بتربية من يُشرفُ على تربيته على أحسن وجه وأفضله وأكمله، لإبلاغه الغاية المرجوَّة من تربيته.

ونصيحة وليّ الأمر وكلّ راعٍ في رعيته تكون بابتغاء أفضل وجوه الخير لرعيته، وسياستهم على أحسن وجه يُصلحهم، وعدم غشّهم في شيء، وعدم استخدام الولاية لصالح نفسه وشهواته وأهوائه.

ونصيحة الرَّعيَّة لوُلَاة الأمر تكون بطاعتهم فيما لا معصية لله والرسول فيه، وبإبْداء المشورة الحسنة في مختلف الأمور الإداريَّة والسياسية، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ونصيحة العلماء للناس ولوُلاة الأمر تكون ببيان أحكام دين الله، والمطالبة بتطبيقها والعمل بها، واتِّباع كتاب الله وسنة رسوله، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ونصيحة المسلمين لغيرهم تكون بدعوتهم إلى دين الله، بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

ونصيحة المسلم لربِّه تكون بالإيمان به، وبطاعته في أوامره ونواهيه، وبالإخلاص له في الطاعة والعبادة، وذلك بأن لا يشرك في عبادته أحداً، ولا يكون مرائياً، وتكون بذكره والتسبيح له ومراقبته ومحبته.

ونصيحة المسلم لكتاب الله تكون بالإيمان به، وبتدبُّره وتفهُّم معانيه، والعمل بأحكامه ووصاياه، واتباع ما جاء فيه.

ونصيحة المسلم لرسول الله ﷺ تكون بالإيمان به، وتفهُّم أقواله وأعماله وأخلاقه وسيرته، واتِّباع أوامره ونواهيه، والعمل بسنته واتباعها، وبصدق الانتصار والولاء له، وبمحبَّتِهِ والصلاة عليه. ونُصْحُ صحابته له في

حال حياته تزيد على ما ذُكر بتعهُّد مجالِسِه، والتأدُّب معه، وسؤاله عن أمور دينهم، وتقديم أحسن ما يرون من مشورة له، في أمور السلم والحرب، إلى غير ذلك ممَّا يطلب فيه النصح.

وهكذا إلى كلّ أمْرٍ يمكن أن يدخُل فيه نُصح أو غشّ، وتجويد وإصلاح، أو إساءة وإفساد، واجتهاد، أو تهاون، ونحو ذلك.

٢ ـ «وَلأَئمَّة المسلمين وَعَامَّتِهِمْ»:

ولأئمة المسلمين: الأئمة جمع إمام. وهو كلّ من ائتَمَّ به قومٌ، وهو الرئيس والقائد، وكلّ ذي سلطان على جماعة من الناس هو إمام لهم، لأنهم يأتمُّون به، أي: يقتدون.

وعامَّتهم: هم من عدا الأئمة، أي: سائر الناس وباقيهم بعد أئمتهم. والعامَّة في اللُّغة خلاف الخاصة، ومعروف أنَّ الخاصة هم من لهم خصوصية عند الرجل، فيكون من عداهم عامَّةً بالنسبة إليه.

النَّصح لله والرسول مقدور عليه ولو في حالة عجز المكلَّف عن بعض الأعمال:

ويلاحظ أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أعفى أهل الأعذار من الخروج إلى القتال في سبيل الله، بمناسبة دعوة الرسول ﷺ أصحابه إلى الخروج إلى غزوة تبوك، لكنَّه عزَّ وجلَّ لم يُعْفهم من شرط النُّصح لله ورَسوله، وهو التزام ما يقدرون عليه ممَّا كُلِّفوه، بفعل ما أمرهم الله ورسوله به، وترك ما نهاهم الله ورسوله عنه، ومن النصح أمور جهادية كثيرة يستطيعونها ولو لم يخرجوا إلى القتال.

فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة [التوبة: ٩]:

﴿لَيْسَ على الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَىٰ الْمَرْضَىٰ وَلاَ عَلَىٰ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. مَا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١)﴾.

جـ ـ الشرح العام:

ـ ١ ـ

مع الحديث في الشرح

عرفنا خلال شرح المفردات اللغوية وبيان المراد منها، أنَّ النصيحة هي صدق المعاملة وإخلاصُها وصفاؤها من الشوائب وبراءتُها من كلِّ غش، تُجاه كلِّ جهة يقضي الحقُّ أو الواجب بالتعامل معها، أو تدعو الحاجة أو المصلحة أو الأخلاق أو الآداب إلى التعامل معها.

والصدق والإخلاص وصفاء المعاملة من الشوائب، وبراءتُها من كلِّ غشٍّ، أمورٌ تشمل كلَّ حركة إراديَّة للإنسان، في السلوك الظاهر، أو السلوك الباطن، وهي الحركات الإرادية الداخلية، في الفكر، والنفس، والقلب، فتشمل النيَّات والغايات من الأعمال.

وجهات التعامل تبدأ بالتعامل تجاه الربِّ الخالق عزَّ وجلَّ، وما أنزل من وحي وما بعث من رسول.

ثم بالتعامل مع من تقتضي حركة الحياة أن يجري تعامل معه، بأي وجه من وجوه التعامل، فهو يشمل أئمة المسلمين وعامَّتهم، وتنقسم العامَّة إلى أقسامها الطبيعية، بَدْءاً من الأسرة، بالتعامل مع الأصول والفروع والأزواج وحواشي النسب، ثم الأقرب فالأقرب من مُشَارِكٍ في عرق، أو مُسَاكِن في وطن.

فالتعامل مع الله بالنصيحة، أي: بالصدق، والإخلاص، والصفاء من الشوائب، والبراءة من الغش، يكون بالإيمان به حقّاً، وبطاعته وعبادته حقاً وصدقاً وإخلاصاً، وبمحبته ودعائه والخضوع له والتقرُّب إليه بمراضيه.

والتعامل مع ما أنزل الله من وحي بالنصيحة، أي: بالصدق، والإخلاص، والصفاء من الشوائب، والبراءة من الغش، يكون بالإيمان به

حقًّا وصدقاً، وبتعهده تلاوة، وبتدبُّره لتفهم معانيه كما يجب أن يكون التدبُّر دون أن يتأثر بهوى أو شهوة أو استجابة لذي سلطان، أو زيغ في الرأي أو في النفس، أو جنوح في العاطفة، أو اتِّباع لوساوس شياطين الإنس والجنِّ.

والتعامل مع الرسول ﷺ بالنَّصيحة، أي: بالصدق والإخلاص، والصفاء من الشوائب، والبراءة من الغش، يكون بالإيمان به حقاً وصدقاً دون رياء أو نفاق، وبمحبته، وبطاعته، وباتِّباع سنَّته، وبتحكيمه في كلِّ ما شجرَ، وبنصرته وموالاته، وموالاة من والاه، وبمعاداة أعدائه، وبالصلاة والسَّلام عليه، ﷺ. والتعامل مع أئمة المسلمين بالنصيحة، أي بالصدق، والإخلاص، والصفاء من الشوائب، والبراءة من الغش، يكون بطاعتهم في غير معصية الله ورسوله، وبتقديم المشورة الحسنة لهم، وبمناصرتهم ومعاونتهم على إقامة حدود الله ونشر دينه، وبأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ونحو ذلك، مع تجنُّب كلِّ مكرٍ بهم، وكيدٍ ضدَّهم.

أمَّا التعامل مع عامة المسلمين بالنصيحة، أي: بالصدق والإخلاص، والصفاء من الشوائب، والبراءة من الغش، فيكون مع كلِّ دائرة من دوائرهم بحسبها، ومع كلِّ نوع من أنواع التعامل بحسبه.

فالتعامل مع أفراد الأسرة له قدر من النصيحة يتلاءم مع وجوه العلائق بين أفرادها.

والتعامل مع أفراد القبيلة له قدر من النصيحة يتلاءم مع وجوه العلائق بين أفرادها.

كذلك التعامل مع الجيران، وأهل الحيِّ الواحد، وأهل القرية والمدينة، له مقادير من النصيحة تتلاءم مع وجوه العلائق.

ثم يأتي التعامل في حدود أنواع التعامل بين الناس، في البيوع وفي العقود، وفي العهود، وفي أمور مصالح المسلمين العامة والخاصة، وفي التعليم، وفي التعاون على البرِّ والتقوى، إلى غير ذلك ممَّا يصعب حصره.

فنصيحة البائع تكون في السلعة، وفي البيان حولها، وفي السِّعر.

ونصيحة الشاري تكون في الثمن، وفي بيان كلِّ ما فيه، ومن لا نصيحة عنده في بيعه أو شرائه فلا دين له في تعامله ذلك.

ونصيحة الخاطب تكون ببيان كلّ ما يُهم من يخطبها معرفته من صفات خفيَّة له، ونصيحة المخطوبة تكون ببيان كلّ ما يُهِم الخاطبَ معرفته من صفات خفية لها. فمن كتم عيوبه منهما ولم يبيِّنها كان غاشاً غير ناصح، ومن كان كذلك فلا دِين له في تعامله ذلك.

والمستشار مستأمن، ونصيحته تكون بأن يقدِّم لمن استشاره أفضل ما يرى من رأي وتجربة وخبرة، فإن أشار عليه بخلاف ذلك كان خائناً وغاشاً غير ناصح، ومن كان كذلك في المشورة كان غير ذي دِين في تعامله ذلك.

والمعلِّم مستأمن على من يُعلّمه، ونصيحتُه تكون بأن يعطي من العلم أصوبه وأنفعه مما يعلم، وبأن يبذل غاية جَهْدِه في التعليم والتفهيم، فإن فعل خلاف ذلك كان مقصِّراً أو غاشًّاً غير ناصح، ومن كان كذلك في التعليم كان غير ذي دين في تعامله ذلك.

والمستأمن على مالٍ أو متاعٍ وديعةً عنده مُطَالبٌ بأن يكون ناصحاً، ونصيحته تكون بوضع ما استؤمن عليه في حرز مثله، وبأن يرعاه ويحفظه كما يرعى أمواله الخاصة به، فإن هو تهاون فلم يرع ولم يحفظ الوديعة التي عنده، فتعرَّضت للسرقة أو التلف لم يكن ناصحاً، ومن كان أمره كذلك في الودائع التي يستأمن عليها كان غير ذي دين في تعامله ذلك.

والطبيب مستأمن على حياة وصحة من يعالجهم من المرضى، وهو مطالب بأن يكون ناصحاً، ونصيحته تكون ببذل غاية جَهْدِه لكشفِ الدَّاء، ووصفِ الدواء الملائم الذي يراه أحسن العلاجات وأبعدها عن الضرِّ والأذى، وبأن لا يستغلَّ ضرورة المريض لابتزاز أمواله بغير حقّ، وذلك بإعطائه الأدوية والعلاجات الضارَّة أو التي لا نفع فيها، ليستفيد أجر مراجعته له مرَّات متعدِّدات، أو بأن يُجْرِي له عمليَّات جراحيَّة لا لزوم لها، ليبتزَّ منه أجور هذه العمليَّات، مع الغبن الفاحش، بُغيَة الثراء السريع على حساب

صحة المرضىٰ، فمن فعل ذلك كان غاشاً غير ناصح، ومن كان شأنه كذلك في طبابته كان غير ذي دين في تعامله ذلك.

ومن صلَّى أو زكَّى أو حجَّ أو جاهد أو فعل أيّ فعل من العبادات والطاعات ووجوه الخير، مراءآة للناس، أو نفاقاً للمسلمين، فهو غير ناصح، لأنه غير صادق وغير مخلص لله في عمله، وهو إما مراءٍ أو منافق، ومن كان كذلك فهو غير ذي دين.

ومن تظاهر بالعفَّة وهو في سرِّه غير عفيف، فهو غير ناصح لله ورسوله، ومن كان كذلك فهو غير ذي دين في مجال العفة.

ومن اغتاب فآذى أخاً مسلماً في الحديث عنه بما يكره، فهو غير ناصح لأخيه المسلم، ومن كان كذلك فهو غير ذي دين في تعامله الاجتماعي مع المسلمين.

وكذلك من كذب، أو نمَّ، أو أفسد بين الناس، أو سخر، أو استهزأ بأحدٍ من المسلمين، أو شتم مسلماً بغير حق، أو قذفه، أو عيَّره، أو نَبَزَه بما يكره من ألقاب، أو آذاه أو أضرَّ به، في نفسه، أو ماله، أو عرضه، هو غير ناصح لعامة المسلمين، ومن كان كذلك كان غير ذي دين في مجال تعامله مع الناس.

وهكذا إلى سائر وجوه التعامل، نلاحظ أن الدِّين الحقَّ الصادق ملازم للنصيحة، وأهمُّ كلّ ذلك ابتغاء مرضاة الله في الأقوال والأفعال وحركات القلب والنفس والفكر الإرادية، فالدين فيها يكون بابتغاء مرضاة الله منها، وبالتزام أوامر الله ونواهيه، وبطاعة الله في ذلك، والنصيحة فيها تكون بابتغاء مرضاة الله منها، وبالتزام أوامر الله ونواهيه، وبطاعته عزَّ وجلَّ في ذلك.

وكلَّما أجرينا مقارنة بين النصيحة وفق المفهوم الذي وضح لنا من شرحها، وبين مفهوم الدين الحقّ، وجدنا أنَّه حيثما وجد الدين وُجدت النصيحة، وحيثما ارتفعت النصيحة ارتفع الدين.

فلا عجب أن يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي نتفهمه ونشرحه: «الدِّينُ النصيحة».

فيجعل الدين منحصراً بالنصيحة، وهذا الحصر آتٍ من تعريف طرفي الإسناد: (المبتدأ والخبر).

ـ ٢ ـ

نُصح الرُّسل لأممهم

١ ـ دعا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله، وأبان لهم حرصه على مصلحتهم، وأنَّه يخاف عليهم عذاب يَوْم عظيم، وأنَّه يبلِّغهم رسالة ربِّه وينصح لهم، فهو فيما يدعوهم إليه مُبلِّغٌ عن ربِّه، وناصح لهم، فدعوةُ الخلق إلى الحقِّ من أعظم النصيحة.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأعراف: ٧]:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ: إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ: يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)﴾.

فقد اتَّهمه قومه بأنه ضالّ جاهل مخرِّف، فأبان لهم أنه يبلغ رسالة ربِّه وينصح لهم، وعنده من الله علم لا يعلمونه.

٢ ـ كذلك قال هودٌ عليه السلام لقومه: «عاد» وأكَّد لهم أنَّه ناصحُ أمين.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة [الأعراف: ٧]:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا

لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِيْنَ (٦٦) قَالَ: يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)﴾.

فقد اتَّهمه الكافرون من ملأ قومه وهم وجوههم وأعيانهم بأنَّه في سفاهة، أي: هو ناقص العقل غير قادر على فهم حقائق الأمور. فأجابهم على اتهامهم له بمجرَّدِ النفي: «ليس بي سفاهة» وعلَّل لهم أخبار الغيوب التي يخبرهم بها والتي من أجلها اتَّهموه بنقص العقل، بأنَّها بلاغات يبلغها عن ربّه الذي أرسله لهم، فهي ليست من عنده، ثم أكَّد لهم أنَّه لهم ناصح أمين.

فالدعوة إلى الحق والنَّجاة من النصيحة، وإبْلاَغُ الرسالة وفق التحمُّل من الأمانة.

٣ ـ كذلك قال صالح عليه السلام لقومه «ثمود».

قال الله عزَّ وجلَّ بشأنه بعد عرض قصته مع قومه في سورة [الأعراف: ٧]:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ: يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِيْنَ (٧٩)﴾.

٤ ـ وكذلك قال شعيب عليه السلام لقومه أهل «مدين».

قال الله عزَّ وجلَّ بشأنه بعد عرض قصته مع قومه في سورة [الأعراف: ٧]:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ: يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِيْنَ (٩٣)﴾.

ـ ٣ ـ

مع نصوص من السنة في النصيحة

١ ـ عن حذيفة بن اليمان، عن النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ لاَ يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِيْنَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ لَم يُمْسِ وَيُصْبِحْ نَاصِحاً للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلإِمَامِهِ وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ».

أخرجه الطبراني

٢ ـ وعن أبي أُمَامَةَ، عن النبي ﷺ قال:
«قَالَ الله عزَّ وجلَّ: أَحَبُّ مَا تَعَبَّدَنِي بِهِ عَبْدِي النُّصْحُ لِي».

أخرجه الإمام أحمد

أي: صدقُ العمل والإخلاصُ لله فيه مع التزام ما شرع.

٣ ـ وعن جَرِير بن عبدالله البَجَلِي قال:

(بايَعْتُ النبيَّ ﷺ على إقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ).

رواه البخاري ومسلم

فدلَّ هذا الحديث على اهتمام الرسول بالنُّصح لكلِّ مسلم، لذلك أدخله في عناصر ما يبايع أصحابه عليه في بعض أحواله.

٤ ـ وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَشَمِّتْهُ، وإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

رواه مسلم

٥ ـ وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الله يَرضَىٰ لَكُمْ ثَلاَثاً: يَرْضَىٰ لَكُم أَنْ تَعْبُدُوه وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ الله أَمْرَكُمْ».

رواه مسلم

٦ ـ وعن مَعْقِل بن يَسَار قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

رواه البخاري ومسلم

وفي رواية لمسلم:

«مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أُمُورَ الْمُسْلِمِيْنَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ، وَيَنْصَحُ لَهُمْ، إلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ».

* * *

د ـ ممَّا يستفاد من الحديث:

١ ـ النصيحة من أسس أخلاق الإسلام الكبرى، فهي تساوي في مفهومها الواسع الشامل مفهوم الدين.

٢ ـ الحديث من جوامع كِلَم الرسول ﷺ.

٣ ـ تشمل النصيحة كُلَّ أنواع السلوك الإرادي للإنسان، سواءٌ أكان داخليّاً أو خارجيّاً، فيدخل فيها الإيمان والإخلاص، والأخلاق النفسية، وكلّ أنواع العبادات والطاعات.

البَلاغة وَالإعـرَاب

أولاً: من وجوه البلاغة والبيان

١ ـ الإيجاز في التعبير، إلى أقصى حدود الإيجاز مع عدم الإخلال بالمعنى.

فقد عرَّف الرسول ﷺ الدين بأنَّه النصيحة، فمن استبصر بمفهوم النصيحة الشامل أدرك مطابقة الدين بمفهومه الواسع للنصيحة بمفهومها الشامل.

٢ ـ في قول الرسول: «الدين النصيحة» قصر، وهو مستفاد من تعريف المبتدأ بأداة التعريف (أل) ومن تعريف الخبر أيضاً بأداة التعريف (أل) وهما طرفا الإسناد، وهو من قصر موصوف على صفة.

٣ ـ في الحديث استخدام أسلوب تقديم الفكرة المستغربة البعيدة عن أذهان المخاطبين، مع أنها لدى التحليل حقٌّ لا ريب فيه، لاستدعاء تساؤلات المخاطبين، ولذلك سألوا، وأجابهم الرسول ﷺ.

وفي هذا الأسلوب من تمكين مضمون البيان في عقول المخاطبين ونفوسهم، ما لا يوجد نظيره فيما لو جاء شرح المضمون منذ البداية.

ثانياً: الإعراب

١ ـ **«الدينُ النصيحة»**: مبتدأ وخبر.

٢ ـ **«قُلنَا: لِمَنْ»**: **لِمَنْ**: جار ومجرور متعلق بفعل (قلنا) على أنه مقول القول ونظيره: «قال: لله ولكتابه ولرسوله...».

الحديث الخامس والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ واخْتِلَافُهُمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ».

رواه مسلم

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال:

«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُؤَالُهُمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

رواه البخاري

وفي رواية عند مسلم: «ذَرُونِي» بدل: «دَعُونِي»، وفيها وهي عن أبي هريرة أيضاً، قال خطبنا رسول الله ﷺ فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ الله عَلَيْكُمُ الْحجَّ فَحُجُّوا» فقال رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ حَتَّىٰ قَالَهَا ثَلَاثاً، فَقَالَ رَسُولُ الله: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ» ثم قال: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ...» إلى آخر الحديث.